نفحات الرحمن
في
رياض القرآن

تأليف الشيخ

محمد بن ابراهيم سعيد كعباش

الجزء السادس

نشر جمعية النهضة
العطف - غرداية - الجزائر

نفحات الرحمن

في رياض القرآن

تأليف فضيلة الشيخ

محمد بن إبراهيم سعيد كعباش

الجزء السادس

نشر جمعية النهضة

العطف-غرداية-الجزائر

طبع : المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد غرداية

تخريج الأحاديث، الفهرسة والتنسيق الفني:

أ. قاسم بن عمر حاج امحمد

أ. عبد الله بن موسى ابن عيسى

حقوق الطبع محفوظة

1428هـ/ 2007م

طبع :المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد - غرداية

الهاتف / فاكس : 53 .36 .88 (029)

المنطقة الصناعية : 34 .34 .87 (029)

الإيداع القانوني رقم 2007 / 350

ردمك: I.S.B.N: 978-9961-787-93-9-

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

(سورة ص: آية 29)

صدق الله العظيم

استغلال الأحبار والرّهبان للنّاس في معاملاتهم

أ)- النص:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾: ورد التّعبير بالأكل للأموال كثيرا واستعارة الأكل للمال لأنه أهمّ حالات الانتفاع. ﴿بالْبَاطِل﴾: الباء للملابسة. والباطل: أي بطرق غير شرعية. ولذلك أوجه كثيرة: كالرّشوة، والقمار، وكل أنواع الغش والتّزوير في المعاملة. ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾: يتمثل الصدّ في كل محاولة لافتنان النّاس وإغرائهم للإعراض عن دين الله والتماس رضاه. ﴿يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾: الكنز بفتح الكاف مصدر كنز. وهو خزن الأموال وادّخارها ومنع استثمارها وإخراج حق الله فيها. والفضة والذّهب: معدنان نفيسان هما أصل الأموال المتداولة إذ كانت الدّول قديما تسكّ الدّينار بالذّهب والدّرهم بالفضة. ﴿وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾: التّعبير عام يتناول كل سبل الإنفاق وكل أنواع الصّدقات واجبة كانت أم مندوبة. ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: يقصد بالتّبشير إخبارهم بذلك على سبيل التهكم. ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾: الكيّ هو إحراق الجلد بجمر أو شيء ملتهب. وذكر تلك الأجزاء من الجسد يعني

تعميم الجسد كلّه بالكيّ. ﴿فَذُوقُواْ﴾: والذّوق مجاز للإحساس بالألم.

ج)- البيان والتّفسير:

استئنافا لبيان نقائص أهل الكتاب وتحقيرهم في نفوس المسلمين، أعقب الله وصفهم بالتّكبّر والاستعلاء إلى درجة ادّعاء الرّبوبية، أعقب ذلك بوصفهم هنا بالطّمع والبخل وأكل أموال النّاس بالباطل جمعا بين وضاعة عامّة أهل الكتاب باستخذائهم لرؤسائهم وبين حقارة خاصّتهم بتأثّل الأموال في خسّة ودناءة، وكنزها في حرص ولهفة فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الاَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَاكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

افتتح الله هذا الإخبار بالنّداء الإيماني، على ما بين الوصفين لأهل الكتاب من التّناسب والاتصال ثم أكّد الخبر بـــ"إن" مبالغة واهتماما بمضمونه حتى يحذر المسلمون من الوقوع في ما وقع فيه أهل الكتاب، وتمشّيا مع أخلاقيات الدّعوة في أسلوب القرآن الحكيم قيّد الوصف للأحبار والرّهبان بالكثير تحرّزا من بعض صلحائهم ممن لا يفعل ذلك. واستعار الأكل لمختلف انتفاعاتهم بتلك الأموال التي يتأثلونها؛ لأن الأكل هو الضّرورة الملحّة لبقاء الإنسان وهو السّبب الرّئيسي في إنفاق الأموال، وإضافة الأموال إلى النّاس ثم جعل أكلها ملابسا للباطل، لبيان أن ذلك سحت وظلم، لأنهم لا يملكون فيها أيّ حقّ شرعيّ.

وأوجه الباطل والظّلم في أكل أموال النّاس قد فصّلها القرآن الكريم تفصيلا محكمًا في أحكام المعاملات المختلفة، مما يضمن تداول الأموال بالطّرق الشّرعية، وناهيك بهذا الوصف تقريعا وتشنيعا بعلماء اليهود والنّصارى إذ المفروض أن يكونوا قدوة صالحة لعامّتهم في هذا المجال، وقد جمع الله لهم خسيستين بهذا المعنى في سورة المائدة فقال تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ ٤٢١، ، الأمثلة

على ذلك كثيرة في القرآن الكريم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ﴾، وسبيل الله هو دينه الصّحيح وصراطه المستقيم إنْ في ما بيّنته كتبهم من أحكام شريعتهم قبل تحريفها وتبديلها، أو ما جاء في رسالة الإسلام، فالأسلاف والأخلاف في ذلك سواء، لأن صدّهم لعامّتهم عن سبيل الله هو الوسيلة النّاجعة لاستبقاء نفوذهم وسيطرتهم جمعا بين المال والجاه، وهما الدّعامتان الأساسيتان لزينة الدّنيا ومتاعها. ثم وصفهم الله تعالى بخسيسة أخرى تتولّد عن الحرص والشّغف بالمال فقال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**.

عطفت الجملة ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ على التي قبلها لوجه المناسبة بينهما، ذلك لأن كلاً من الجاه والمال وسيلة لرفعة المنزلة الاجتماعية لمن حظي بواحدة منهما أو بكليتهما، وهما نعمتان لا يؤدّي حقّهما كثير من النّاس. والتّعبير بالموصول في الآية عوضا عن الضّمير "هم"، وتكون للموصول احتمالات كثيرة في المراد منه، أهم قوم معهودون كأهل الكتاب أو المسلمين؟، أم هو عامّ يراد به كلّ من كنز المال و لم يؤدّ منه الحقوق الشّرعية الواجبة؟.

وعلى تلك الاحتمالات الثّلاثة اختلف المفسّرون في المراد بهؤلاء، ويذكر الرّواة أن السّورة نزلت بعد غزوة "تبوك" بما فيها هذه الآية الكريمة، فليس بعيدا أن الذين بخلوا بأموالهم للإنفاق في هذه الغزوة من المنافقين يكونون مستهدفين بهذا الوعيد. وبما أن العبرة بعموم اللّفظ فإن الوعيد يشمل كلّ من يكنز الأموال ويبخل بها.

وللفقهاء خلاف في تحديد معنى "الكنز" أهو مطلق جمع المال وحبسه عن الإنفاق كما ذهب إلى ذلك أبو ذرّ الغفاريّ ﷺ، أم هو المال الذي لم يؤدّ فيه حق

فقال: هو المال الذي لا تؤدّى منه الزّكاة. كما وردت أحاديث كثيرة يتجه معناها إلى تحذير المسلمين من فتنة الذّهب والفضة وكنـزهما، تسندها السّنة العملية لرسول الله ﷺ في الإسراع إلى توزيع كلّ ما يقع بين يديه من أموال الغنائم وفي عيشته الزّهيدة طيلة حياته، ولكنه ﷺ لم يمنع النّاس من التّمتع بزينة الله التي أخرج لعباده والطّيبات من الرّزق.

وحين اضطرب فهم المسلمين لمعنى هذه الآية لم يتركهم حيارى بل قال لهم: «**إن الله لم يفرض الزّكاة إلا ليطيّب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض المواريث عن أموال تبقى بعدكم**». ثم قال للراوي عمر ﷺ: «**ألا أخبرك بخير ما يكتزه؟ المرأة الصّالحة، إذا نظر إليها الرّجل سرّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته**».[(١)]

وفي التّرغيب عن فتنة الدّنيا ومتعها قال لأصحابه ذات يوم: «**تبّا للذهب والفضة**». فقال الصّحابة: يا رسول الله: فأي المال نتخذ؟ قال: «**لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا، وزوجة تعين أحدكم على دينه**».[(٢)]

ثم توعّد الله الكانزين البخلاء فقال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، استعملت البشارة في غير حقيقتها من التّبشير بالخير للدّلالة على التّهكّم والتّحقير. والخطاب للرسول على اعتباره بشيرا ونذيرا من الله تعالى، ثم بيّن نوع ذلك الـ ب المتوعّد به فقال: **﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾**.

١- رواه الحاكم من حديث ابن عباس، رقم ٣٢٨١ وقال :صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ورواه أبو داود في السنن من حديثه أيضا، كتاب الزكاة، باب في حقوق المال، رقم ١٦٦٤.

٢- رواه أحمد في المسند، رقم ٢٣١٥٠، (٣٦٦/٥)؛ ورواه الطبراني في المعجم الصغير من حديث

عذاب جهنم -والعياذ بالله- وأنواعه وكيفيته قد بيّنته بعض الآيات، كما بيّنته السّنة المطهّرة، وتلك الأخبار من الأمور الغيبية التي لا يعلم حقيقتها إلا الله، وغالبا ما تكون عذاباتها وآلامها كفاء لجنس العمل والذّنب المقترف، وذلك أوْقَعُ في النّفس، وأردع للظلم والطّغيان.

وقد خصّص الله ذكر بعض الأعضاء من الجسد الإنساني هي الأشهر في ظهور تلك النّعمة، والألصق في التّمتع بها، فناسب أن تجازى بالنقيض من ذلك في الجزاء الأخرويّ كيّاً بها محماة بنار جهنم وهو ما يمثل العذاب الحسّي المادي، إمعانا في الذّلة والمهانة، ينضاف إليه العذاب المعنويّ وهو أشدّ إيلاما، إذ يقول لهم زبانية جهنّم: هذا ما كنزتم لأنفسكم، أي لأجل الانتفاع والتّمتع الدّنيويّ الخاصّ بكم، وذلك يؤذن بالحرص والأنانية وحبّ الذّات.

ثم يقال لهم: ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾، إمعانا في التّوبيخ وإشعارا بالألم والحسرة بتفويت المنفعة المقصودة.

وصدق مولانا العظيم في تنديده بالشّحّ والبخل في قوله تعالى في سورة القتال وهو شبيه بموضوع هذه الآية: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد:٣٨). أعاذنا الله من الشّحّ والبخل ومن غلبة الدّين وقهر الرّجال.

والله أعلم

عدة الشّهور عند الله، ومنها الأشهر الحُرُم، وتحريم النّسيء، ووجوب قتال المشركين

أ)- النص:

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ
وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا
ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟
عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾: أي عددها المكوّن للسّنة القمرية، لأنّ الشهر اسم للهلال من أوّل ظهوره إلى إسراره، سمّيت به الأيّام وهو مأخوذ من مادة الشهرة. ﴿فِي كِتَابِ اللهِ﴾: تأتي استعمالات لفظ "الكتاب" في القرآن تارة للأمر التّقديري في علم الله بمعنى "اللّوح المحفوظ" كقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (هود:٦). وتأتي للأمر التّشريعيّ كقوله: ﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء:٢٤). وقد جعله البعض هنا مصدرا لأنه نصب كلمة "يَوْمَ". ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾: حُرُمٌ جمع حرام، والأربعة هي: ثلاثة سرد: ذو القعدة، ذو الحجة، محرم. وواحد فرد هو رجب. ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾: أي الشّرع الصّحيح المستقيم من عهد إبراهيم وإسماعيل. ﴿كَآفَّةً﴾: أي: جميعا، قال: هي لا تخرج عن النّصب، فلا تدخلها "أل" ولا تضاف، وهي حال من

اللّغويين من يرى أنه يجوز فيها ذلك في بعض الاستعمالات. ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾: وصف أو مصدر من نسأ الشيء ينسؤه نسأ ومنسأة إذا أخّره. والمعنى: الشّهر الذي أخّر تحريمه كما كان يفعله المشركون من تأخير شهر محرّم إلى صفر مثلا. ﴿لِيُوَاطِئُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ﴾: أي ليوافقوا عدد ما حرّم الله من الأشهر بتحليل شهر وتحريم آخر بدله.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: قرأ الجمهور: ﴿يَضِلُّ﴾ بفتح التّحتية. وقرأ حفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب بضمّ التّحتية ﴿يُضِلُّ﴾ على معنى الإضلال لغيرهم. وهناك قراءة: ﴿يُضَلُّ﴾ بالبناء للمجهول.

د)- البيان والتّفسير:

سبق وأن ذكرنا في التّمهيد لتفسير السّورة الكريمة بأن لها هدفين أصليين:

أ)- قانون الإسلام في معاملة المشركين وأهل الكتاب.

ب)- إظهار ما كانت عليه نفوس أتباع الرّسول عندما استنفرهم إلى غزوة "تبوك".

وقلنا: إنّ الهدف الأول استغرق من السّورة الآيات من أولها إلى قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، أي حيث انتهى هذا النّصّ الذي نحن بصدد تفسيره.

والمناسبة بينه وبين ما سبق ذكره من تحايل أهل الكتاب في استغلال أتباعهم لتأثيل الأموال وكنزها، ووعيد الله على ذلك، وهو يطال كلّ من فعل ذلك من أهل الكتاب أو المسلمين، لأنه تغيير لحكم الله، فناسب أن يذكّر الله المسلمين ما

يجب أن يخالفوا فيه المشركين -أيضا- بإبطال النّسيء في الأشهر الحرم لاستحلال ما حرّم الله من القتال فيها. فمهّد لإبطال تلك العادة الدّنيّة بذكر النّظام الحق لتوقيت الأمة الإسلامية على الوجه الحقّ الصّالح وفق ما قدّره الله في أمره التّكويني يوم خلق السّماوات والأرض فقال جلّ من قائل: **﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾.**

من حكمة الله البالغة أن يقدّر هو بنفسه ما يكون عليه نظام الأرض، وما يتصل به من النّظام الشّمسي لتحديد الزّمان ونظام التّوقيت، وجعل أساس ذلك هو النّظام القمري، وأوجب الأخذ به في ضبط مواقيت العبادات كلّها فقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة:١٨٩). ذلك لأنه لو ترك الأمر لتحكّمات النّاس وأهوائهم لاضطرب حبل نظامهم وساءت أحوالهم.

والاعتماد على ضبط الشّهور القمرية، لأنه في متناول كلّ النّاس بالرؤية البصرية، لا تستدعي معرفة الحساب، ثم ما في ذلك من خصوصية للمسلمين في مخالفتهم لأهل الكتاب كشأنهم في كثير من الأحكام. وبما أن الأشهر الحرم قد تقدم ذكرها في ما سبق من الأمر بقتال المشركين، فقد ورد في هذه الآية ضبطها بإبطال ما أدخل عليها المشركون من النّسيء، واستعملت صيغة التّأكيد بـ"إن" للاهتمام بمضمون الجملة.

وجملة: ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ معناه: في تقديره التّشريعي لمختلف الأحكام التي تنضبط بتلك المواقيت، وقيل: في حكمه التّكويني، ولذلك ارتبط ذكر عدد الأشهر بخلق السّماوات والأرض لما لهما في النّظام الشّمسي من العلاقة في ذلك الضّبط كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ (٥). وكان العرب يعرفون هذه الأشهر، كما يعرفون الأشهر الحرم، فهي أربعة عندهم،

ولكنهم يختلفون في تحديد الرّابع الفرد ما بين رجب ورمضان. غير أن الرّسول بيّن معنى الآية في حجة الوداع فذكر الثلاثة التي هي سرد: ذو القعدة، ذو الحجة، محرم. وذكر الواحد الفرد الذي هو رجب.

و"الحُرم" جمع حرام، أي هي ذات حرمة وشأن تمتاز بها عن بقية الأشهر. والحكمة في حرمة هذه الأشهر وجعلها مواقيت للعبادة هي لضمان الوقت الكافي لأداء مناسك الحج زمانا، مع ضمان حرمة المكان بحرام مكّة، ثم إن الشّهور القمرية تدور في جميع الفصول، فيتنوّع بذلك مناخ العبادة ما بين الحرّ والبرد والاعتدال.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، الإشارة إلى ما ذكر من عدة الشّهور وحرمة الأشهر الحرم، بأن ذلك التّنظيم والتّقسيم هو الدّين الصّحيح المستقيم على سنن الله في أصل الخلقة، وهو ما ثبت قوليا وعمليا في دين إبراهيم وإسماعيل، فلا يجوز فيه تبديل ولا تغيير. وقد حرّم الله فيهنّ جميع أنواع الظّلم، والضّمير: ﴿فِيهِنَّ﴾ يرجع إلى أقرب مذكور، وهو الأشهر الحرم. وكانت العرب تحترم هذه الأشهر فلا تأخذ بثاراتها فيهن. وقيل: إن الضّمير يرجع لكامل الشّهور الإثني عشر ويدخل فيها بالأَوْلى الأشهر الحرم.

وبذلك يكون المعنى: لا تظلموا أنفسكم بالمعاصي في كامل السّنة، لأن ذلك من حرمة الدّين. وبذلك يتعوّد العرب مراعاة حرمة أحكام الدّين زيادة إلى مألوفهم من مراعاة حرمة الأشهر الحرم.

﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾:

أبان الله تعالى حكم قتال المشركين في كلّ زمان ومكان، بعد ذكر حرمة الأشهر الحرم لئلا يتوهّم أن قتالهم لا يجوز فيهن، حتى وإن كانوا هم البادئين

بالقتال، بل الحزم يقتضي من المؤمنين أن يقاتلوهم جميعا في تعاون وتناصر، وأن يواجهوهم بالمثل لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩٤).

ويلاحظ في الآيتين نفس التعقيب: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، ومعية الله تكون بالتّأييد والنّصرة. والتّقوى هي صفة جامعة لكل أنواع البرّ والخير تكون واقية من عذاب الله وسخطه.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾:

النّسيء كما يعرّفه الإمام ابن عاشور: "هو عند العرب تأخير يجعلونه لشهر حرام فيصيرونه حلالا ويحرّمون شهرا آخر من الأشهر الحلال عوضا عنه في عامه".

ثم يقول: "وأحسن ما روي في صفة ذلك قول أبي وائل أنّ العرب كانوا أصحاب حروب وغارات فكان يشقّ عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر لا يغيرون فيها. فقالوا: لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نصيب فيها شيئا لنهلكن".[1]

وإبطال هذه العادة الكافرة والتّشنيع عليها قد مهّد لها بذكر حكمة الله في تنظيم الأشهر وإثبات حرمة الأشهر الحرم.

أمّا وقد وقّت الله للحج ومناسكه أشهرا معلومات، شقّ عليهم ذلك بأن تبقى تجارتهم وغاراتهم على وتيرة واحدة، وقد تتناسب لرواج تجارتهم أو نجاح

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٠/١٨٩.

عاداتهم فابتدعوا ذلك التغيير وفق أهوائهم، وهم يعلمون أنهم بذلك مخالفون لما شرعه الله. فكان فعلهم لذلك زيادة في الكفر والضلال، إذ جعلوا من أنفسهم شركاء لله في التشريع بالحلال والحرام كما يشاؤون.

ويتجدّد عملهم بذلك في كلّ عام، وهم يفعلون ذلك ليوافقوا عدد الأشهر الحُرُم بأن تبقى أربعة، ثم يجعلون ذلك ذريعة لتحليل ما حرّم الله فيأتون بجريرة مزدوجة: بتحليل الشهر الحرام وتحريم الشهر الحلال. والذي أوقعهم في هذا الضلال هو تزيين الشيطان لهم ذلك العمل، حتى رأوه حسناً، وبذلك سدّت عليهم منافذ الهداية والتوفيق، فهم سادرون في كفرهم وضلالهم، لأن الهداية الرّبانية هي من آثار الإيمان والإذعان لشريعة الله، فلا أضلّ ممن ينتهك حرمات الله، ويعتقد أنه على صواب، كما قال تعالى في سورة فاطر: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر: ٨)، والله أعلم.

الاستنفار للجهاد والتّحذير من تركه، ومعجزة الغار في هجرة الرّسول

أ)- النص:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ
إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا
قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَ
اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ

ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿مَا لَكُم﴾ استفهام للإنكار واللّوم. ﴿انفِرُواْ﴾: النّفر والنّفور: الخروج بخفّة وسرعة من موضع إلى غيره لأمر يحدث، وأكثر ما يطلق على الخروج إلى الحرب. والنّفير: هو دعوة الإمام النّاس إلى القتال. ﴿اثَّاقَلْتُم﴾: أصله تثاقلتم، تكلّف الثّقل لإظهار أنه لا يستطيع النّهوض. "إِلاَّ": أصله "إن لا" بإدغام "لا" في "إن" الشّرطية. ﴿مَتَاعُ﴾: اسم مصدر "تمتع" أي الالتذاذ والتنعّم. ﴿يَسْتَبْدِلْ﴾: يبدّل من البدل، وهو المأخوذ عوضا، فالسّين والتّاء للتأكيد. ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾: أي أحد اثنين. فالآخر هو أبو بكر الصّديق ﷺ لا يعتبر فيه الأولية، لأن كل واحد منهما ثان للآخر. ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾: الغار ثقب في الجبل ويعني هنا جبل ثور. ﴿سَكِينَتَه﴾: اطمئنان النّفس عند الخوف. ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾: أي الملائكة الذين ألقوا الحيرة في نفوس المشركين فلم يهتدوا إلى مكان الرّسول. ﴿السُّفْلَى﴾: أي المنحطة الحقيرة. ضدّها: ﴿الْعُلْيَا﴾ أي الغالبة العالية. ﴿خِفَافاً﴾: جمع خفيف بحيث يكون سهل التّنقل والحمل. ضدّه: ﴿ثِقَالاً﴾: جمع ثقيل.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾: قرأ الجمهور ﴿كَلِمَةُ اللهِ﴾ بالرّفع، لإفادة أنها المرفوعة بذاتها، وقرأها يعقوب وحده بالنّصب عطفا على ما قبلها.

د)- نبذة عن غزوة تبوك:

"تبوك" مكان معروف في منتصف الطّريق بين دمشق الشّام والمدينة المنوّرة وتقدّر المسافة بينهما بحوالي ١٣٠٠كلم. فقد بلغ الرّسول وأصحابه أن الرّوم جمعت جموعها مع بعض القبائل العربية لغزو المدينة، وكان النّاس في قحط وشدّة حرّ، فدعاهم رسول الله إلى ملاقاة العدّو و لم يكن للناس قوة، وتمّ ذلك في رجب من السّنة التّاسعة، أي بعد الرّجوع من غزوة هوازن والطّائف وبعد فتح مكة. ولشدة مؤونتها سمّيت بغزوة "العسرة"، وبـ"الفاضحة" لأنها فضحت حال كثير من المنافقين بتخاذلهم والتماسهم المبررات للتخلف عنها. وحضّ الرّسول الأغنياء على الإنفاق لتجهيز الجيش فأنفق أغنياء الصّحابة ما لم ينفقوا في غيرها. وكان الفصل صيفا احترقت فيه النّخل وطابت الثّمار، وتفيّأت الظّلال فشقّ على المسلمين الخروج، وكان مع ذلك الأمر الإلهي بالخروج لملاقاة العدوّ، لتتمحّص الجماعة المسلمة ويفتضح أمر المنافقين في ما كانوا يسرّونه من الكفر والكيد للمسلمين -على أن الله تعالى يعلم أنهم لا يلقون قتالا-.

وقد بلغ الرّسول ماء "تبوك" ثم رجع إلى المدينة، فلما قربها قال لأصحابه: **«لا تكلموا أحدا ممّن تخلّف ولا تجالسوه حتى آذن لكم»**.(١)

هـ)- البيان والتّفسير:

يبتدئ السّياق في التّعرض لأحوال المجتمع المدنيّ في السّنة التّاسعة للهجرة، وقد استجدّت أحوال لصالح الإسلام بعد فتح مكة ودخول النّاس في دين الله أفواجا، وقد رسم الرّسول خطته لتصفية جيوب الكفر من أرجاء الجزيرة، وكانت

١- روى القصة بتمامها مسلم في كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم ٢٧٦٩.

الرّوم في تخوم الشّام ومن معهم من بعض القبائل العربية يتربّصون شرًا بالإسلام في المدينة، مما دعا رسول الله أن يستنفر المؤمنين لقتالهم، في وقت كانوا فيه متعبين من غزوة الفتح وحنين وقد استقبلهم الحرّ الشّديد.

واقتضت الحكمة أن يظهر الرّسول شأن هذه الغزوة فلم يُور عنها كما كان يفعل في سائر الغزوات، حتى يستعدّ لها المجاهدون استعدادا خاصًا لبُعْد شُقّتها وثقل مؤونتها، الأمر الذي محّص المجتمع المسلم، ليفتضح من كان فيه رياء ونفاق، ويتطهّر الصّفّ الإسلاميّ من التصدّع والشقاق، فكان هذا النّداء الإلهي: ﴿**يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ**﴾.

النّداء للمؤمنين ابتداء يحرّضهم الله فيه على الجهاد في سبيل الله، والمناسبة بينه وبين ما تقدم وجيهة، إذ الحديث كان في قتال المشركين ومن كفر من أهل الكتاب، وهنا يذكر قتال الرّوم وأتباعهم ويبيّن حقيقة أحوالهم. ونظرا لما وقع فيه بعض المؤمنين من التثاقل والكره للقتال بسبب ما ذكرناه اقتضت التّربية الإلهية لهم أن يخاطبوا بأسلوب اللّوم والعتاب: ﴿مَا لَكُمْ﴾، بمعنى أيّ شيء يمنعكم وقد استنفركم الرّسول لقتال عدوّكم.

ومعنى: ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ أي ركنتم إلى الدّنيا بالكسل والرّاحة، وبميلكم إلى جني الثّمار وتفيّء الظّلال بينما الإيمان الصّحيح يقتضي منكم الطّاعة والانقياد لما يأمركم به الله ورسوله. وما أبلغ التّعبير عن الكسل والرّاحة بثقلة الجسد إلى الأرض بكلّ رواسبه المادية وميوله الشّهوانية، لأن الجهاد في سبيل الله سموّ ورغبة في عليا المراتب من العزة والكرامة، وانبعاث إلى الحركية والنّشاط تستنفد فيه كلّ الطّاقات الحيوية لدحر العدوّ وإحراز النّصر. وقد تكرّر أسلوب التّقريع بقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا في

الآخرة إلاّ قليل﴾.

والتّعبير بفعل "رضيتم" مصدّرا بالاستفهام الإنكاريّ يدلّ على مدى ما تردّد في نفوس القاعدين عن الجهاد من الميل إلى الكسل والرّاحة عن قناعة وانشراح نفس لذلك، فكان التّعبير باستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير واستهجان ذلك بيان ضآلة الدّنيا وقلة متاعها بالنّسبة لنعيم الآخرة وثوابها.

وللتركيز على فداحة ذلك الموقف المتردّد في الجهاد أعقب الله ذلك اللّوم الشّديد بالتّهديد والوعيد فقال: **﴿إلاّ تنفروا يعذّبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضرّوه شيئا والله على كلّ شيء قدير﴾**.

قد مضت سنة الله في الحياة أن تقوم على مدافعة النّاس بعضهم ببعض، وأن يتصارع الحق والباطل، وكلّ قعود أو تخلّف في سبيل الله يجرّ عنه هلاك الجماعات، وإن كانت تنافح عن الحقّ، وتنتمي إلى الإيمان، ويبدو من جواب الشّرط أن العذاب الأليم يكون في الدّنيا بغلبة العدوّ على أصحاب الحق، إذ يقعون في الذّلة والهوان، أو جور السّلطان، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿ويستبدل قوما غيركم﴾ لنصرة دينه وإعلاء كلمته، ممن تتوفّر فيهم أسباب القوة والمنعة بمراعاة السّنن الاجتماعية في التزام النّظام، والانقياد والطّاعة للإمام. والله تعالى إذ قدّر تلك السّنن الاجتماعية في حياة الأمم، لا يضرّه تثاقلكم عن الجهاد ولا عدم انصياعكم لأداء الواجب، لأنه على كلّ شيء قدير، وهو القاهر فوق عباده.

وبما أن رسول الله في موقف القائد الإمام وفي مكان القدوة لتوفير أسباب النّصر والغلبة، ذكّر الله المؤمنين بما كان له من تأييد الله ونصرته له حين كان ثاني اثنين في الغار، فكيف لا ينصره اليوم وهو في جيش عظيم؟، قال تعالى: **﴿إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا﴾**.

تذكير بالواقع التّاريخي الذي عرفوه من تلك الحقبة التي عاشها الكثير منهم وهو مطارد من وطنه وأهله، مفتون في دينه، ومهدّد في نفسه وماله، وعدوّهم في استعلاء وخيلاء يحيك الدّسائس ويدبّر المؤامرات ضدّ رسول الله. اذكروا في تلك الحقبة العصيبة كيف كانت ألطاف الله برسوله، إذ خرج وحيدا محفوفا بعناية الله، وليس معه إلا صديقه ثاني اثنين، فلا جيش ولا عدّة إلا قوة الإيمان واليقين في الله، وكان الرّسول أوفى حظًا من صاحبه أبي بكر وهو يقول له حين بدت منه أمارة الخوف والفزع خوفا من إذاية الأعداء لصاحبه، فيقول له الرّسول في طمأنينة ويقين: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

إنها المعية الرّبّانية التي تعلو عن الأسباب والمسبّبات، فكيف كانت النّتيجة والعدوّ منتفش بقوته وجبروته؟: **﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**.

التّفريع بإنزال السّكينة على قلب الرّسول وبإنزال جنود من الملائكة يدلّ على ما تمّ لرسول الله في ذلك الموقف الرّهيب من تأييد الله له روحيا ومادّيا، فكانت منه تلك الكلمات المطمئنة لصاحبه، وهو واثق بحفظ الله ورعايته، ولا حاجة لترتيب ذلك التّفريع على أبي بكر، كما ذهب إليه بعض المفسّرين، بدعوى أن الرّسول كان تامّ السّكينة من أول دخوله في الغار. يقول الإمام ابن عاشور في ترجيح هذا المعنى: "وليس يلزم أن يكون نزول السّكينة عقب قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، بل إنّ قوله ذلك هو من آثار سكينة الله التي أنزلت عليه، وتلك السّكينة هي مظهر من مظاهر نصر الله إياه، فيكون تقدير الكلام: فقد نصره الله، فأنزل السّكينة عليه وأيّده بجنود حين أخرجه الذين كفروا، وحين كان في الغار، وحين قال لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. فتلك الظّروف الثّلاثة متعلقة بفعل:

﴿نَصَرَهُ﴾ على الترتيب المتقدم".[١]

ومن نتائج ذلك التأييد الرّباني علوّ كلمة الله بالتوحيد ودحر الشّرك والكفر، فالكلمة تطلق على الأمر والشأن، فإنّ الله تعالى قد قلب أوضاع الواقع الذي يغرّ النّاس، فجعل من قوة الكفر وكبريائه حطّة ومهانة، ومن ضعف الإيمان واستخفائه ظهورا وقوة واستعلاء، لأن الله عزيز لا يغلبه شيء، حكيم لا تبدو له البداوات.

﴿انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

بعد توجيه اللّوم والعتاب والتهديد بعاقبة التردّد والارتياب، يأتي هذا الأمر الإلهي للمؤمنين بما يجب عليهم مستقبلا من التّعبئة الكاملة لمواجهة أعدائهم بكل ما تتطلبه التّعبئة من الوسائل عددا وعدّة، ومن السّير والتّحرّك خفة وثقلا، وفق ما تقتضيه ظروف القتال وحجم العدوّ. ولّما كانت التّعبئة تعتمد على الأموال جيء بذكرها أوّلا وأتبعت بالأنفس لمن استطاع أن يجمع بينهما. وغالبا ما تذكر التّضحية بالأموال في الجهاد مقدّمة على الأنفس لما لها من الشّح عليها عند كثير من النّاس.

وجاءت الإشارة بـ"ذلكم" إلى خيرية الجهاد عقب الأمر الإلهي، وهي متعدّدة الجوانب في الدّنيا والآخرة، لا يدركها إلا العالمون بسنن الحياة وقواعد الاجتماع البشري، وذلك نجده في ما بينه الله تعالى في سورة الصّف عند قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٠-١١).

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٠/٢٠٣- ٢٠٤.

وبعد هذا الاستفهام الترغيبي البليغ للإيمان والجهاد وترتيب الخيرية عليهما، بيّن الله تعالى بعض أنواع ذلك الخير فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصف:١٢-١٣). فجمع بذلك بين حسنيِ الدّنيا والآخرة، بالعزة والتّمكين والنّعيم المقيم، والله أعلم.

تخلّف المنافقين عن تبوك، والاستئذان في الجهاد

أ)– النص:

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ
سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ
﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ
قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

ب)– التّحقيق اللّغوي:

﴿عَرَضًا﴾: ما يعرض للنّاس من منفعة أو متاع دنيويّ. ﴿سَفَرًا قَاصِدًا﴾: أو وسطا في المسافة غير بعيد، لا مشقة فيه. ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾: المسافة الطّويلة التي لا تقطع إلا بمشقة. ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾: الخروج: الانتقال من المقرّ إلى مكان آخر قريب أو بعيد. ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾: أي يتسبّبون في ضرّ أنفسهم

بالأيمان الكاذبة. ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾: العفو: التجاوز عن الذنب أو التقصير وترك المؤاخذة عليه، ويستعمل بمعنى الدّعاء. ﴿يَسْتَأْذِنُكَ﴾: الاستئذان: طلب الإذن في إباحة عمل وترك ضدّه، ويعدّى بـــ"في". ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: الارتياب هو الشّك في الأمر بسبب التردّد في تحصيله. والتردّد هو التحيّر في أمر ما.

ج)- البيان والتّفسير:

كان الأمر بالنّفير العام إلى الجهاد في غزوة "تبوك" محكًا دقيقا للجماعة المسلمة، وكان التّثاقل في تلبية نداء الرّسول للتعبئة العامّة، قد اختلفت درجاته بين أصحاب الرّسول تبعا لقوة الإيمان في قلوب أغلبهم وضعفه في بعضهم إلى حدّ العجز عن الخروج. غير أن المنافقين قد هالهم الأمر، فأخذوا ينتحلون الأعذار الواهية لرسول الله، ويستأذنونه في القعود، ويتوسّلون لذلك بالأيمان الكاذبة فيأذن لهم. وكان المنافقون من قبل نزول هذه الآيات يجدون بعض الغطاء والتّستّر على سوء نواياهم وخزي مواقفهم، ولكن الله تعالى أراد أن يفضحهم حتى يميزهم عن المؤمنين الأوفياء، فلا يجدون وسيلة بعد نزول هذه الآيات الفاضحة، لا يجدون وسيلة للتستّر والاستخفاء فقال جلّ من قائل: **﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾**.

يناسب لحال المنافقين أن يتحدث عنهم بضمير الغيبة لا بضمير الخطاب كما كان الحديث مع المؤمنين الصّادقين، والنّفاق هو شرّ ما تبتلى به الدّعوات الصّالحة، وقد تنزّل من آيات القرآن ما فيه الرّدع الحاسم لهذه الفئة من النّاس، وأعظمها فضحا لدسائسهم وبيانا لأحوالهم هو ما تنزّل في هذه السّورة بدءا بهذه الآيات، إذ كانت وقائع غزوة "تبوك" بمثابة المعيار لخبايا النّفوس وطبائع البشر في التّعامل مع الأحداث ومستجدّاتها، والله أعلم بمن خلق، فهو تعالى يبيّن للرسول

سبب تثاقل هؤلاء، إنه ضعف الهمّة وخور العزيمة عند الضّعاف المهازيل من النّاس، إذ يميلون إلى السّهل الحقير من متاع الدّنيا، ويسلكون إليه الطّريق القريب، ولكنك -أيها الرّسول- قد دعوتهم إلى حمل ثقيل وطريق طويل، فأنّى لهم أن يستجيبوا لك وهم المترفون القاعدون؟!، وقديما قال الشّاعر العربيّ:

خلق الله للحروب رجـــالا ورجالا لقصعة من ثريـــد

ولقد علم الله أحوالهم حاضرا ومستقبلا بأنهم سوف يتذرّعون بالأيمان الكاذبة عند رجوعكم من الغزوة، فيقولون بأنهم قعدوا مضطرين، وتخلّفوا متحسّرين، لأنهم لا يملكون القدرة على الخروج.

والأيمان الكاذبة خسّة ومهلكة لصاحبها لأن حقيقته -وإن أخفاها عن النّاس- ستنكشف يوما ما، ولفداحة الأضرار النّاجمة عن الأيمان الفاجرة عبّر عنها بـ"الإهلاك"، وهو الموت المعنويّ في الدّنيا، ثم الخزي والعذاب في الآخرة. ذلك بالنّسبة إلى البشر، وأما بالنّسبة إلى الله فهو عليم بكذبهم ابتداء لا تخفى عنه خافية، فهو -لا محالة- يبدي لرسوله ما كانوا يسرّون.

وقد تصرّف الرّسول معهم وفق ظواهرهم كما توصّل إليه اجتهاده فأذن لكثير منهم بالتّخلف، ولكن الله تعالى عاتبه على ذلك التّسرّع في الإذن فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾.

جاء هذا العتاب اللّطيف من الله لرسوله مصدّرا بالعفو قبل ذكر سبب العتاب وذلك أدب رفيع وإكرام بليغ، فما كان إيذانه ﷺ هؤلاء عن محسوبية أو مجاملة، وإنما هو اجتهاد منه وأخذ للناس على ظواهرهم. ولكن الله العليم بذات الصّدور يعلم بقعود من قعد من الكاذبين في أيمانهم سواء أذن لهم أو لم يؤذنوا، وكان الأولى أن لا يتسرّع في الإذن حتى يتبيّن الصّادقين من الكاذبين، فحينئذ تنكشف الحقيقة، فلا يجد المتخلفون غطاء لخسيستهم بإذن رسول الله لهم. ومتعلق

الإذن -وهو القعود والتخلّف- مفهوم من السّياق، وهو مُغيّا بـ"حتى" أي لغاية تبيّنك للفريقين.

ولكلّ منهما صفات تدلّ على نواياهم وتبيّن حقيقتهم قال تعالى: ﴿**لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الذِينَ يُومِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ أَنْ يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ، إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ**﴾.

كان لهوض المؤمنين الصّادقين إلى الجهاد في كلّ مرّة لا يحتاجون فيه إلى استئذان الرّسول، لأهم يعتبرون ذلك واجبا دينيا وقربة إلى الله، وثمنا لجنة الرّضوان. وقد روي عن المهاجرين والأنصار أهم يقولون: لا نستأذن النّبي ﷺ في الجهاد، فإن ربّنا ندبنا إليه مرّة بعد أخرى، فأيّ فائدة في الاستئذان؟. ودافعهم إلى ذلك هو إيمالهم الرّاسخ بالله ورسوله ويقينهم بما يترتب عن الجهاد من العزة والتمكين في الدّنيا، والمغفرة والرّضوان في الآخرة، تطبيقا لقوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا الْمُومِنُونَ الذِينَ ءامَنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١٥).

والتّعقيب في هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ للتنبيه على أن أسرار الخلق وخفاياهم معلومة ومحصية عند الله، وهو لا يضيع أجر المحسنين.

والتّعبير بـ﴿أَنْ يُجَاهِدُواْ﴾ مع استئذان المؤمنين -أي بالإثبات دون النّفي- لبيان أن من شأن المؤمنين أن لا يستأذنوا في القيام بواجباهم في مجال الفضائل والمكرمات.

فإذا كان ذلك شأن المؤمنين الصّادقين، فإن المنافقين على عكس ذلك. فهم يستأذنونك -أيها الرّسول- ليتخلّفوا عن الجهاد، لأهم لا يصدقون برسالتك تمام التّصديق، ومن ثمّ لا يرجون ما عند الله من الثّواب والأجر في يوم الجزاء. ويجيء

بـ"إنما" التي تفيد القصر لتأكيد مفهوم الجملة التي قبله لقصد التنويه بشأنه، وعطفت عليه جملة: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ لإفادة حالتهم النفسية في الشكّ والارتياب في صدق الرّسالة بداية، فهم مستمرّون على شكّهم وارتيابهم، مما جعلهم في حيرة من أمرهم، وبالتّالي لا يطمئنون لعاقبة المسلمين في غزوة "تبوك" فلا عجب أن يتخلفوا، والله أعلم.

تخلّف المنافقين كان بغير عذر، وفي خروجهم خطر على المسلمين.

أ)- النص:

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ
وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا
خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾
لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ
كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾: أي الخروج إلى الغزو وجهاد الأعداء. ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾: العُدّة: جمع عُدد، ما يهيّئه الإنسان من الأشياء لما يفعله في المستقبل، كالسّلاح والمؤن للحرب، ونظيرها الأهبة. ﴿كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾: الانبعاث مطاوع البعث: وهو إثارة الإنسان أو الحيوان وتوجيهه إلى الشّيء بقوة ونشاط، ويطلق على الإزعاج، كبعث الطّير للصيد. ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾: من التّثبيط: أي التّعويق عن أمر ما

ومنع وقوعه. ﴿اقْعُدُواْ﴾: القعود: عن القتال مقابل الخروج. ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾: الخبال: أي اضطرابا وفسادا في العمل وفي الرّأي والنظام. ﴿وَلأَوْضَعُواْ خِلالَكُمْ﴾: من الوضع والإيضاع: وضع البعير وضعا إذا أسرع في سيره، وهو تمثيل لحال المنافقين في مشيهم بالنّميمة والتخاذل بين المسلمين. ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾: الضّمير للمسلمين: أي بينكم قوم ضعاف يصدّقون ما يقوله المنافقون، أو بينكم من المنافقين من ينقل إليهم الأخبار، أي جواسيس. ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ﴾: أيْ دبّروا لك الحيل والمكايد لإفساد خطتك، من تقليب الشيء، وهو تصريفه في كل وجه من وجوهه. ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ﴾: أي علت كلمته وانتصر دينه.

ج)- البيان والتّفسير:

كانت حيرة المنافقين وارتيابهم تدفعهم إلى القعود والتّخلّف عن رسول الله كما قال تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾. وللدلالة على موقفهم ذلك عطف عليه قوله: **﴿وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾**.

ولما كانت مزاعم المنافقين كذبا وتلفيقا للأعذار، فإن واقعهم العملي يفتضحهم، لأنّ العازم على السّفر البعيد والمستعدّ للغزو لا بدّ وأن يهيئ ما يحتاج إليه من المركوب والسلاح والمؤن، ولكن هؤلاء، لم يفعلوا ذلك من قبل، فدلّ على انتفاء إرادتهم الخروج أصلا. مع استطاعتهم لذلك لو أنهم أرادوه. ثم أكّد الله انتفاء ذلك منهم بالاستدراك الذي يدلّ على إثبات القعود والتّخلّف إذ قال: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

والله يعلم ما في قلوبهم من خذلان ونفور، فكره خروجهم مع المؤمنين، لما سيذكره من الأضرار والأخطار، فقذف في قلوبهم المخاوف والعوائق، وكان من أثر ذلك قعودهم المهين، إذ لا يُعدون أن يكونوا مثل النّساء والأطفال والزمنى،

ويعتبر ذلك معرّة وسبّة عند الرّجال والأبطال، وهذه الصّفة اعتبرها البلغاء من أقدح الهجاء من طرف الحطيئة عندما قال للزبرقان بن بدر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتهـــا   واقعد فإنّك أنت الطّاعم الكاسي

والأرجح في "قيل" أنه أمر قدريّ تكويني، فهو تمثيل لداعية القعود لا أمر خطابيّ.

ثم بيّن الله تعالى الحكمة من تثبيطهم وترجيح قعودهم بأن ذلك في مصلحة المسلمين، حتى لا يضرّوا بهم بالخذلان وتثبيط العزائم فقال: **﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُواْ خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾**.

الخطاب للمؤمنين فيه تسلية للرسول وتطمين لأصحابه بأن ما قدّره الله من مواقف المنافقين هي خير لهم. إذ يشكّل خروجهم معهم لو حدث، يشكل خطرا كبيرا في صفوفهم، بما يحدثونه من خلل واضطراب في وحدة المقاتلين والتحامهم، وذلك بما ينشرونه بينكم من الشرّ والفساد بالوقيعة والفتنة وكشف الأسرار للعدوّ. فلا يزيدونكم بوجودهم فيكم قوة ولا ثباتا، بل ضعفا ووهنا، وهم يريدون ذلك لكم لبث الفتنة وزرع البلبلة بينكم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ اختيرت صيغة المبالغة "سمّاع" للدلالة على أنه سماع باعتقاد ما يسمع. وفي معنى هذه الجملة احتمالان:

أ)- ما ذهب إليه جمهور المفسّرين: إن فيكم أيها المسلمون ضعاف العزيمة، قاصري النّظر، تكون لهم قابلية لتصديق وتقبّل ما يسمعون.

ب)- أو بينكم جواسيس ينقلون للعدوّ أخباركم، ويكشفون له أسراركم. وفي كلتا الحالتين خطر على الجيش مهما تكن عدّته واستعداده، فإذا كانت معرفة هؤلاء تتطلب قدرا من الحيطة والحذر والوسائل الكفيلة بترصّدهم فإن الله تعالى

عليم بأحوالهم ودواهم ينبّه المؤمنين ليكونوا منهم على حذر، لأنهم كفار ظالمون. وإذ هم على ذلك الموقف المخزي في ماضيهم التفت الخطاب إلى رسول الله ليذكّر بذلك الماضي السّخيف، فقال تعالى: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

أي لا عجب بموقفهم في غزوة "تبوك" فذلك شأنهم معك في الماضي، حين خذلوك في غزوة "أحد" وحاكوا الدّسائس ضدّك، وأشاعوا الأكاذيب لإيقاع الفتنة بين المسلمين، وذلك حين انسحب رأس المنافقين "عبد الله بن أبيّ بن سلول" بنحو ثلث الجيش، حتى كادت طائفتان من جيش الرّسول أن تفشلا في الخروج كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٢). والمنافقون بذلك يحاولون مصادرة الحقّ وإبطال أمر الدّعوة الإسلامية، ولا يزال ديدنهم كذلك حتى انتصر الحقّ وظهر دين الله وأصبح الرّسول وأصحابه في عزة ومنعة، سيما بعد فتح مكة ودخول النّاس في دين الله أفواجا، وإن ظل المنافقون كارهين لذلك، لأنهم مطوون على غيظ وكره للإسلام ورسوله، والله أعلم.

فتنة المنافقين في انتحالهم للأعذار

واستياؤهم لمسرّته ﷺ وعكسه

أ)- النص:

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ

مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾: أي لا توقعني في الفتنة لأني آثم بعصيانك. وقيل: لا تلقني إلى التهلكة بخروجي إلى الجهاد. وقيل: هو إجابة جدّ ابن قيس لرسول الله، إني إذا رأيت نساء بني الأصفر افتتنت بهن فأذن لي في التخلّف ولا تفتنّي. ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾: "ألَا" أداة استفتاح، أي قد احترزوا عن الفتنة فوقعوا فيها. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾: الإحاطة كناية عن عدم إفلاتهم منها وأنهم في وسطها لا مهرب لهم عنها. ﴿حَسَنَةٌ﴾: أي الحادثة التي تحسن لمن حلّت به، والمراد بها هنا النّصر والغنيمة لرسوله الله، وضدّها السّيئة: ما يسوء الإنسان من المصائب. ﴿أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾: أي لقد احتطنا بالحزم والحذر بتخلفنا قبل الوقوع في الضرّ. ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾: التربّص هو التمهّل في انتظار ما يرجى وقوعه، والحسنيين: مثنى، حسنى: مؤنث أحسن، اسم تفضيل، والمقصود بهما النّصر أو الشّهادة.

ج)- البيان والتفسير:

ما يزال السّياق يعدّد مواقف المنافقين، ويبيّن أحوال بعضهم في ما يشيعونه في النّاس أو يردّدونه في ما بينهم، فيفضحهم الوحي ويكشف دسائسهم مع ما يتخلّل ذلك من بيان بعض الأحكام والآداب للمسلمين. وأيّا كان سبب النّزول في ما تذكره الرّوايات، فإن مثل هذه المواقف المخزية والأقوال المؤذية هي شيمة

المنافقين في كل عصر. قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

هذا بيان لأول استئذان معيّن وقع من أولئك المنافقين الذين قيل فيهم من قبل: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، فالضمير في: "مِنْهُم" عائد إليهم. والقائل حسب الرّوايات هو "جدّ بن قيس" من شيوخ المنافقين، إذ سأله رسول الله: «ما تقول في مجاهدة بني الأصفر»؟فقال: يا رسول الله، إني امرؤ صاحب نساء، ومتى أرى نساء بني الأصفر أفتتن، فأذن لي ولا تفتني". فأنزل الله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي﴾.[1]

وليس بغريب ما ورد من التّفسير لطلب الإذن، وهو خشية وقوعهم في الإثم والمعصية لقعودهم -وهم قاعدون لا محالة-، حتى لكأن المنافق له شيء من الحياء نحو الله ورسوله، فيتحرى الإثم والمعصية، أو يتهيّب مواطن الفاحشة؟، ولكنها الوقاحة والدّناءة في التّرييم على الحقائق. فجاء الرّدّ الإلهي كاشفا لحقيقتهم فاضحا لدسائسهم: ﴿أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ سقوط الفراش على النّار.

صدّرت الجملة بـــ"ألاَ" المفيدة للتنبيه حتى يتأمل السّامع المضمون الذي بعدها، وهو ردّ على القول السّابق، وأنّ الذي احترز من الوقوع في الفتنة هو واقع فيها بأشدّ مما توقّاه، وعبّر بالسّقوط عوضا عن الوقوع للمبالغة والتّضخيم، وجاءت كلمة "الْفِتْنَة" معرفة بـــ"أل" الجنسية لتتناول كلّ أنواع الفتنة في أوسع معانيها. وهم بذلك متردّون في الكفر، تلفّهم جهنّم ولا يجدون عنها محيصا، تحيط بهم من كل جانب كما أحاطت بهم خطيئاتهم بتكذيبهم لرسول الله، وسوء نيتهم في معاملته بالكيد والمكر، إذ يتمنون له الشّرّ ويسرّون لذلك، والله الذي يعلم بواطنهم يخبر نبيه بذلك فيقول: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ

١- رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث ابن عباس، رقم ١٢٦٥٤.

يقُولُواْ قَدَ اَخذْنَآ أمْرَنَا من قبْلُ ويَتوَلّواْ وّهُمْ فرِحُونَ﴾.

في هذا البيان إخبار بما يعتمل في نفوس المنافقين من الخواطر السّيئة نحو رسول الله وأصحابه، وهي تدلّ على مدى كذهم وارتيابهم في ما قدّموه من الاعتذار للتخلّف والقعود، فهم يتربّصون ما يكون عليه الرّسول من خير بالنّصر والغلبة فيسوءهم ذلك ويغتمون له، وعلى العكس إذا حدث له مكروه، فإنهم يفرحون ويتبجّحون بأنهم احتاطوا لأنفسهم من قبل وأخذوا حذرهم لما فيه سلامتهم، ثم يتولّون وقد هزّهم الفرح وأخذتهم النّشوة بخلاصهم من المصيبة.

والآية تمثيل بالغ لشماتة الأعداء وتشفيهم، وذلك من أسوأ ما يبتلى به الصّالحون من عباد الله، كان رسول الله يستعيذ به من الله في كثير من أدعيته.

وأزاء ذلك التّبجّح فإن للمؤمنين الرّدّ المبكّت للمنافقين، تعبيرا عن إيمانهم بقضاء الله وقدره وإرشادا لهم من الله بذلك فقال تعالى: ﴿قُل لَّنْ يُصِيبَنَآ إلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكّلِ الْمُومِنُونَ﴾.

إنها العقيدة الرّاسخة التي من أسسها الإيمان بالقضاء والقدر، والتي ينتفي معها في نفس المؤمن كلّ حزن أو أسى على ما قدّره الله من المصائب في محكّ الابتلاء والتمحيص للمسلمين علما ويقينا منهم بتدبير الله الحكيم لشؤون خلقه، وأن ذلك من تمام حكمته وعدله، مصداقا لقوله تعالى في سورة الحديد: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الاَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ، لِكَيْلا تَاسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَا ءَاتَاكُمْ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٢٢-٢٣). وليس أقتل للعدوّ وأنكى للإمعان في غيظه وحنقه من أن يتجلّد خصمه ويبدي عدم الاكتراث لما وقع، كما قال الشّاعر:

وتجلّدي للشامتين أريهم أني لريب الدّهر لا أتضعضع

ومن كان الله وليّه وناصره فلا يخشى ضيرا ولا مكرا، لأنه لا يتوكّل إلا على الله بل يردّ الأمر إليه وحده بعد أن يأخذ بالأسباب التي يقدر عليها، لأن الله هو القويّ العزيز. وفي هذا الإرشاد تعليم وتوجيه للمسلمين، من شأنه أن يرسّخ ثقتهم بأنفسهم وثقتهم بربّهم فلا يضعفون أمام شماتة الأعداء. ذلك في مجال رفع المعنويات، ثم يعقبه الإرشاد الثّاني الذي يعتبر بيانا وتكميلا للأول فقال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ**﴾.

الخطاب للرسول وهو قدوة لأمّته التي لا تنفكّ عن مثل هذه المواجهات مع أعدائها في مسيرتها التّاريخية. وطبيعيّ أن يتربّص الفريقان المتعاديان كلّ بالآخر، ولكن شتّان بين تربّص وآخر، فماذا يتربّصه المنافقون بالمؤمنين غير الهزيمة أو القتل؟. ولكن المجاهد المسلم يواجه أعداءه بعزيمة وثبات وهو ينتظر إحدى الحسنيين مما كتبه الله له من النّصر أو الاستشهاد. فكلاهما خير في العاجل أو الآجل، وفي مقابل ذلك فنحن -المسلمين- ننتظر منكم إحدى السّوأتين:

أ)- أن يهلككم الله بعذاب من عنده كما أهلك من قبلكم من الكفار والظّالمين، وكما توعّدهم الله بذلك في قوله: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ﴾ (الرعد:٣١).

ب)- أن يعذّبكم الله بأيدينا بما يكون فيكم من القتل والأسر والسّبي، وقد أذن الله بقتالكم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ تهديد وتهوين من شأن الخصم بإظهار الثّقة والتّحدّي من طرف المؤمنين، لأنهم على بيّنة من عاقبة أمرهم بوعد الله الصّادق، والمنافقون لا يعدهم الشّيطان إلا غرورا، والله أعلم.

إحباط ثواب المنافقين على نفقاتهم، ووصف صلاتهم وزكاتهم

أ)- النص:

قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾
وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ
أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾: بينهما طباق، والطّوع أي عن طواعية واختيار والكره: هو أشدّ الإلزام. والتّعبير يدلّ على التّسوية بين الأمرين فكلاهما مرفوض عند الله. ﴿فاسقينَ﴾: الفسوق: الخروج من دائرة الإيمان. ﴿إلاَّ وَهُمْ كُسَالَى﴾: أي في حال الكسل والتثاقل فلا نشاط ولا خشوع. ﴿فلاَ تُعْجِبْكَ أمْوَلُهُمْ وَلاَ أوْلادُهُم﴾: من الإعجاب بالشّيء، وهو أن تسرّ به سرور الرّضى والاغترار بحسنه. ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾: من الزّهوق أي خروج أنفسهم من أجسادها بشدّة وضيق. وجاء في القرآن: ﴿وزَهَقَ الباطِلُ﴾ (الإسراء:٨١)، أي هلك واضمحل.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أن تُقْبَلَ منْهُمْ نَفَقَاتُهُم﴾: قرأ الجمهور: ﴿تُقْبَلَ﴾ بالمثناة الفوقية. وقرأها حمزة والكسائي: ﴿يُقْبَلَ﴾ بالتحتية؛ لأنّ تأنيث "النّفقات" لفظي لا حقيقي، فيجوز تذكير فعله.

د)- البيان والتّفسير:

قد يتبجّح بعض المنافقين بأنهم إن تخلّفوا بأجسادهم فهو ينفقون من أموالهم للجهاد في سبيل الله، وقد يأتون ببعض أعمال البرّ الأخرى، فجاء البيان ليردّ عنهم تلك المزاعم، لأن الله تعالى لا يقبل إلاّ ما كان خالصا مخلصا لوجهه الكريم. والمنافقون إنما يفعلون ذلك لأجل التّقية والرّياء، فهم خاسرون في الدّنيا والآخرة. قال تعالى خطابا للرسول ولكلّ من يسمع القرآن: **﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ﴾**.

قل -أيها الرّسول- للمنافقين: إنكم مهما بذلتم من الأموال في سبيل الله جهادا أو برّا وإحسانا في أوجه الخير مختارين أو مكرهين، فإن الله تعالى لن يتقبل ذلك منكم، لأنكم دائبون على كفركم بالله ورسوله، خارجون عن الإيمان الصّحيح الذي هو مناط قبول الأعمال عند الله. وقد علّل الله نفي قبول أعمالهم بالفسق، وهو الخروج من حظيرة الإيمان، علّل بصفة مجملة، ثم فصّل ذلك بقوله: **﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾**.

جاء البيان لصفة الفسوق المعلّل بها في الآية السّابقة، جاء جامعا للركائز التي يتحقق بها الكفر والنّفاق. ذلك لأن الأخوّة الدّينية الصّحيحة، والتي تضمن للمسلم حقّه عند الله وعند النّاس لا تتحقّق إلا بالثّالوث الذي رسمه الله في هذه السّورة لمعاملة خصوم الإسلام فقال جلّ من قائل: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ (التوبة:١١). وهنا ينبّه الله تعالى بأن هؤلاء، وإن تظاهروا بالقيام بتلك الأعمال فهم لا يؤدونها إلا تقية ونفاقا، وهم في واقعهم كافرون بالله مكذّبون برسالة رسول الله، وبالتّالي فإن صلاتهم خالية من التّوجّه الخالص لله، ولذا فإنهم متثاقلون ساهون عنها، لا يؤدّونها إلا رياء ومخادعة كما وصفهم الله

بذلك في سورة النساء: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٤٢).

وأما الإنفاق على عمومه، أي في الجهاد وغيره من وجوه البرّ فهم لا يقومون به إلا وهم كارهون، لأنهم وإن بدا أنهم يبذلون بعض أموالهم طوعا فهم في الحقيقة لا تطيب أنفسهم لذلك أصلا، فكان مجموع هذه النقائص الثلاثة سببا مانعا لقبول أعمالهم عند الله، وهي كلّها منافية للتقوى -وهي مناط القبول عند الله- قال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ (الحج:٣٧).

وإذ كان كثير من المنافقين من أولي الطّول والغنى، ومن ذوي الحظوة والجاه في أقوامهم، ولعلّ ذلك يكون محلّ إعجاب من بعض ضعاف الإيمان، جاء تحذير الله من ذلك مفرّعا عما تقدم بيّن الله فيه سوء عاقبتهم في الأموال والأولاد فقال: **﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾**.

ولاشك أن أكثر متاع الدّنيا وزينتها هو المال والبنون: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف:٤٦). والمفتون بهما ينشغل عن ذكر الله ويقصّر في جنب الله، وقلما يجمع الإنسان بين متع الدّنيا وتكاليف الدّين التي هي ضوابط للبغي والطّغيان، وقد قال الله في طبيعة الإنسان: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق:٦-٧). ولذلك تكررت الإرشادات الإلهية لرسوله ومن خلاله لأمته أن لا يفتتنوا بأموالهم وأولادهم كما في هذه الآية.

فإذا كان حرمانهم من قبول الله لم تشفع لهم فيه كثرة أموالهم وأولادهم، فلا تعجبك أيها الرّسول أو أيها السّامع للقرآن تلك الحظوة العاجلة، لأن الله تعالى أراد أن يعذبهم بها وأن ينغّص حياتهم بما يعتبره النّاس أنه نفع ومتاع؛ لأن شهوة المال

والولد قد تودي بصاحبها إلى كثير من الشعار والمهفة لا يجد معهما لذة ولا متاعا، حرصا على جمع ذلك المال واستبقاء ذلك الولد، أو الاستكثار منهما. وغالبا ما يكون مع ذلك البخل والشح. وتلك قاصمة الظهر. يضاف إليها هذا الوعيد من حرمان قبولها عند الله، وإن قدّموا شيئا منها في مجالات البرّ، فهم في الحقيقة فقراء بذلك الحرص والبخل، وذلك هو شرّ ما يبتلى به الإنسان كما قال رسول الله ﷺ: «**من أراد الله به خيرا جعل غناه في نفسه وتقاه في قلبه، ومن أراد به شرّا جعل فقره بين عينيه**»[1]، وحسبهم من نقمة الله عليهم أن يكتب لهم الخاتمة الشقية بالموت على الكفر -والعياذ بالله- فهم في نكد من الدّنيا وشقاوتهم بها حتى تزهق أنفسهم على الكفر، والله أعلم.

خوف المنافقين من المؤمنين ولمزهم للنبي

في قسمة الصّدقات وسبب ذلك

أ)- النص:

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ
مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ
فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ
رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

١- رواه ابن حبان في صحيحه من حديث طويل لأبي هريرة، باب ذكر سؤال كليم الله ربه عن سبع خصال، رقم ٦٢١٧.

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾: أي من المخاطبين المؤمنين. ﴿يَفْرَقُونَ﴾: الفرق: الخوف الشّديد بحيث يحجب الإدراك الصّحيح عند صاحبه. ولذلك هم يحلفون تقية. ﴿مَلْجَأً﴾: جمعه ملاجئ، وهو المكان الذي يعتصم به. ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾: جمع مغارة، وهي الكهف أو الغار المتّسع بحيث يلجه الإنسان. ﴿مُدَّخَلاً﴾: اسم المكان للإدّخال: أي الدّخول بمشقة. ﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾: انصرفوا إليه وهم يسرعون في دخوله إسراعا لا يقاوم، أي لخوفهم من الخروج إلى الغزو. ﴿يَلْمِزُكَ﴾: من اللمز: وهو القدح والتّعييب في وجه الإنسان، والهمز: هو التعييب في الغيبة. وفعل: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ قرأه الجمهور من باب ضرب يضرب، وقرأه يعقوب وحده من باب نصر ينصُر. ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ﴾: حسب: اسم بمعنى الكافي أي الله كافينا في كل حال. ﴿إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ﴾: فعل "رغب" يتغيّر معناه وفق تعديته، فيتعدّى بنفسه فيقال رغبه: أي أحبه، ويقال: رغب فيه: أي طلبه وأحبّه، ويقال: رغب عنه: أي كرهه. ويتعدّى بـ"إلى" كما في الآية، بمعنى توجّه إلى الغاية التي ما بعدها غاية، ولا يكون هذا إلا لله تعالى، وهو مقام التّوكّل.

ج)- البيان والتّفسير:

يتابع السّياق بيان أسباب النّفاق وذكر مواصفاته من خلال ما عايشه الرّسول من ممارسات المنافقين في المجتمع المدني، فضمائر الجمع في هذه الآيات وما سبقها عائدة إليهم، وهي تبطل مختلف ادّعاءاتهم الكاذبة التي يموّهون بها على المؤمنين بالتّأكيد والأيمان الكاذبة فقال تعالى: **﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾**.

والأيمان الكاذبة من طرف المنافقين هي للتستّر والتّمويه كما قال تعالى

عنهم في سورة المنافقون: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (٢). يحلفون للمؤمنين كذبا وزورا أنهم من جملتهم في الإيمان والملة، ولكن حقيقتهم ليست كذلك، بل هم كافرون، ثم بيّن الله سبب تظاهرهم بذلك بأنه الخوف الشّديد من المؤمنين حتى لا يفتضح أمرهم. وجاء الحلف بصيغة المضارع للدلالة على التّجدّد وأن ذلك هو دأبهم. واختير للخوف لفظ "الفرَق" للدلالة على تمكن الخوف من قلوبهم بحيث فرّقها ومزّقها، ويتضمّن هذا الوصف ثناء على المؤمنين في العزة والقوة. ولبيان مظاهر خوفهم أضاف المولى تعالى قائلا: **﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾**.

وهو تصوير بديع للحالة النّفسية التي يكون عليها الخائف، وهو يلتمس الفرار بعيدا عن العيون طلبا لمختلف الملاذات والملاجئ، يهرع إليها كالدّابة الجموحة جريا بغير نظام. وما ذلك إلا لكفرهم ونفاقهم وخشيتهم من الخروج معكم إلى الجهاد. قال تعالى في شأن ذلك الخوف. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ (المنافقون:٤). ومثل هؤلاء هم منطوون على البغض والكراهية لله والرّسول وللمؤمنين، فهم يتحيّنون الفرص للطّعن واللّمز. ففي مجال توزيع الصّدقات يجدون ذلك المطعن فلا يترددون في اللّمز والعيب: **﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾**.

وأيّا كان الذي صدر عنه ذلك اللّمز من المنافقين الذين ذكرتهم الرّوايات التي تذكر أسباب النّزول، فإن العبرة بعموم اللّفظ. وجاء لفظ الصّدقات مجرورا بـ"في" أي في توزيعها وقسمتها سواء منها الغنائم أو أموال الزّكاة. ولا تزال الأموال والحصول عليها مصدر الفتن والصّراعات بين النّاس، سيما إذا صحبها الطّمع والشّحّ. كما وصف الله بذلك كثيرا من المنافقين في قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً

عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ (الأحزاب:١٩).

وجعلوا متعلّق سخطهم ورضاهم هو إعطاء الرّسول منها أو عدم إعطائهم، مما يدلّ على الأنانية والطّمع، وعبّر عن سخطهم وغضبهم بـ"إذا" الفجائية، لأنّ ذلك أمر يفاجئ العاقل حين يسمعه، ولأن المؤمن الوفيّ لا يداخله شكّ أو ارتياب في عدل رسول الله ومراعاة المصلحة العامّة، كما عقّب الله على ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾.

وفي هذا التّعقيب إرشاد من الله تعالى لما ينبغي أن يكون في مثل هذا الموقف، من الشّعور بالرّضى الكامل بما آتاهم الله ورسوله، فإيتاء الله هو ما شرعه وعيّنه في مصارف الزّكاة، مما يتحقق بعض أوصافها فيهم والتي على مقتضاها يؤتيهم الرّسول منها كما أمره الله، ومع الرّضى النّفسيّ الذي يملأ قلوبهم يعبّرون عن ذلك بقولهم: كفانا فضل الله حسبنا ورازقنا، فهو يؤتينا في المستقبل، لأن خزائنه لا تنفد، ورسوله أمين في ما يطبّقه وينفّذ، وإنا لراغبون إلى الله في توجّهنا ورجائنا لا نطلب سواه، ولا نطلب إعطاء ما ليس من حقّنا.

وحذف جواب الشّرط في "لو" لأنه معلوم بالقرينة، وتقديره: لو ارتضوا ذلك بقلوبهم وعبّروا عنه بألسنتهم لكان خيرا لهم فيجتمع بذلك الاعتقاد بالقلب والإقرار باللّسان. وقد تضمّن هذا الإرشاد أدبا عظيما لما يجب أن يكون عليه المؤمن من الرّضى والقناعة بما قسم الله له وما يناله بحقه، وأن يكون توجّهه إلى الله وحده في تحقيق رغائبه، والله أعلم.

المصارف الثمانية للزكاة

أ)- النص:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾: أي أموال الزّكاة، أفادت "اللام" وجوب إعطائها للمذكورين، لا تتجاوزها إلى غيرهم. و"اللاّم" هي للعهد الذّكري هنا، وإنما تفيد الحصر. ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾: جمع فقير: صفة مشبهة للمتصف بالفقر، وهو عدم امتلاك ما به كفاية لوازم العيش. ﴿الْمَسَاكِينِ﴾: جمع مسكين: صاحب المسكنة، وهي المذلّة التي تحصل بسبب الفقر، وهي السّكون حتى كأن العجز أسكنه. ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾: أي السّاعين في تحصيلها، فحرف "على" للتعليل. ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: هم الذين يستأنسون للدخول في الإسلام كالأشراف الذين يترقب بإعطائهم مال الزّكاة إسلام نظرائهم وأتباعهم. ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾: جمع رقبة، وتطلق على العبد يشترى بمال الزّكاة أو يعان منها على المكاتبة. ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾: جمع غريم وهم المدينون الذين ضاقت أموالهم عن أداء ما عليهم من الدّيون. ﴿وَفِي سَبِيلِ اللهِ﴾: أي ما تقام به وسائل الجهاد لحماية بيضة الإسلام. وقد توسّع بعض العلماء في هذا الصّنف إلى ما تقام به المصالح العامّة. ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: الغريب في غير قومه والمنقطع عن ماله.

ج)- البيان والتفسير:

هذا بيان للحكم الشّرعي في الصّدقات نشأ عن ذكر اللّمز من طرف

المنافقين لرسول الله كما ورد في الآيات السّابقة، تولّى الله تعالى بنفسه ذلك البيان حتى لا يبقى لأحد طعن ولا نقد. إذ خطت الآية طريق الحق والعدل في صرف الزّكاة قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾.

مما يلفت الانتباه في حكمة التّشريع الإسلاميّ، وفي أحكام ركن الزّكاة بالخصوص أنه لم يتطرّق إلى ذكر مصادرها وبيان مقاديرها إلا بإشارات عامّة، بينما نجده يولي اهتماما بالغا ببيان مصارف الزّكاة وجهات الاستحقاق فيها بيانا تفصيليا لا يتطرق إليه التأويل ولا يلفّه غموض. ذلك لأن المهمّ في نظر الاقتصاد الحديث ليس هو جباية الأموال أو تحصيلها، بل المهمّ هو كيف توزّع وكيف تصرف، وهذا البيان لمصارف الزّكاة يمثل كمال التّكافل والتّضامن في المجتمع المسلم، إذ ليست الزّكاة إلا تداولا لتلك الأموال بين فئات المجتمع تؤخذ من أغنيائه وتردّ على فقرائه، وخوّل لإمام المسلمين أن يتصرّف في المقدار الذي يخصّصه لكل صنف بما يحقق به المصلحة العامة للدولة.

والزّكاة تصرف في جهتين أساسيتين:

أ)- أشخاص لا يجدون ما يكفي ضروراتهم، ولا يقدرون على تحصيل ذلك، فجاءت الإضافة إليهم بـ"اللام".

ب)- مصالح عامّة ضرورية لإقامة الدّولة فجاءت الإضافة إليها بـ"في".

أ)- ففي الجهة الأولى يأتي ﴿الفقراء والمساكين﴾: وهما وصفان يدلاّن على الحاجة الحقيقية إلى ما يسدّ الرّمق ويكفي الضّرورة الملحّة. وهذان الصّنفان: الفقير والمسكين، لا يكاد يخلو منهما مجتمع، حتى تلك التي يقال عنها أنها متقدمة.

والمسكنة هي أشدّ دلالة على الفقر وصفه الله تعالى في سورة البلد بقوله: ﴿أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ (١٦). أي اللاصق بالتّراب من فقره، كما وصفه الرّسول

بأنه «هو الذي لا يؤبه به فيعطى ولا يقوم فيسأل النّاس»[١] أي لعزة نفسه.

وقد عُني القرآن بهذا النّوع من النّاس لما عانوه من الإهمال في المجتمع الجاهلي بالخصوص، وما تزال هذه الفئة عرضة للضياع والحرمان حتى اليوم، على الرّغم مما استحدثته النّظم الحديثة من الخدمات الاجتماعية محلياً وعالمياً.

وقال بعض العلماء بعكس ذلك في الفقير والمسكين، فرأوا أنّ المسكين أحسن حالا من الفقير استنادا إلى قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ (٧٩). فقالوا: المسكين هو الذي يملك شيئا ولكنه لا يكفيه. ولا تهمّ هذه التّفرقة بينهما ما دام الله تعالى قد لزهما في قرن واحد.

ب)- ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾: وهم الذين يقومون بجمع الزّكاة ووضعها في بيت المال، عندما كان نظام بيت المال متبعا. فهؤلاء يأخذون أجرة عملهم من مال الزّكاة مقابل الجهد الذي يبذلونه، و لم يحدّد النّصّ أن يكون محتاجا فقيرا بل أطلق ذلك وجعله مربوطا بالعمل ليس إلا. ويعلّق الشّيخ شلتوت على هذه الفئة فيقول: "وقد دالت الأيام وتغيّر الوضع، أهمل جانب الزّكاة فلم يعدله نظام جباة، وبذلك نستطيع أن نقرّر أن هذا الصّنف قد سقط من دائرة الاستحقاق، إلى أن يعود للزكاة نظامها ويعيّن لها جباتها، وهذا من وقف النّصّ لعدم محله، وليس من نسخه لعدم صلاحيته".[٢]

ويقول قطب الأئمة -رحمه الله-: "قلت: والصّحيح أن الهاشميّ أو المطلبيّ لا يكون عاملا على الصّدقات لما روي عن أبي رافع أن رسول الله استعمل رجلا من

١- رواه الربيع بن حبيب في المسند من حديث أبي هريرة، كتاب الزكاة والصدقة، باب في الصدقة، رقم ٣٤٩، بلفظ قريب منه.

٢- محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص١٢١.

بني مخزوم على الصّدقة فأراد أبو رافع أن يتبعه فقال رسول الله ﷺ: «**لا تحلّ لنا الصدقة وإن مولى القوم منهم**».[1] [2]

قلت: قد تدبرت مليًا هذا المصرف الهامّ فوجدت أن هناك مصالح كثيرة للمسلمين يقوم عليها رجال لهم كفاياتهم، ولهم جهود معتبرة في القيام بتلك المصلحة، فهل يعطون من أموال الزّكاة قياسا على العاملين عليها. ومما أثلج الصّدر في هذه الإشكالية أن وجدت في كتاب "فقه الزّكاة" للشيخ القرضاوي فقرة تحت عنوان: هل يقاس المشتغلون بمصلحة المسلمين على العاملين في الزّكاة؟، حيث يقول فيها: "ذكر ابن رشد أن الفقهاء الذين أجازوا الزّكاة للعامل عليها وإن كان غنيا، أجازوها للقضاة ومن في معناهم ممن المنفعة بهم عامّة للمسلمين".

وفي كتاب "النّيل" وشرحه في فقه الإباضية أنّ الزّكاة تعطى لعامل عليها ومن كان بمعناه كقاض ووال ومفت ونحوهم ممن اشتغل بأمر النّاس، قياسا على العامل. فيعطون بقدر عنائهم وشغلهم ومنفعتهم في الإسلام، وإن كانوا أغنياء لأنهم مكفوفون بأمر المسلمين عن السّعي لأنفسهم".[3]

ثم يقول الشّيخ القرضاوي: "لكن عامة الفقهاء يرون إعطاء هؤلاء من موارد الدّولة الأخرى من الفيء والخراج ونحوهما، لا من الزّكاة إلا من توسّع في مصرف ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ورآه يشمل كل قربة أو مصلحة".[4]

قلت: وبناء على ما ورد في شرح النّيل فإن الإخوة الذين يقومون اليوم على

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله، رقم ١٠٧٠.

٢- امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ٥٦/٦.

٣- امحمد بن يوسف اطفيش، شرح كتاب النيل وشفاء العليل، ١٣٤/٢.

٤- [illegible]

جمع الأموال من صدقات وزكوات للجمعيات الخيرية وللعشائر يندرجون في هذا الصّنف من العاملين عليها فيأخذون نسبة معلومة مقابل جهدهم وعنائهم، سيما إذا كانوا من المحتاجين.

ج)- ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: وذلك بالنّسبة لضعاف الإيمان المتردّدين، والذين تخشى ردّهم إذا لم يعطوا. ومن شأن تلك القلوب المترددة أن تؤلّف وإذا تألف القلب تألّفت الجوارح بالتبع كما قال الشّاعر:

أحســـن إلى النّاس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحســـان

وقال المتنبيّ:

وقيدت نفسي فـــي ذراك محبـــة ومن وجد الإحسان قيدا تقيّـــدا

ولهذا المصرف شأن عظيم في خدمة الدّين، سيما في أوقات الضعف والوهن، فلم يكن موقف عمر في تعطيله عندما قويت شوكة الإسلام، لم يكن نسخا للحكم، وإنّما هو تطبيق لوصف الاستحقاق فمتى وجد ذلك الاستحقاق عاد تطبيق ذلك المصرف ولا يحدّد ذلك إلا أهل الحلّ والعقد من المسلمين فيلحقون بهذا المصرف كل من يرون أنه موضع ثقة لقضاء مصالح المسلمين.

يقول الشّيخ شلتوت في هذا الصّدد: "وليس من ريب في أن حاجة المسلمين اليوم في دفع الشرّ عنهم ماسّة إلى تقوية ضعفائهم والاستعانة بكلّ ما ينفع في ردّ العدوان والبغي.

وإذا كان خصومنا قد لجأوا إلى هذا، وأعلنوا مشروعات "التّأليف والمعونة" التي يخدعون بها المتردّدين منا، ويؤلبون بها الأعداء علينا، فنحن لا نسدّ على أنفسنا هذا الباب، وقد فتحه القرآن لنا على مصراعيه، وأورده بكلمة واضحة تحمل معناها وتؤدّي غايتها.

وإذن فالذي كان من عمر والأصحاب هو وقف لإعطائهم في زمنهم، وليس نسخا للحكم كما قيل".[١]

د)- ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾: لقد توسّع المفسّرون في بيان وجه المغايرة بين التعبير بـ"اللام" للفقراء، وبـ"في" كما ورد في هذا الصّنف إذ قال تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾. ولعل أحسن ما قيل في ذلك -والله أعلم- هو ما ذهب إليه صاحب المنار وتبعه في ذلك الشّيخ شلتوت، إذ قسّم المصارف إلى قسمين أو حلقتين: أشخاص ومصالح، فالأشخاص تشمل الأربعة الأولى مع الغارمين وابن السّبيل، والمصالح تشمل مصرفين: في الرّقاب وفي سبيل الله، وهما المصرفان اللذان دخلت عليهما "في" مباشرة". انتهى.[٢]

قلت: ولغيرهما من المفسرين تأويل آخر، ولكلّ منهم احتمال ووجهة نظر، والرّقاب: جمع رقبة، والمراد بها في القرآن العبد أو الأمة، وهو تعبير مجازي إذ العبودية هي بمثابة الغلّ في الرّقبة، كما قال تعالى في سورة البلد: ﴿وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ، فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ (١٢-١٣). وقد جاء الإسلام لتحرير الإنسان وإنارة عقله بالعلم والمعرفة، وكانت أسباب الرّق متعددة في حضارة الإنسان، ولم يقض الإسلام على تلك الظّاهرة طفرة واحدة، بل عالجها بحكمة وتدرّج كما فعل بالعادات المتأصّلة في المجتمع الجاهلي كتعاطي الرّبا وشرب الخمر، فشرع لتحرير العبيد أحكاما مختلفة، فأبطل كثيرا من مصادر الرّق التي كانت بمثابة عقوبات جنائية، وأبقى لها سببا وحيدا وهو الحرب الإيمانية المشروعة.

يقول قطب الأئمة -رحمه الله-: "ومعنى كونها في الرّقاب أن يعطى منها المكاتبون، ويفدَى الأسرى ويشترى بها عبيد ليسلموا، ويعينوا المسلمين في القتال

١- محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص ١٢٢.

٢- يوسف القرضاوي، فقه الزّكاة، ٢/٦١٤.

أعتقوا أو لم يعتقوا، أو يشتري عبيد موحّدون فيعتقوا".[١]

وفي إطار التّخفيف من عنت الرّقّ حتىّ وإن كان موجودا في ظل الإسلام لبعض الوقت، فإن الرّسول ﷺ كان يوصي بما ملكت الأيمان خيرا فجاء في آخر وصاياه وهو في فراش الموت: «**الله الله في النّساء وما ملكت إيمانكم**».[٢] وجاء في ما أخرجه الشّيخان عن أبي هريرة قوله ﷺ: «**هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يده، فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلّفه ما يغلبه فليعنه عليه**».[٣]

وفي إشعار العبيد بالكرامة الإنسانية قال رسول ﷺ:« **لا يقل أحدكم: اسق ربك، أطعم ربك، وليقل سيدي، مولاي، ولا يقل: عبدي وأمتي. وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي**».[٤] قال تعالى في هذا الصدد: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾ (الكهف: ٦٠).

هـــ)- ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾: جمع "غارم" وهو من ركبته الدّيون في غير معصية، ثم عجز عن قضاء دينه، ولم يمهله صاحب الدّين، ولم يتنازل له عن دينه. وقد يستدين الغارم لمصلحة نفسه لطلب علم أو زواج أو معالجة...إلخ. وقد يستدين

١- امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ٦/٥٨.

٢- روى مسلم نحوه من حديث محمد بن علي عن جابر، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم ١٢١٨.

٣- رواه مسلم بألفاظ مختلفة من حديث أبي ذر، كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل...، رقم ١٦٦١؛ وروى البخاري نحوه من حديثه أيضا، كتاب العتق، باب قول النبي ﷺ: العبيد إخوانكم، رقم ٢٤٠٧.

٤- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد، رقم ٢٢٤٩.

لتحمله تبعات عامّة كإصلاح ذات البين، أو أصابته جائحة في ماله، فيعطى من مال الزّكاة ما يسدّ به دينه، وذلك يرجع في الإسلام إلى إغاثة الملهوف وتفريج كربة المكروب، وتعويد النّاس الكرم والإحسان. يقول قطب الأئمة تفريعا عن هذا المصرف، يقول: "وتعطى المرأة الزّكاة، ولو كان زوجها غنيّا إذا كان عليها دين، إذ لا تدرك عليه قضاءه، وتبيع من حليّها وتبقي قليلا تتزين به لزوجها، وإن لم يف ما باعت بالدّين أخذت زكاة لتقضيه، وهي داخلة في الغارمين، ويعطيها زوجها زكاة ماله إذا كان عليها دين ولا مال لها".[١]

و)- ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: خير بيان لهذا المصرف "في سبيل الله" هو ما أورده الشّيخ شلتوت بقوله: "والكلمة: "سبيل الله" على وجه عامّ كلّ ما يحفظ للأمة مكانتها المادية والرّوحية، ويحقق شعائرها على الوجه الذي تتميز به عن غيرها، وتقضي به حاجتها من نفسها".[٢]

قلت: يقول جمهور المفسّرين والفقهاء أنها تنطبق على الجهاد، كما ذهب إلى ذلك قطب الأئمة إذ يقول: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: الجهاد ولو لغنيّ يعطى منها زادا أو مركبا وسلاحا وما يحتاج إليه ولو كان له مال كما قال ﷺ: «**الصّدقة تحلّ للغزي الغنيّ**». ثم قال القطب وقيل: سبيل الله لإصلاح الطّرق وبناء الطّرق ومواضع الماء كالسكة، والأولى تفسيره بالسّعي في طاعة الله تعالى وسبل الخير، ولابد أن يكون فقيرا، فذكره تخصيص بعد تعميم للمزية".[٣]

إن تطبيق هذا المصرف يخضع إلى ظروف الأمّة من جهة، وإلى نظر أهل الحلّ والعقد فيها؛ فهم الذين يقدرون تلك الظّروف في حالتي الخوف والأمن، وفي

١- امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ٥٩/٦.

٢- محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص ١٢٤.

٣- امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ٥٩/٦.

حالات القوة والضّعف في المجتمع فيصنفون الاحتياجات ويراعون الأوليات.

والجهاد الذي ركّز عليه الفقهاء في هذا المصرف منه الإعداد المادّي الحربيّ بكل متطلباته ومنه الجهاد الرّوحي المعنويّ المتمثل في الدّعاية إلى الإسلام بما يتميز به من صلوحية وشمولية وبما يردّ عنه كيد الكائدين وشرّ الحاسدين.

ز)- ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: هو المسافر الذي انقطع عن بلده، وبعد عنه ماله، فهو محتاج إلى مال في العودة إلى بلده وإتمام مهمته. والسّبيل هو الطّريق ينسبه إليه، وإن كنا نعرف بلده، على أن يكون سفره في طاعة أو مباح، فله حقّ من أموال الزّكاة وإن كان غنيا في بلده.

وقد اعتنى القرآن بهذا النّوع في غير ما آية، فدعا إلى الإحسان به، لأن الإسلام يدعو إلى السّير في أرض الله طلبا للرّزق أو العلم أو حتى للسياحة النّافعة في دراسة أحوال الشّعوب والأمم وتوثيق الرّوابط بينهما، ولا يكون سفره في معصية.

يعطى من مال الزّكاة ما يكفل نفقته لبلوغ مقصده في ذهابه ورجوعه، وهناك تفاريع فقهية في الموضوع تطلب من مظانّها.

وقد اختلف الفقهاء في قضية استيعاب الأصناف الثّمانية في توزيع الزّكاة، أم أن ذلك يخضع لاجتهاد الوالي أو الحاكم فيقدم ويؤثر بها الصّنف الذي تدعو الحاجة إليه؟، وإن ذلك يخضع لظروف الزّمان والمكان؟، وهو المرجّح عند قطب الأئمة.

ثم قال تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾، أي أن الله تعالى هو الذي حدّد تلك الأصناف وفرضها لهم ليس لأحد فيها رأي.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: فهو أعلم بمن خلق وأدرى بما يصلح لهم، لانتظام

شؤون معاشهم بتوفير العدالة الاجتماعية وتحقيق التّضامن والتّكافل وكذا التّكامل بين النّاس لاختلافهم في الحظوظ الدّنيوية. وذلك من تمام حكمة الله ليتخذ بعضهم بعضا سخريا من جهة وليبلو النّاس في ما آتاهم من جهة أخرى، وفي كل ذلك تعادلية يقتضيها نظام الحياة، والله أعلم.

إيذاء المنافقين النبي، والرّدّ عليهم بأسلوب الحكيم

أ)- النص:

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿يوذُون﴾: من الإيذاء: وهو ما يؤلم الإنسان في نفسه أو بدنه أو ماله ولو ألما خفيفا. ويقال: أذي الإنسان بكذا وتأذّى تأذّيا. ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾: الأذن: الجارحة التي هي حاسّة السّمع، وهو كناية عن تصديقه بكلّ ما يسمع بدون تمييز بين المقبول والمرفوض. ﴿ويُومِنُ لِلْمُومِنِينَ﴾: أيّ يصدقهم في ما يخبرونه تصديق ائتمان وجنوح للمؤمنين الصّادقي الإيمان كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُومِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (يوسف:١٧). ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾: أي الإيمان الفعلي الصّادق، لا الإيمان الظّاهريّ المنافق.

ج)- أوجه القراءة:

﴿هُوَ أُذُنٌ﴾: قرأ نافع وحده بسكون الذّال ﴿أُذْنٌ﴾. وقرأ الباقون بضمّها.

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾: قرأ حمزة بجرّ: ﴿وَرَحْمَةٍ﴾ عطفا على خير -أي أذن رحمة- وقرأ الباقون بالرّفع والمآل واحد.

د)- البيان والتّفسير:

هذا ذكر لنوع آخر من أخلاق المنافقين وإيذائهم لرسول الله بالطّعن في أخلاقه العظيمة، كالذين لمزوه في تقسيم الصّدقات. وهؤلاء يقولون: هو أذن أي يصّدق كل ما يسمعه، فجاء الرّدّ الإلهي بأسلوب الحكيم على طريقة المحاورة. فقال عزّ من قائل: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيءَ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾.

وهذا نوع آخر من الطّعن وسوء الأدب مع رسول الله يصدر من مرضى القلوب بالنّفاق، وقد رأوا من رسول الله تلك السّماحة وذلك اللّين في معاملة النّاس وأخذهم على ظواهرهم وفق ما أمره الله به في قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحِ اِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة:١٣). وقيل: إن قائل هذا الكلام هو نبتل بن الحارث كان يأتي رسول الله فيجلس إليه فيسمع منه ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، وهو قال لهم: "إنّ محمدا أذن، من حدّثه شيئا صدّقه". فأنزل الله فيه هذه الآية. وقيل: هم جماعة من المنافقين قالوا ذلك. وقيل غير ذلك مما تناقلته روايات أسباب النّـــزول. فالقدح في رسول الله بمثل هذا الكلام اعتبره الله تعالى أذى تهدّد عليه بالعذاب الأليم، لأن مثل هذا الأسلوب، وإن كان ظاهره لا غضاضة فيه للذي لا يتعمّق الفهم، ولكنه في الحقيقة يدلّ على أن الموصوف به غرّ مغفّل ينخدع بما يسمعه دون أن يميّز بين ما هو صادق أو كاذب وهي صفة لا تليق بمن هو في مقام الرّؤساء وأولي الأمر، فما بال بمن وصفه الله بأنه على خلق عظيم.

وهكذا يكون المنطوي على الخبث والمكر إزاء من يكرهه باطنيا، فالمكروه وإن كان في حقيقته كامل الأوصاف بعيدا عن العيوب والدنايا فإن المبغض له

يختلق له ذلك ليشبع ما في نفسه من بغض وكراهية، وليشوّه سمعة من يبغضه وقد قال الشّاعر العربّي:

وعين الرّضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السّخط تبدي المساويا

وقد لقّن الله الرّدّ على هؤلاء بأسلوب الحكيم: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُومِنُ بِاللهِ وَيُومِنُ لِلْمُومِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾.

ويتجلّى أسلوب الحكيم في مثل هذا الرّدّ في ما يبدو أنه يوافقهم على وصفهم بأن الرّسول أذن، ثم يتبعه بما ينقض ذلك ويلغيه ويقلب عليهم مرادهم. فالرّسول وإن كان أذنا كما يزعمون، فهو نعم الأذن في الخير وسماع الحق، لا يسمع الباطل، ولا يروّج عليه أصحاب الأهواء، ولا يخدعه المتملقون بالوشاية والسّعاية لأنه أمين على وحي الله، إيمانا به وإخلاصا إليه، مما يقتضي منه أن يصدّق المؤمنين الأوفياء، إذ يتعامل معهم بالثّقة والأمانة، لما يعلمه من صدق إيمانهم وشدّة حبّهم لله ورسوله. وبالتّالي فإن سماعه لما يقوله المنافقون، وغضّه الطّرف عن بواطنهم الخبيثة، إنما هو بدافع الرّحمة والسّماحة لكم مراعاة للمصلحة العامّة، فهو وإن أنبأه الله من أخباركم لا يريد أن يفضحكم ولا أن يكشف أسراركم محافظة على وحدة المجتمع، فما أبلغ وصف الرّحمة بالنّسبة لهذا الصّنف من المنافقين. وهم المعنيون بقوله: ﴿منكُمْ﴾ لما فيه من التّعريض بغير الصّادقين، ومثل هذا الموقف لا يترتب عليه رحمة الله عند الحساب والجزاء، لأن الله لا ينظر إلى الصّور والأعمال، ولكن ينظر إلى ما في القلوب، فناسب أن يعقّب رحمة الرّسول إياهم في المعاملة على ظواهرهم بهذا التّهديد.

﴿وَالذِينَ يُوذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾: والآية ترتب العذاب الأليم على مطلق الإيذاء لرسول الله، وتنويع الوصف بين النّبوءة في أول الآية: ﴿وَمِنْهُمُ الذِينَ يُوذُونَ النَّبِيءَ﴾، وبين الرّسالة مضافة إلى لفظ الجلالة في آخرها إشادة بفضل

الرّسول وأن إذايته من إذاية مرسله، كما أن طاعته من طاعته، قال تعالى:

أ)- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً﴾ (الأحزاب:٥٧).

ب)- ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء:٨٠).

وقد فرق العلماء بين إذاية الرّسول في ما يتعلق بصفة الرّسالة والتبليغ كما يفعله الكفار والمنافقون وبين ما يكون من إذايته في العادات والشّؤون الدّنيوية فرتّبوا الكفر على النّوع الأوّل، والحرمة على النّوع الثّاني. ويطلب تفصيل ذلك في المطولات.

فاللّهم ارزقنا طاعتك وطاعة رسولك وحبّك وحبّ رسولك يا أرحم الرّاحمين، والله أعلم.

اضطراب أحوال المنافقين، وتخوّفهم من فضح القرآن لهم

أ)- النص:

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ
﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ
الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ
قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا
نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ
كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا
مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾: يحلفون لكم كاذبين ليتبرّأوا مما يبلغكم من أقوالهم طلبا لرضاكم. ﴿مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ﴾: من المحادّة، أي المعاداة والمخالفة. والحدّ طرف الشيء، أي يصبح كل من الطّرفين في ناحية. والفعل مجزوم بـ"من" وقد فكّ إدغامه. ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾: أي يخافون ويتحرّزون من أن يكشف القرآن نفاقهم، أو أن يكشفهم الرّسول على اعتبار أن التّاء في قوله: ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ للخطاب. ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾: الخوض في الأصل اللّغوي هو للدّخول في الماء أو الوحل، وكثر استعماله في الباطل. ﴿لاَ تَعْتَذِرُواْ﴾: الإدلاء بالعذر لمحو أثر الذّنب. ﴿طَآئِفَةً﴾: الجماعة من النّاس، والقطعة من الشّيء.

ج)- أوجه القراءة:

﴿إِنْ نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾: قرأ الجمهور: "يُعْفَ"، "تُعَذَّبْ" ببناء الفعلين للمجهول. وقرأه عاصم بالبناء للفاعل وبنون العظمة في الفعلين ونصب "طَآئِفَةً" الثّانية.

د)- البيان والتّفسير:

للمنافقين جميعهم أحوال يشتركون فيها، فلا تكاد تخطئهم، وقد ينفرد البعض منهم بتصرفات دنيئة خاصّة، كما يحكي القرآن عنهم بقوله: ﴿وَمِنْهُم﴾ أي بضمير الغائب وهذه الآيات في هذا النّصّ الكريم جاءت بضمير الخطاب للمسلمين لتعلم الرّسول وأصحابه بأحوال المنافقين الذين تخلّفوا عن غزوة "تبوك" ولتفضح أمرهم عندما تستّروا بالأيمان الكاذبة معتذرين فقال تعالى: **﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤمِنِينَ﴾**.

الضّمير في: ﴿يَحْلِفُونَ﴾ يرجع إلى المذكورين في الآية السّابقة، فهم كغيرهم من المنافقين الآخرين يتذرعون بالأيمان الكاذبة للمؤمنين التماسا لرضاهم حتى لا يفتضح أمرهم، لأنهم يعلمون أن المسلمين تبلغهم تلك الأقوال المؤذية لرسول الله، مما يغيظهم ويثير حفيظتهم. فيخاف المنافقون من مغبة ذلك فيتبرّأون من ذلك بالأيمان الكاذبة، وقد ينالون بعض الرّضى من المسلمين تأثرا بما يسمعون، ولكن الله الذي لا تخفى عنه خافية أحق بالإرضاء من المؤمنين وذلك لا يتحقق إلا بالإيمان الصّادق والاعتقاد بعلم الله الشّامل الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السّماء.

فالتماس رضى الله بطاعته ومحبته، والتماس رضى رسوله بتصديقه وتعظيمه هو مقتضى الإيمان المذيّل به في قوله تعالى: ﴿إِن كَانُواْ مُؤمِنِينَ﴾، فاستعمال شرط الإيمان يدلّ على أنهم إن بقوا على صنيعهم فهم كافرون، تترتب عليهم عقوبة جهنم والخزي الأبديّ إذ قال تعالى: **﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ، مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَأَنَّ لَهُ، نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾**.

الاستفهام للإنكار والتّشنيع في ذكر هؤلاء الضّالين لإقامة الحجّة عليهم ببيان خطورة ما هم عليه من محادّة الله ورسوله، وأن من شأن ذلك البعدَ عن الله والحرمان من رضاه، وجزاء ذلك عذاب جهنم والخلود فيها أبدا، لأن الحصول على رضى الله هو الفوز الأكبر كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:٧٢). ومقابله في عذاب جهنم هو الخزي العظيم، والخزي هو الذّلة والمهانة، وهي الجزاء الوفاق لمن اعتزّ بغير الله، لأن استرضاء الخلق بمعاداة الخالق ومعاداة رسوله يؤدّي إلى تلك المترلة الدّنيا من الذّلة والهوان بين النّاس، ومن العذاب والخزي في الجزاء الأخرويّ.

ولاضطراب أمر المنافقين وقلقهم بما هم عليه من الكذب والتّدليس على

المؤمنين، فهم في حذر وخوف من أن يفتضح أمرهم بوحي من الله لرسوله: **﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُواْ إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾**.

والحذر هو الاحتراز والتّحفّظ مما يخشى ويخاف منه، والذي يدفع المنافقين إلى هذا الحذر هو الشّك والقلق الذي يسبّب لهم ذلك الاضطراب النّفسيّ. وقد يقال: لم الحذر مما لا يصدّقون به من نزول القرآن على الرّسول؟.

وللمفسّرين تأويلات لهذه الآية. فقال أبو مسلم: "إنهم أظهروا الحذر استهزاء واستخفافا، لأنهم يكذّبون بالوحي فيما بينهم. فأخبر الله رسوله بذلك، وأمره أن يعلمهم أنه يكشف سرّهم ويدلّ على هذا التّأويل قوله بعد ذلك: ﴿قُلِ اسْتَهْزِءُواْ﴾". وهذا تأويل وجيه.

قلت: إن حالة الشّكّ لا تكون على درجة واحدة في نفوس المنافقين، فتارة تميل في بعضهم إلى التّصديق وفي البعض الآخر إلى التّكذيب، كما أن تجربتهم مع رسول الله في صدقه وأمانته في كلّ ما يخبر به من الأحوال التي كانوا يضمرونها، وإن في غير مجال الوحي، كلّ ذلك يجعلهم يبدون ذلك الحذر، وهو أمر طبيعي في الإنسان. والأظهر في معاد الضّميرين في: "عَلَيْهِمْ" وفي: "تُنَبِّئُهُم" أنه للمنافقين وأن تكون "عَلَى" للتعليل، أي لأجل أحوالهم.

غير أن للمفسرين احتمالات أخرى لعود الضّميرين، منها أن "التاء" في: "تُنَبِّئُهُم" لخطاب الرّسول، كما يجوز أن يعود الضّميران للمسلمين، وليس في ذلك ما ينافي الأسلوب البلاغي.

جاء الجواب بالتّهديد الإلهي بحصول الأمر المحذور: **﴿قُلِ اسْتَهْزِءُواْ إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾**، والتّعبير بالإخراج يكون للشيء الخفيّ أو المعدوم مما يدل

على قدرة الله في كشف السّرائر، وهو ما يخشاه المنافقون. قال تعالى في هذا المعنى: ﴿أَمْ حَسِبَ الذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ (محمد:٢٩).

وقد تعدّدت الرّوايات في ذكر أسباب نزول هذه الآيات، وأن مساءلة الرّسول عن أقوال المنافقين هذه وهزئهم وتلافيق اعتذاراتهم كان أغلبها في غزوة "تبوك"، إذ اعتبروها من حديث الرّكب، للاستجمام والرّاحة من عناء السّفر، وعندما سألهم الرّسول عن مناجاتهم أجابوه بما حكى الله عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

وعند الإمام ابن عاشور أن الآية نزلت في ما هو أعمّ من حديث غزوة "تبوك" مما يسألون عنه في المستقبل، إخبار بما سيجيبون. فهم يسألون عما يتحدثون في مجالسهم ونواديهم، وإنه حديث الخوض في الباطل واللّغو من الكلام، ولذلك كان الجواب بقوله: ﴿قُلْ أَبِاللهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾؟.

الاستفهام إنكاريّ توبيخي تقدم فيه المعمول على العامل لإفادة قصر التّعيين وأن الإنكار يقع على عمل الاستهزاء ابتداء لا على إيقاعه، لأنه استهزاء في حقّ الله وآياته ورسوله، والاستهزاء بالله يقصد به لازمه من الاستهزاء بتكاليفه وإرشاداته.

ولما كان في جوابهم هذا نوع اعتذار، ويتوهّمون قبوله، جاء الرّدّ الإلهيّ الحاسم بقوله: ﴿لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ يُعْفَ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾.

بعد أن كشف الله حالة استهزائهم أردفه برفض اعتذارهم، إذ هو محض الكفر بعد ما صرّحوا به من الاستهزاء الذي لا يقوم عذرا للمؤمن الحقيقي. فيكونون قد كشفوا بذلك عمّا يبطنون، وهو أشدّ وأشنع، والعاقل لا يتمسّك بما لا ينفع.

ولما كانت درجة النّفاق تختلف عند المنافقين -كما تقدم- فإن أسلوب القرآن في تعقيب النّذارة بالتبشير اقتضى هذا الحكم الإلهي بالعفو عن طائفة منهم إذا ما أخذوا بأسباب العفو من إخلاص الإيمان بالله والتّوبة النّصوح كما تحكيه الرّوايات عن الصّحابي مخشيّ بن حميّر، إذ حسن إسلامه واستشهد يوم اليمامة، ولفظ "الطّائفة" يصدق على الواحد كما أقرّه اللّغويّون. وأما من بقي على كفره ونفاقه فإنه -لا محالة- معذّب بسبب إجرامه، كما ثبت من الواقع التّاريخي أن الكثير منهم بقي على نفاقه حتى بعد وفاة رسول الله. أعاذنا الله من النّفاق ومن سوء الأخلاق، والله أعلم.

صفات المنافقين في الأولين والآخرين، وحظهم الدّنيويّ وجزاؤهم الأخرويّ

أ)- النصّ:

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ
وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ
عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا
فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ
وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ

وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾: "من" تدلّ على معنى الاتصال كأن كلّ فرد منهم هو بعض من الجميع، فهم متشابهون في صفة النّفاق، كما قال الشّاعر: تلك العصا من ذي العصية. أي أن حالهم مضادة تماما لحال المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ (التوبة:٥٦). ﴿بِالْمُنكَرِ﴾: المعاصي كلها، أيّ ما ينكره الشّرع والعقل وضدّه: ﴿الْمَعْرُوفِ﴾، وهو التوحيد وسائر الطّاعات. ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾: قبض الأيدي كناية عن الشّحّ، كما أن بسطها كناية عن الجود والسّخاء. ﴿نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾: نسيانهم لله مستعار لترك طاعته والإعراض عن ابتغاء مرضاته. وأما نسيان الله لهم فهو حرمانهم من فضله ولطفه ورحمته. ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾: الوعد يستعمل في الخير والشّرّ، والوعيد خاصّ بالشّرّ والضّرّ. ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾: هي كافتهم ملازمة لهم. ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾: أبعدهم عن رحمته. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: دائم ثابت لا ينقطع، سواء للعذاب الدّنيويّ من الذّلة والمهانة أو الأخرويّ، وهو غير عذابهم بالنّار الحسّية. ﴿فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاَقِهِمْ﴾: أي نصيبهم من ملاذّ الدّنيا. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: بطلت وفسدت. الحبط: الزّوال والبطلان. ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: الإتيان مستعمل في بلوغ الخبر، شبّه حصول الخبر عند المخبَر بإتيان الشّخص، والنّبأ: الخبر المهمّ. ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾: هي قرى قوم لوط. انتفكت بهم، أي انقلبت حتى صار عاليها سافلها -والعياذ بالله-.

ج)- البيان والتّفسير:

جاءت هذه الأوصاف الشّائنة للمنافقين قصد التّفريق بينهم وبين المؤمنين،

إذ يدّعون أنهم لمنهم كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ (التوبة:٥٦). كما أن ذكر أحوالهم بمزيد من التفصيل هنا هو لبيان أن النّفاق حالة واحدة في الرّجال والنّساء، وفي الأولين والآخرين، وبالتّالي فهم سواء في استحقاق العذاب وإحباط الأعمال، فقال جلّ من قائل: ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾.

لا غرابة أن يكون في النّساء منافقات، والأحكام الشّرعية تنطبق على الرّجال والنّساء في الجزاء والعقاب متى اتّصفوا بصفة واحدة في الأخلاق والممارسة، ففي أغلب الأحوال تتبع المرأة زوجها أو تتأثر بالمحيط الذي تتحرّك فيه وقد قال تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ (النور:٢٦). ثم إن لأصول التّربية والوراثة، وللانتماءات الإيديولوجية والعرفية أثرها في المجتمعات البشرية لتحديد التّوجّهات واختيار المذاهب والمشارب. ذلك ما تقرّره هذه الآية الكريمة، فالمتّصفون بالنّفاق هم ملّة واحدة سابقهم ولاحقهم، ذكرانهم ونسوانهم.

﴿**بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ**﴾: فهم متشابهون سلوكا وأخلاقا، حتى لكأنما الواحد منهم هو عين الآخر، ففي الجانب الخلقي تحدثت الآيات السّابقة عن جانب منه، وفي الجانب السّلوكيّ تذكر هذه الآيات ثلاثة أفعال:

أ)- ﴿**يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ**﴾: وهو كل قبيح من الأفعال ينكره الشّرع والعقل مما يضرّ بالمصلحة ويقويّ الرّذيلة.

ب)- ﴿**وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ**﴾: وهو ضدّ المنكر وتناول كل خير وبرّ كطاعة رسول الله وحبّه، والجهاد في سبيل الله.

ح)- ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾: وذلك كناية عن الشّحّ والبخل، إذ يمسكون عن واجب الزّكاة والصّدقة والبذل للجهاد وما إليه، كما قال الله في سورتهم "المنافقون": ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٧). وقال في سورة الأحزاب: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ (١٩).

وهذه المنكرات الفعلية الثّلاثة هي أقوى دلائل الشّرّ، وأعظمها دلالة على النّفاق، ثم ذكر الله ما في بواطنهم من كفر وجحود لنعم الله فقال: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾. فكونهم معرضين عن طاعة الله جاحدين لنعمائه فهم بمترلة المنسيّ عندهم فجازاهم الله بالمثل، إذ صاروا عنده بمترلة المنسيّ المطرود من رحمته، والمحروم من فضله.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: والحصر هنا للمبالغة بمعنى أن هذا الصّنف من المنافقين قد بلغ منتهى الفسوق بالنّفاق، فهم أشدّ فسوقا من غيرهم.

ولتأصّل هذا الدّاء فيهم ذكورا وإناثا بيّن الله جزاءهم المحقّق في الدّنيا والآخرة فقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

الوعد أعمّ من الوعيد إذ يكون في النّفع والضّرّ، والإتيان به في صيغة الماضي للدّلالة على ثبوت حكمه عبر الزّمان ليشمل الأوّلين والآخرين، وقرن الكفار بالمنافقين والمنافقات وأخّر ذكرهم في التّرتيب للدّلالة على أن الكفر الصّريح هو أقل جرما من النّفاق لما يتسم به المنافق من ضعف الشّخصية، وسوء الطّوية، ولؤم السّريرة، وإن تكن جهنم هي مثوى الجميع أي الكفار والمنافقين. فقد بيّن الله تعالى في سورة النّساء أن المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار، وهنا أضاف على عذاب جهنم أمورا ثلاثة تشديدا في الوعيد، وتنويعا للعذاب ما بين حسيّ

ومعنويّ، فقال تعالى: ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، أي هي ملازمة لهم وفيها ما يكفيهم من العذاب جزاء وفاقا، إلى جانب العذاب الرّوحيّ بحرمانهم من رضوان الله وطردهم من رحمته، وأكّد كل ذلك بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، ليدلّ على ملازمة ذلك العذاب لهم، و لم يذكر نوعه ولا مكانه ليشمل كل الأنواع الحسية والمعنوية في الدّنيا والآخرة.

ولزيادة التّفصيل لمشابهة المنافقين بعضهم من بعض جاء التّذكير بتلك النّماذج السّيئة عبر التّاريخ البشريّ وأنّها لاقت نفس المصير فقال تعالى: **﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾**.

التفات بالخطاب إلى المنافقين بعد رسم صفاتهم بصفة عامّة في كل زمان وتهديدهم بما يستحقون، وصيغة الخطاب أنسب للتذكير والموعظة، يذكّرهم بما كان من القرون الخوالي، وكيف كانت عاقبة الغرور بالقوّة والمال والأولاد، والافتتان بزينة الدّنيا، وأنّ مآل ذلك هو الخيبة والخسران، فوجه الشّبه بين هؤلاء وأولئك قويّ شديد، فهم كالذين من قبلهم في الافتتان بالقوة والغرور بالأموال والأولاد والاستمتاع بحظوظ الدّنيا.

وتكملة للصورة البلاغية في التّشبيه جاء المشبّه به أقوى من المشبه في القوة وكثرة الأموال والأولاد، غير أنّ كليهما فاسق بكفرانه لنعم الله واكتفائه بالمطالب الدّنيا واستهزائه برسل الله، فكانوا جديرين بذلك المصير المشؤوم بإحباط أعمالهم في الدّنيا بوقوعهم في الذّلّ والمهانة والفقر وفي الآخرة بالعذاب المقيم، فهم الخاسرون لكل شيء كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الزمر:١٥).

ويلتفت السّياق بعد ذلك إلى خطاب عامّ في استفهام تقريري وتوبيخيّ بتعيين نماذج من الأقوام السّابقين الهلكى بما كسبت أيديهم قال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾.

عاد الكلام إلى المنافقين بضمير الغيبة يذكّرهم الله بقوم ضلّوا قبلهم وساروا على نفس الطّريق، يذكّرهم بطوائف منهم حقّت عليهم كلمة العذاب، بعد أن جاءتهم رسلهم بالبيّنات على وحدانية الله ودلائل الحق والصّدق، فأعرضوا عنها وعاندوا الرّسل، فأهلكهم الله بذنوبهم وأخذهم بأنواع من العذاب كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٠).

وقد فرّع الله نفس المعنى في هذه الآية بأنهم ظلموا أنفسهم بالإعراض والمكابرة والاستهزاء بالرّسل، ولم ينتقم الله منهم إلاّ بعد الإنذار والإعذار ونفي الظّلم عن الله بـــ"لام الجحود" والبدء به في الجملة للاهتمام والتّدليل على أنّ ذلك جار على مقتضى سنة الله في خلقه في الإمهال والاستدراج، ثم الزّجر والانتقام. لأن صيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تدلّ على التّجدّد والاستمرار في الظّلم. قال تعالى في تقرير تلك السّنة الاجتماعية: ﴿وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠).

فاللّهم لا تؤاخذنا بذنوبنا ولا بذنوب غيرنا ولا بما كسبت أيدينا ولا بما فعل السّفهاء منا، والله أعلم.

أوصاف المؤمنين وجزاؤهم الأخرويّ، ومناقضتها لأوصاف المنافقين

أ)- النص:

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ
اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾: ترد "الولاية" في القرآن للنصرة في الشّدائد وما يتعلق بها، كما تجيء للأخوّة والمحبة. ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾: السّين لتأكيد حصول الرّحمة في المستقبل، كما يفيد ذلك "قد" مع الماضي. ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾: جاء بصيغة الماضي، إما أنه إخبار عن وعد تقدم في آي القرآن ذكّر به هنا، أو أنه قد صيغ بلفظ الماضي على طريقة صيغ العقود مثل بعت. وتصدقت بمعنى الالتزام الذي لا يتخلّف. ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾: أي قصورا ليس فيها ما يسوء النّاظر أو يزعج المقيم فيها مما يعهده النّاس من دور الدّنيا. ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: أي الرّضى القويّ الكامل، لأن زيادة الألف والنّون تدلّ على القوة كالغفران والشّكران. وهو بكسر الرّاء وضمّها. قرأه الجمهور بكسر الرّاء، وقرأه أبو بكر عن عاصم بضم الرّاء. ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾: العدن هو الخلد والاستقرار والثّبات، ومنه

المعدن لمستقرّ الجواهر وغيرها. وقيل: إنه اسم معرفة يراد به مكان أو منزل في الجنة كالفردوس. وقيل: لا يسكنه إلا النبيون والصّديقون والشّهداء.

ج)- البيان والتّفسير:

أعقب الله بيان أوصاف المنافقين وجزائهم الدّنيويّ والأخرويّ ببيان أوصاف المؤمنين وما أعدّ لهم من الثّواب والنّعيم في تقابل بديع بالتّضادّ، عطفه على ما سبق من قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾. فقال هنا: ﴿وَالْمُومِنُونَ وَالْمُومِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، فاللّحمة التي تجمعهم هي الولاية بالمحبة في الله والتّناصر في إعلاء كلمته، فهم في ذلك كالبنيان المرصوص وكالجسد الواحد كما وصفهم رسول الله، ولا يتحقّق لهم ذلك إلا بالتّراحم والتّكامل في ما بينهم عن رضى وقناعة، وعن وفاء وإخلاص على عكس المنافقين الذين لا يجمعهم إلاّ الأهواء والمصالح، فهم في تشابههم وتقليدهم كأن بعضهم ناشئ من بعض في تواجدهم وتكاثرهم كالجراثيم الضارة.

وبعد وصف المؤمنين بولاية بعضهم لبعض أعقبه بالشّرح والتّفصيل لما يتميزون به من أعمال وخصال فقال: **﴿وَالْمُومِنُونَ وَالْمُومِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُوتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾**.

نجد الصّفات التي ذكرها الله للمؤمنين مقابلة بالتّضاد للصّفات التي ذكرت للمنافقين، فالمؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقد جعل الله ذلك من شارات الإيمان، ومن خصائص الأمة الإسلامية التي كرّمها الله بالخيرية على النّاس في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠). وجعل مقابل: ﴿يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ في المنافقين إيتاء الزّكاة عند المؤمنين، وجعل طاعتهم لله

ورسوله مقابل التّمرّد والفسوق ونسيان الله عند المنافقين. وزاد عليهم المؤمنون بإقام الصّلاة على اعتبارها عماد الدّين وسياج الفضائل، وباعثا قويّا لذكر الله.

وبهذه الصّفات الجامعة لأسس الدّين استحقوا رحمة الله ورضوانه فقال جلّ من قائل: ﴿**أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾.

فإذا كان المنافقون حظهم من الله الطّرد من رحمته فإن الله يتعهّد المؤمنين والمؤمنات برحماته الواسعة في حاضرهم ومستقبل أمرهم بكل ضمان وتأكيد، كما يدلّ عليه حرف السّين في: ﴿سَيَرْحَمُهُم﴾.

وهو تعالى في وعده ووعيده عزيز لا يستعصي عليه أمر ولا يغالبه أحد، وحكيم لا يضع الأشياء إلا في مواضعها المناسبة، وكلّ تدبيره عدل ورحمة.

ثم بيّن الله تعالى مجالات تلك الرّحمة بما ينتظر المؤمنين والمؤمنات في نعيم الآخرة، وهم في ذلك سواء فقال: ﴿**وَعَدَ اللهُ الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾.

وقد أظهر الله في مقام الإضمار لمستحقّي وعده ليشعر السّامع بعلّة ذلك الاستحقاق بأنه الإيمان الصّحيح مقابل الوعيد للمنافقين، وقد تقدّم ذكر الجنّات وكيف صوّرها القرآن في التفاف بساتينها، وكثرة خيراتها، وتدلّي قطوفها وجريان أنهارها، وذلك في ما تقدم، وفي أغلبها يركّز الله على الخلود فيها وقد يؤكده بقوله: "أبدا"، كما قد يخصّص بالذّكر أنواعا من النّعيم الحسيّ كما قال تعالى في سورتي آل عمران والنّساء فقال في الأولى: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ (١٥). وقال في الثّانية: ﴿لَهُم فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ (٥٧). أيّ مطهّرة من كل عيب أو دنس قد تسبّب الأذى للزوج كالحيض والنّفاس والإفرازات الأخرى للجسم البشريّ.

وهنا يذكر الله تعالى المساكن الطّيبة في جنات عدن، وأنها مساكن بطيب المأوى فيها، لكونها توفّر لساكنيها كمال الرّاحة والسّكن النّفسيّ يزيدها زينة وجمالا موقعها في جنات عدن.

ولفظ: "عَدْن" إما وصف من عدن يعدن بموضع كذا بمعنى أقام فيه ولازمه، وقيل: هو اسم معرفة لمكان في الجنة يسمّى بهذا الاسم كالفردوس وأنه أعلى درجة في الجنة تكون للنبيين والصّديقين والشّهداء، كما تروي بعض الأحاديث أن تلك الدّرجة العليا هي: الوسيلة والفضيلة اللتين نطلبهما لرسول الله في دعاء الأذان، والله أعلم.

وقوله تعالى بعد ذكر جنات عدن: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾، هكذا باسم التّفضيل، وكونه غير معطوف بالنّصب على ما سبق، كلّ ذلك يدلّ على أنه أعظم النّعيم الرّوحاني يحظى به المقرّبون، وهو أعلى مراتب الحظوة عند الله، وفقنا الله إلى نيلها بفضله وكرمه، وذلك ما يستشرف إليه المؤمن عندما يطلب ربّه بقوله: "اللّهم إني أسألك رضاك والجنة وأعوذ بك من سخطك والنّار".

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: دون غيره من الحظوظ الخسيسة الفانية التي افتتن الكفار والمنافقون بها فأردتهم في مهاوي الضّلال والفساد، فماذا تجديهم تلك الطّيبات التي تمتعوا بها يوم يخزيهم الله ويذلّهم بين الخلائق كما يخبرنا بذلك المولى في سورة الأحقاف إذ يقول: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (٢٠).

والله أعلم.

جهاد الكفّار والمنافقين والغلظة عليهم

أ)- النص:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
(٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ
يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا
لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿جاهد﴾: من الجهاد، وهو استفراغ الجهد والوسع في مدافعة العدوّ إما بالسّلاح، أي القتال، وإما بالنّهي عن المنكر لردّ الظّلم والفساد، وهو ما اعتبره الرّسول الجهاد الأكبر. ﴿واغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾: من الغلظة وهي ضدّ اللّين، إذ تكون بالشّدة والقسوة في المعاملة. ﴿مَا قَالُواْ﴾: أي ما قاله هؤلاء من كلمات دالة على السّبّ والطّعن في الرّسول مما هو من دلائل الكفر. ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾: الهمّ هو نية القيام بفعل مّا سواء فعل أم لم يفعل. ونوال الشّيء: حصوله. والمقصود هو محاولة الفتك بالرّسول بعد رجوعه من تبوك. ﴿وَمَا نَقَمُواْ﴾: من النّقم، وهو الامتعاض من الشّيء واستنكاره. ﴿مِن فَضْلِه﴾: والفضل: الزّيادة في البذل والسّخاء. ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾: يعرضون عن التّوبة للرجوع إلى الإيمان.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد المقارنة البديعة بين صفات المؤمنين وصفات المنافقين والمقابلة بين جزاء

الفريقين، وعلى ذكر العذاب الدّنيويّ والأخرويّ للمنافقين، أمر الله نبيّه بجهادهم ولزّهم في قرن واحد مع الكفار، وأمره بالغلظة عليهم في المعاملة بعد أن أنذرهم وأمهلهم مدّة من الزّمن فلم يرعووا عن غيّهم.

وقد انكشفت جرائرهم ودسائسهم سيما في غزوة تبوك وأصبحوا بمثابة الكفار في وجوب قتالهم فقال تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

لقد تعدّدت الرّوايات في التّفسير النّقلي لهذه الآيات منها الصّحيح والضّعيف، تبيّن بعض تلك الأقوال والأفعال التي حاول بها المنافقون النّيل من سمعة الرسول أو الفتك به، وكانت غزوة "تبوك" -وبعضهم شارك فيها- كانت المحكّ الكاشف لتلك الدّسائس.

ويبدو أن هذا الإرشاد الإلهي لرسوله بتغيير سياسته في معاملة هؤلاء اقتضته الظّروف الموضوعية التي تعيشها الجماعة الإسلامية في السّنة العاشرة، ورسول الله قاب قوسين أو أدنى من الالتحاق بالرّفيق الأعلى، وهناك مسلمة الفتح في مكة والقبائل الأخرى في أطراف الجزيرة، وربما تجرّأ الكثير ممن دخلوا في الإسلام ولّما يرسخ الإيمان في قلوبهم، فيركبون موجة النّفاق حفاظا على مصالحهم، وفي ذلك كلّ الخطر على الصّفّ الإسلاميّ، سيما ما كان يتوقع من الهزات العنيفة بعد وفاة رسول الله، ولا أدلّ على ذلك من حروب الرّدة في زمن الخليفة أبي بكر ﷺ.

فإذا كانت المدينة المنورة هي عاصمة الدّولة الإسلامية وبالتّالي هي القلب النّابض في جسد الأمة يصلح بصلاحه ويفسد بفساده كان هذا النّهج الجديد في السّياسة والمعاملة هو الحزم والرّأي السّديد، حتى يسدّ الرّسول وخلفاؤه الطّريق أمام دعاة الفتنة، حين يعلمون بالجهاد والغلظة المأمور بهما لكل من تسوّل له نفسه بالنّيل من أمن الجماعة واستقرارها.

جاء الأمر الإلهي بالجهاد بصفة مطلقة أي في حقيقته من الجهاد بالسّيف في مواجهة الأعداء، وفي مجازه في الجهاد المعنويّ، من جهاد النّفس والشّيطان، والجهاد بالدّعوة واللّسان. ولا شكّ أن الأمر يشمل النّوعين، وأمّا بيان كيفية التّطبيق فهو يحتاج إلى أدلّة أخرى.

وللمفسّرين والأئمة تأويلات وتفصيلات لبيان ذلك، ومن التفسير المأثور ما روي عن ابن عبّاس في تفسير هذه الآية قال: جهاد الكفار بالسّيف، وجهاد المنافقين باللّسان.

وعن ابن مسعود قال: "لمّا نزلت: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أمر رسول الله أن يجاهد بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فليلقه بوجه مكفهرّ".

قلت: كان الرّسول في أوّل أمره بالمدينة المنوّرة يطبّق سياسة اللّين وأخذ النّاس على ظواهرهم، حفاظا على عهد الإسلام، وترويضا للشاكّين في أمانه، واستئناسا وتبشيرا للبعداء عن المدينة، ممن لا يعرف طبيعة النّفاق.

وقد جرّأت تلك السّياسة كثيرا من المنافقين فتمادوا في غيّهم وعنادهم كما أوضح الله ذلك من قبل. وفي هذا الإرشاد بشيء من الغلظة والقسوة عليهم تربية ودرء لهم عن تجاوز الحدود في التّحديّ والتّمرّد، يطبّق الرّسول هذه الخطة الجديدة التي أملتها الظّروف كما تقدم لتصبح أساسا لسياسته المنتهجة، وقد تقوّى الإسلام، وذلك على الرّغم مما جبل عليه من اللّين والرّحمة.

﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِيسَ الْمَصِيرُ﴾: تذييل مناسب لمقام التّهديد والوعيد.

ولإسناد الأمر الإلهي أعقبه بذكر الأسباب الدّاعية إلى هذه السّياسة الجديدة فقال تعالى:﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ

وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

يبيّن هذا التّعقيب على الأمر بجهاد الكفار والمنافقين يبيّن بعض المواقف الخسيسة لهؤلاء مما يدلّ على الكفر، سواء بأقوالهم أو أفعالهم، ثم هم يتنصّلون من ذلك بالأيمان الكاذبة.

أ)- فمن أقوالهم ما هو صريح في الكفر، فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾، يقصد بها جنس كل كلام فيه الكلمات التي تفوّهوا بها، سيما من شيوخ المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول. وقد قال ما حكاه الله عنه: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ (المنافقون: ٨).

كما تنقل الرّوايات في شأن الجلاّس بن سويد بن الصّامت لأنه قال: "لئن كان ما يقول محمد حقا لنحن أشرّ من حميرنا هذه التي نحن عليها". وحين سألهما رسول الله عن مقالتهما حلفا بالله ما قالا ذلك، ولكن الله تعالى فضح هؤلاء فأسند الكفر إليهم، وأن إظهارهم للإسلام كان صوريا.

ب)- ومن أفعالهم الخبيثة مؤامرتهم للفتك بالرّسول في أثناء عودته من غزوة "تبوك" عندما همّ فريق منهم أن يدفعوا برسول الله وهو يسير في عقبة لطريق تحتها واد، وهم متلثمون، ولكن الأصحاب المحيطين براحلة الرّسول فطنوا بهم فصاحوا عليهم فهربوا.

وقد تعّددت الرّوايات في إيراد تلك القصة التي همّ فيها المنافقون بالنّيل من رسول الله ولكن الله فضح مؤامرتهم، فلم ينالوا ما يريدون.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾، وهذا التّعبير مما يسمّى في البلاغة بالمدح في معرض الذّم، ونقمت الشّيء بمعنى أنكرته إما باللّسان وإما بالعقوبة، وهل ينقم الإنسان من الغنى؟، وهل فيه عيب

حتى ينكر؟، وقد جاءكم رسول الله بالغنى والرّفاه، وكان ذلك من فضل الله عليهم، وكان الأحرى بهم أن يشكروا تلك النّعمة فيزدادون حبًا لله ورسوله، ولكنهم كانوا على عكس ذلك لفساد طبعهم، وهم الذين يريدون زينة الحياة الدّنيا.

وقد أفرد الضّمير في قوله: ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ عوضا عن "فضلها"؛ لأن الله لا يثنّى معه أحد ولو كان رسوله.

وبعد ذلك الافتضاح لأمر المنافقين فتح باب التوبة لهم لأن ذلك من تمام رحمته لخلقه فقال جلّ من قائل: **﴿فَإِنْ يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾**.

رتب الله على التّوبة كل خير، لأن المنافق إنسان ضعيف الشّخصية، بما يتستر به من أساليب المراوغة والمداجاة، فلا يلقون من الناس حرمة، ولا لأنفسهم طمأنينة، وقد أصاب الشّاعر الزّهاوي حين قال:

إذا رمت أن تلقى من النّاس حرمة فكن سيّدا للخير أو سيّد الشرّ

والله الرّحيم بعباده قد فتح باب التّوبة لكلّ أصناف الخلق، حتى لا تستشري الذّنوب ولا ييأس المذنبون، فكان من نتيجة ذلك أن تاب كثير من المنافقين، ومنهم الجلاس بن سويد.

وأما من أعرض عن رحمة الله وفضله، فإن عذاب الله لا يخطئه في الدّنيا والأخرة، فله في الدّنيا العيش الضّنك والخزي والشّقاء، ولعذاب الآخرة أخزى، وهم لا ينصرون إذ لا وليّ لهم ولا نصير، إذ انقطعت أسباب الولاية والنّصرة عنهم بما حقّقه الإسلام من الأخوة الدّينية بين المؤمنين وإلغاء النّخوة الجاهلية، والله أعلم.

من صفات المنافقين إخلاف الوعد

أ)- النص:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ
﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ
إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾: أي مالا وثروة ليشكرن الله عليها بالصدقة وأعمال البرّ. ﴿بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾: أي بخلوا بما لهم وانصرفوا عما عاهدوا الله عليه بإصرار وعناد. ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: يقال: أعقبه الشيء إذا جعله عاقبة أمره وثمرته. والضمير في: ﴿أَعْقَبَهُمْ﴾ إما أن يعود إلى البخل وإما أن يعود إلى الله. أي خذلهم الله فأورثهم بذلك نفاقا ثابتا متمكنا من قلوبهم إلى يوم الحساب. ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾: أي ما كانوا يلمزون به رسول الله في مجالسهم -كما تقدم-، والاستفهام للتوبيخ والإنذار.

ج)- البيان والتفسير:

عود إلى فضح أسرار المنافقين وكشف مواقفهم المخزية وذلك باستعمال ضمير الغائب: "مِنْهُم"، والمتحدث عنهم هم المنافقون -كما سبق- وأن وصفهم الله بالكذب والزور. وفي هذه الآيات يصفهم الله بإخلاف الوعد وبالخيانة، وهي

من آيات النّفاق الثّلاث التي ذكرها رسول الله: «**إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان**».[1]

ولئن حدّدت روايات أسباب النّزول رجلا بشخصه يقال له ثعلبة بن حاطب، فإن هذه الصّفة الدّنيئة هي سمات المنافقين في كل زمان ومكان، يلجأون إلى الله في وقت الشّدّة والعسرة، فإذا استجاب لهم بالفرج وكشف الضّرّ عنهم أعرضوا عنه وكفروا نعمته. قال تعالى في مثل هذا الصّنف من النّاس: **﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾**.

وأيّا كانت قصة ثعلبة بن حاطب في أحداثها التي بدأت في عهد الرّسول وانتهت بموته في زمن الخليفة عثمان، وسواء نزلت في شأنه أو في غيره من المنافقين كما ذكرته بعض الرّوايات الأخرى، فإن العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب، فإن خلف الوعد ليس من سمات المسلم الوفي. وكم في القرآن من وصايا الله على الوفاء بالوعد لما في ذلك من ضمان للثقة المتبادلة بين النّاس ومن مقتضيات الإيمان الصّادق أن يعظم المؤمن ربّه في الوفاء بعهوده، لأنّ الوازع الإيماني لدى المسلم الوفي هو أعظم توثيق لتلك العهود والمواثيق.

وكلّما ضعف ذلك الوازع أو غاب تماما -كشأن المنافقين- استساغ صاحبه كلّ رديئة وأصاب كل شرّ. وترى أمثال هؤلاء يتستّرون ويريّمون على النّاس في تصرفاتهم بالأيمان والقسم بالله، سيما في وقت الشّدة والضّيق، إذ يدعون الله ويعاهدونه ليشكرنّ نعمته، وليذكرن فضله إذا أنعم عليهم.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ. فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾:

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٣.

وهم حين يدركون ما يتمنّون، ينكصون على أعقابهم مدبرين جحودا وتنكرا لنعمة الله، ومن نتيجة ذلك أن يزدادوا نفاقا على نفاق يترسّخ في قلوبهم ويلازمهم حتى الموت، ولهم سوء العقبى في ذلك، لأن الله تعالى يترك المنافق لنفسه يدسّيها بسوء فعاله، وذلك بناء على أن الضّمير في قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ راجع إلى الله في أرجح الأقوال، كما يدلّ عليه قوله تعالى في سورة اللّيل: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (الليل:٨-١٠).

ثم بيّن الله تعالى سبب تلك الموتة الرّديئة فقال: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾، "الباء" للسببية أو التّعليل للموت على النّفاق، فذكر الله سببين: إخلاف الوعد والكذب.

وبما أن صفة الكذب هي أصل الأخلاق الرّديئة وأنها متمكنة منهم فقد جاء التّعبير بـــ"كان" وبصيغة المضارع في خبره ليدلّ أنها صفة ملازمة لهم في كل الأحوال والأوقات، وبذلك تترسّخ عادة الشّرّ والفساد في طبائعهم.

وبما أن مثل هذا الموقف لا يكون ممن يؤمن بالله صادقا ويعتقد أنه تعالى لا تخفى عنه خافية جاء التّنديد من الله في صيغة الاستفهام التّقريري فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾.

فالسّرّ هو ما يعتلج في النّفس من الخواطر، والنّجوى ما يتناجى به النّاس في ما بينهم، والغيب ما خفي عن الخلق، وبما أنّ علم الغيب عند الله، وأنّه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصّدور، وبالتّالي فهو يعلم السّرّ وأخفى، فكيف لو كان هؤلاء صادقين في إيمانهم يخلفون وعد الله ويكذبون على النّاس في ما يحلفون عليه باسمه؟، ولكنهم قوم مرتابون، وفي البعث والحساب شاكون، فلا عذر لهم في ما يفعلون.

والله أعلم.

سخرية المنافقين من المؤمنين، وعدم المغفرة لهم

أ)- النص:

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٨٠﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾: اللّمز هو القدح والتّعييب في وجه الإنسان، والمطوّعين أصله المتطوّعين، أدغمت "التاء" في "الطّاء" كالمطّهّرين، والتّطوّع في العبادة أو النّفل هو ما زاد عن الواجب. ﴿لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ﴾: والجهد: بالضمّ والفتح، الطّاقة، أي يأتون بأقصى ما يستطيعه الإنسان. ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: يراد بذلك التّسوية بين الأمرين. ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾: يستعمل السّبعون لإرادة الكثرة، ولا يراد به عدد بعينه بل يراد به المبالغة.

ج)- البيان والتّفسير:

ليت المنافقين إذ بخلوا بما لهم واخلفوا بذلك وعد الله، ليتهم وقفوا عند ذلك الحدّ، بل تعدّوه إلى لمز المؤمنين والسّخرية منهم لما بذلوه من أموالهم كلّ على قدر طاقته، وهم بذلك قد بلغوا أقصى حدّ من النّفاق والكفر بحيث لا يجدي فيهم استغفار الرّسول لهم رجاء هدايتهم فقال تعالى: **﴿الذينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعينَ من الْمُومنينَ في الصَّدَقَات وَالذينَ لاَ يَجدُون إلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ منْهُمْ سَخرَ**

الله مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

يذكر المفسّرون في سبب النّزول أن الرّسول ﷺ حثّ النّاس على الصّدقة لغزوة "تبوك"، فاستجابوا لذلك كلّ على طاقته ما بين مكثر ومقلّ. وقيل: جاء عبد الرّحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وجاء عاصم بن عديّ بأوسق من تمر، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر. فقال المنافقون: ما جاء به عبد الرّحمن وعاصم إلا رياء وسمعة، وأحبّ أبو عقيل أن يذكّر بنفسه في الفقر ليعطى من الصّدقات.

ولكن الله الذي يعلم ما في الصّدور أنزل هذه الآية ليردّ على طعون المنافقين ويتهدّدهم بالعذاب الأليم، وليبيّن أن الملموزين هم مؤمنون متطوعون قد بذلوا ما في وسعهم بنية خالصة، وذلك كاف عند الله، إذ ليس متعلق القبول عنده هو الكثير أو القليل مما يتصدق به، وإنما هو النّية والمقصد النّبيل: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ (الحج:٣٧).

وشأن المنافقين أن لا يسلم من ألسنتهم أحد مهما يكن قدره ومنزلته، كما لا يرتضون أعمال غيرهم ولو كانت من أعمال البرّ والخير. وهم بالأمس قد لمزوا رسول الله في تقسيم الصّدقات وهو من هو في صدقه وعدله ﷺ، وهاهم يجدون وسيلة إلى الطّعن في المؤمنين المتطوّعين لأداء تلك الصّدقات، وصفة "المطوّعين" تشمل المكثرين والمقلّين، وعطف عليهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ﴾ للاهتمام بشأن هؤلاء أكثر، لأن السّخرية منهم كانت أشدّ ويتضمّن التّعبير أعذارهم، إذ لم يبخلوا بما يملكون، ويقول قطب الأئمة رحمه الله: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ﴾ عطف على ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ عطف خاصّ على عامّ، لأن المطوّعين شامل للذين لا يجدون إلا جهدهم، لا على المؤمنين، لئلا يوهم أن الذين لا يجدون إلا جهدهم ليسوا من المؤمنين.

وبما أن المنافقين لا يتجاوزون بنظرهم ظواهر الأشياء، وهم يحكمون على

النّاس بما ترشح به قلوبهم من الغش وسوء النّية، فلا المكثرون حازوا رضاهم، ولا المقلّون. فيتأوّلون كل تصرّف وفق هواهم، وسلاحهم في ذلك السّخرية والاستهزاء تحقيرا من شأن أولئك المقلّين، وكان جزاؤهم عند الله من جنس العمل، بأن أهانهم واحتقرهم فعادت تلك السّخرية عليهم. والتّعبير: ﴿سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ﴾ من باب التّمثيل والمشاكلة، ولهم عذاب أليم في الجزاء الأخرويّ.

ومن وقاحتهم ما رواه ابن عباس أنه عند نزول الآية الأولى في المنافقين قالوا: يا رسول الله استغفر لنا، فقال رسول الله ﷺ: «**سأستغفر لكم، واشتغل بالاستغفار لهم**» فنزلت هذه الآية: **﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾**.

وفي سورة المنافقون شبيه بهذه الآية، وقد ورد في أسباب نزولها أن عبد الله بن أبيّ بن سلول لما ظهر نفاقه وتنكّر له النّاس وعابوه لقيه رجل من قومه فقال له: ارجع إلى رسول الله يستغفر لك فقال له: ما أبالي أستغفر لي أم لم يستغفر فنزل فيه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ، سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (المنافقون:٥-٦).

وفي الآيتين ما يدلّ على أن النبيّ كان يستغفر للمنافقين جريا على ظواهر أحوالهم، وهو يفعل ذلك بدافع رحمته وحرصه الشّديد على إنقاذ من يمكن إنقاذه من عذاب الله وسخطه. وفي استغفار الرّسول لأمثال هؤلاء ومن على شاكلتهم رجاء لهدايتهم ورجوعهم إلى الحقّ، ولكن نزول هذه الآية بعد آية "المنافقون" منعٌ لذلك الاستغفار تأييسا من رضى الله عنهم، وأنه لن يغفر الله لهم، ولو استغفر لهم الرّسول سبعين مرة، مبالغة في نفي الغفران على أسلوب العرب في إرادة الكثرة

بعدد سبعين.

ثم بيّن الله العلّة التي لأجلها لا ينفعهم الاستغفار فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾، فالباء سببية، أي لأنهم مشركون بالله جاحدون لرسالة رسول الله، ومن كان كذلك فقد فسق عن أمر الله، فلا ترجى هدايته لأنه مختوم على قلبه بالتيه والضّلال مع سبق الإصرار، والله أعلم.

الإنذار بعذاب النّار للمتخلّفين عن الجهاد

أ)- النص:

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾: الفرح شعور النّفس بالارتياح والسّرور. و﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾: بصيغة اسم المفعول، لأن النبي خلّفهم بعده في المدينة عند غزوة "تبوك". ﴿خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ﴾: "خلاَف" لغة في "خلف" أي بعد، بمعنى الظّرفية ويكون مصدرا "للمخالفة" وحينئذ يكون منصوبا على المفعول لأجله. ﴿لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ﴾: أي لا تخرجوا إلى الجهاد في وقت الحرّ. لأن غزوة"تبوك" وقعت في الصّيف. ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً﴾: لأن حرارة الصّيف في الدّنيا، أقلّ درجة في طبيعتها وأقصر وقتا في مدتها. ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً﴾: يراد بصيغة الأمر الإخبار عن حالهم.

ج)- البيان والتفسير:

كانت غزوة "تبوك" مبعث الحديث عن أحوال المنافقين في أقوالهم وأفعالهم. وانتهى الحديث عن ذلك عند الآية الثّمانين بذكر اعتذارهم عن الخروج، ثم ما كان من استغفار الرّسول لهم، وكان من طبيعة ما تحقق لهم من القعود عن الجهاد، ومن حصولهم على استغفار الرّسول لهم، أن يشتدّ فرحهم بذلك ظنّا منهم أنهم نجحوا في التّريم والمخادعة، وأنهم استغفلوا الرّسول بذلك، وبالتّالي يسكت الوحي عن فضحهم فنزل هذا التّهديد الشّديد يهزّ كيانهم ويزلزل قلوبهم فقال عزّ من قائل في استئناف ابتدائي: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُواْ أَنْ يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

والمخلّفون هم الذين تخلّفوا عن رسول الله في غزوة "تبوك" وفرحوا لأنهم ظنوا أنهم باستغفار الرّسول لهم قد انطلت حيلتهم عليه، وأنّ الله يعذرهم على قعودهم.

واختير لفظ "خِلاَفَ" للظرفية دون لفظ "خلف" لما يدلّ عليه لفظ "خِلاَفَ" من المخالفة لإرادة رسول الله فهم لا يؤمنون بما في الخروج من الأجر العظيم ابتداء، ولا شك أن الرّسول قد أخبره الله بما في قلوبهم من الضّلال، وأن خروجهم يكون فيه للمسلمين تشويش وخبال، وهم مدفوعون في ذلك بكراهيتهم للجهاد.

وليت موقفهم هذا كان مقتصرا على أشخاصهم، ولكنهم أخذوا يأمرون بالمنكر إذ قالوا لمن كان على شاكلتهم في النّفاق: ﴿وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ﴾، ولا يعدم المنافق تأويلا ولا تبريراً لمواقفه المخزية، فلو كان الخروج شتاء لاعتلّوا

للقعود بشدّة القرّ، فأمر الله رسوله أن يدمغهم بهذا التّهديد المرعب: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

وفي هذا الإخبار تقريع لهم بأنهم -لا محالة- صائرون إلى ما هوّ أشدّ حرارة وعذابا بنار جهنّم، وهذا التّهديد مبنيّ على إيمانهم الظّاهري باليوم الآخر، وإلا فهم في الحقيقة لا يؤمنون. ولكن أساليب التّذكير بما فيه من التّرغيب والتّرهيب تطال كل أصناف النّاس، فيستفيد كلّ بما يناسبه.

والتّعقيب بقوله تعالى: ﴿لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ يدلّ على المعنى المتقدّم من أنهم لا يفقهون ذلك التّذكير، وعلى تقرير أنهم صائرون إلى نار جهنم، ولتنغيص فرحهم بالقعود جاء هذا التّفريع بقوله تعالى: ﴿**فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾.

فهو أمر بالضّحك القليل والبكاء الكثير، ولكنه إخبار من الله وإنذار لما يكون من أحوالهم سواء في الدّنيا أو في الآخرة، لأنّ لكلّ من الضّحك والبكاء أسباباً تقوى أو تضعف في التّأثير على نفس الإنسان، فيعبّر عنهما الإنسان بكيفيات مختلفة.

ويحتمل أن يحصل لهم ذلك في الدّنيا والآخرة، غير أن البكاء الكثير يحصل لهم قطعا في الآخرة، لأن أسبابه أشدّ وأنكى مع الدّوام والاستمرار عاقبته الخزي والنّدامة، حيث لا يملكون الاختيار لأسباب الفرح، كما كانوا عليه في الدّنيا، إذ ينقطع عمل ابن آدم بالموت، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿**جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾.

والآخرة هي دار الجزاء، أي جزاء البكاء الكثير عقابا للضحك القليل، وأن ذلك بما كسبت أيديهم من النّفاق. وفي معنى هذه الآية ما رواه الشّيخان من قوله ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا**». وعن التّرمذيّ زيادة:

«لخرجتم إلى الصّعدات تجأرون إلى الله تعالى، لوددت أني كنت شجرة **تعضد**».[1] وهذا بالنّسبة إلى الخلق كلهم لو انكشف لهم الغطاء ليطّلعوا على ما اطلع عليه رسول الله ليلة أسرى به، إذن لجأروا إلى الله من شدة الخوف. أعاذنا الله من النّار ومن الشّيطان الرّجيم، والله أعلم.

حرمان المنافقين من الجهاد، والمنع من الصّلاة على موتاهم

أ)- النص:

فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾: رجع يرجع رجعا: يكون قاصرا ومتعديّا مرادفًا لأرجع إرجاعا، و"الفاء" للتفريع على ما قبله. والطّائفة هي

١- رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، رقم ٧٩٩؛ ورواه مسلم من حديث أنس، كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ، رقم ٢٣٥٩.

وأما رواية الترمذي فرواها من حديث أبي ذر، كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم...»، رقم ٢٣١٢، وقال: وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس وأنس. ثم قال: هذا حديث حسن غريب، ويروى من غير هذا الوجه أنّ أبا ذر قال: لوددت أني كنت شجرة تعضد.

الجماعة. وقيل: المراد به الرّجوع المجازي، الرّجوع إلى الحديث مع المنافقين، لأنه ليس كلّ من تخلّف منافقا، إذ في المتخلفين من قعد بعذر. ﴿رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: أي في الوقت الأوّل، أي الخروج إلى "تبوك"، انتصب على الظّرفية والأصل فيه "المرة الأولى". واسم التّفضيل "أوّل" إذا أضيف إلى النكرة اقتصر على الأفراد والتّذكير. وقيل: نصب على أنه مفعول مطلق تقديره: قعدة سابقة. ﴿فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ﴾: مفرده "خالفٌ" ومعناه: المتأهّلون للتخلف عن الغزو كالصّبيان والنّساء. وهو تعيير لهم. أو هو من كلمة "الخَلفُ" ضدّ الصّلاح من قولهم: خلف اللّبن، أي تغيّر وفسد. ويقال: هو خالفة أهله أي فاسدهم وشرّهم. ﴿وَلاَ تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾: إما عند دفنه أو لزيارة اعتبار وموعظة. ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾، ﴿وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾: والكفر والفسق في الجملة التّعليلية هما بمعنى واحد، لأن الفسق هو الخروج عن الإيمان بعد التلبّس به وذلك أشنع من الكفر ابتداء.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد بيان فرح المنافقين بالتّخلّف عن الجهاد وكراهيتهم له، ثم تنغيص ذلك الفرح بالوعيد والتّهديد فرّع الله على ذلك الحديث ذكر بعض أوجه معاملتهم التي يجب على الرّسول اتّخاذها بعد عودته من غزوة "تبوك" تجاههم فقال عزّ من قائل:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ﴾.

الخطاب للرسول ﷺ يرشده الله فيه بما يجب أن يعامل به المتخلفين عن "تبوك" بعد عودته منها، لأنهم سوف يتطلعون إلى غزوة أخرى قريبة الشّقة ليحضروها نفاقا وتلبيسا على المؤمنين. وقد نبّأ الله رسوله بما سيكون منهم فأمره أن لا يأذن لهم بالخروج معه، ولا بالقتال إلى جانبه لأيّ عدوّ كان، وأكد النّهي

بعد "لَن" التّأبيدية بكلمة: ﴿أَبَداً﴾، وهذه العقوبة إما منعا لخبالهم إذا خرجوا مع المسلمين كما قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ (التوبة: ٤٧). أو للزجر والتّأديب عساهم يتوبون. ثم بيّن الله سبب المنع بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: والرضى بالشّيء دليل على استحسانه والتّمسّك به حتى يصبح رغبة ملّحة. وهذا التّذكير بموقفهم السّابق فيه تعيير وتوبيخ لهم.

وقوله تعالى: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي عند الخروج والتّعبئة إلى غزوة "تبوك" ولذمّهم وتحقيرهم أكثر فرّع الله عن الجملة السّابقة قوله تعالى: ﴿فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ﴾. وفي هذا التّعبير التّهكّمي إيلام لهم لأن الطّيور على أمثالها تقع. والقعود في أمثال هذه المواقف الرّجولية لا يكون إلا للخالفين مع النّساء والذّراري، كما عبّر الحطيئة الزّبرقان بقوله:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطّاعم الكاسي

ثم أضاف الله تعالى حرمانهم من بعض الحقوق الشّرعية عندما يموتون، وذلك بعدما ظنوا أنهم ينتفعون باستغفار الرّسول لهم، كما تومئ إليه الآية السّابقة: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، فعطف الله عليها هذا النّهي عن الاستغفار لهم والصّلاة على موتاهم فقال: **﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾**.

الضّمير في: "مِنْهُم" للمنافقين ينهى الله رسوله عن الصّلاة على موتاهم كما يصلّي على المسلمين، أو الوقوف على قبورهم لدعاء التّثبيت كما تأمر السّنة، أو لزيارة الاستغفار، وبالتّالي يمتنع بذلك تشييع الجنازة وما تستلزمها من الحقوق الأخرى على الأرجح، وفي ترك هذه الحقوق من طرف رسول الله إعلان بكفر من حرم منهم من ذلك والعياذ بالله.

وفي مقدمتهم عبد الله بن أبيّ بن سلول في ما رواه البخاري والتّرمذي عن

عبد الله بن عباس عن عمر بن الخطاب قال: "لما مات عبد الله بن أبي بن سلول دعي له رسول الله ليصلي عليه، فلمّا قام الرّسول وثبت إليه فقلت: يا رسول الله أتصلي على ابن أبيّ وقد قال يوم كذا وكذا كذا وكذا، أعدّد عليه قوله. فتبسّم رسول الله وقال: «**أخّر عني يا عمر**». فلما أكثرت عليه قال: «**إني خيّرت فاخترت، لو أعلم أني لو زدت على السّبعين يغفر له لزدت عليها**». قال: فصلّى عليه رسول الله ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً﴾. إلى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾. قال: فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله، والله ورسوله أعلم".

وفي رواية أخرى: "فلم يصلّ رسول الله على أحد منهم بعد هذه الآية حتى قبض". وإنما صلّى عليه وأعطاه قميصه ليكفّن فيه إكراما لابنه عبد الله وتأليفا للخزرج.[1]

ثم علّل الله ذلك النّهي بقوله: ﴿**إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ**﴾، وقد تقدم تفسير مثله. ومعنى الجملة الحالية: ﴿وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي سيموتون وهم متلبّسون بكفرهم.

والكفر هو سبب حرمانهم من تلك الحقوق التي ذكرها الله تعالى، سواء لأحيائهم أو موتاهم، وبالتّالي فهو دليل على شقاوتهم في الدّنيا والآخرة.

وقد يغالط بعض النّاس بمظاهر ترفهم في الدّنيا بوفرة أموالهم وأولادهم، فيظن ذلك أنه دليل على الحظ السّعيد والتّوفيق والنّجاح، فبيّن الله تعالى خطأ ذلك الظّن، ونهى المسلمين من خلال الخطاب لرسول الله عن الإعجاب بتلك الأموال

١- رواه البخاري باللفظ الأول من حديث عمر بن الخطاب، كتاب الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين، رقم ١٣٠٠.

والأولاد فقال عزّ من قائل: ﴿وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

وقد سبق نظير هذه الآية عند قوله تعالى في ذكر شحّهم بالإنفاق: ﴿وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (التوبة:٥٤). فأعيدت الآية هنا بغالب ألفاظها، والاختلاف في المبنى لا يكون إلا لنكت ومعان حصرها اللّغويّون والمفسّرون في ما يلي:

أ)- جاء قوله في الآية الأولى بـ"الفاء": ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ﴾، أما في هذه فقال تعالى: ﴿وَلاَ تُعْجِبْكَ﴾ بالواو. والتّعقيب بـ"الفاء" في الأولى لوصف المنافقين قبلها بكونهم كارهين للإنفاق، ففرع الله عنه النّهي عن ذلك الإعجاب بالأولاد والأموال. وأما في الآية الثّانية فلا تعلّق للكلام بما قبله.

ب)- قال تعالى في الأولى: ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ﴾: وحذفت "لاَ" في الثّانية، لأن التّرتيب في الأولى بدأ بالأدون ثم يترقى إلى الأشرف، أي أنه كان إعجابهم بأولادهم فوق إعجابهم بأموالهم، وفي الثّانية لا مراعاة لذلك التّفاوت عندهم.

ج)- قال في الأولى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم﴾: وقال في الثّانية: ﴿أَنْ يُعَذِّبَهُم﴾ بحذف اللاّم ليدلّ على أن التّعليل في أحكام الله تعالى محال، وأنه أينما ورد حرف التّعليل فمعناه "أَنْ".

د)- قال تعالى في الأولى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (التوبة:٥٥). وقال في هذه: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾. بحذف لفظ الحياة تنبيها لحقارة الحياة الدّنيا، فلا تستحق أن تسمّى "الحَيَاة" بل يكتفى بتسميتها "الدُّنْيَا" لدناءتها.

والله أعلم.

تخاذل المنافقين عن الجهاد، واقدام المؤمنين عليه

أ)- النص:

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ
مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿سُورَةٌ﴾: أي آيٌ من القرآن، ولو لم تتمّ فيها السّورة كما يقال: "كتاب" لما كتب ولو لم يتمّ. ويجوز تقدير مضاف، أي بعض سورة، والتّنكير للتعظيم. ﴿أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾: أصحاب الثّروة والمال ممن لهم القدرة على الجهاد بمالهم وصحة أبدانهم. ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾: أتركنا نبقى مع المتخلّفين. ﴿الْخَوَالِفِ﴾: جمع خالفة، وهو النّساء يتخلّفن في البيوت، أو هو من هو فاسد ذكرا كان أو أنثى، فيشمل النّساء والصّبيان ممن ذكر. ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: من الطّبع أي الختم. وهو تمثيل لحال قلوبهم في عدم قبول الهدى بالإناء أو الكتاب المختوم. ﴿فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾: من الفقه: وهو الإدراك العميق للأمور. ﴿وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾: جمع خير، على غير قياس كـ"سرادقات"، ويجوز أن يكون جمع "خيْرة" مخفف "خيّرة" المشدّد والمقصود به الحسناوات من النساء. ومنه قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ (الرحمن:٧٠). ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ (الرحمن:٧٢).

ج)- البيان والتّفسير:

على ذكره تعالى في الآية السّابقة أن المنافقين احتالوا في رخصة التّخلف عن رسول الله والقعود عن الغزو عطف عليه هنا ليبيّن فرق المتخلفين وأنواع معاذيرهم ومراتبها في القبول فقال جلّ من قائل: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

ذهب المفسّرون مذاهب في بيان معنى السّورة فقالوا: أي بعض السّورة دون التّمام مجازا. وقيل: كلّ سورة ذكر فيها الإيمان والجهاد، وقيل: المقصود هو هذه السّورة بالذّات "التّوبة". وبيّن الله تعالى مضمون ما تنزل به السّورة بقوله: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾، فـ"أن" تفسيرية، أي أمره تعالى بالإيمان والجهاد، وهما متلازمان، إذ يفرّق المنافقون بينهما فكأنما قيل لهم: عليكم أن تؤمنوا أولا ثم تشتغلوا بالجهاد ثانيا حتى يتقبل ذلك منكم. ولكن جواب المنافقين في المجال التّطبيقي والعملي لذلك الأمر الإلهي هو أن يستأذنوا رسول الله -وهم أهل القدرة والمال- في التّخلّف عن الجهاد. وتخصيص هؤلاء بالذّكر للذّم والتّعيير، لأن القادر أحق بالذّم إن لم يخرج والعاجز لا يحتاج إلى الاستئذان.

ثم أبان الله مجمل ما استأذنوا فيه فقال حكاية عنهم: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾، ورضاهم بأن يكونوا مع القاعدين يدلّ على مدى خورهم وحرصهم على متع الحياة، وحطّة نفوسهم في أن يكونوا في عداد النّساء والصّبيان والعجزة. ونظير هذا المعنى في سورة "القتال" قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ، طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ (محمد: ٢٠-٢١).

ومثل هذا الوضع يدعو إلى التعجيب والتنديد لما فيه من الذلة والهوان لأنفسهم، فقال تعالى في استئناف: ﴿رَضُواْ بِأَنْ يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾، والتعبير بـ"الرّضى" ليدلّ على شدة رغبتهم في ذلك فهم بمنزلة أولئك النّساء والصّبيان والعجزة، واختيار وصف "الْخَوَالِف" للذم والتّعيير، سيما إذا علمنا أن تخلّف هؤلاء كان عن جبن وخوف وتقصير، بينما تخلّف أولئك العجزة كان عن قصور.

ثم علّل الله ذلك الموقف منهم بقوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، لأن الطّبع على القلوب معناه حصول الدّاعية الرّاسخة القوية للكفر وعدم قبول الهدى، وفرّع على ذلك انعدام علمهم بأسرار الجهاد وما فيه من خير وصلاح للفرد وللأمّة.

ولما كان أمر الرّسول والمؤمنين على النّقيض من حال المنافقين افتتح الكلام التّالي بحرف الاستدراك فقال: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

فالرّسول وصحابته الموسومون بالإيمان الصّحيح هم من الصّنف الممتاز، حيث بذلوا أموالهم وأنفسهم في طلب مرضاة الله، فأحوالهم من أحوال رسول الله تعلّقا به وانقيادا وطاعة، وعلى ذكر حسن العمل من أحوالهم عطف عليه حسن الجزاء مع استعمال اسم الإشارة ليدلّ أن استحقاقهم لتلك الخيرات والفلاح إنّما كان لأجل جهادهم بأموالهم وأنفسهم.

ولفظ "الخيرات" بالجمع يتناول منافع الدّارين: بالنّصر والعزة والتّمكين في الدّنيا، والنّعيم والثّواب في الآخرة. ويكون تخلّصهم من العقاب والعذاب الأبديّ هو الفلاح الذي يتمحّص لهم وحدهم.

ثم بيّن الله ما يترتب على ذلك الفلاح المعنويّ من النّعيم الحسيّ في جنات تجري من تحتها الأنهار أعدّها الله لهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر

على قلب بشر: ﴿**أعَدَّ اللهُ لَهُم جنَّات تَجْرِي من تَحْتِهَا الأنهارُ خَالِدِينَ فِيهَآ ذَلكَ الفَوْزُ العَظِيمُ**﴾، ويا لها من درجة رفيعة تنمّ عن الفوز العظيم، كما رتب الله ذلك الجزاء لصنف المؤمنين والمؤمنات في ما سبق من الآيات.

فاللّهم اجعلنا ممن آمن بك فهديته وتوكل عليك فكفيته، وتضرع إليك فرحمته. اللّهم اجعلنا هداة مهتدين لا ضالين ولا مضلين، آمين، والله أعلم.

أصحاب الأعذار بين مقبول ومرفوض

أ)– النص:

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ
سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا
عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن
سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ
أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا
ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

ب)– التّحقيق اللّغوي:

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾: أصله: المعتذرون، من اعتذر، أبدلت "التاء" "ذالا" وأدغمت في "الذّال"، أي الذين يطلبون الأعذار في القعود، أو هو من التّقصير من عذّر في الأمر إذا قصّر فيه. ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾: اسم جمع واحده أعرابي بـ"ياء"

النّسب، إذ هو من صيغ الجموع ولكنه لم يكن جمعا لأنه لا واحد له من لفظ جمعه. والأعراب: هم سكان البادية. ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَآءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى﴾: الفرق بين الضّعيف والمريض أنّ الأول (الضّعيف) من به ضعف أي وهن القوة البدنية من غير مرض. وأما المريض من به مرض، وهو تغيّر النّظام المعتاد بالبدن بسبب اختلال مزاجه. ومن المرضى: الزّمنى، وهم الذين بهم مرض مزمن كالعمى والسّكري...إلخ. ﴿حَرَجٌ﴾: الضّيق، أي العنت في التّكليف. ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾: أي لا وسيلة لمؤاخذتهم باللّوم والعتاب. ﴿أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾: أيْ أتوك لتعطيهم الحمولة، أي ما يركبونه ويحملون عليه في السّفر. ﴿تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾: أي رجعوا وهم يبكون من شدّة الحزن على التّخلّف. والفيض هو خروج الماء من وعائه.

ج)- البيان والتّفسير:

هؤلاء هم صنف آخر من المنافقين، وهم سكان البادية من الأعراب، عطف ذكرهم على منافقي المدينة في قوله تعالى: ﴿اسْتَأذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾، بينما اختير وصف "المعذّرين" لهذه الطّائفة من البدو فقال تعالى: ﴿**وَجَآءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُوذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ**﴾.

فالكلمة: "الْمُعَذِّرُون" بالتّشديد كما قرأها الجمهور، والمعذّر هو المجتهد البالغ في العذر، وقرأها يعقوب بالتّخفيف من "الإعذار" أي إبداء العذر. والمعذّر قد يكون له عذر أو لا يكون، ولذلك تشمل الصّادقين والكاذبين.

يقول صاحب المنار: "والحكمة في القراءتين على اختلاف معاني الصّيغتين بيان اختلاف أحوال أولئك الأعراب في أعذارهم، فمنهم من له عذر صحيح هو

موقن به، ومنهم من له عذر ضعيف هو في شكّ منه إن نوقش فيه عجز عن إثباته، ومنهم له عذر صوريّ لا حقيقي، وهو يوهم أنه حقيقي عالما بأنه مخادع، ومنهم من لا عذر له في الواقع فهو كاذب في انتحاله".(١)

فهؤلاء على اختلاف أعذارهم هم أقلّ جرما من أولئك الذين قعدوا عن الاعتذار وتخلّفوا عن رسول الله، لأنّ المعتذر -وإن لم يكن صادقا- فقد يبعد اللّوم عن نفسه بظاهر أمره وحسن قوله، ولو أن الله تعالى يخبر نبيّه بحقيقة أمرهم، قال الإمام الرّازي: "ومن المفسّرين من قال: المعذّرون كانوا صادقين بدليل أنه تعالى لما ذكرهم قال بعدهم: ﴿وَقَعَدَ الذينَ كَذَبُواْ اللهَ وَرَسُولَه﴾، فلمّا ميّزهم عن الكاذبين دلّ ذلك على أنهم ليسوا بكاذبين".(٢)

قلت: ويجوز في كلمة "المعذّرين" أنها تشمل الصّادقين والكاذبين، وكلا الصّنفين معلوم عند الله، فينصبّ العذاب على الكاذبين منهم لأن الكذب على الله ورسوله كفر. وكذبهم على الله إمّا في أصل الإيمان أو في وعدهم بالتّأييد والنّصر، ثم قعدوا دون اعتذار، ولكن هناك فريق من النّاس لا يشملهم ذلك التّصنيف وبالتّالي لا يشملهم الوعيد والتّهديد إذ قال تعالى: **﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَآء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلاَ عَلَى الذينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ اذَا نَصَحُواْ لله وَرَسُوله مَا عَلَى الْمُحْسنينَ من سَبيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحيمٌ﴾**.

هذا الحكم برفع الحرج عن المذكورين في الآية نشأ عن التّهويل السّابق لمن ينتحل الأعذار وما وجّه من الوعيد للمتخلفين. فبيّن الله تعالى الأصناف الذين يقبل عذرهم وهم:

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٥٨٤/١٠.

٢- الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ١٥٩/١٦.

أ)- الضّعفاء: جمع ضعيف، وهو كلّ من لا قدرة له على القتال، إما تقدّم في السّنّ كالشّيوخ، أو من خلق في أصل الفطرة واهن الجسم ضعيفا، كالمعوقين والنّساء والصّبيان.

ب)- والمرضى: جمع مريض، وهو من طرأ عليه مرض قد يكون مؤقتا أو مزمنا، فلا يتمكّن من احتمال مشاق الجهاد.

ج)- الذين لا يجدون ما ينفقون: وهم الفقراء الذين لا يجدون ما يساعدهم على الجهاد من الزّاد والرّاحلة والسّلاح، أي لا يقدرون على الإنفاق على أنفسهم وعلى عيالهم سواء من مالهم الخاصّ أو ممن يساعدهم على ذلك، إذ المجاهدون في تلك الحقبة كانوا يعتمدون على أنفسهم في إعداد العدّة للحرب، فلم تتخذ الدّواوين، أو ما نسمّيه الوزارات اليوم، إلا في زمن الخليفة عمر ﷺ.

رفع الله الحرج على هؤلاء في التّخلّف عن الجهاد، حتى لا يكونوا كلاّ على المجاهدين، واشترط الله لجواز تخلّفهم شرطا معيّنا معقولا بقوله: ﴿**إِذَا نَصَحُواْ لله وَرَسُولِهِ**﴾، والنّصح لله ورسوله هو من صميم الدّين كما ورد في الحديث الذي رواه مسلم أن الرّسول قال: «**الدّين النّصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله قال: لله ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم**».[١]

ولهذا يتمثل نصح هؤلاء -والأمّة في حالة استنفار- يتمثل في حفظ ظهور المجاهدين بمراعاة مصالح البلد عامّة ومصالح بيوت المجاهدين خاصّة، والاحتراز من مكايد العدوّ بحفظ الأسرار، وإيصال الأخبار السّارة إلى المقاتلين، والسّعي للمحافظة على وحدة الصّف...إلخ.

ثم بيّن الله تعالى على أسلوب الأمثال بيّن القاعدة الشّرعية العامّة، فوصف

١- رواه مسلم من حديث تميم الداري، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدّين النصيحة، رقم ٥٥.

هؤلاء بالإحسان إذا كانوا مخلصين لله ولرسوله، بأن جعل ذلك علّة لنفي الحرج عنهم وذيّله بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي كثير المغفرة واسع الرّحمة لا يكلّف نفسا إلا وسعها فلا يؤاخذ المعذورين في أداء واجباتهم.

وهناك صنف رابع يندرج مع المذكورين في عدم مؤاخذتهم بيّنهم الله بقوله معطوفا على من سبق: **﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾**. هذا الفريق فيه استعداد بدنيّ للغزو، ولكنّهم فقراء لا يجدون الرّواحل الضّرورية التي تحملهم في السّفر، أي أنّ ما عندهم من المال لا يكفي لاتخاذ الرّواحل فهم يطلبون من رسول الله أن يزوّدهم بها، ولكنّه هو الآخر لا يجد ذلك.

والتّعبير بـ"الحمل" عامّ يشمل كلّ الوسائل المعروفة قديما وحديثا سواء للرحال أو للمؤن والعتاد، فانصرفوا باكين عن مجلس رسول الله.

ولشدة حزنهم كانت أعينهم تفيض دمعا حتى كأنها ذابت لشدة الحرقة والحزن لعدم وجودهم ما يطلبون، وحرمانهم من شرف المشاركة في الجهاد. وقد اختلفت الرّوايات في تحديد هؤلاء النّفر، فقيل: إنهم سبعة من الأنصار، وقيل: معهم غير الأنصار، وقيل: نزلت في أبي موسى الأشعريّ ورهط من الأشعريين، وقيل غير ذلك. والعبرة بعموم اللّفظ، فللّه رجال يحترقون أسفا إذا فاتتهم مكرمة ولو كانوا معذورين. ومن سعة رحمة الله أنه يجازي هؤلاء على حسن نيتهم فقد روي عن رسول الله أنه قال: «**لقد خلفتم بالمدينة أقواما ما أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم واديا، ولا نلتم من عدوّ نيلا، إلا وقد شركوكم في الأجر**».[1] ثم قرأ:

١- روى مسلم نحوه من حديث جابر، كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر، رقم ١٩١١، والحديث بهذا اللفظ أورده ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم بسنده عن الحسن. أنظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣٨٣/٢.

﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾.

وعلى بيان من رفعت عنه المؤاخذة واللّوم بيّن من عليهم السّبيل، أي لا عذر لهم في التّخلّف والقعود فقال تعالى: **﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَنْ يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾**.

جاء البيان بأداة الحصر "إنّما"، واستعير السّبيل للدّلالة على السّلطة الّتي لها حق المؤاخذة والمتابعة لمن يعصي أوامرها، وهي تتمثل هنا في شخص رسول الله إذ هو إمام المسلمين وقائدهم في الجهاد، فقد أثبت الله اللّوم والمؤاخذة لصنف المنافقين الأغنياء الذين يستأذنون رسول الله في التّخلّف ولا عذر لهم في ذلك، وما دفعهم إلى القعود والتّخلّف إلا رضاهم بأن يكونوا مع الخوالف من النّساء، والسّبب في ذلك أن الله طبع على قلوبهم، وصرّح هنا باسم الجلالة إمعانا في إهانتهم، وأنه طبع أنشأه الله في قلوبهم لغضبه عليهم، أي زادهم عماية وضلالا فهم لا يعلمون ما في الجهاد من مصلحة للفرد وللأمة، حتى لكأنهم في منزلة العجماوات. وقد قدمنا معنى التّعبير بالرّضى وما في معنى القعود مع الخوالف من الذّل والمهانة في عرف النّاس، ولا سيما عند العرب، أعاذنا الله تعالى من الخزي والعار في الدّنيا والآخرة.

الرّدّ على المخلّفين المعتذرين، وتحذير المسلمين من الرّضى عنهم

أ)- النص:

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا
عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا
عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾: في القعود والتخلّف عن الجهاد، فالمضارع إما لحكاية الحال الماضية، أو للاستقبال قبل دخول الرّسول المدينة، ويؤيده قوله: ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾. أي لن نصدّقكم. ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾: أي أخبرنا بما يقتضي تكذيبكم. ﴿وَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ﴾: كناية عن الترغيب في التوبة والعمل الصّالح والترهيب من البقاء على حالهم. ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: الغيب: ما غاب عن علم النّاس. الشّهادة: أي ما يشاهده النّاس ويعرفونه من العالم المادّي. ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: الإنباء بالأعمال مستعمل في لازم معناه وهو المجازاة على تلك الأعمال. ﴿لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾: أي إعراض المسلمين عن عتابهم وتوبيخهم عن التخلّف. ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾: الخبث ودناءة النّفوس، أي الرّجس المعنويّ. وكفايتهم جهنّم، إذ لا ينفع فيهم العتاب والتأنيب. ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى﴾: أي لا ينفعهم رضاكم مع سخط الله عليهم، والمقصود عدم اغترار المسلمين بهم.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد لوم المعذّرين الذين طلبوا الإذن في التّخلّف عن غزوة "تبوك"، ورفع الحرج عن أصحاب الأعذار الحقيقية من الضّعاف والمرضى والفقراء أخبر الله في هذه الآيات بما سيكون من المنافقين الذين تخلّفوا مع رسول الله والمؤمنين بعد

عودهم إلى المدينة فقال عزّ من قائل: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الخطاب موجّه للمؤمنين، والضمير في قوله: ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ يرجع إلى أقرب مذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وهم أولئك الذين تخلّفوا وانتحلوا الأعذار الكاذبة، أخبر الله رسوله والمؤمنين بما سيكون منهم بعد عودة الرّسول وأصحابه من غزوة "تبوك" بأنهم يعتذرون إليهم عن جميع ما ارتكبوه، واختير المضارع لإفادة التجدّد إذ هؤلاء يعرفون أنهم بما ارتكبوه هم في حطّة ودناءة في أعين النّاس، وأنهم بذلك يتعرضون للعتاب واللّوم، ولكن الله أمر رسوله أن يوجّه إليهم الإجابة المبكّتة في منعهم من الاعتذار لانتفاء القبول به لدى المسلمين.

ثم علّل الله انتفاء التّصديق به بأن الله قد كشف ما في ضمائرهم من خبث ومكر، فلم يعد يخفى على النّاس، وبالتّالي فلا مجال لمعاملتهم على الظّواهر المخالفة لما في البواطن، كما أنّه لا مجال للشّك والتّردّد بعد أن جاء الإخبار عنهم من الله العليم الخبير، ثم قال تعالى: ﴿وَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ﴾، فالعمل وحده هو الذي يدلّ على النّوايا والمقاصد، فلا فائدة في الاعتذار، والله لا تخفى عنه النّوايا المخبوءة، وهو يعلم ما سيكون في مستقبلكم من إصراركم على المخادعة والنّفاق، أو على التّوبة والرّجوع إلى الحق، وبناء على ما تختارون، سيكون معاملة الرّسول والمؤمنين لكم.

وفي الإخبار برؤية الله لأعمالهم ترغيب في إصلاح أمرهم قبل فوات الأوان يوم يفقدون ذلك الاختيار بالموت، إذ يرجعون إلى الله عالم الغيب والشّهادة. وفي اختيار هذا الوصف للذات العلية، وإظهاره في مقام الإضمار تنبيه وتحذير للمنافقين بأن الله تعالى مطّلع على بواطنهم الخبيثة، ومجازيهم عليها بما يستحقون، وفي ذلك

من التّنديد والوعيد ما عساهم به يزدجرون، ومن تمام الإيمان الصّادق أن يتحاشى المؤمن ما يعتذر منه من السّيّئات، فيضطرّ أحيانا إلى التّلفيق والكذب ليقبل النّاس عذره. كما أخبر الله عن هؤلاء المنافقين إذ قال: ﴿**سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾.

وتتمّة لذكر أحوالهم وكيف يكون موقفهم عند رجوع المسلمين من غزوة "تبوك"، وبناء على نفي تصديقهم من طرف المؤمنين على ما يدّعون، أخبر الله بأنهم سيؤكدون تلك الأعذار بالأيمان الكاذبة حتى يتفادوا اللّوم والعتاب بإعراض المسلمين عنهم، والمحلوف عليه مفهوم من السّياق. وتفرّع عن هذا الإخبار أمر الله المؤمنين بالإعراض عنهم إعراض إهانة واحتقار لا إعراض صفح وإعذار، أي لأن ما طمعوا فيه من إمساك المسلمين عن مؤاخذتهم وعتابهم قد انقلب إلى ضدّ ذلك بما يواجهونه من الإعراض عن المعاملة والمخالطة، كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال حين قدم المدينة: «**لا تجالسوهم ولا تكلّموهم**».

ثم ذكر الله العلة في وجوب الإعراض فقال: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾، وهو الخبث الرّوحاني الذي هو أشدّ خطرا على الإنسان من الأرجاس المادية. وقد وصف الله المشركين في هذه الصّورة بأنهم نجس، كما وصف الأوثان بأنها رجس في قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ (الحج: ٣٠). ووصف كثيرا من المحرمات في آيات أخرى بذلك، وتدنيس النّفوس بمثل هذه الأرجاس التي هي من كسب الإنسان تؤدي بصاحبها إلى جهنم وبئس المصير، جزاء وفاقا يصيرون إليه عند رجوعهم إلى الله.

ولما كان طمع المنافقين في إعراض المسلمين عن مؤاخذتهم يتضمّن طلب رضاهم فقد فرّع الله على ذلك نفي رضاه عن القوم الفاسقين فقال تعالى:

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

وقد تقدّم شبيه هذه الآية خلال ذكر أحداث الغزوة قبل العودة منها، إذ قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة:٦٢). وهنا يسدّ الله باب الرّجاء في أن ينال المنافق رضاه بالإيمان الزّائف والأيمان الكاذبة. وفي هذا الإخبار بأداة التأكيد "إنّ" تحذير للمسلمين بطريق الكناية من أن يخالفوا إرادة الله فيرضون عمن لا يرضى عنه الله، وجعل الله الفسق عن طريق الله هو سبب سخطه على من يتصف به.

يقول صاحب المنار في هذا الشّحن: "فإن هذا الفسوق سبب أو علّة لسخط الله تعالى، فالحكم بعدم رضاه متعلق به لا بذواتهم وشخوصهم، ومقتضاه أنّه إذا فرض أنّ بعض المؤمنين رضي عنهم وأمن لهم باعتذارهم بعد النّهي كان فاسقا مثلهم محروما من رضائه تعالى، كما أنّ من يتوب منهم ويرضي الله ورسوله يخرج من حدود سخطه عز وجلّ، ويدخل في حظيرة مرضاته إذ لا يعدّ بعد ذلك فاسقا، فأحكام الله العامّة ووعده ووعيده تتعلق بالأعمال والصّفات النّفسية والبدنية لا بالذّوات والأعيان".[1]

قلت: ووفقا للإرشادات الإلهية في هذه الآيات وغيرها، فإن أسلافنا من مشائخنا رحمهم الله جعلوا الولاية والبراءة الشّخصية قاعدة راسخة متبعة في تنظيم العلاقات الاجتماعية والتّعامل الشّخصي بين أفراد المجتمع المسلم، وذلك على أساس الحبّ في الله والبغض في الله، ويعبّرون عنه بالاصطلاح العرفي: "وضع المرء في الخطة"، وكيفية التّطبيق هي أن يعلن المؤذّن عن شخص ما ارتكب فاحشة أو حتى عندما يخالف اتفاقية المسلمين في أمر تنظيمي لأحوال المجتمع مثلا يعلن عنه

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١١/٥٠.

المؤذن باسمه أنه في براءة المسلمين، فيقع ذلك على الشخص المعلن عنه كالصّاعقة، إذ يجفوه النّاس حتى أقربهم إليه، فلا يجالس ولا يعامل حتى يتوب إلى الله عن فعلته أمام الجمهور بالمسجد معترفا بذنبه فينصحه الإمام المرشد ويشنع عليه فيفكّ عنه التّهميش، وأحيانا يكبر حجم المعصية أو التّحدّي فلا يرفع عنه العزل الاجتماعي إلا بعد مرتين أو ثلاث بإعلان توبته.

وكان هذا التّصرّف مع العصاة المنحرفين أقوى رادع لهم للإنابة إلى الله والتوبة النّصوح، مما كان سببا قويّا في الاستبقاء على الطّهر والصّلاح الاجتماعي، والله أعلم.

أصناف الأعراب في الإيمان والكفر والنفاق

أ)- النص:

ﭐلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ
دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ
مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي
رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿ٱلۡأَعۡرَابُ﴾: والعرب الأعراب من يسكن البادية من العرب وغيرهم، والعرب: من ينطق بالعربية، ومن حيث النّسب هم ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام. ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: الأجدر: هو الأحق والأولى

بالشّيء، من الجدارة وهي الأولوية، وحذفت "الباء" مع "أن" المصدرية، أي أحدر بأن لا يعلموا. وحدود: المقادير والفواصل بين الأشياء. ﴿مَغْرَمًا﴾: ما يدفع من المال قهرا وظلما، أي يعتبرون ما يدفعونه من الزّكاة أو الصّدقة كالأتاوات المالية يدفعونها خوفا وتقية. ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾: أي ينتظرون أن تدور عليكم دوائر الزّمان بالضّرر والسّوء ليتخلّصوا من الإنفاق. ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾: دعاء عليهم بأن يدور العذاب عليهم بنحو ما يتربّصونه. ﴿قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾: قُرُبات: جمع قربة ما يتقرب به إلى الله، وهي مجاز مستعمل في طلب رضى الله ورفع الدّرجات في الجنة، وصلوات الرّسول هي دعواته، إذ كان يدعو لكلّ من يأتيه بالصّدقة امتثالا لأمره تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (التوبة: ١٠٣). ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾: "ألا" حرف استفتاح وتنبيه للاهتمام بما بعدها، و"اللام" للاختصاص في "لَهُمْ".

ج)- أوجه القراءة:

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾: قرأ الجمهور: ﴿السَّوْءِ﴾ بفتح السّين، على أنه مصدر، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضمّها على أنه اسم. والمعنى واحد. ﴿إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾: قرأ الجمهور: ﴿قُرْبَةٌ﴾ بسكون الرّاء، وقرأه ورش وحده بضمّ الرّاء.

د)- البيان والتّفسير:

إذا كان ما تقدّم من السّياق يتضمن إخبار الله لنبيّه ما سيواجهه به المنافقون عند عودته من "تبوك" فإن هذه الآيات الثّلاث جاءت لتبيّن أحوال الأعراب من سكان البادية مؤمنين ومنافقين وكفارا. فبعد أن ذكر الله أحوال المعذّرين منهم في ما سبق مع الذين كذبوا الله ورسوله، عاد السّياق لتفصيل أحوالهم تنبيها للمسلمين إلى تلك الأحوال حتى لا يغتروا بمظاهرهم لأنهم بمنأى عنهم في البادية قال:

﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قضت حكمة الله في العمران البشري أن يتدرّج الإنسان من طور البداوة إلى طور الحضارة ولكلّ منهما خصائص وميزات إيجابا وسلبا، ضبطها علماء الاجتماع وفي مقدمتهم العلامة "ابن خلدون" كما تغنّى بخصائص كل منهما الشّعراء والكتاب فقال المتنبّي مشيدا بجمال البداوة:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

وقال أمير الشّعراء شوقي على لسان مجنون ليلى:

لنا قبلة الشّمس عند البزوغ وللحضر القبلة الثّانية

ونحن الرّياحين ملء الفضاء وهن الرّياحين في الآنية

وكما يمتاز البدو بالشّجاعة والصّبر والكرم...إلخ، غير أن البيئة القاسية التي ينشأون فيها تطبعهم بالقساوة والغلظة، ثم إن احتكاكهم بالمجتمع المدني لا يكون إلا لماما، وبالتّالي بعدهم عن التّأثّر بأنوار النّبوءة جعلهم أجهل بأمور الدّيانة وأحكام الشّرع الحنيف، وقد روي عن رسول الله أنه قال: **«من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصّيد غفل، ومن أتى السّلطان افتتن»**.[1]

وفي هذه الآيات يصفهم الله تعالى بأمرين:

أ)- أنهم أشدّ كفرا ونفاقا من أمثالهم سكان المدينة نظرا لما تقدم من

---

١ - رواه الترمذي من حديث ابن عباس، كتاب الفتن، باب من أتى أبواب السلطان افتتن، رقم ٢٢٥٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح، غريب من حديث ابن عباس، لا نعرفه إلا من حديث الثوري.

أخلاقهم وطباعهم، وذلك بالنّظر إلى جانب السّلوك والمعاملة.

ب)- وفي الجانب المعرفي فهم أولى بجهل ما أنزله الله من الأحكام والإرشادات من أهل الحضر الذين يلازمون رسول الله ويتلقون هديه صباح مساء. والتقدير: ﴿وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ اللهُ﴾ بحذف حرف الجرّ مع "أن المصدرية" ويجوز في "أشدّ" و"أجدر" أن يكونا مسلوبي المفاضلة مستعملين لقوة الوصفين في الموصوفين بهما.

وذيّل الله هذا البيان لوضعية الأعراب بقوله: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لعلمه الشّامل بأحوال خلقه من بدو وحضر حكيم في ما يشرّع لهم من الأحكام، وما ينعتهم به من الأوصاف، وبما أنّ ما ذكره الله من أوصاف لهؤلاء الأعراب ليس طعنا ولا ذمّا لهم في أشخاصهم، وإنما هو تقرير لواقعهم المذموم ما داموا راضين به.

وبعد هذا الحكم الإجمالي على الأعراب، ونظرا لبعض الاختلاف في أصنافهم أزاء الكفر والنّفاق والإيمان جاء التّقسيم لبيان خصائص كل قسم منهم، لمزيد من المعرفة لأحوالهم فقال تعالى: **﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**.

إذا كان الجهاد في سبيل الله يتطلب التّضحية بالمال والنّفس، فإن غزوة "تبوك" قد محّصت الجماعة الإسلامية فكان فيها الأوفياء والمخلصون، وكان المنافقون والمخادعون من حضر وبدو. فكما قصّر هؤلاء في الخروج مع الرّسول والتمسوا الأعذار الكاذبة لأنفسهم فقد قصّروا -أيضا- في تقديم الأموال للإنفاق في سبيل الله، إذ اعتبروها مغرما وخسارة فهم لا يدفعونها إلا خوفا وتقية يخادعون بها المسلمين حتى لا يتعرضوا لمؤاخذتهم، وذلك لضعف إيمانهم أو لعدمه باطنيا. فهم لا يطلبون بها من الله أجرا ولا ثوابا، بل منهم من امتنع عن دفعها تماما بعد وفاة

رسول الله مما تسبّب في حروب الرّدة على عهد خلافة أبي بكر ﷺ.

ولسوء تقديرهم وفساد طواياهم كانوا ينتظرون ضعف المسلمين وهزيمتهم، بل يتربّصون موت الرّسول فتنتهي دولة الإسلام ليكونوا في حلّ من أمرهم تمرّدا وخروجا عن الطّاعة والتزام الجماعة، فجاء الرّدّ الإلهي بما ينعكس عليهم شرّا وسوءا.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ﴾: والجملة دعاء عليهم أو خبر بحقيقة حالهم، وكلاهما من الله حقّ، إذ يراد من الدّعاء مآله مما هو مقدّر في علم الله، وفيه إهانة وتحقير لهم، وقد تحقّق ذلك بعون الله إذ دارت الدّائرة عليهم في حروب الرّدة فرجعوا خائبين. والله سميع عليم لا تخفى عنه خافية مما يدبّرونه من مكايد، وما يتناجون به من الدّسائس، فيجازيهم بما يستحقون وقد علم الله أن في أولئك الأعراب مؤمنين يستحقون الثّناء فعطف ذكر أحوالهم على الصّنف السّابق فقال:

﴿وَمِنَ الاَعْرَابِ مَنْ يُومِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلآَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وهؤلاء هم على النّقيض من الصّنف الأول، إذ هم مؤمنون بالله واليوم الآخر، وهما دعامتا الإيمان الصّادق، ولذا بدأ الله به، لأنه مناط القبول للأعمال الصّالحة، وفي مقدمتها الجهاد في سبيل الله، ثم ثنّى بكونهم يتخذون ما ينفقونه قربات عند الله هكذا بصيغة الجمع على اعتبار تعدّد أوجه الإنفاق.

والمقصود بـ"القربات" الحصول على رضى الله وزيادة القرب إليه ورفع الدّرجات في الجنّة، كما يلتمسون بذلك دعوات الرّسول، أي دعاءه لهم بالخير والقبول، إذ كان ﷺ يدعو لكلّ متصدّق كما أمره الله بقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ

صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (التوبة: ١٠٣). وقد روي أنه قال: «**اللّهم صلّ على آل أبي أوفى**».[1] وهم بالتماس ذلك يجمعون أطراف الخير والبركة، فبشّرهم الله تعالى بالقبول وشهد لهم بالنّية الصّادقة فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾، وتنكير لفظ: "قُرْبَةٌ" للتعظيم.

وافتتحت الجملة بأداة: "أَلَا" للتنبيه على الاهتمام بمضمون الجملة المؤكدة بـ"إن" لتحقيق حصولها بـ"فضل الله" ثم أردف البيان لمضمون الجملة بقوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾. ورحمة الله هي رضوانه ونعيم جناته، والدّخول إلى الجنة لا يتأتى بعمل الإنسان ما لم يتغمّده الله برحمته كما ورد في الحديث. ولذا ناسب فعل الإدخال وإسناده إلى الله، كما ناسب تذييل ذلك بالوصفين: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في موقف الرّجاء والخوف للمؤمن.

والله أعلم

التّشكيلة البشرية في المدينة وما حولها

أ)- النص:

وَالسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ

١- رواه البخاري من حديث عبد الله بن أبي أوفى، كتاب الزكاة، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة، رقم ١٤٢٦؛ ورواه مسلم من حديثه أيضا، كتاب الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بالصّدقة، رقم ١٠٧٨.

لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ﴾: اختلف المفسّرون في تحديد المدة التي ينتهي إليها وصف السّابقين من المهاجرين والأنصار، ولعل أقربها إلى الصّواب -والله أعلم- أن السّابقين من المهاجرين هم الذين سبقوا بالإيمان قبل الهجرة النّبوية، ومن الأنصار هم أهل العقبتين الأولى والثّانية، وعددهم سبعة في الأولى، وسبعون في الثّانية. ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾: الذين جاؤوا من بعد الرّعيل الأول، قيل: إلى يوم القيامة. والإحسان هو الإيمان الصّحيح والعمل الصّالح، فهو قيد لإخراج المنافقين. ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾: رضى الله كناية عن إكرامه لهم وقبول طاعتهم، ورضاهم عن الله كناية عن رضى نفوسهم لما أفاض الله عليهم من نعمة. ﴿مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ﴾: مرد على الأمر: أي تمرّن عليه ودرب به حتى حذقه. ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: أي بالفضيحة والقتل في الدّنيا، وبالعذاب في الآخرة. ﴿خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَءَاخَرَ سَيِّئاً﴾: هو خلطهم العمل الصّالح بحسنات أعمالهم -بما التّوبة والنّدم، بسّيئات التّخلف عن الجهاد والكفّ عن الإنفاق في سبيل الله.

ج)- أوجه القراءة:

قرأ الجمهور: ﴿وَالأَنصَارِ﴾ بالخفض عطفا على المهاجرين، وقرأ يعقوب: ﴿وَالأَنصَارُ﴾ بالرّفع عطفا على وصف: ﴿السَّابِقُونَ﴾، فيختصّ المهاجرين بالتّقسيم إلى سابقين وغيرهم. ويراد بالذين اتبعوهم بقية المهاجرين وبقية الأنصار.

د)- البيان والتّفسير:

بعد ذكر أصناف الأعراب، وأن منهم مؤمنين أوفياء، عقّب الله عليهم قوما هم أعلى منهم رتبة وأعظم فضلا، وهم القدوة الصّالحة للأمة بشهادة الله لهم بقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الاوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالانصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الانْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

هذا تنويه وإشادة بالرّعيل الأول من الأصحاب وقد وصفهم الله بالسّبق وبالأولية، ولم يحدّد الوصف في ماذا كان السّبق، غير أن تصنيفهم إلى مهاجرين وأنصار وتابعين، يتضمّن الإشارة إلى غاية ذلك السّبق، وهي الهجرة والنّصرة وحسن الاتّباع، ثم إن زيادة وصف الأولية على السّبق يدلّ على الرّتبة وهي بالنّظر إلى تنافس أفواج من الرّعيل الأول الذين كان لهم شرف السّبق في ذلك على غيرهم. ولذلك اختلف المفسّرون والرّواة في تحديد المدة التي ينتهي عندها وصف السّبق فقالوا بتحديد بعض الفئات من المهاجرين والأنصار وجعلوا أبا بكر ﷺ في طليعة المهاجرين، وأصحاب بيعة العقبة الأولى من الأنصار. ومنهم من وسّع فاعتبر سائر الصّحابة موصوفين بالسّبق في الإيمان والنّصرة بالنّسبة لسائر المسلمين. على اعتبار أن "مِنَ" في قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالانصَارِ﴾ للبيان لا للتبعيض. فعلى القول الأول يكون المراد من صنف "التّابعين بإحسان" هم أولئك الذين آمنوا بعد فتح مكة، وعلى القول الثّاني يكون "التّابعون" هم أولئك الذين لم ينعموا بشرف الصّحبة ولكنهم أحسنوا في الاقتداء والاتباع، والله أعلم.

ثم أثبت الله لهم ما يوجب التّكريم والتّعظيم بقوله: ﴿رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾، ويتمثل رضى الله عنهم في قبول طاعتهم وأعمالهم ونصرهم على أعدائهم وإكرامه إياهم، وأما رضاهم عن الله فيما أسبغ عليهم من نعمه الدّنيوية والأخروية

حتى طابت نفوسهم وقنعت بعطاء ربّها، وزادهم الله تكريما بوعده الصّادق بإعداد الجنات لهم في النّعيم الأبديّ، وذلك غاية الفوز والفلاح التي يستشرف لها كل مؤمن.

وقيل: إن حذف "من" مع "تحتها" والتي تفيد التّأكيد وخلوّ هذه الجملة منها هنا لحصول ما يغني عنه بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، ويقول القطب -رحمه الله-: "ومعنى "تحتها" و"من تحتها" واحد، فإن الماء الآتي إلى جنتهم يجري تحتها ويجري من تحتها إلى ما بعدها، والأقل يجري تحتها آتيا مما قبلها، ولذلك كان مرّة واحدة في القرآن، والعلم عند الله عز وجلّ".(١)

ومهما قيل في تحديد صنف التّابعين بإحسان فقد قيّد الاتّباع بشرط الإحسان، وهو مطلق ليتناول الإحسان في الأقوال والأعمال والنّيات والبواطن، فينتفي رضوان الله وثوابه إذا انتفى ذلك الشّرط، إذ ليس في ظواهر الإسلام وصورها الباهتة ما يحقق ذلك الشّرط.

ولما كانت ظاهرة النّفاق ما تزال موجودة في المدينة وما حولها نبّه الله لوجود تلك الفئة حتى لا يغترّ بها الرّسول فقال: **﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾**.

أخبر الله رسوله بواقع هذه الفئة من المنافقين الموجودين في المدينة وما حولها من الأعراب بأنهم مردوا على النّفاق، أي حذقوه وثبتوا عليه، فهم في ذلك كمردة الشّياطين، أي يمتازون في حرفة النّفاق حتى صاروا فيها أساتذة مهرة, بحيث يكون من الصّعب انكشاف أمرهم، سيما وقد دان النّاس لقوة الإسلام بعد فتح مكة،

١- امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ١٢٦/٦.

غير أن الله الذي يعلم أمرهم مهما أسرّوه، ينبّه رسوله إلى وجودهم على الإجمال حتى يبقى المسلمون في الحيطة والحذر منهم فلا يؤتون من مأمنهم.

والإخبار بعلم الله: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ يراد به التهديد، ثم أبقاهم في علمه هو، وليس للرسول علم بهم ولا معرفة بأعيانهم لحكمة يريدها تعالى كما قال تعالى في سورة القتال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ (٣٠). ذلك أن هذا النوع من المنافقين الحاذقين لا ينجرّ عن وجودهم كثير ضرر على المجتمع المسلم، إذ ينكفئ ذلك الضرر على أنفسهم أكثر. وفي الإخبار بهم نوع من التهديد علّهم يتوبون خشية الافتضاح كسائر المنافقين.

ثم أخبر تعالى بأنه سيعذبهم على نفاقهم بمقتضى علمه تعالى بحقيقة أمرهم فقال: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

اختلف المفسرون في تعيين المراد بـ"المرتين"، إذ صرّح الله معه بعذاب الآخرة فتعيّن أن يكون العذاب مرّتين في الدّنيا، ولعلّ أحسن ما نقل عن المفسّرين القدامى أنه يكون مرة بالفضيحة، ومرّة بعذاب الموت أو بعذاب القبر. وللإمام ابن عاشور رأي سديد يتماشى والتعبير العربيّ الفصيح إذ قال: "والظّاهر عندي أن العدد مستعمل لمجرّد قصد التكرير المفيد للتأكيد كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ (الملك:٤). أي تأمل تأمّلا متكرّرا. ومنه قول العرب: "لبيك وسعديك". فاسم التثنية نائب مناب إعادة اللّفظ، والمعنى: سنعذبهم عذابا شديدا متكررا مضاعفا، كقوله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ (الأحزاب:٣٠)."[1]

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾: هو عذاب جهنم بعد الحشر والحساب. ولعَلّ العذاب الأول المسند إليه تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ هو العذاب الخاص بهذه الفئة

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٠/١١.

من المنافقين المردة، والثّاني يشمل عامّة المنافقين وغيرهم في الجزاء الإلهي العادل لكافة خلقه يوم القيامة، وعظمته بالنّسبة للمنافقين أن يكونوا في الدّرك الأسفل من النّار كما توعّدهم الله بذلك في سورة النّساء، والله أعلم.

ثم أضاف الله نوعا آخر معطوفا على من تقدم فقال: ﴿**وَءَاخَرُونَ اَعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَءَاخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

ويحتمل العطف على الصّنف السّابق أن يكون هذا النّوع من الذين تابوا وحسنت توبتهم أو هم من المسلمين المتخلفين عن غزوة "تبوك" طلبا للرّاحة والكسل، لا عن كفر ولا نفاق، هؤلاء وصفهم الله بوصفين: أنّهم:

أ)- ﴿**اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ**﴾: والاعتراف هو الإقرار بالشّيء عن دراية ومعرفة، وهو كناية عن النّدم والتّوبة منه بالإقلاع عما مضى، والعزم على أن لا يعود إلى ذلك الذّنب في المستقبل.

ب)- ﴿**خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَءَاخَرَ سَيِّئاً**﴾: وعطفهما بـ"الواو" يدلّ على استوائها في وقوع الخلط عليهما، أي خلطوا حسنات أعمالهم بما قدّموه من الجهاد السّابق والقربات الأخرى بسيّئات التّخلف عن غزوة "تبوك" بغير عذر وعدم الإنفاق المطلوب ...إلخ.

وقد نزلت هذه الآية في أناس معينين ارتبكت الرّوايات النّقلية في تحديدهم عددا وتعيينهم أشخاصا، قيل: إنهم ربطوا أجسادهم بسواري المسجد ندما ورجاء أن يتوب الله عليهم. وأجمعت الرّوايات على أن أبا لبابة منهم وكان معه بعض أصحابه. ولكن العبرة بعموم لفظها، فهي لكل المذنبين من هذا النّوع، وما أكثرهم في واقع النّاس.

﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: و"عسى" وإن كانت للرجاء فهي في حقّ الله واجب مقضيّ، وهو كناية عن وقوع المرجوّ بتوبة الله عليهم. وجرى التّعبير بـ"عسى" على عرف النّاس في الكلام، حتى يكون المكلّف بين الخوف والرّجاء، لأن الله لا يسأل عما يفعل، بل كلّ ما يحبونا به من التّكريم إنّما هو بفضله وكرمه، إنه هو الغفور الرّحيم، وهو العفوّ الكريم. أدام الله علينا فضله وكرمه، والله أعلم.

تزكية الصّدقات وتطهيرها للأنفس، وقبول التّوبة، والأمر بالعمل الصّالح

أ)- النص:

خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾: "التّاء" لها احتمالان: إما أن تكون "تاء الخطاب" للرسول، وإما أن تكون "تاء الغائبة" تعود إلى الصّدقة. والتّطهير معنويّ لتخلية النّفوس من الذّنوب، والتّزكية جعل الشّيء زكيًا كثير الخيرات للتحلية بالفضائل، والتّخلية قبل التّحلية كما يقول الحكماء. ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾: الصّلاة بمعنى الدّعاء كما تقدم. ﴿سَكَنٌ﴾: والسّكن: ما يُسْكَن ويطمئن إليه.

وسكون النفس سلامتها من الخوف والكآبة. ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾: يقال: قبل عنه ومنه، فالحرفان متقاربان في المعنى. وقيل أن "عَن" أبلغ من "مِن" لأن "عَن" تتضمن معنى التجاوز والصفح عن الذنب، ومعنى كون الله يأخذ الصدقات، بينما أمر الرسول أن يأخذ منهم، وذلك تنبيه على تعظيم شأن الرسول، لأن أخذه ﷺ قائم مقام أخذ الله، وهو في معنى قبولها من الله وإثابته عليها. ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾: فالرؤية مجازية، وهي في حق الله تعلق علمه تعالى بالواقعات كلها، وفي حق الرسول بأنه هو المبلغ عن الله، وفي حق المؤمنين أنهم شهداء الله في أرضه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر، وعاصم وأبو جعفر ويعقوب، قرأ هؤلاء جميعا: ﴿صَلَوٰتَكَ﴾ بصيغة الجمع. وقرأه حفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿صَلَاتَكَ﴾ بصيغة الإفراد. والقراءتان سواء لأن المقصود جنس صلاته ﷺ. ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾: قرئ بالياء والتاء.

د)- البيان والتفسير:

ما يزال السياق يعدد لأصناف المجتمع المدني باعتبار مواقف الناس من غزوة تبوك مشاركة في الجهاد أو تخلفا وقعودا، وبذلا للأموال في سبيل الله أو شحا بها، فعلى ذكر المعترفين بذنوبهم التائبين منها، ومع التوبة يجب استدراك ما فات من التقصير بعدم الإنفاق في الجهاد، فناسب أن يجيء الإرشاد الإلهي لرسوله بأن يأخذ من أموال أولئك المقصرين، فينتفع المسلمون بتلك الأموال. وتذكر الروايات أن هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم جاؤوا إلى رسول الله وقالوا: هذه أموالنا تخلفنا بسببها عنك، خذها فتصدق بها وطهرنا واستغفر لنا. فقال لهم: «**لم أؤمر بأن آخذ من**

أموالكم».[1] حتى نزلت هذه الآية، فأخذ النبي صدقاتهم.

قال تعالى مخاطبا رسوله: **﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.**

الخطاب للرسول، و"من" للتبعيض، والضّمير في: ﴿أَمْوَالِهِمْ﴾ عائد للذين اعترفوا بذنوبهم. وكلمة "أموال" عامّة تشمل الزّكاة الواجبة وتشمل صدقات التّطوّع، والمتبادر من السّياق أنها صدقة التّطوّع، قيل: إن رسول الله أخذ منها الثّلث. ويرى جمهور من الفقهاء أنّ الكلام هنا مستأنف وأنه في إيجاب زكاة الفرض. والرّاجح عند كثير من المفسّرين -ومنهم القطب في التّيسير- أنها متصلة بتوبة المعترفين بذنوبهم بدليل قوله ﷺ لهم: «**ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا**»، ولو كانت زكاة لأخذ قدرها وجوبا.

ورتّب الله على الصّدقة بالأموال نتيجتين:

أ)- أن الصّدقة تطهّر النّفوس من دنس الذّنوب، سيما ما يترتب عن شهوة المال من بخل وشحّ، وما يترتب عن كسبه وجمعه -غالبا- من أنواع التّجاوزات. ولذا يرى كثير من العلماء أن من أذنب بسبب مال أن يتصدّق به، والتّطهير تخلية من الأوساخ.

ب)- أن الصّدقة تزكّي النّفوس، أي تحلّيها بأنواع الفضائل والبركات فالصّدقة -إذن- تجمع بين التّخلية والتّحلية، وذلك على اعتبار أن "التّاء" تعود للصدقة على الأرجح. وعلى احتمال أن تكون "تاء الخطاب" فالمعنى واحد لأن أخذ الرّسول لتلك الأموال وقبولها هو أخذ من الله وقبول منه تعالى تعظيما لرسول الله لقوله تعالى: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ (النساء:٨٠). ﴿إِنَّ الَّذِينَ

---

١ - أنظر: الطبري، جامع البيان، ١١/١٦.

يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (الفتح: ١٠).

ثم أمر الله رسوله أن يصلّي على أولئك المتصدّقين، أي يدعو لهم بالخير ويستغفر لهم الله، ثم علّل ذلك بأن في دعائه لهم سكنا وطمأنينة لنفوسهم، وبذلك يسنّ للإمام أو عامله أن يدعو للمتصدق بمثل قول الرّسول: «**اللّهمّ صلّ على آل فلان**». فما أجدر النّفوس المضطربة بالذّنوب والمعاصي إلى ما يسكّن روعها ويزيل توحّشها.

وإيماء إلى قبول صلوات الرّسول جاء التّذييل بما يناسب ذلك بوصفه تعالى بأنه: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، يعلم ما في قلوب عباده من خواطر وأحاسيس ويقضي بما يستحقونه من الاستجابة والإثابة.

وحتى يطمئن التّائبون إلى المغفرة والقبول جاء الاستفهام التّقريريّ بأن الله يقبل التّوبة فيعفو ويقبل الصّدقات فيثيب عليها فقال عزّ من قائل: **﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾**.

الضّمير يعود إلى التّائبين المعترفين بذنوبهم، ومن خلالهم هو تقرير لكلّ عباد الله المؤمنين. والتّذكير بمقام العبودية مناسب لفيوض رحمة الله على عباده، لأن الحالة النّفسية للتائبين تقتضي مثل ذلك التّأكيد باختيار: ﴿يَعْلَمُوٓاْ﴾ الدّالة على اليقين مقرونا بالاستفهام التّقريريّ حتى تنمحي الشّكوك من نفوس هؤلاء؟، فيتيّقنوا بأن الله تعالى قد قبل توبتهم وصدقتهم.

وزيادة على ما في ذلك من التّطمين لهؤلاء التّائبين، فالآية تتضمّن التّحضيض لأمثالهم للمسارعة إلى التّوبة، ولذلك جاء العطف على قبول التّوبة والصّدقات بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ بصيغة المبالغة في وصف "تواب"، وبضمير الفصل للدّلالة على الحصر، فحصول القبول للتّوبة يتكرّر مهما كانت كثرة التّائبين وذلك من تمام رحمته تعالى بعباده المؤمنين.

ولمزيد من دفع اليأس والقنوط من رحمة الله عطف على ما سبق قوله تعالى: **﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**.

والتّحريض على العمل بالنّسبة للتائبين المقصودين من الآية أو لعموم المخاطبين هو للترغيب في متابعة تزكية النّفس بعد التوبة لتزيد من الخير وتستشرف مراتب الكمال بعد أن انطوت صفحة الماضي وتطّهرت النّفس بالإنابة إلى الله. وإطلاق الأمر بالعمل ليشمل كل أعمال البرّ من النّية والاعتقاد إلى أنواع السّلوك والقيام بالواجبات كما أمر الله. ويؤكّد ذلك تفريع رؤية الله ورسوله والمؤمنين لذلك العمل، والرّؤية مجازية، فرؤية الله تعالى تعني تعلّق علمه وشموله لكلّ الوقائع التي تحدث في ملكوته. وفي اعتقاد ذلك من المؤمن تحذير له من التّقصير في واجبه الدّيني، وتحفيز له للمثابرة والجدّ في ما يرضي الله.

عطفت عليها رؤية الرّسول على اعتباره أنه مبلّغ عن الله، وقد أمر أن يتولّى معاملة النّاس على حسب أعمالهم وعلى الله حسابهم ومجازاتهم.

كما عطفت عليه رؤية المؤمنين، لأنّهم شهداء لله في أرضه كما ورد في الأثر: "ألسنة الخلق أقلام الباري". فطوبى لمن شهد له النّاس بالخير، وويل لمن شهد النّاس عليه بالشرّ. وقد جاء في الصّحيحين عن أنس قال: مرّوا بجنازة فأثنوا عليها خيرا فقال النبي ﷺ: «**وجبت**» ثم مرّوا بأخرى فأثنوا عليها شرّا فقال: «**وجبت**» فقال عمر: ما وجبت؟؟. قال الرّسول: «**هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة وهذا أثنيتم عليه شرّا فوجبت له النّار. أنتم شهداء الله في الأرض**».[1]

ولله تعالى في خلقه شؤون، يكشف أعمالهم للناس في الدّنيا -أحيانا- مهما

١- رواه البخاري من حديث أنس، كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت، رقم ١٣٠١؛ ورواه مسلم من حديثه أيضا، كتاب الجنائز، باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى، رقم ٩٤٩.

حاولوا إخفاءها. على أن ستر عورات المسلمين مطلوب من المؤمن ما وجد لذلك سبيلا، وأما أحوال الآخرة فمردّها إلى الله يوم تنشر الصّحف وتكشف الأسرار وتفضح الخلائق.

﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: والإنباء بالأعمال يقتضيه العدل الإلهي لما يترتب على ذلك من الجزاء ثوابا أو عقابا، جعلنا الله من الآمنين يوم الفزع الأكبر، والله أعلم.

خبر المرجئين لأمر الله في التّوبة عليهم

أ)- النص:

وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٠٦

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَءَاخَرُونَ﴾: أي في تصنيف المتخلفين عن غزوة "تبوك". ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾: قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وأبو جعفر وخلف ﴿مُرْجَوْنَ﴾ بسكون الواو بدون همز على أنه مفعول من أرجاه بالألف. وهو مخفف "أرجأه يرجئه" بالهمز، أي أخّره. وقرأ الباقون: "مرجئون" بهمزة بعد الجيم على أصل الفعل. و"اللام" في قوله: ﴿لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ للتعليل، أي لأجل انتظار أمر الله في شأنهم. ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾: "إمّا" حرف يدلّ على أحد شيئين أو أشياء، ومعناها قريب من معنى "أو" التي للتخيير.

ج)- البيان والتّفسير:

روي في سبب النّزول لهذه الآية عن ابن عباس ومجاهد وآخرين قالوا:

الآخرون هم الثّلاثة الذين خلّفوا عن التّوبة وهم: مرارة بن الرّبيع وكعب بن مالك، وهلال بن أميّة من بني واقف. قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلا وميلا إلى الدّعة والكسل وحبّا لطيب الثّمار والظّلال، لا شكا ونفاقا.

قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾: حصل مما تقدّم بيانه إلى هذه الآية الكريمة أن المتخلفين عن غزوة "تبوك" هم ثلاثة أصناف كما ذكرهم الإمام الرّازي:

"أ)- المنافقون الذين مردوا على النّفاق، وهم الأكثرية.

ب)- التّائبون وهم المرادون بقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾، ربطوا أنفسهم بالسّواري -وهم أبو لبابة وأصحابه- تابوا وبيّن تعالى أنه قبل توبتهم.

ج)- الذين بقوا موقوفين، وهم المذكورون في هذه الآية. وسبب إرجائهم هو أنهم لم يسارعوا إلى التوبة كالأولين، فأرجأ الله الحكم في أمرهم قبل خمسين ليلة، فوقفهم الرّسول وأمر النّاس بالكف عن مجالستهم وأمرهم باعتزال نسائهم وإرسالهن إلى أهلهن حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (التوبة:١١٨).

وتأخير هؤلاء لأمر الله في شأنهم، هل يتوب عليهم أو لا يتوب؟، هذا التّرديد بين الأمرين هو بالنّسبة إلى النّاس لا بالنّسبة إلى الله، لأن أمرهم في علمه تعالى مقضيّ لا تردّد ولا شكّ فيه. والحكمة في هذا الإرجاء والإبهام ليظل النّاس في رهبة وخوف وفي أمل ورجاء، لأن الشّعور بالذّنب يدفع صاحبه إلى النّدم والتّوبة، سيما وقد أمر الرّسول بعدم مخالطتهم ومجالستهم. وفي ذلك تربية لغيرهم ممن يؤثرون الرّاحة والكسل على طاعة الله ورسوله.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: بما يقضيه في أمرهم حكيم في تقديره وتشريعه بما

يفيد صلاح خلقه بذلك الإرجاء في أمر توبتهم، وهو أعلم بما في نفوسهم، والله أعلم.

مسجد الضّرار والكفر، ومسجد التّقوى

أ)- النص:

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ
رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ
مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي
نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي
قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿الَّذِينَ﴾: قرأه نافع وابن عامر وأبو جعفر بدون واو العطف، على أنه مبتدأ، والجملة مستأنفة ابتدائية. وقيل: هو منصوب على الاختصاص والاستئناف لبيان اختلاف الحال بين هؤلاء وحال المرجون لأمر الله، وقرأها البقية بواو العطف لتكون معطوف على التي قبلها لذكر فريق آخر. ﴿ضِرَارًا﴾: مصدر ضارّ، مبالغة في ضرّ أهل الإسلام. ﴿وَإِرْصَادًا﴾: الترقب والتّهيئة للعداوة، وقيل: المقصود بمن حارب الله ورسوله هو أبو عامر الرّاهب من بني غنم بن عوف، قد تنصّر في الجاهلية وبقي على نصرانيته بعد الإسلام، وكان يستعدي ويجاهر بالعداوة، كث

إلى قومه يأمرهم بأن يبنوا مسجدا ليخلصوا فيه بأنفسهم فانتدب لذلك اثني عشر رجلا من المنافقين. ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى﴾: فعل الخير كالتوسعة على المسلمين. ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾: والتّأسيس هو وضع الأسس من أول ما جاء الرّسول إلى المدينة فمرّ بديار بني عوف في "قباء". ﴿أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾: الشّفا بالقصر وفتح الشّين هو حرف البئر أو الحفرة. و﴿هَارٍ﴾: مشتق من هار البناء إذا تصدّع. و﴿الجُرُف﴾: قرأه الجمهور بضمّ الرّاء. وقرأه ابن عامر وحمزة وأبو بكر عن عاصم وخلف بسكون الرّاء. وهو جانب الوادي أو الهوّة. إنْهَارَ: سقط. ﴿الرِّيبَةَ﴾: الشّكّ والحيرة. ﴿أُسِّسَ﴾: قرأه نافع وابن عامر بصيغة المفعول، وقرأه الباقون بالبناء للفاعل.

ج)- البيان والتّفسير:

الكلام مستأنف أو معطوف على القراءتين بالواو وعدمه. وعلى الاستئناف يكون بدلا من قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ﴾، وعلى العطف تكون من عطف الجملة على الجملة، والتّقدير: ومنهم الذين اتّخذوا مسجدا ضرارا...إلخ.

بعد أن ذكر الله أصناف المنافقين أعقب عليهم فريقا آخر غضب الله عليهم من أعمال قصدوا بها معاكسة المسلمين، قال ابن عبّاس: كانوا اثني عشر رجلا من المنافقين بنوا مسجدا ليضارّوا به مسجد "قباء" فقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُومِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾.

قد يكون العمل في ظاهره مبرّة حسنة، كبناء المساجد والمآوى والمستشفيات، ولكن الدّوافع التي تكون من وراء ذلك تختلف عند الله الذي يعلم السّرّ وأخفى، وقد تنطلي على النّاس فلا ينتبهون إلى ما تسبّبه من أضرار إلا بعد حين، فنبّه الله رسوله إلى ذلك لتفادي تلك الأضرار التي ذكر منها أربعة أشياء:

أ)- ﴿ضِرَاراً﴾: أي محاولة الضرّ للإسلام ولأهل مسجد "قباء" بصفة خاصّة، وهو أول مسجد بناه الرّسول بمجرّد وصوله إلى المدينة.

ب)- ﴿وَكُفْراً﴾: بالنّبي وبما جاء به، طعنا وكيدا وتآمرا.

ج)- ﴿وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُومِنِينَ﴾: وذلك بإحداث الفتنة في صفوف المسلمين، عندما يصلّي بعضهم في هذا المسجد فيتركون الصّلاة خلف رسول الله، فيؤدّي ذلك إلى البلبلة والفرقة.

د)- ﴿وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ، مِن قَبْلُ﴾: والإرصاد هو التّرقب والتّهيئة لمجيء من حارب الله ورسوله من قبل، والمقصود به هو أبو عامر الرّاهب، إذ حارب الرّسول مع الأحزاب ومع ثقيف وهوازن، فلمّا هزموا فرّ إلى الشّام يستنجد بقيصر الرّوم، ليخرج محمدا وأصحابه من المدينة، وأرسل إلى المنافقين ليبنوا له ذلك المسجد ويستعدّوا للحرب معه. كان يجاهر بالعداء لرسول الله ويقول له: لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم. فدعا عليه الرّسول أن يموت بعيدا طريدا فنالته هذه الدّعوة.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنَ اَرَدْنَآ إِلاَّ الْحُسْنَىٰ﴾: ومن صفات المنافق أنّه يسرع إلى الحلف وهو كاذب، يتستّر بذلك للتمويه على النّاس، والحسنى التي ادّعوها ببناء هذا المسجد هي الرّفق بالمسلمين والتّيسير على أولي العجز والضّعف منهم بتقريب المسجد إليهم، وهم يحاولون بذلك أن يستقدموا الرّسول للصّلاة فيه معهم حتى تعطى هذا المسجد الشّرعية التي يموّهون بها على النّاس، ولكنّ الله فضح تآمرهم وكذبهم فقال: ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ثم نهى الله رسوله أن يستجيب لدعوتهم فقال تعالى: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ اُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنَ اَوَّلِ يَوْمٍ اَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَّتَطَهَّرُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.

أكّد الله النّهي عن قيام الرّسول بالصّلاة في مسجد الضّرار بقوله: ﴿أَبَدًا﴾، الذي يستغرق الزّمن المستقبل، والرّسول قدوة المؤمنين، فهم منهون عن الصّلاة فيه بالتّبع، وبذلك يفتقد هذا المسجد الشّرعية الدّينية، فتكون الصّلاة فيه باطلة، وبذلك أحبطت مؤامرة التّفرقة بين المسلمين، إذ أمر رسول الله ثلة من أصحابه الأوفياء فقال لهم: «**انطلقوا إلى هذا المسجد الظّالم أهله فهدموه وحرّقوه، ففعلوا**».[1] واستنبط العلماء من ذلك كثيرا من الأحكام الفقهية في كلّ ما يدخل الضّرر على الغير فيجب أن يمنع، وقالوا بفساد الصّلاة في كلّ مسجد بني للضرار والفتنة أو للرياء والسّمعة.

وإذا كان هذا الحكم للمسجد العادي فهو أوكد للمسجد الجامع، فلا يجوز تعداد المساجد لصلاة الجمعة إلا إذا كبرت البلدة وضاق المسجد الجامع الأول بعمّاره، كما لا يجوز للإمام الذي صلّى بالنّاس في مسجد الضّرار أن يصلي بهم في المسجد الذي بني على التّقوى إلا إذا تاب وتبيّن عذره في ما فعل، كما حدث لمجمع بن جارية مع عمر بن الخطاب عندما طلب أن يصلّي بالنّاس في مسجد "قباء" فلم يأذن له بذلك إلا بعد ما تاب وتبيّن عذره بأنه كان جاهلا بما يقصده المنافقون. و لم يقتصر الإرشاد الإلهي على النّهي عن الصّلاة في مسجد الضّرار، بل حرّض الله رسوله على الصّلاة في المسجد الذي أسّس على التّقوى من أول يوم، وهو مسجد "قباء" على الأرجح، وقيل: هو المسجد النّبويّ كما تفصح عنه بعض الرّوايات.

والتّحريض على الصّلاة في المساجد الطّاهرة من النّفاق والرّياء، إنما هو دفع لمكر الشّيطان ووساوسه مما يستلزمه نهي العبد عن الصّلاة في أوقات الدّعوة إليها،

١- أنظر روايات الحديث: الطبري، جامع البيان، ٢٣/١١؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣٨٩/٢

فلا يقع في طائلة قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الذي يَنْهَى، عَبْداً اذا صَلَّى﴾ (العلق:٩-١٠)[1].
فقال تعالى: **﴿لَمَسْجِدٌ اُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِن اَوَّلِ يَوْمٍ اَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾**.

والتّعبير بالأفضلية: ﴿اَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ لا يقتضي جواز القيام في مسجد الضّرار، نظرا بأن التّعليل الوارد لبيان تلك الأحقية يدلّ على نقيض ذلك لمسجد الضّرار، وذلك زيادة على المفاسد الأربعة المذكورة له، وقد أثبت الله الأحقية بأمرين:

أ)- أنه: **﴿اُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِن اَوَّلِ يَوْمٍ﴾**: والتقوى هي الاسم الجامع لكل ما يرضي الله قولا وعملا ونية.

ب)- **﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُواْ﴾**: وقد شهد الله بمحبته إياهم، وقد اختلف المفسّرون في معنى التّطهّر، أهو الطّهارة المعنوية من الذّنوب والآثام ومن الرّياء والنّفاق حتى يكون ذلك مقابل خبث أصحاب مسجد الضّرار؟، أم هي الطّهارة المادية من النّجاسات كما تثبته بعض الرّوايات؟، أم هو محمول على كلا الأمرين؟.

وأغلب المفسّرين على ترجيح الأمر الثّاني من طهارة الأنجاس لما ثبت في الأخبار أنّ الرّسول مشى إلى أهل "قباء" في جماعة من أصحابه حتى وقف على باب المسجد فقال: «**يا معشر الأنصار، إن الله أثنى عليكم فما الذي تصنعون في الوضوء؟**» قالوا: نتبع الماء الحجر. فقرأ النبي الآية: **﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُواْ﴾**.[2]

١- روى الحاكم نحوه في المستدرك من حديث أنس وغيره، رقم ٣٢٨٧، وقال: صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

ولا يمنع الجمع بين الاحتمالين لأن النّجس يطلق على كلّ مستقذر ماديا كان أو معنويا لقوله تعالى في هذه السّورة: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ (٢٨).

ولتركيز التّأسيس لبيوت الله على التّقوى وأحقية الصّلاة فيها، جاء التّفريع بقوله تعالى: **﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**.

صدّرت هذه المقارنة بين المسجدين بالاستفهام التّقريري: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾، والمقارنة لبيان الفرق بين المسجدين في قيمتهما عند الله، والتي تنبني على المقاصد والنّوايا، فأساس الخيرية في المفاضلة هي تقوى الله ورضوانه، والمتمثلة في رسول الله وجماعته، إن في مسجد "قباء" أو في المسجد النّبويّ على الاحتمالين السّابقين، أمّا مسجد الضّرار فأساسه واه يتعرّض للسقوط والانهيار.

وشبه القصد من إقامة كلّ من المسجدين بأساس البناء الذي يتطلّب ركيزة متينة وأرضا صلبة يقوم عليه فاستعير ذلك للتقوى والصّلاح وطلب الرّضوان من الله، وهو على النّقيض من البناء الفاسد الذي تشبه به المقصد السّيئ من مسجد الضّرار، إذ هو بناء على شفا جرف هار، نهايته السّقوط والهدم في الدّنيا والانهيار بأصحابه في قعر جهنم، ويقتضي هذا التّمثيل أن المقابل من أهل التّقوى والرّضوان بناؤهم مستقرّ ثابت يكتب له الدّوام في الدّنيا، والنّعيم لأصحابه في الآخرة، وهذا من أروع الأمثال في تصوير عاقبة الإيمان الصّادق وما يستلزمه من السّلوك النّظيف والعمل الصّالح، وعاقبة الكفر والنّفاق وما ينجرّ عنهما من الخزي والبوار ومن الذّلة والعار.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: حكم عامّ يشمل كل ظالم إلى قيام السّاعة، وهو لا يحالفه التّوفيق ولا يهتدي لأقوم الطّريق، كيف وقد وكله الله إلى

نفسه، وهو مرهون بسوء عمله، وتلك هي العاقبة الوخيمة التي يجنيها هؤلاء المنافقون على ممرّ الأجيال والأحقاب، وقد أبان الله ذلك بقوله: ﴿لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تُقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

إنه الجزاء الأوفى لتلك النفوس الخبيثة أن تظلّ في حيرة وشكّ وقلق خشية الافتضاح، سيما بعد أن أمر الرّسول بهدم مسجدهم وإحراقه ونهاه الله عن الصّلاة فيه، فقد انقطع بذلك فرحهم، وأحبطت مساعيهم فانكفأوا على أنفسهم شاكّين مرتابين، كيف يكون مصيرهم بعد ذلك في أموالهم وأنفسهم؟، ولا ينفكّون عن هذه الحالة المزرية مادامت قلوبهم في أجسادهم إلى أن تتقطع أفلاذا بموتهم وفنائهم. وقيل: تتقطع قلوبهم ألما وحسرة وندما على تفريطهم إن كتبت لهم التوبة، وقد ورد في الأثر: "من حاول شيئا بمعصية الله كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى". فما أبلغ حكمة الله في تربية خلقه، وتركيز سننه، إنه عليم حكيم، والله أعلم.

صفات المؤمنين الكمّل البائعين أنفسهم لله

أ)- النص:

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿انَّ الله اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُومِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾: تعبير تمثيلي، الإشتراء إعطاء شيء

مقابل بذل من الجانب الآخر، وهو مستعار للوعد بالجزاء عن الجهاد، والثّمن هو تمليكهم جنة النعيم. ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾: قرأ الجمهور الأول: ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ بصيغة المبني للفاعل اهتماما بالجهاد، وقرأوا ما بعده بصيغة المفعول. وقرأ حمزة والكسائي بالعكس اهتماما بالشّهادة التي هي أدخل في استحقاق الجنة. ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً﴾: نصب: ﴿وَعْداً﴾ على المفعولية المطلقة من فعل "اشترى" إذ العوض مؤجل وهو جنة الخلد. ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾: أوصاف للمؤمنين على صيغة اسم الفاعل. ويلاحظ العطف في قوله تعالى: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾: قال بعض اللّغويين هذه "الواو" يكثر وقوعها في كلام العرب عند ذكر معدود ثامن. وسمّوها "واو الثّمانية". وقال القرطبي: هي لغة قريش. وفي القرآن أمثلة أخرى على ذلك في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ (٢٢). وفي سورة الزّمر: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ (٧٣). لأن أبواب الجنة ثمانية، والله أعلم. ﴿السَّائِحُونَ﴾: مشتق من السّياحة: السّير في الأرض. والمقصود منه ما كان في قربة إلى الله كالهجرة والجهاد، وقال بعض المفسّرين: المقصود به الصّائمون.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد بيان أحوال المنافقين وأحوال المؤمنين المقصّرين في واجبهم الجهاديّ مع رسول الله بخصوص غزوة "تبوك" أعقب الله ذلك ببيان أحوال الكمّل الصّادقين من المؤمنين، مشيدا بصفاتهم الحسنة التي كانوا بها من الفائزين فقال جلّ من قائل:

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

إنها صورة بديعة رسمها الله تعالى للمؤمنين الصّادقين ورصّعها بتلك الأوصاف المميّزة لهذه الطّائفة بعد تلك الجولة الطّويلة في ذكر أوصاف المنافقين المخلفين عن الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. والجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ مستأنفة استئنافا ابتدائيا ومؤكدة بـ"إن" للاهتمام بمضمونها. واختيرت عملية البيع والشّراء وما تقتضيها من وجود الثّمن والمثمن في هذه الصّورة التّمثيلية على صيغة الفعل الماضي "اشترى" لإفادة على أن ذلك قد استقرّ وتمّ في المجتمع المسلم الصّادق، وأن ذلك قدر مشترك بين الدّيانات السّماوية كلها. وتتمّ هذه الصّفقة المربحة بين الله والمؤمنين. إنها علاقة الرّضى والثّقة يكون فيها الله هو الشّاري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، حتى لكأن هؤلاء هم المالكون لما باعوه، بينما الحقيقة هي أن المالك الحقيقي هو الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ (يونس:٦٦). ولكن فضل الله تعالى وتكريمه لهذا الإنسان جعل المؤمنين كالمتعاقدين معه بيعا وشراء تلطّفا وكرما، وهو المالك للثمن والمثمن، ولا يمكن للمؤمن الصّادق إلا أن يكون كذلك، واهبا نفسه وماله لله لا يستبقي منهما شيئا في هذه الصّفقة الرّابحة، وهو بذلك يشتري الجنة حيث النّعيم الأبديّ بما هو فان من متاع الدّنيا امتثالا لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢).

وقوله تعالى: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ بيان لصفة تسليم المبيع، بأنهم يقاتلون في سبيل الله، كما أنه بيان لمكان التّسليم، في المعركة التي يواجهون فيها أعداءهم وهم بين قاتل وقتيل، وكلا الأمرين ثمنه الجنة الذي أكّده الله بقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾، إنه وثيقة الضّمان لإيصال الثّمن إليهم، لا فسخ فيه ولا إقالة، كما قال عبد الله بن رواحة لرسول الله في بيعة العقبة الثّانية عندما قال لرسول الله: اشترط لربّك ولنفسك ما تريد قال: «**أشترط لربّي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم**».

قالوا: "ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل".[١]

وقوله تعالى: ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ في موقع الحال من قوله: ﴿وَعْدًا﴾، أي أن هذا الوعد مقرّر في الكتب السّماوية الثّلاثة: القرآن والتوراة والإنجيل، وقد أثبت القرآن ذلك. على أن يكون المراد بالمؤمنين في الآية الكريمة جميع المؤمنين بالرّسل. وقد ورد في القرآن ما عاناه الرّبّيون مع رسل الله في نصرة الحق بمثل قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٦). وما يمكن للدين الحقّ أن ينطلق ويتركّز حركة حيّة في واقع الحياة والنّاس إلا بالجهاد والكفاح، وتلك هي سنة الله التي لا تتخلّف وهو القائل: ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج:٤٠).

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾: الاستفهام إنكاريّ، وجيء باسم التّفضيل "أَوْفَى" مع إظهار لفظ الجلالة لاستحضار الكمال المطلق في الذّات العلية، ومنه الوفاء بالعهد، فلا أحد يدانيه في ذلك جلّ تعالى عن النّدّ والشّريك في ذاته وأسمائه الحسنى.

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾: فإذا تأكد الوفاء بعهد الله فيجب على البائعين أن يستبشروا بتلك الصّفقة التي جاءت مضافة إليهم إظهارا لمزيد من السّرور والغبطة، لأن في ذلك الفوز العظيم الذي لا أعظم منه عند الله وعند النّاس.

ثم تتابعت الأوصاف المشرّفة لهؤلاء المؤمنين، وهي أوصاف تنمّ عن المشاعر

١- أنظر روايات الحديث: الطبري، جامع البيان، ١١/٣٥؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢/٣٩٢.

الصّادقة والأعمال الصّالحة المجسّدة لتلك المشاعر، وهي أوصاف تسعة تمثل قمة الإيمان في جميع شعبه: من أعلاها قول "لا إله إلا الله" إلى أدناها بإماطة الأذى من الطّريق، وكلّها صفات تتكامل في ذات المؤمن لتجعل منه ذلك العملاق القويّ، والمندفع لنصرة الحق وإقامة العدل وفق هدي الله ورسوله. في جهاد وكفاح لا يقصد من ورائها المنافع العاجلة أو المكاسب الدّنيئة فقال جلّ من قائل: **﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤمِنِينَ﴾**.

وردت الصّفات كلّها على صيغة اسم الفاعل وقطعت عن الوصفية لما قبلها في قوله تعالى: **﴿اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤمِنِينَ﴾**، فكانت إخبارا لمبتدأ محذوف للاهتمام بها، وترتيبها ليس عفويا، إذ بدأ الله بصفة التّخلية من الذنوب أي بالتّوبة فقال:

أ)- **﴿التَّائِبُونَ﴾**: والتّوبة محو للصفحة الماضية بالنّدم وعودة إلى الله في المستقبل ما دامت للمؤمن فسحة في العمر.

ب)- **﴿الْعَابِدُونَ﴾**: بكلّ ما في العبادة من إخلاص التّوجّه إلى الله وحده، والعبادة بمعناها الشّامل، عبادات ومعاملات وأخلاقا.

ج)- **﴿الْحَامِدُونَ﴾**: لأنعم الله في السّرّاء والضّراء، كما وصف الرّسول بذلك عندما قال: «**المؤمن بخير على كل حال، إن أصابه خير شكر، وإن أصابه شرّ صبر، فهو بخير على كل حال، وليس ذلك لغير المؤمن**».[1] أو كما قال.

د)- **﴿السَّائِحُونَ﴾**: من السّياحة في الأرض لمقصد شرعي مطلوب في هجرة إلى الله، أو جهاد في سبيله، أو طلب علم أو رزق حلال...إلخ، أو للتأمّل

١- روى نحوه مسلم من حديث صهيب، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كلّه خير، رقم ٢٩٩٩.

والاعتبار في ما خلق الله في السّماوات وفي الأرض. وكم في القرآن من إرشاد للسير في الأرض لمعرفة سنن الله في خلقه، وللاعتبار بالأمم الخوالي كيف كانت عاقبتها كقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران:١٣٧).

ومن المفسّرين من حصر وصف السّائحين والسّائحات بأنهم الصّائمون والصّائمات، لاستبعادهم سياحة النّساء في الأرض، وعلّلوا هذا التّفسير بكون الصّائم يترك الملذات كلها كالسّائح المتعبّد، وهو تضييق لمعنى اللّفظ بغير دليل معقول، لأن المناسب للسياق أن يقصد بالسّياحة الخروج للجهاد.

هـ)- ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾: في صلواتهم، لأن الرّكوع والسّجود هما أعظم ركن في الصّلاة. وخصّت بالذّكر لما لها من الأثر الفعّال في سلوك الإنسان.

وبعد هذه الصّفات الفردية التي تعتبر من المقوّمات الأصلية في تكوين شخصية المؤمن، تأتي الصّفات الاجتماعية التي تتعلق بجماعة المؤمنين نحو بعضهم البعض فقال تعالى:

و)- ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾: وكلاهما صمام الطّهر والفضيلة للمجتمع المسلم، وقد تقدّم في شأنهما ما يكفي في بيان مكانتهما سيما في سورة آل عمران.

ز)- ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ﴾: وهي صفة جامعة للعمل بكل التّكاليف الشّرعية. والتّعبير بالحفظ يدلّ على وجوب استبقائها في حرز آمن حتى لا تضيع، لأنها أمانة في عنق المجتمع المسلم، تقوم على المسؤولية التّضامنية في تحمّلها ورعايتها، ثم قال تعالى لرسوله:

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: عطفا على جملة: ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي المؤمنين الموصوفين بما تقدّم ولم يذكر المبشّر به لتعظيم شأنه وجمعه لخيري الدّنيا

والآخرة. وهكذا ترسم هذه الآية الكريمة النموذج الأعلى للمؤمن الكامل الذي يستحق تلك البشارة الربانية على لسان رسوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾، والله أعلم.

النهي عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى، وإقامة الحجة عليهم

أ)- النص:

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا
عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ
﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم
مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾: ما كان لفلان أن يفعل كذا هو نفي للشأن، وهو أبلغ من النهي المجرّد، لأنه نفي معلّل بالسّبب المقتضي له. ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾: "لو" اتّصالية تفيد الغاية لمعطوف عليه محذوف للعلم به، جيء بها للمبالغة في استقصاء أقرب الأحوال إلى المعذرة لقطعها عن المخالف. ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾: الموعدة اسم للوعد، ومرجع الضّميرين إمّا لإبراهيم أو لأبيه وذلك أن الأب وعد الولد بالإيمان، كما وعد إبراهيم أباه بالاستغفار له بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ

رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (مريم:٤٧). وهو يرجو أن يسلم. ﴿لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾: أصل التأوّه قول أحد: "أَوَّهْ"، وفيه ثلاث عشرة صيغة أشهرها هي هذه. وهي كناية عن الرأفة ورقة القلب والتضرع. والحليم: من الحلم وهو الصّبر على الأذى، والصّفح والتأنّي في الأمور، مما يدلّ على رجاحة العقل، و"أوّه" اسم فعل مضارع. ﴿يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾: أي الأشياء التي يجب أن يتقوها من الأقوال والأفعال. ﴿لَهُ، مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: أي لا شريك له في الخلق ولا في التدبير ولا في التشريع.

ج)- البيان والتفسير:

لقد تدرّجت الدّعوة الإسلامية في ائتلاف القلوب، وفي ملاطفة من تجب ملاطفته من النّاس مراعاة لمصلحة الدّعوة وتركيزها في النّفوس، ومن ذلك استغفار النّبي لبعض المنافقين، ثم خيّره الله في الاستغفار وعدمه وسوّى بين الأمرين عندما قال له: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ (التوبة:٨٠). ومع انتشار الدّعوة الإسلامية وانتصارها بعد فتح مكة، دعت الحاجة إلى سياسة العزة والقوة للمجتمع المسلم أزاء جيوب الكفر والنّفاق المتبقية في أنحاء الجزيرة، وقد ذكرت سابقا الجوّ الذي نزلت فيه سورة "التوبة" وأن الله تعالى أعلن فيها البراءة من الكفّار والمنافقين في جميع الأحوال. ولعلّ بعض المسلمين كانوا يستغفرون لأهليهم وذويهم من المشركين طمعا في إيصال النّفع إليهم دنيويا أو أخرويّا، إذ ما تزال علاقات القربى وطيدة بين النّاس، كما كانوا عليه في العهد الجاهلي، فجاءت هذه الآيات لتقطع تلك العلاقة، بالنّهي عن الاستغفار للمشركين، أحياء أو أمواتا فقال تعالى:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيءِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾:

يسمّى هذا النّوع من النّفي بنفي الشّأن -وهو أبلغ- ومعناه النّهي. أي ليس من شأن النّبي ولا المؤمنين وما ينبغي أن يقع منهم طلب المغفرة من الله لأحد من

المشركين ولو كان من أهل القرابة، لأن صفة النبوة وصفة الإيمان تمنعان من ذلك، فإذا كان ذلك ممنوعا للأقربين فكيف بالأبعدين؟، فهم من باب أولى. فالذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله بثمن الجنة، ليس من شأنهم أن يتملّقوا آصرة الدّم والنّسب إذا بقيت على عداوتها لله، وقد تبيّت للمؤمنين تلك العداوة بدليل موت أقربائهم على الكفر والشّرك، لأن الموت على ذلك لا تجدي فيه التّوبة والاستغفار لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾ (الأنعام:١٥٨). ولقوله تعالى في سورة النّساء: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ (النساء:١٨).

ويلتحق بالمشركين المنافقون الذين ظهر نفاقهم وتماديهم عليه للنبي والمؤمنين كما دلّت بعض الرّوايات أنّ سبب النّزول أبو طالب عمّ النّبي أو أمّه آمنة، أو رجل مسلم كان يستغفر لأبويه المشركين، ولكن نزول السّورة بعد ذلك بزمن طويل يوهي تلك الأخبار.

ولما كان إبراهيم في مقام الأسوة للمؤمنين، كما أخبر الله بذلك في سورة الممتحنة بقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَٰهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ (٤). عطف الله على ما سبق من النّهي في شأن ما لا ينبغي لرسول الله والمؤمنين، عطف عليه ما لا ينبغي لغيره من رسل الله كإبراهيم عليه السلام إذ بيّن تعالى سبب استغفاره لأبيه المشرك فقال: **﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾**.

الجملة معطوفة على النّفي السّابق لما بينهما من التّناسب في أن النّهي الإلهي عن الاستغفار للمشركين أحيائهم وأمواتهم لا يختصّ بدين محمد عليه السلام، بل هو مشروع أيضا في دين إبراهيم عليه السلام ومن خلال الرّسولين هو مشروع لغيرهما من

رسل الله الكرام على القاعدة الأصولية: "شرع من قبلنا شرع لنا".

بيّن الله تعالى السّبب الذي دعا إبراهيم أن يستغفر لأبيه المشرك بأن ذلك كان عن وعد صدر من الولد لأبيه أن يستغفر له رجاء هدايته إلى الإيمان كما حكى الله عن ذلك في القرآن الكريم فقال:

أ)- ﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيَ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾ (مريم:٤٧).

ب)- ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ﴾ (الممتحنة:٤).

ج)- ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤمِنِينَ﴾ (إبراهيم:٤١).

د)- ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (الشعراء:٨٦).

وقد بيّن الله أن هذا الميل العاطفي من إبراهيم لأبيه مع كونه مشركا لا يجوز الاستغفار له، كان السّبب في ذلك هو كون الولد أوّاها حليما، أي صبورا على الأذى قليل الغضب، كثير التوجّع والإشفاق على ما يصيب النّاس من أضرار، إلا أن ذلك لم يمنعه من التبرّء من والده عندما تبين له أنه عدوّ لله، إمّا بأن أخبره الله بذلك عن طريق الوحي، وإما بعد أن مات أبوه على الكفر والشّرك، وفي هذا الموقف من إبراهيم قدوة للمؤمنين إذ أمرهم الله باتباع ملّته.

وفي مرجعية الضّمائر في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ احتمال ثان، بأن يكون الواعد هو أبو إبراهيم لولده بالإيمان عندما قال له: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ (مريم:٤٦). إذ سأل الله له الهداية والمغفرة، غير أن الأب لم يوفّ بوعده حتى مات على الكفر لما تقدم.

وبعد الاعتذار للرسولين الكريمين، وكان بعض المؤمنين يستغفرون لآبائهم وذوي قرابتهم، ولما نزل المنع من ذلك خافوا العقاب عما صدر منهم قبل ذلك فجاءت الآية التّالية لتطمين النّفوس وإعذارها فقال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ**

قوْماً بَعْدَ إذْ هدَاهُمْ حتَى يُبيّنَ لهُم مَّا يَتَّقُونَ إنَّ اللهَ بكُلِّ شيْءٍ عَليمٌ﴾.

ليس من شأن الله ولا مما يليق بجلاله وعدله أن يصف قوما بالضّلال بعد إذ هداهم الله إلى الحق، وبيّن لهم بواسطة رسله ما أرشدهم إلى طريقه المستقيم، فهو لا يؤاخذهم حتى يقيم لهم الحجّة ببيان ما يجب عليهم أن يتقوه من الأقوال والأفعال كما قال في سورة الإسراء: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(١٥) وفي ذلك حكم عامّ بأن لا عقوبة من الله لخلقه إلا بعد البيان، ومن ثمّ فإن الله لا يؤاخذ النبي ﷺ ولا يؤاخذ إبراهيم عليه السلام ولا المسلمين الذين استغفروا لآبائهم المشركين قبل نزول هذا النّهي، والإخبار بأن أولئك المستغفر لهم ميؤوس من الهداية والمغفرة لهم، فإنّ الله الذي قضى بذلك عليم بأحوال خلقه، لا يشرّع لهم إلا ما فيه نفعهم وصلاحهم.

ولتأكيده تعالى على علمه الواسع أعقب ذلك بقوله: ﴿إنَّ اللهَ لَهُ، مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾.

أي له مطلق التّصرّف والتّدبير في ملكوته، ومن مظاهر ذلك التّصرّف المطلق أنه تعالى يحي ويميت، حسّيا ومعنويا، وأن يتمّ ذلك وفق قضائه وقدره، لا يملك النّاس له دفعا ولا ردّا ولا يملك أولئك الذين تبرّأتم منهم ولايتكم ولا نصرتكم ولو كانوا أقرباء لأن الله هو وليّكم وناصركم، وهو تذييل مناسب لغرض الكلام، والمراد به التأييد للمسلمين وتثبيتهم على الاستمساك بآصرة العقيدة وتقديمها على كل آصرة أخرى، وبذلك تذهب عنهم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء والأجداد، امتثالا لقوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُومِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُواْ ءَابَآءَهُمْ أَوَ اَبْنَآءَهُمْ أَوِ اِخْوَانَهُمُ أَوْ عَشِيرَتَهُمُ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الاِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (٢٢)، والله أعلم.

التّوبة على النبي والمؤمنين وعلى المخلّفين الثلاثة

أ)- النص:

لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ
ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ
وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ
لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾: "تاب" بمعنى غفر لكم وتجاوز عن تقصيركم بمعنى لا يؤاخذهم الله بما قد يحسبون أنه يسبّب مؤاخذة، والتّعبير بالماضي يفيد دوام التّوبة. ﴿ساعَةِ الْعُسْرَةِ﴾: العسرة بمعنى الشّدة والضّيق، وساعتها هي زمن استنفار النّبي النّاس إلى غزوة "تبوك" على شدّة الحرّ وقلة المؤونة، وقوة العدوّ كما تقدم. ﴿كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾: "كاد" من أفعال المقاربة، و"الزيغ" الميل عن الطّريق المقصود. ﴿تَزِيغُ﴾: قرأ الجمهور بالمثناة الفوقية، وقرأه حمزة وحفص عن عاصم وخلف بالمثناة التّحتية: ﴿يَزِيغُ﴾ وهما وجهان في الفعل المسند لجمع تكسير ظاهر. ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾: أي تاب على الثّلاثة المعروفين بين النّاس فـ"أل" للعهد، وهم الذين قال الله فيهم من قبل: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ (التوبة:١٠٦). ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾:

تصوير بليغ لحالتهم النّفسية، وهم يشعرون بالضّيق والحرج بما ارتكبوه من ذنب بسبب تخلفهم. ﴿وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ﴾: "ظنّ" هنا مستعمل لليقين والجزم، أي التجأوا إلى الله دون سواه، أي أنهم تابوا إلى الله وهم ينتظرون عفوه.

ج) – البيان والتّفسير:

جاءت هذه الآيات وما بعدها خاتمة لسورة التّوبة، وهي تحمل هذا الاسم لما تضمنته هذه الآية من البشارة لرسول الله وصحابته بتوبة الله ورضاه عنهم، وهي مناسبة لما سبقها من النّهي عن الاستغفار للمشركين، إذ جاءت للإشادة بالمؤمنين الأوفياء، وبيان مكانتهم عند الله تعالى: ﴿**لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾.

وهكذا يتمّ هذا التّقابل بين فواتح السّورة وخواتمها، بين إعلان البراءة من المشركين وأمر الله لرسوله بالشّدة والغلظة عليهم، كما استقصت في شرح أحوال غزوة "تبوك"، وذكرت أحوال المتخلفين عنها. وقابلت بين ذلك وبين هذه الخاتمة المبشرة برضى الله عن رسوله وجماعة المؤمنين الأوفياء، وأكّد الله هذا المضمون بحرف التّحقيق واللاّم المشعرة بالقسم وصيغة الماضي لإفادة ما تقرّر في حكم الله وصدقته الأحداث في واقع الزّمان.

والتّعبير بـ"التّوبة" عوضا عن الرّضى، لا يعني أن هناك ذنوبا اقترفها النّبي والمؤمنون فتاب الله عليهم. يقول الإمام "ابن عاشور" في توضيح هذا المعنى اللّطيف: "غفر له، أي لم يؤاخذه بالذّنوب سواء كان مذنبا أم لم يكنه، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ (المزمل:٢٠). أي فغفر لكم وتجاوز عن تقصيركم، وليس هناك ذنب ولا توبة. فمعنى التّوبة على النّبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه، أن الله لا يؤاخذهم بما قد يحسبون أنه يسبّب مؤاخذة.

كقول النبي ﷺ: «**لعلّ الله اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**».[١][٢]

قلت: والقطب -رحمه الله- قرّر هذا المعنى اللّطيف في تفسيره حيث قال في تفسير الآية ما نصّه: "أدام توبته عليهم في غزوة العسرة، إذ لا ذنب لهم فيها، أو قبلها منهم، أو وفّقهم إليها في مطلق أحوالهم لا في خصوص هذه الغزوة".[٣]

وتقديم ذكر النّبي مع ذكر أصحابه من بعده إنما لتكريمهم وتعظيم شأن تلك التّوبة، وقد علم المسلمون أن الله غفر للرسول ما تقدم من ذنبه وما تأخّر. وبهذا التّوجيه اللّطيف في تفسير معنى التّوبة هنا يرتفع ما أورده بعض المفسّرين من الإشكالات، بأن هؤلاء قد صدر عنهم أنواع من المعاصي، إلا أنه تعالى تاب عليهم وعفا عنهم لأجل ما تحمّلوه من مشاق هذه الغزوة، ثم إن ذكرهم بوصفي الهجرة والنّصرة بعد ذكر الرّسول هو للإشادة بعلوّ شأنهم عند الله والنّاس.

وقوله تعالى: ﴿**الذينَ اتّبعُوهُ في سَاعَةِ الْعُسْرَةِ**﴾، للمفسرين في بيان المقصود من ساعة العسرة احتمالان:

أ)- أن المقصود بها "غزوة تبوك" بالذّات وصفت بذلك لما فيها من بعد الشّقة، وشدة الحرّ وقلة المؤونة، مما جعل بعض المؤمنين يتثاقلون في استجابة الرّسول عندما استنفر النّاس للجهاد، كما تقدم ويؤيّد ذلك قوله تعالى: ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ**﴾، ومن فضل الله أن ذلك لم يقع فجاء التّعبير

١- رواه البخاري من حديث علي، كتاب التفسير، باب: ﴿لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء﴾، رقم ٤٦٠٨؛ ورواه مسلم من حديثه أيضا، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر، رقم ٢٤٩٤.

٢- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١١/١٤٩.

٣- امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ٦/١٥٩.

بفعل المقاربة: "كاد" إذ خرج هؤلاء بعد التثاقل.

ب)- المقصود بساعة العسرة جميع الأحوال الشّديدة على رسول الله والمؤمنين كغزوة الخندق وغيرها، فوصف الله المؤمنين بحسن اتّباعهم لرسول الله وملازمتهم له في المواقف الصّعبة، وذلك أقوى في المدح والثّناء، ولمّا كان التردّد في الاستجابة لرسول الله مما لا ينبغي للمؤمن الوفي، عطف الله على التّوبة المطلقة في أول الآية توبة أخرى بخصوص ذلك الفريق المتثاقل. والتأكيد على التوبة في أول الآية وآخرها لإفادة أن العفو الإلهي عن المؤمنين المتبعين لرسول الله قد بلغ الغاية القصوى من الرّأفة والرّحمة، حتى لا يساورهم الشّك في أن يكونوا مؤاخذين بتلك الخواطر النّفسية المثبّطة.

ثم عطف الله على التّوبة العامّة توبة خاصّة على الثّلاثة من الأصحاب المتخلفين بدون عذر، وهم معروفون بين النّاس، وقد سبقت الإشارة إليهم في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ (التوبة:١٠٦). والثّلاثة هم: كعب بن مالك من بني سلمة، وهلال بن أمية من بني واقف، ومرارة بن الرّبيع العمري من بني عمرو بن عوف.

قال تعالى: **﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾**.

وقد تقدّم تصنيف المتخلفين عن غزوة "تبوك" تحايلا ونفاقا وكيف كان حكم الله فيهم. وبعد تعليق التّوبة على هؤلاء لمدة خمسين يوما لتمحيص قوة إيمانهم وليكونوا عبرة لغيرهم، وقد اعترفوا لرسول الله بذنبهم وندموا على ما فعلوه، ثم نالوا حظهم من المقاطعة الاجتماعية، وأمرهم الرّسول بعد رجوعه إلى المدينة باعتزال نسائهم، حتى جاءت توبتهم في هذه الآية. وعطفها على ما سبق

من التوبة المطلقة على النبي والمؤمنين يدلّ على أن التوبتين في حكم واحد من حيث الاستحقاق وعظم الشأن.

فقد حزن هؤلاء الثلاثة على ما صدر عنهم وبكوا أشدّ البكاء، ومعنى تخليفهم -أي لم يقض في أمرهم-، وقد بني للمجهول، والفاعل إمّا الله تعالى وإمّا رسوله، وقد وصفهم الله بأوصاف ثلاثة:

أ)- ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾: وجعل ذلك غاية لإرجاء أمرهم، وضيق الأرض عليهم هو كناية عن شدة غمّهم والمقاطعة الاجتماعية التي مارسها المسلمون لهم، وهو يخافون أن يموتوا على ذلك.

ب)- ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنفُسُهُمْ﴾: فلا أشقى على الإنسان من ضيق النفس واكتئابها، ويحصل ذلك بفرط الشّعور بالذّنب، وهو أشدّ من الأول، لأنّ شرح الصّدر هو مصدر السّعادة للإنسان، وإن كان في حيّز ضيّق من المكان.

ج)- ﴿وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ﴾: والظّن هنا بمعنى اليقين والجزم، مما يندرج في حسن الظّن بالله تعالى، وأن العفو من الذّنب موكول إليه، ولذلك لا ملجأ لهم من ذلك الغمّ الشّديد إلا إلى الله تعالى، فهم يتضرّعون إليه وحده ليترل توبته عليهم، سيما والرّسول والمؤمنون ما عادوا يكلمونهم.

كرّر الله أمر توبتهم للتأكيد إذ قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: ثم للمهلة والتراضي الزّمني، أنزل الله قبول توبتهم ليصبحوا من جملة المرضي عليهم ليدوموا على التّوبة، ويتترهوا عن الذّنوب. والله تعالى يحبّ التّوابين ويحبّ المتطهّرين وهو الذي يقبل التّوبة عن عباده. وهو المتفضّل على خلقه بذلك، إذ هو توّاب رحيم.

وحتى تكون في هذه القصّة عبرة لأولى الألباب، ليختاروا الصّدق والوفاء، وقد بيّنت السّورة الكريمة أصناف النّاس في تعاملهم مع الوفاء والخيانة ومع الصّدق

والكذب، جاء الأمر الإلهي بالنّداء المحبوب لدى المؤمنين: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

أورد التّفسير النّقلي رواية مطوّلة عما واجه به كعب بن مالك رسول الله بعد عودته من "تبوك" إذ جاء إليه المخلّفون يعتذرون ويحلفون، والرّسول يعاملهم على ظواهرهم، فلما جلس كعب بن مالك بين يدي الرّسول واستفسره عن سبب تخلّفه، صدقه القول و لم يلفّق الأعذار، بل قال للرسول: لا عذر لي، تخلّفت وأنا موسر قادر، فقال الرّسول ﷺ: «**أمّا هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك**».[1]

غير أن الآية عامّة في توجيهها، وتعدّ ملخّصا لما مضى من أحداث قصّة المخلفين، حتى يزدجر المؤمنون عن العودة إلى التّخلّف عن الجهاد مع رسول الله، ويتّقوا ما لا يرضاه الله، ويجانبوا المتردّدين المتخاذلين، وقد أمرهم الله بالكون مع الصّادقين في إيمانهم وعهودهم وجميع تصرفاتهم، لأن الصّدق في الأقوال والأفعال هو وثيقة الضّمان لسعادتي الدّنيا ولآخرة، كما تدلّ على ذلك كثير من آيات القرآن والأحاديث النّبوية، ولا شكّ أن هؤلاء الثّلاثة هم النّموذج الحيّ لما ينتج عن الصّدق من العواقب المحمودة: بتوبة الله عليهم والمغفرة لهم.

ولاشك أنّ الجهاد في سبيل الله وما يتطلبه من التّضحية بالمال والنّفس هو المحكّ الدّقيق لفعالية الصّدق عند المؤمن، وفي هذا السّياق يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُومِنُونَ الذِينَ ءَامَنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات:١٥).

جعلنا الله من الأوفياء الصّادقين، والله أعلم.

١- رواه البخاري من حديث عبد الله بن كعب عن أبيه، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم ٤١٥٦.

فرضية الجهاد، وجزاء أصغر الأعمال فيه

أ)- النص:

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾: يقال: رغب عن كذا إذا جافاه وكرهه، ورغب في كذا إذا أحبّه وحرص عليه. ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾: "الباء" للملابسة وذلك بأن يفضّلوا أنفسهم على نفس رسول الله بأن يصونوها ويطلبوا سلامتها. ﴿وَلاَ﴾: إما ناهية فيكون الفعل مجزوما. وإما نافية فيكون الفعل منصوبا على العطف. ﴿لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ﴾: الظمأ: العطش. والنَّصب: التعب، والمَخْمَصَة: الجوع. ﴿وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾: الموطئ: مصدر ميمي للوطء، أي الدّوس بالأرجل أو بحوافر الخيل أو خفاف الإبل في أرض العدوّ. ﴿وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً﴾: النّيل: مصدر نال منه، إذا أصابه بمكروه، وبذلك لا يقدّر له مفعول. ﴿كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾: أي يجعلها الله لهم قربات يؤجرون عليها. ﴿وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً﴾: جمع أودية، وهو كل منفرج يكون منفذا لسيول الماء وقطعه بمعنى اجتيازه.

ج)- البيان والتّفسير:

تقدّم أنّ الجهاد في سبيل الله هو المحكّ الحقيقي للصدق في الأقوال والأفعال، وقد أمر الله المؤمنين أن يكونوا مع الصّادقين، وذلك بمتابعتهم في ما يرضي الله، ولما كان الرّسول في قمة الصّادقين إعلاء لكلمة الله وجهادا في سبيله، جاءت هاتان الآيتان لتؤكّد وجوب الخروج مع رسول الله، ورتب على ذلك الأجر العظيم، وجعل ذلك وجوبا عينيّا على الحاقّين برسول الله من أهل المدينة ومن حولها، إذ نهاهم الله عن التّخلّف عنه فقال تعالى: **﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾**.

إنه التّأنيب اللّطيف للمتخلفين عن رسول الله من أهل المدينة، إذ لا ينبغي ولا يصلح لهؤلاء أن يكون منهم أيّ تخلّف أي لا يثبت عنهم أيّ تقصير رغبة في سلامة أنفسهم وإيثارا لها عن نفس رسول الله وهو يواجه المتاعب والمشاق بأن يتركوه يكابد ذلك وحده، ونفس رسول الله أعزّ وأكرم على النّاس، وكذلك يجب أن تكون في نفس كلّ مؤمن.

واختيار هذه الصّيغة الخبرية: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾**، الإشارة بـ"ذلك" إلى ما دلّ عليه النّفي من النّهي عن التّخلّف، ووجوب الاتباع لرسول الله، و"الباء" في "بأنّهم" تفيد السّببية بذكر أمور خمسة مما يصيبهم في ذلك السّفر من أنواع المشقات والمتاعب، وأن الله تعالى يوجب لهم بها الثّواب العظيم. فقال:

أ)- **﴿لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾**: وهو شدّة العطش، سيما في قطع الفيافي التي يندر فيها الماء.

ب)- ﴿وَلاَ نَصَبٌ﴾: وهو الإعياء والتّعب لبعد الشّقة.

ج)- ﴿وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾: وهي المجاعة لقلّة المؤونة، حتى قيل إن العشرة من المجاهدين كانوا يتعاقبون البعير الواحد، ويقسم الاثنان منهم الثّمرة الواحدة، وينحرون البعير ليعتصروا الفرث الذي في كرشه فيبلوّن به ألسنتهم.

د)- ﴿وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾: أسند الوطء إليهم لأن أغلب من في الجيش هم من المشاة الرّاجلين، وفيهم الفرسان، ومعهم الرّواحل فيكون الدّوس بحوافر الخيل وأخفاف الإبل، وكلها أنواع من الوطء يستفزّ العدوّ ويغضبه، لما في ذلك من الإهانة له. واختير للمغيظين وصف الكفّار لأن الغائضين لهم هم المؤمنون، وينمّ ذلك عن شرعية ذلك الجهاد، وأنه في سبيل الله.

هـــ)- ﴿وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً﴾: في ذواهم بالأسر والقتل وفي أموالهم ومتاعهم بالسّبي والغنم، سواء كان قليلا أو كثيرا، كلّ من هذه الأمور تستوجب للقائمين بها الثّواب الجزيل عند الله، وتكون قربة لهم، وسمّي الثّواب عملا، لكونه سببا للثواب، وفي هذا دلالة على أنّ من قصد طاعة الله كان سعيه مشكورا، وكانت كل حركاته وسكناته حسنات مكتوبة ومدّخرة عند الله، حتى أن الله تعالى وصفهم بالمحسنين الذين لا يضيع الله أجرهم.

وجاء التّذييل عامّا لكلّ محسن ويتناول المذكورين بالأولى، ويتمثل ذلك الإحسان في حق الفريقين المتقاتلين، زجرا للكفّار وإنقاذا لهم من النّار بنقلهم إلى دائرة الإيمان، وإحسانا إلى المسلمين بالحفاظ على حرمات الدّين، والدّفاع عن بيضة الإسلام، بما يحقق العزة والكرامة والسّيادة له.

وعموم الحكم في أجر المحسنين يسري على كلّ من جاهد بذلك القصد وتلك النّية إلى قيام السّاعة، وإن كان من جاهد مع رسول الله وشهد المشاهد معه أعظم أجرا، وأسبق فضلا عند الله، وكذا يتفاوت المجاهدون في ذلك وفق نواياهم

وما يبذلونه من جهد وتضحية.

ثم عطف الله على ذلك ما يكون من الصّدقات في سبيل الله على اعتبارها قواما للنصرة وإعداد القوة فقال تعالى: ﴿وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

وهذا التّفصيل في ذكر حجم الإنفاق كبر أم صغر يوحي بوجوب المشاركة من كلّ المسلمين، كلّ على قدر طاقته وجهده، سيما إذا تطلبت ذلك التّعبئة للنّفير العام، والمراد بقطع الوادي -وهو المنفرج الذي تمرّ به السّيول-، المراد مطلق الأرض تقطعها الجيوش لمنازلة الأعداء، فإن الله تعالى يثيب لهم بذلك الجزاء الأوفى، هو أحسن من تلك وأفضل. ويجوز أن يكون: ﴿أَحْسَنَ﴾ صفة للأعمال فيدخل فيها الواجب والمندوب دون المباح كما أثبته الإمام الفخر الرّازي، والله يحبّ المؤمن إذا عمل أن يتقنه، والله أعلم.

على المؤمنين أن يجمعوا بين الجهاد والتّفقه في الدّين

أ)- النص:

وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾: تأكيد النّفي بـ"لام" الجحود، والجملة خبر يفيد النّهي. ﴿لِيَنفِرُواْ﴾: والنّفير أو النّفر: الخروج إلى الجهاد. ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾: لَوْلاَ: حرف تحضيض. "فِرْقَة": والفرقة الجماعة

من النّاس الذين تفرقوا عن غيرهم في المواطن كالقبيلة وأهل القرية أو البلد. طآئفة: والطّائفة الجماعة بقدر الحاجة، أقلّها اثنان، وقيل: واحد. ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ﴾: التفقه: تكلّف الفقاهة والفهم، مشتقة من فقه بكسر القاف إذا فهم ما يدق فهمه. ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾: الإنذار الإخبار بما يتوقع منه شرّ. يجوز تفكيك الضّمائر في هذه الآية، فيرجع الواو في ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾ إلى الكلّ، أي من قعد لسماع أحكام الدّين ومن خرج لأن القاعد يعلّمه ما سمع. ويرجع واو ﴿لِيُنذِرُواْ﴾ للقاعدين وكذا الهاء في ﴿إِلَيْهِمْ﴾، وعند عدم تفكيك الضّمائر يكون مرجع الضّمائر في: ﴿يَتَفَقَّهُواْ﴾ و﴿يِنذِرُواْ﴾ للقاعدين. وبذلك يكون النّفار لكلّ من الجهاد والعلم، وقد اختلفت في ذلك تقديرات المفسرين.

ج)- البيان والتّفسير:

في غمرة التّحريض على الجهاد في سبيل الله والتّنديد على المتخلفين عن رسول الله فيه أصبح المؤمنون يعتقدون أنهم جميعا معنيون بالخروج إلى الجهاد، وأن لا مندوحة لأحدهم في التّخلّف، فنتج عن ذلك بقاء الرّسول وحده في المدينة عندما يبعث سرية ولا يخرج معها، إذ ينفر المسلمون جميعا إلى الغزو، ولا يبقى حول الرّسول من يتلقّى عنه أحكام الشّريعة، فنزلت هذه الآية لتضع الخطة السّوية في توزيع مسؤولية الجهاد بشقّيه جهاد السّيف والسّنان، وجهاد العلم والبيان. فقال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ الْمُومِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾**.

العطف في الجملة ناشئ عن مجموع الكلام السّابق في التّحريض على الجهاد والتّنديد بالتّخلّف، إذ بيّن الله فيها كيف يجب أن تتوزّع المسؤولية بين المؤمنين، فتخرج طائفة منهم إلى الجهاد لدرء الكفر ونشر الإسلام، وتبقى طائفة أخرى في خدمة الرّسول والتّلقّي عنه بما يخدم مصالح الدّين بتوسيع سلطانه وتركيز نفوذه في مشارق الأرض ومغاربها بالغزو والجهاد، وكذا بنشر تعاليمه وآدابه بوجود العلماء

والفقهاء، وكلاهما فرض كفائي إذا قام به البعض أجزى عن الباقين. وذلك في الحالات العادية حين يستقرّ أمر الإسلام، و لم تدع الحاجة إلى النّفير العامّ حيث يصبح الخروج العامّ فرضا عينيا على كل قادر على حمل السّلاح.

وقد اعتبر المولى تبارك وتعالى كلا الأمرين نفيرا إذ عبّر بصيغته في الحالتين، فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ أي ليس من شأنهم أن يخرجوا كلّهم إلى الجهاد، ويتركوا بذلك فراغا في مجال التّفقه في الدّين عن رسول الله، أي يجب أن يصير المؤمنون طائفتين: تنفر طائفة إلى الغزو، وتبقى طائفة للتفقه في الدّين. وكل طائفة تنوب عن أختها في المهمّة فتتكاملان في تحمّل مسؤولية الدّين: جهادا وتفقها فيه.

وبناء على تفكيك الضّمائر وتوزيعها في الآية بأكملها في قوله تعالى: **﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾**.

قلت: بناء على تفكيك الضّمائر وتوزيعها على شطري الآية أو عدم تفكيكها كان للمفسّرين في تفسيرها احتمالان:

أ)- يكون التّفقه للمقيمين مع رسول الله يتلقّون عنه أحكام التّنزيل ويضبطون قواعده، حتّى إذا رجعت الطّائفة النّافرة إلى الغزو علّمتها الطّائفة المقيمة ما تلقته من الأحكام والإرشادات، وأنذرتها من التّفريط في جنب الله. وعلى هذا التّفسير يكون التّقدير: فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة، وأقامت طائفة لتتفقه في الدّين.

ب)- يكون التفقه صفة للطائفة النّافرة، ويكون تفقها في الدّين تطبيقيا وحركيّا، وذلك أدعى لحصول المعرفة بطبيعة هذا الدّين، وأشدّ تمكينا من المعرفة النّظرية من خلال السّماع والتّلقي، أو من خلال الكتب والأوراق إذ يشاهد

النّافرون مدى تأييد الله للمؤمنين بنصره وكيف تتغلّب الطّائفة القليلة على الطّائفة الكثيرة، فيدركون بذلك مدى عظمة الإسلام ثم ينذرون قومهم من الكفّار إذا رجعوا إليهم حتى لا يتردّدوا في الدّخول إلى الإسلام. وقد صوّب هذا التّوجّه في تفسير الآية إمام المفسّرين ابن جرير الطّبريّ وعزاه إلى الإمام الحسن البصريّ.

ولكن صاحب المنار لم يستسغه فرجح التوجّه الأول، وقال في التّوجّه الثّاني: "وهذا تأويل متكلّف ينبو عنه النّظم الكريم".[١]

وهناك احتمال ثالث: إذا اعتبرنا الآية مفصولة عما سبق، بل هي مستقلة بنفسها وتعني النفر في سبيل الله لطلب العلم والتّفقه في الدّين والتّلقي على رسول الله. وقد يتطلب ذلك السّفر إليه، من طرف تلك الطّائفة، ثم تعود إلى أوطانها لتنذر قومها لعلّهم يرجعون عن الكفر. وذلك على غرار ما تفعله البعثات العلمية اليوم، وقد قال رسول الله: «**اطلبوا العلم ولو بالصّين**».[٢]

وهكذا تدعو الآية الكريمة إلى اعتماد واجب الجهاد في سبيل الله والتّفقه في الدّين على الكفاية بين جماعة المؤمنين، وأن الواجبين هما على السّواء عند الله في الأجر والمثوبة، وقد ترجّح ظروف الأمة كفّة أحد الواجبين في تحديد العدد الذي ينفر لأداء إحدى المهمتين، ويرجع تقدير ذلك لأئمة المسلمين في كل زمان ومكان، ومن الأحاديث المحرّضة على التّفقه في الدّين قوله ﷺ: «**من أراد الله به خيرا يفقهه في الدّين**».[٣] وكذا دعاؤه لابن عمّه عبد الله

---

١ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١١/٨٠.

٢ - رواه الربيع بن حبيب في المسند من حديث أنس، باب في العلم وطلبه وفضله، رقم ١٨.

٣ - رواه الترمذي من حديث ابن عباس، كتاب العلم عن رسول الله ﷺ،باب إذا أراد الله بعبد خيرا فقهه في الدين، رقم ٢٦٤٥، وقال: وفي الباب عن عمر وأبي هريرة ومعاوية، هذا حديث حسن صحيح.

بن عباس بقوله: «**اللّهم فقّهه في الدّين وعلّمه التّأويل**».[٤] وقد استجاب الله دعوة رسوله، إذ أصبح ابن عبّاس رضي الله عنهما من أئمة التّفسير في عصر الصّحابة، واستحق أن ينعته الأصحاب بترجمان القرآن وحبر الأمّة، والله أعلم.

وجوب قتال الأدنين من الأعداء، وموقف المنافقين من آيات القرآن

أ)- النص:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا
فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ
رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً
أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿الذينَ يَلُونَكُم﴾: أي الذين يجاورونكم ويدنون منكم وتتصل حدود بلاد المسلمين ببلادهم كالرّوم في تخوم الشّام.﴿وليَجدُوا فيكُمْ غلْظَةً﴾: الغلظة: الشّدة والخشونة في قتال الأعداء، لأن ذلك أدعى لإلقاء الرّعب في قلوبهم. ﴿وإذَا مَآ

٤- رواه البخاري من حديث ابن عباس، كتاب الطهارة، باب وضع الماء عند الخلاء، رقم ١٤٣؛ ورواه الحاكم في المستدرك من حديثه أيضا، بزيادة «وعلمه التأويل»، رقم ٦٢٨٠، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

أُنزلَتْ سُورَةٌ﴾: زيدت كلمة "مَا" بعد "إذا" لتأكيد مضمون شرطها. ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾: الضّمير في: "مِنْهُمْ" عائد إلى المنافقين للعلم بهم من خلال السّياق. ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾: الاستفهام للتهكّم والاستهزاء. ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾: الرّجس أصله كل شيء خبيث، والمراد به هنا الكفر. ﴿أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾: الاستفهام للإنكار والتّعجيب. والفتنة: اختلال أحوال النّاس واضطراب أمرهم. أي يبتلون بأصناف من البلايا والمصائب. وقرأ الجمهور: ﴿أَوَلاَ يَرَوْنَ﴾ بالمثناة التّحتية، وقرأ حمزة ويعقوب: ﴿أَوَلاَ تَرَوْنَ﴾ بالمثناة الفوقية على الخطاب للمؤمنين. ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي تسارقوا النّظر وتغامزوا بالأعين غيظا لما في السّورة، أو إنكارا وسخرية. ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾: بيان لسرّ التّفاهم بالأعين وهو أنهم يريدون الهرب من مجلس الرّسول.

ج)- البيان والتّفسير:

لقد انطلقت الدّعوة الإسلامية برعاية الله وإرشاده متدّرجة من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة، ثم انزاحت دائرتها إلى كلّ أرجاء الجزيرة العربية بعد فتح مكة، وصفيت جيوب الكفر والنّفاق، فقرّت عين الرّسول وصحابته بنصر الله لهم، إذ دان لهم الأقربون من قومهم فأصبحت الجزيرة مسلمة، وأخذت دولتها النّاشئة تتركّز في المدينة المنوّرة، فإذا كانت حدودها الجنوبية والشّرقية والغربية مأمونة نسبيا بمياه المحيطات والبحار، فإن الحدود الشّمالية المتاخمة للشام بها أقوام، تحت حكم الرّوم يساعدون دولتهم لمناوشة المسلمين في عقر ديارهم. وما غزوة "تبوك" في مقصدها الإستراتيجي من طرف الرّسول إلا تطبيق للقاعدة الحربية التي تقول: "أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم على العدوّ في عقر داره"، إذ زرعت الرّعب في صفوف الرّوم وأشياعهم من نصارى العرب، والله تعالى يدعو المؤمنين إلى مواصلة القتال والغزو لبلاد الكفر المجاورة ويأمرهم بالغلظة عليهم حتى يرتدعوا فقال جلّ

من قائل: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ قَاتِلُواْ الذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

والآية في إرشادها تضع الخطة السّياسية والحربية للمؤمنين تجاه أعدائهم، وتوجيه الدّعوة إليهم دون النّبي ﷺ كما سبق ذلك خلال السّورة يراه الإمام ابن عاشور وبعض المفسّرين إيماء بأنه ﷺ لا يغزو بعد ذلك، وأنه قد اقترب أجله الشّريف، وأن في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فيه تسلية للمؤمنين بفقد نبيّهم".[1] وهو ملحظ دقيق، وقد وعى الصّحابة هذا الإرشاد الإلهي فتوجهت عنايتهم بعد وفاة الرّسول إلى الفتوحات الكبرى في الشّام والعراق ومصر ثم إلى شمال إفريقيا.

أ)- ففي الخطة الحربية تبتغي مناجزة العدوّ وإلقاء الرّعب في صفوفه، ويقتضي ذلك ضربه بشدّة وقوّة، ولا يتأتّى ذلك إلا بالثّبات في القتال والضّربات الموجعة.

ب)- وفي الخطة السياسية معاملة العدوّ بغلظة وقساوة في كل حالة من الأحوال، إذ أن تنكير كلمة: "غِلْظَةً" يدلّ على وجوب تعميمها لكل حالة في الحرب أو السّلم، وأولياء الأمور في الموقفين هم الذين يحدّدون حجم ذلك وفق ما تقتضيه مصلحة الأمة، ولا ينافي ذلك ما يأمر به الإسلام من الرّفق والعدل في معاملة الضّعاف والعجزة من غير المحاربين من الكفار والمنافقين. وقد تقدم قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ (التوبة:٣٦). وكان التّذييل في الأمرين بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وهو وعد من الله تعالى بالنّصر والتّأييد إن هم أخذوا بالأسباب المطلوبة كما أمرهم الله من إعداد العدة والصّبر والثّبات في مواجهة العدوّ، وأخذوا بآداب القتال كما وصّى بذلك

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٦٣/١١.

رسول الله.

وقبل أن تنتهي السّورة إلى ختامها بعد تلك الجولة الطّويلة في تعداد مخازي المنافقين ومواقفهم الدّنيئة، تذكر في نهاية المطاف ما هو أخطر وأخزى في شأنهم بيان موقفهم من نزول القرآن سواء كانوا في حضرة الرّسول عند النزول أو لم يكونوا فقال تعالى: **﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَأَمَّا الذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾**.

وبما أن في الآية السّابقة تعريضا بالمنافقين ممن يجب الغلظة عليهم، فإنّ الضّمير في: "مِنْهُم" يعود إليهم لاستحضارهم في ذهن السّامع، فهم يتساءلون عند نزول آيات من القرآن، مهوّنين من شأنها في ما بينهم، ومشككين في صدقها مع من يلقونه من المسلمين. إذ أن سؤالهم: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً﴾ يحمل في طيّاته تهكّما وسخرية بالرّسول وبالقرآن. فهم إذ يتظاهرون بالإيمان وهم كاذبون، فقد جاء سؤالهم على زيادة الإيمان لا على مجرّده، لأن القرآن قد صرّح بتلك الزّيادة بالنّسبة للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال:٢). وهم بذلك السّؤال المتهكّم ينكرون ضمنيا ذلك التّأثير الرّوحيّ للقرآن في القلوب قياسا على ما في قلوبهم من رجس وزيغ.

ففرّع الله على سؤالهم ذلك الرّدّ الحكيم بإبطال إنكارهم أن تكون السّورة تزيد القلوب إيمانا، إذ فرّق الله بين أصناف القلوب بأنّ منها قلوبا مطهّرة سليمة، وقلوبا مدنّسة سقيمة.

أ)- فأما الأولى: فهي قلوب الذين آمنوا، فهي زيادة على ازدياد إيمانها بسماع السّورة، تكسبهم سرورا وبشرى وارتياحا بما يرجونه من خير وبركة وصلاح في الدّنيا، ومغفرة من الله ورضوان في الأخرى.

ب)- وأما الثانية فهي قلوب لأولئك المرضى بدنس الكفر والنفاق، فلا تزداد بسماع القرآن إلا رجسا على رجسهم السابق يتراكم عليها، ولا ينفكون عنه حتى يموتوا على ذلك، وهو الخسران المبين.

وقد تكرّر هذا المعنى لتأثير القرآن في النفوس وفق تزكيتها أو تدسيتها، فمن ذلك قوله تعالى:

أ)- ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء:٨٢).

ب)- ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ (فصلت:٤٤).

وزيادة في تقرير الحكم عليهم بأنهم لا يزدجرون مهما توالت عليهم النذر قال تعالى: **﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾**.

الاستفهام للإنكار والتعجّب من أمرهم كيف لا يتّعظون بأنواع المصائب التي يبتلي الله بها خلقه تنبّههم إلى تقصيرهم في جنب الله بأنواع المعاصي، وقد نالت جماعتهم من ذلك ما من شأنه أن يوقظ ضمائرهم لو أن لديها استعدادا وقابلية لذلك، ولكنهم لا ينتفعون بذلك الاستدراج فلا تحصل لهم توبة ولا اذكار.

ثم أكّد الله تعالى تلك الحالة من انطفاء نور الهداية في قلوب المنافقين ببيان نفورهم عن سماع القرآن حتى وهم في حضرة الرّسول، وقد تنزل عليه سورة تنبّههم بما في قلوبهم، ويكون سماع القرآن في تلك الحالة أشدّ تأثيرا على النّفوس، ومع ذلك ينصرفون عن سماعه. قال تعالى: **﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾**.

تكرّرت الجملة الشّرطية لاختلاف الحالتين في أنواع التهكّم والاستهزاء، وفي ذلك زيادة تفصيل لمدى رسوخهم في النّفاق والخبث، إذ يتسارقون النّظر ويتغامزون بغية التّسلّل من مجلس الرّسول خشية أن يفتضحوا، وفي قول بعضهم لبعض: ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي من الحضور معهم في مجلس الرّسول، فيه دليل على الخشية والحذر في التّسلّل والهروب فهم يتحيّنون فرصة الغفلة، وذلك يتطلب مهلة من الوقت، وهو ما يفيده العطف بـ"ثم انصرفوا" عن سماع الحق، محرومين من الاعتبار والاتعاظ، وقد أجازهم الله بما اختاروه من الزّيغ والضّلال، بأن ختم على قلوبهم بسبب فقدانها للفقاهة والفهم. وبالتّالي فهم معرضون عن تلك الأدلّة التي تنير سبيلهم لهداية الحق، وذلك من أشدّ العقاب، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ (سبأ:١٧).

فالله تعالى صرف قلوبهم عن قبول الحقّ، لأنّهم قد اختاروا ذلك لأنفسهم، إذ وطّنوها على الصدّ والإعراض، فهم لا يفقهون ما يسمعون من آيات القرآن، وإن كانوا حاضرين بأشخاصهم، لأنّ التجاوب مع القرآن لا يتمّ بمجرّد سماعه والتّلذذ بإيقاع ألفاظه وكلماته، بل لا بدّ من التّأمل والتّدبّر الواعي، ولذلك أمر الله تعالى المؤمنين بالاستماع والإنصات معا، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف:٢٠٤)، والله أعلم.

منّة الله على خلقه ببعثه الرّسول وأخلاقه العالية

أ)- النص:

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ
الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾: أي من صميم نسبكم وأحد أفراد جنسكم، والخطاب للعرب القرشيّين. ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾: عزّ يعزّ عليه الأمر، أي اشتدّ وثقل عليه "وما" مصدرية. والعنت: المشقة ولقاء المكروه الشّديد. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾: أي حريص على اهتداء قومه إلى الإيمان. والحرص: شدة الرّغبة في الحصول على المفقود والمحافظة على الموجود. ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: شديد الرّأفة أي الشفقة والرّحمة رقّة تقتضي الإحسان للمرحوم. وبين الرّأفة والرّحمة عموم وخصوص بينهما، لأن الرّأفة أخصّ من الرّحمة. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: من التولّي: وهو الإعراض والإدبار وهو كناية عن المكابرة والعناد. ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾: هو الذي يكفيني شرّهم. ﴿تَوَكَّلْتُ﴾: فوّضت أمري إليه. ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾: العرش أو الكرسيّ أي مركز تدبير أمور الخلق كلها، وهو أعظم المخلوقات كلها. قرأ الجمهور: ﴿الْعَظِيمِ﴾ بالكسر على أنه صفة للعرش، وقرأ ابن كثير بالرّفع صفة للربّ.

ج)- البيان والتفسير:

ختمت السّورة بآيتين هما في غاية المناسبة لما تحمله من تكاليف شاقّة يقتضي تحمّلها من الأمة تضحية وصبرا، فجاءت الخاتمة تذكيرا بمنة الله على خلقه ببعثة الرّسول إليهم، يجمع من صفات الكمال الخلقي والسّموّ الإنساني في معاملتهم ما يسهّل عليهم تحمّل تلك التّكاليف، وأنّ كلّ ما يحقّقه هذا الرّسول من العزة والنّصر فهو شرف لهم لأنه من أرومتهم، وأن الله تعالى كفيله إن هم أعرضوا عنه فقال تعالى: **﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾**.

الجملة مستأنفة ومصدرة بـــ"اللاّم" المشعرة بالقسم، و"قد" لزيادة تأكيد

مضمونها، والخطاب موجّه إلى أمّة الدّعوة كلّها، وبالأولى أولئك المشركين والمنافقين من العرب، لأنهم هم أول من وجّه إليهم الرّسول دعوته ابتداء من الأقربين إليه كما أمره الله في أول الدّعوة:

أ)- ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤).

ب)- ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى:٧).

ج)- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ (الجمعة:٢).

ويمتنّ الله في هذه الآية على المؤمنين بمجيء الرّسول إليهم وهو من ذوي نسبهم جنسا ولغة، وبذلك يكونون أحرى باتباعه ومناصرته، والعرب مشهورون بنخوتهم القبلية، يتعاظمون بآبائهم فخرا وسؤددا، ومن شأن هذا الامتنان أن يستفزّ فيهم تلك النّخوة، وقد أكّد الله ذلك بوصفه الرّسول بصفات هي في قمة الأخلاق:

أ)- ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾: والعزّة هي الغلبة، والشّدة والعنت هو الوقوع في مشقة وشدّة لا يمكن الخروج منها، أي يشقّ على هذا الرّسول ما تلاقونه من المكاره، والتّعبير بالماضي: ﴿عَنِتُّمْ﴾ للدّلالة على ما تعرّضوا له من القتل والسّبي والأسر، ومن التّهديد القرآني بعقاب الله، إذ المقصود من كلّ ذلك هو إنقاذهم من خزي الدّنيا وعذاب الآخرة لعلّهم يهتدون إلى الحق.

ب)- ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾: والحرص هو شدّة الرّغبة في الحصول على المفقود، وكانت التّعدية إلى ضمير المخاطبين بـــ"عَلَيْكُم"، ويتمثل حرصه ﷺ في الاهتداء إلى الإيمان بالنّسبة للكافرين، وفي الحفاظ عليه بالنّسبة للمؤمنين.

ج)- ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: وهما صفتان من صفات الذّات العلية، وصيغة المبالغة فيهما لإفادة الشّدة والقوة في الصّفتين، وتقديم المتعلّق على عامليه

لإفادة الحصر في توجّه الصّفتين للمؤمنين بصفة خاصّة، فهو وإن ثبتت رحمته عليه السلام لجميع العالمين بشهادة الله في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧). فإن رحمته بغير المؤمنين أقلّ، لأنّهم رفضوا تلك الرّحمة تعنّتا واستكبارا، ولأن هذه الرّأفة والرّحمة الخاصة بالمؤمنين هي في مقابلة الشّدّة والغلظة على الكافرين المأمور بهما في هذه السّورة.

ومن مقتضيات هذه الصّفات الكريمة في شخص رسول الله أن تدفع النّاس إلى الإيمان به واتّباع نهجه السّويّ، ولكن الواقع البشري أنه كان فيهم معرضون وجاحدون. ففي ذلك الموقف من هؤلاء أمر الله رسوله بصيغة الخطاب المباشر تعظيما لشأنه بقوله: **﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾**.

كان الرّسول لشدّة حرصه على تبليغ رسالة ربّه، ورجائه أن يقبل النّاس عليها بالتّصديق والإيمان، ومع رأفته ورحمته كان يحزنه إعراضهم وتولّيهم عنه لما سيلاقونه من خزي الدّنيا وعذاب الآخرة حتّى كان الله تعالى يسلّيه ويبيّن له طبائع الخلق بقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف:١٠٣). ففي هذه الحالة أمر الله رسوله بالتّوجّه إليه والتماس كفايته ورعايته منه وحده، وتفويض الأمر إليه في تدبير شؤون الخلق -وهو أعلم بهم-، وقد تفرّد بالألوهية والرّبوبية وتميّز بعظيم قدرته، لأنه يدبّر أمر العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات كلها ومركز تدبير شؤونها وفق ما ثبت في علمه الأزلي ومشيئته المطلقة.

أمر الرّسول بأن يقول تلك العبارات في مواجهة المعرضين، يقولها متجاوبا مع معانيها في قلبه الشّريف ليجد في كنف الله السّكينة والطّمأنينة، فلا يحزنه إعراض النّاس من بعد أن أدّى مهمته بكل صدق ووفاء وإخلاص.

والله ربّ العرش العظيم قاهر فوق عباده، يستنصر الرّسول بقوته، فلا يضرّه

من ضلّ، ولا يفلّ عزمه من أعرض. وقد روى عن أبي الدّرداء ﷺ قال: **«من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو ربّ العرش العظيم، سبع مرات، كفاه الله ما أهمّه»**.[1]

وفي بعض روايات السّلف أنّ هاتين الآيتين هما آخر ما أنزل الله من القرآن، ومنهم من يجعل آخر ما نزل منه قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٨١).

والله أعلم

تمت

١- رواه أبو داود من حديث أبي الدرداء موقوفا، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، رقم ٥٠٨١.

سورة يونس مكّية، وآياتها ١٠٩

أ)- بين يدي السّورة:

أ)- سمّيت باسم "يونس" لورود ذكره فيها مع قومه، وكيف آمنوا به بعد أن أنذرهم بعذاب أليم، فأصبحوا بذلك مثلا للقرى المؤمنة المنتفعة بإيمانها هناء واستقرارا ورخاء، ويرى الإمام ابن عاشور أنها أضيفت إلى يونس تمييزا لها عن أخواتها الأربع المفتتحة بـــ"الٓر". ولذلك أضيفت كلّ واحدة منها إلى نبي أو قوم نبي، عوضا أن يقال: الٓر الأولى، الٓر الثّانية...

ب)- هي مكية في قول الجمهور إلا ما استثنوه من آيات ثلاث هي مدنية في رواية عن ابن عبّاس وهي قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ (٩٤). إلى قوله: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ (٩٧). وقيل: المستثنى آيتان، وقيل: آية واحدة.

ج)- آياتها مائة وتسع آيات عند أكثر قرّاء الأمصار، ومائة وعشر عند أهل الشّام. وهي العاشرة في ترتيب السّور في المصحف الشّريف، والحادية والخمسون في ترتيب نزول السّور. وقيل: نزلت سنة إحدى عشرة بعد البعثة.

د)- موضوعها الرّئيس لا يختلف عن موضوع القرآن المكّي بصفة عامّة، وإن كانت للسّورة خصوصيتها في التّناول والعرض، لتركيز عقيدة التّوحيد وإثبات النّبوءة والبعث والمعاد، بما يتخلل ذلك من المناقشات للمشركين وأهل الكتاب.

ب)- المحاور الأساسية للسورة:

أ)- إثبات ظاهرة الوحي لرسول الله بتحدي المشركين أن يأتوا بسورة مثل

القرآن في إعجازه، وهو المنزل بلغتهم والمؤلف من حروف التهجية التي يعرفونها.

ب)- إثبات عظمة الخالق وقدرته من خلال تدبّر آياته في الكون، وأنّ اتخاذ الشّركاء لله بدعوى شفاعتهم عنده انتقاص من تلك العظمة وفساد في التّصوّر لحقيقة الألوهية.

ج)- التّذكير بالمصير المحتوم للخلائق كلّها ليوم البعث والجزاء، وأن ذلك من كمال العدل الإلهي في الحساب والجزاء.

ولتركيز هذه الثّلاثية الأساسية في عقيدة المسلم، تأتي الدّلائل والبراهين في نقاش موضوعي يعتمد على سوق الأدلة من صفحة الكون تارة، وبضرب الأمثال أخرى، وباستجواب صفحات التّاريخ بذكر سير بعض الرّسل السّابقين، وبالتّعرّض إلى سنن الله في خلقه من عاقبة كلّ من المؤمنين والمكذبين. وقد يناقش أهل الكتاب ويشهدهم بما يعرفونه من كتبهم على صدق نبوة محمد ﷺ.

وبعد تلك الجولات تختم السّورة الكريمة بإعلان الرّسول للناس بحصر مهمّته في التّبليغ والإنذار، والنّاس بعد ذلك أحرار في ما يختارونه من الهدى أو الضّلالة، والكلّ يتحمّل مسؤولية اختياره وحده، عندما يحكم الله بين عباده في ما كانوا فيه يختلفون.

موقف الكفّار من ظاهرة الوحي إلى الرّسول

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ① أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ②

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾: الإشارة بـ"تلك" يجوز أن يراد بها جميع آي القرآن، ويجوز أن يشار بها إلى الحروف المقطعة "الر"، إذ المقصود هو التّحدي بإعجاز القرآن. و﴿الْحَكِيمِ﴾: هو وصف للكمال القرآني في مبناه ومعناه، وهو بمعنى حاكم، أي مهيمن على غيره من الكتب. وبمعنى محكَم في بيانه، أو بمعنى ذو الحكمة البالغة. ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾: الاستفهام إنكاري. ﴿النَّاس﴾: طائفة من البشر والمقصود هنا هم أهل مكة المنكرين لظاهرة الوحي على بشر مثلهم. اسم كان مؤخر هو: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾، أي "أن" وما بعدها في تأويل المصدر في موضع رفع. و﴿عَجَبًا﴾: خبر مقدم. والوحي هو الإعلام الخفي. ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: الإنذار: الإخبار بما فيه التّخويف والتّبشير، الإخبار بما فيه الخير لصاحبه. ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾: والقدم: بمعنى السّابقة والمنزلة الرّفيعة، والسّبق يكون بالقدم، كما يعبّر باليد عن النّعمة لأنها تعطى بها. وإضافة "القدم" إلى "صدق" من إضافة الموصوف إلى الصّفة، وأصله قدمٌ صدق، ويفيد التّحقق، وأنها تنال بصدق القول والنّية. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: تقدم الكلام عن حقيقة السّحر في سورتي البقرة والأعراف. قرأ الجمهور: ﴿لَسِحْرٌ﴾، وقرأه ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿لَسَاحِرٌ﴾.

ج)- البيان والتّفسير:

قد يوجد تناسب بين سورة وأخرى في التّرتيب التّوقيفي عن رسول الله، ويحاول المفسرون الاهتداء إلى بيان ذلك التّناسب إن وُجد وإلاّ فإنّ الأغراض تتعدّد في أسلوب القرآن للتّنويع والإمتاع عند التّلاوة والتّدبّر، حتى لا يكون التّركيز على موضوع واحد مدعاة للسآمة والملل. وهو أسلوب يتوخّاه البلغاء والفصحاء عندما يخاطبون الجماهير.

وأحسن ما قيل في وجه التّناسب بين سورتي التوبة ويونس بأنّ سورة التّوبة تناولت في خاتمتها صفات رسول الله في معرض الامتنان، وأرشدته إلى ما يثبّته ويسلّيه في مواجهة مكائد المنافقين والكفار، وبدئت هذه السّورة بإثبات ظاهرة الوحي لرسول الله، وبيان مهمته في البشارة والنّذارة، ثم أفاضت السّورة في ذكر أحوال الكفار والمشركين والتّصدّي لهم بالنقاش والحجاج.

قال تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾: ﴿الٓر﴾: لقد أوضحنا في سورة البقرة وآل عمران والأعراف كيف تقرأ هذه الحروف بأسمائها ساكنة غير معربة، وبيّنا ما ورد فيها من أوجه في افتتاح بعض السّور بها، ما بين إغراب في التّفسير لا يستند إلى نصّ صحيح، وبين عقلانية تتماشى مع تيسير القرآن وسهولة تدبّره وفهمه.

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾: غالبا ما تعقب تلك الأحرف مثل هذه الإشارة إلى آيات كتاب الله، للتّنبيه إلى أنّ كلماتها مركّبة من تلك الأحرف التي يعرفها الفصحاء والبلغاء، ومع ذلك هم عاجزون عن الإتيان بمثلها. ويحتمل هنا أن تكون الإشارة إلى خصوص ما في هذه السّورة من الآيات، أو إلى عموم آي القرآن.

أخبر الله عن اسم الإشارة: "تِلْكَ" بقوله: ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، فالكتاب ظرف للآيات المشار إليها، وإضافة الآيات إليه من الإضافة البيانية، والكتاب هو القرآن و"أل" فيه للعهد، والمراد أن الآيات المشار إليها في هذه السّورة هي آيات الكتاب الحكيم الذي تحدّاكم أيّها البلغاء فعجزتم عن الإتيان بسورة من مثله. ووصفه بـ"الحكيم" يتناول الاحتمالات المتقدّمة في معناه، وأرجحها أنه ذو حكمة لاشتماله على الحق والعدل، لأن الحكمة هي إصابة الحق بالقول والعلم. وهو وصف يدل على كمال القرآن في إعجازه مبنى ومعنى.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾:

الهمزة للاستفهام الإنكاري، دعا إليه استبعاد النّاس أن يتنزّل الوحي على رجل مثلهم جهلا وتعنّتا، لأنّ في إثبات الحكمة للكتاب المنزل شبهة طالما ردّدها الكفار والمشركون قديما وحديثا، إذ هم يستكثرون على بشر مثلهم أن يتنزل عليهم الوحي من السّماء. ولطالما تعرّض القرآن لإثارة تلك الشّبهة على لسان كفّار قريش ومن سبقهم من الأمم الخوالي.

والإغراب في التعجّب كثيرا ما يكون باعثا على التّكذيب، وإنكار الله لذلك التّعجّب يتضمن الرّدّ على مزاعمهم تلك، وأن الله تعالى قد كرّم هذا الإنسان بما أودع فيه من قابلية للسمّو الرّوحي حتى يصبح مؤهّلا للاتصال بالسّماء: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج:٧٥).

وجاء التّعبير بـ"النّاس" لأنّ هذا الموقف من الإنكار والتعجيب لا يخصّ كفار قريش وإنّما يشركهم فيها غيرهم من الكفار والملاحدة في كل زمان ومكان.

ثم تعرض الله إلى ذكر مهمة الرّسول بأنها الإنذار والتّبشير. بدأ بالتّخويف

من عاقبة الجحود والإنكار لمضامين الوحي في بيان أمور العقيدة والشّريعة. والمنذرون هم النّاس جميعا، ولم يبّين المنذَر به، لأنّه يُعرف من مقابله في المبشَّر به. وحتى تذهب فيه نفس السّامع كلّ المذاهب في التّشنيع والتّهويل، وأمّا البشرى فللذين آمنوا وحدهم.

وجاء التّعبير: بـ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ دون ذكر النّعيم الحسيّ من الجنات وما فيها للدّلالة على رفعة الشّأن وعلوّ منزلتهم عند الله. واستعير لفظ "القدم" مضافا إلى كلمة: "صدق" لأنّ السّبق يتحقّق بالقدم، وهو بمعنى المقدّم في الرّفعة والجلالة.

والصّدق يطلق على مطابقة الفعل والقول لما في معتقد الإنسان من الخير والفضائل. وتنبّه هذه الإضافة على تحققها للذين آمنوا جزاء صدقهم وإيمانهم.

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: جاء مقول قول الكافرين في صيغة الجملة الاسمية مؤكدة بمؤكدين لإفادة الحصر بأنّ هذا الكلام هو من قبيل السّحر -في زعمهم-،

وفي هذا الوصف شيء من الاعتراف بمعجزة القرآن، وأنّه شيء فوق مألوفهم في سحر بيانه، مثلما للسّحر تأثير في النّفوس، ذلك لأن تعاطي السّحر ليس في مقدور كلّ النّاس، وقد تقدّم الكلام عن السّحر وغرائبه في سورة البقرة والأعراف.

وعلى القراءتين: "سحر" أو "ساحر" فإنّ وصفهم إياه بالسّحر يدلّ على أنّهم يكذّبون أن يكون قد نزل من عند الله، ومع ذلك فإن إعطاءهم إياه ذلك الوصف يكونون قد اعترفوا بميزته وخصوصيته، غير أن خلطهم بين حقيقيّ الوحي والسّحر قد تسرّب إليهم من الضّلالات القديمة في مختلف الدّيانات.

والله أعلم

آيات الخالق في الكون، وعودة الخلائق إليه للمجازاة

أ)- النص:

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ
يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ
وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: الخلق: هو إيجاد شيء من العدم وتقدير خصوصيات وجوده ولا يسند هذا الفعل إلا لله تعالى. وهو القائل: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:١٧). و﴿السَّمَاوَاتِ﴾: هي القبة الزرقاء التي نشاهدها فوق رؤوسنا، وهي الفضاء الكوني العظيم الذي تسبح فيه الأجرام العظمى. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: الْعَرْش: مركز تدبير المخلوقات، والاستواء عليه كناية عن القوة والسلطة، وكيفية الاستواء الله أعلم بها، وهي كما يليق بجلاله تعالى. ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: التدبير: هو النظر في عواقب الأمور لإيقاعها على النحو المناسب لتكون محمودة العاقبة. ﴿الْأَمْرَ﴾: لعموم الأحوال في العالم. ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾: الشفيع: هو الذي يتوسط للشفاعة لأحد. وأكد النفي بـ"من" ليعم كل أنواع الشفاعة. ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: بدء الخلق هو ما عبّر عنه القرآن بالنشأة الأولى، وإعادته هو البعث، وهو النشأة الآخرة.

﴿بِالْقِسْطِ﴾: العدل. ﴿حَمِيمٍ﴾: الماء الشديد الحرارة، والحمم هي ما يقذفه البركان من المواد المنصهرة بشدة الحرارة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿اِنَّهُ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: قرأه الجمهور: ﴿اِنَّهُ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ﴾ بكسر الهمزة، وقرأه أبو جعفر بفتح الهمزة على تقدير "لام التعليل" محذوفة، أي حق وعده بالبعث لأنه يبدأ الخلق ثم يعيده.

د)- البيان والتّفسير:

إنكار إنزال الوحي من الله على بشر، وادّعاء أنّ ذلك هو نوع من السّحر هو جهل بحقيقة الألوهية، وأنه تعالى يخلق ما يشاء ويختار. وبما أنّ الرّسول ركّز دعوته الأولى على إبطال الشّركاء للإله الحقّ، فكان هذا الخطاب للمشركين ردّا على مزاعمهم وبيانا لحقيقة الألوهية فقال تعالى: **﴿اِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَٰتِ وَالاَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الاَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ اِلاَّ مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَّكَّرُونَ﴾.**

وكما كان للمشركين فساد تصوّر في حقيقة الرّسالة والنّبوءة. فقد ظهر أيضا فساد تصوّرهم في حقيقة الألوهية والرّبوبية، وذلك عندما دعاهم الرّسول لعبادة إله واحد فقال بعضهم لبعض: ﴿اَجَعَلَ الاٰلِهَةَ إِلَهاً وَٰحِداً اِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (ص:٥). وكلتا الحقيقتين تحتاج إلى تصحيح وترشيد، لأن الزّيغ والضّلال في تصوّر إحداهما تجرّ إلى الزّيغ والضّلال في الأخرى، فهما مرتبطتان لأنّ من مظاهر كمال الرّبوبية العلم والحكمة، والبرّ والرّحمة. فالله تعالى عليم حكيم، وهو البرّ الرّحيم بعباده، إذ يختار من بينهم من يجعله محطّ رسالته ومرتكز هدايته ليخرج النّاس من الظّلمات إلى النّور، ولذلك أعقب حكاية عجب الكفّار من ظاهرة

الوحي إلى بشر وما علّلوها به ببيان ما يبطلها من أساسها، وهو التّذكير بحقيقة الرّبوبية ومظاهر قدرتها وكمالها، فتوجّه الخطاب إلى هؤلاء المنكرين لحقيقة الوحي على أسلوب الالتفات.

واختيار كلمة "الرّبّ" في مجال الخلق والإيجاد لها إيحاءاتها في التّنبيه إلى معاني الرّعاية والحنوّ، إذ جعل لنا من السّماء غطاء ومن الأرض فراشا ومهادا، وكيف قدّر أحجامها وأبعادها في ستّة أيام، والأيام هنا هي بالمعايير الفلكية لخلقة الكون، وهو المدبّر للأمر بينها بحكمة بالغة، وإتقان بديع بحيث تتمّ الأحداث فيهما وفق ما قدّره الله في علمه وكلّ ذلك خاضع لإرادته وسلطته تعالى، لا يغرب على علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السّماء.

وقد بسطنا القول في معنى استوائه تعالى على العرش، بما هو في حدود مداركنا من المعاني اللّغوية دونما الخوض في تلك الحقائق الكونية التي لا يعلم كنهها إلا الله تعالى، وفق ما يرشد إليه قول الإمام مالك ﷺ: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول".

وقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ اِلاَّ مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ جاء مناسبا لبيان عظمة الله وسلطته في تدبير أمور خلقه لردّ شبهات المشركين في ادّعائهم الشّفاعة للآلهة التي يعبدونها، كما حكى الله عنهم في ما يأتي من هذه السّورة: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (يونس:١٨). والاستثناء: ﴿اِلاَّ مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ يفيد ما أثبته القرآن من الشّفاعة لمن ارتضى من خلقه، وفي مقدمتهم شفاعة رسول الله. فالرّبّ الموصوف بهذه الصّفات الكاملة هو الجدير بالعبادة، لأن الآلهة التي تعبدونها عاجزة أن تخلق شيئا من ذلك، ومن مظاهر الرّحمة في الرّبّ المعبود بحقّ أن يهدي خلقه إلى سبل العدل والرّشاد، ويرشدهم إلى ما فيه صلاحهم وهدايتهم بواسطة من يختاره من عباده، وبالتّالي فإن الإيمان بواجب الوجود، يقتضي الإيمان بالرّسل.

وتذييل البيان بقوله تعالى: ﴿أفلا تذكّرون﴾ جاء بصيغة الاستفهام للتقريع، لأنهم لو كانوا يتذكّرون لأدركوا تلك الحقائق بديهة، فإن الدّلائل على وحدانية الله وقدرته، مبسوطة ميسّرة للنظر والتأمّل، ولكن الإنسان تعميه الجهالة فيغفل وينسى. فهي -إذن- دعوة من الله تعالى لإدمان النّظر والتأمل في خلق السّماوات والأرض، حتى لا يسهو المؤمن عن واجبه الإيماني، إذ تناوشه الشّواغل والملهيات.

وبعد إثبات مبدأين أساسيين في عقيدة المسلم أتمّ الله البناء العقائدي بالمبدأ الأساسي الثّالث في إثبات البعث والجزاء فقال تعالى: **﴿إلَيْه مَرْجعُكُمْ جَميعاً وَعْدَ الله حَقّاً انَّهُ، يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ، ليَجْزيَ الذينَ ءامَنُواْ وَعَملُواْ الصَّالحَات بالْقسْط وَالذينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مّنْ حَميمٍ وَعَذَابٌ اَليمٌ بمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾**

يجيء الإيمان باليوم الآخر في كثير من آيات القرآن تاليا للإيمان بوحدانية الله، لأن إثبات الحياة الأخرى يكون نتيجة لإثبات عظمة الله وقدرته، لأنّ الله الذي ثبتت قدرته في خلق السّماوات والأرض، وثبتت قدرته في الخلق والإيجاد الأول لجميع الكائنات، وذلك في المحسوس المشاهد لدى الإنسان -فإنه لا يعجزه أن يعيد خلق بعض الكائنات للمرة الثّانية-.

وبالقياس إلى مألوفنا نحن البشر فإن إعادة العمل تكون أسهل من بدئه من غير سابق وجود، ولله المثل الأعلى إذ هو القادر تمام القدرة، فلا يوصف عمله بالسّهل أو الصّعب، لولا أن القرآن عبّر بأسلوب المثل والمقارنة وفق معايير تعبيرنا. فقال جلّ من قائل:

أ)- ﴿وَهُوَ الَّذي يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْه وَلَهُ الْمَثَلُ الاَعْلَىٰ في السَّمَاوَات وَالاَرْض وَهُوَ الْعَزيزُ الْحَكيمُ﴾ (الروم:٢٧).

ب)- ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَات وَالاَرْض أَكْبَرُ منْ خَلْق النَّاس﴾ (غافر:٥٧).

والجملة: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ شديدة الارتباط بما سبق، لأنها تتكاملان في بيان معنى بدء الخلق وإعادته، فجاء الإخبار بصيغة القصر إبعادا لأولئك الشركاء المعبودة من دون الله. ثم أكّد ذلك بقوله: ﴿جَمِيعاً﴾ فلا ينفلت أحد منكم من قبضة الله. ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الزمر: ٦٧).

﴿وَعْدَ اللهِ حَقّاً﴾: تأكيد لمضمون الجملة السّابقة.

﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: تقع هذه الجملة موقع الدّليل على إثبات البعث، لأن الذي قدر على بدء الخلق كيف لا يقدر على إعادته. واختير المضارع في الجملتين لإفادة التّجدّد والتّكرار، حتّى في دورة الحياة بأجسادنا وأجساد الكائنات الأخرى بما يموت من الخلايا ويتجدّد، بل إن ذلك ظاهرة كونية عامة في الأرض وفي أرجاء الكون كله، كما بسطنا القول على ذلك في تفسير سورة البقرة.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾: الجملة تعليل للبعث بما يكون فيه من الحساب والجزاء. والمبعوثون يومئذ على صنفين:

أ)- **﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾**: بيّن الله تعالى أنّ جزاء المؤمنين الصّادقين في العقيدة والعمل يكون بالعدل، أي بعدله سبحانه، بأن يعطي كلاًّ منهم ما يستحقّه من الثّواب بما يعادل أعماله الصّالحة، ويزيدهم من فضله، وقدّم جزاء هذا الصّنف تشريفا له، لأنّه بقي على أصل الفطرة السّليمة، فهو جدير ببلوغ الكمال الإنساني في النّعيم المقيم.

ب)- **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾**: وقد تغيّر الأسلوب في ذكر جزاء الكافرين، فلم يدرج في حيّز التّعليل لحكمة البعث مثل جزاء الفريق الصّالح، ولم يذكر فيه القسط، على أنّ جزاء الله للفريقين كلّه عدل.

وقد بيّن كلّ من الإمامين رشيد رضا وابن عاشور نكتة ذلك -والله أعلم- وتتلخّص في قوله الإمام رضا:

أ)- "إفادة أن المقصود بالذّات من الرّجوع إلى الله هو جزاء المؤمنين الصّالحين لأنه هو الذي يكون به منتهى كمال الارتقاء البشري للذين زكت أنفسهم في الدّنيا. وأما جزاء الكافرين المفسدين الظّالمين لأنفسهم وللناس على تدسيتهم لأنفسهم بالكفر والخطايا -وهي أعراض كالأمراض البدنية- فليس من المقاصد التي اقتضتها الحكمة الإلهية في خلق الإنسان، ولكنّها مقتضى العدل في المظالم والحقوق. ومقتضى اطّراد السّنن الحكيمة في ارتباط الأسباب بالمسبّبات والعلل بالمعلولات".

وأما الإمام ابن عاشور فعلل ذلك بأمرين:

"أحدهما: تأنيس المؤمنين وإكرامهم بأنّ جزاءهم قد استحقّوه بما عملوا كقوله: ﴿ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٣٢). ومن أعظم الكرم أن يوهم الكريم أن ما تفضّل به على المكرم هو من حقه وأن لا فضل له فيه.

الأمر الثّاني: الإشارة إلى أنّ جزاء الكافرين دون ما يقتضيه العدل، ففيه تفضل بضرب من التّخفيف لأنهم لو جوزوا على قدر جرمهم لكان عذابهم أشدّ".

ثم بيّن تعالى شيئا من أحوال عذاب الكافرين في جهنم فقال: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ عطف عموم العذاب الموصوف بالألم الشّديد على نوع خاصّ يتمثل في سقياهم بالماء الحميم الذي يقطع أمعاءهم، وهذا النّوع من العذاب مما تتقزّز به نفوس المخاطبين، سيما سكان الصّحراء الذين يتذوّقون لذّة الشّراب البارد الزّلال.

والذين كفروا يستحقّون ذلك العذاب بسبب كفرهم وعنادهم وهو جزاء وفاق، أعاذنا الله من عذاب جهنم، وجنّبنا شوائب الكفر والنّفاق، والله أعلم.

في عجائب الكون آيات للقدرة الإلهية

أ)- النص:

هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ
وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ
ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿ضِيَآءً﴾، ﴿نُورًا﴾: الضّياء اسم مصدر، من أضاء يضيء أي النّور القوي السّاطع الذي يضيء للرائي. والنّور: الشّعاع، مشتق من النّار، وهو أعمّ من الضّياء، لأنّه يصدق على الشّعاع القوي والشّعاع الضّعيف. وقيل: إن الضّياء جمع كسوط وسياط، وقيل: هو إشارة إلى الألوان السّبعة التي يتركّب منها شعاع الشّمس والتي يراها النّاس في قوس قزح. ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾: جمع منزل مكان النّزول. والتّقدير: جعل الأشياء على مقادير مخصوصة. والضّمير يعود على "نور" أي مراتب نور القمر كما يظهر لنا من القوة والضّعف. أو يعود إلى "القمر" فيقدر له مضاف، أي يقدّر سيره، وهي ثمان وعشرون منزلة على عدد ليالي الشّهر القمري، ثم يغيب القمر ليلة أو ليلتين. وإطلاق اسم المنازل عليها هو مجاز بالمشابهة. ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾: الحساب: مصدر حسب -أي عدّ- وهو الحساب المعهود للناس لمعرفة الأيام والشّهور والسّنين لضبط شؤون الخلائق. ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: الإشارة إلى نوعية الخلق المذكورة من الضّياء والنّور، و"الباء" للملابسة أي خلقا ملتبسا بالحق.

ج)- أوجه القراءة:

﴿ضِيَآءً﴾: قرأه ابن كثير ﴿ضِئَآءً﴾ على القلب بتقديم لام الكلمة على عينها. وقرأه الباقون بالياء. ﴿نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾: قرأه نافع والجمهور بالنون. وقرأه بالياء: ﴿يُفَصِّلُ﴾ في مشهور ابن كثير، وقرأ بذلك أبو عمرو وابن عامر ويعقوب.

د)- البيان والتّفسير:

بعد أن أجمل الله تعالى آيات قدرته في خلق السّماوات والأرض مقرونة بلمحات غيبية في الأيام السّتة للخلق والاستواء على العرش. استأنف الحديث هنا في نفس النّسق مع شيء من التّفصيل بذكر أدلّة هي في متناول النّاس تلازمهم ويلازمونها ويعيشون ظواهرها العجيبة، إذ هم بحكم التّكرار والإلف قد يغفلون عن تأملها وإدراك ما فيها من المنافع لهم فقال جلّ من قائل:

﴿هُوَ الذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَٰلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾:

الضّمير: "هُوَ" عائد إليه تعالى الموصوف بالرّبوبية في ما سبق. وهو هنا يمتنّ على الخلق بما أودع في الشّمس والقمر من ضياء ونور. وهما آيتان من آيات الله العجيبة التي لها تأثير مباشر في دورة حياتنا بما ينبعث من الشّمس من ضياء وحرارة على مقادير معيّنة، وبما يرسله القمر من نور هادئ يهتدي به السّارون ولا يقلق راحة الهاجعين، وبدورانها حول بعضها البعض مع الأرض يختلف اللّيل والنّهار وتختلف الفصول الأربعة، وتنضبط المواقيت للناس في عباداتهم ومعاملاتهم لمعرفة عدد السّنين في الحجم الزّمني الكبير، ولمعرفة الحساب الأدق بضبط الشّهور والأيام والسّاعات.

ومن يسر الإسلام، ومواكبة لكلّ المستويات المعرفية عند البشر أن جعل

ضبط المواقيت لأنواع العبادات بالشّهر القمري لسهولة معرفة منازله التي كان العرب يضبطونها بأسماء أبراجها الثّمانية والعشرين، وأمّا الحساب الشّمسي فيحتاج إلى معرفة علوم الهيئة. وكلّ من الشّمس والقمر مسخّر لتنظيم شؤون حياتنا مما يدلّ على أنّ اعتماد الحسابات الفلكية لسير هذين الجرمين العظيمين هو أمر مشروع لمزيد من ضبط المواقيت الشّرعية. ويسند ذلك التّنبيه إلى حكمة ذلك الخلق بقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَٰلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ ليعلم النّاس من خلال تدبّر ذلك حكمة الخالق وفضله على خلقه، وأنّه لم يخلق ذلك عبثا، وليس في الأمر صدفة كما يعتقده الماديّون الملحدون.

وقوله عقب ذلك: ﴿نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تحريض على التّأمّل والنّظر، وأن الوسيلة لذلك هي المعرفة والعلم، واختيرت صيغة المضارع لإفادة التّجدّد والاستمرار. وكم في القرآن من نظائر لهذه الآيات، تشيد بعظمة الخالق في تلك الظّواهر الطّبيعية وما فيها من منافع وفوائد، فقال جلّ من قائل:

أ)- ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ، لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس:٣٧-٤٠).

ب)- ﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء:١٢).

وبعد الاستدلال بما هو مشاهد مألوف من دؤوب الشّمس والقمر في مدارهما الكوني، أعقبه باستدلال آخر على قدرة الله ببيان الحيّز الزّماني والمكاني على وجه الأرض بتقدير اللّيل والنّهار واختلافهما وتعاقبهما طولا وقصرا بحسب

الفصول في نظام دقيق. ثم عطف على هذا الدّليل المشاهد ما هو أعظم وأشمل من سائر المخلوقات في السّماوات والأرض ممّا لا يعلمه إلا الله، وممّا يقدّره هو من علم لهذا الإنسان، وهو يتدرّج في معارفه لينكشف له من أسرار الكون ما يدين به لعظمة الخالق.

ولهذا المعنى جاء اختيار وصف التقوى بقوله تعالى: ﴿لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ**﴾، ففي الآية تعريض بمن لا ينتفع بتلك الآيات، لأنّ النّتيجة المرجوّة من النّظر فيها هو الاهتداء إلى الإيمان والتقوى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس:١٠١)، والله أعلم.

حال المنكرين للبعث، وحال المؤمنين، وجزاء كلّ منهم

أ)- النص:

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾: الرّجاء: ظنّ وقوع الشّيء وإن لم يكن محبوبا، من رجوته أرجوه رجوا. والرّجاء: هو الأمل والتّوقع لما فيه خير ونفع. واللّقاء:

الاستقبال والمواجهة. ﴿وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: أي كل همّهم محصور فيها. ﴿وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾: الاطمئنان: السّكون يكون في الجسد وفي النّفس وهو الأكثر. أي ارتاحت قلوبهم لشهواتها. ﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾: المأوى اسم مكان الإيواء في النّعيم أو العذاب. وقد استعمل القرآن لفظ "المأوى" للجنة ولجهنم وورد ذكره لجهنم أكثر. ﴿دَعْوَاهُمْ﴾: بمعنى الدّعاء، والدّعاء لله بمعنى طلب ما عنده من الخير مع الشّعور بالحاجة إليه. ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾: سبحان: مصدر بمعنى التّسبيح -أي التتريه- واللّهم: نداء لله تعالى. ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾: والتّحية اسم جنس لما يفاتح به عند اللّقاء من عبارات التّكريم.

ج)- البيان والتّفسير:

وإذ قام الدّليل على إثبات وجود الله ووحدانيته وقدرته، وعلى إثبات البعث والحساب والجزاء، وأنّ الذين ينتفعون بتلك الآيات هم أهل العقول، بينما الكافرون المعرضون لا تنفعهم تلك الآيات، ناسب أن تذكر أحوال الفريقين، وما ينال كل منهما من الجزاء بأسلوب الوعد والوعيد. فقال جلّ من قائل: **﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ، أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾**.

جيء بالموصولية مؤكدة بـــ"إن" على طريقة الاستئناف ثم كرّرت مرتين في بيان صفات النّاكرين للبعث، لإفادة أنها علّة في حصول الخبر المتضمّن للوعيد الشّديد، وذلك لأنّه بعد إثبات صحّة أحوال المعاد وأنّه مجلى لقدرة الله وحكمته وعدله. فإن القارئ والمستمع يستشرفان لمعرفة جزاء المنكرين.

ونظرا للوعيد الشّديد الذي يستحقونه، فإن الله تعالى وصفهم بصفات أربع، كلّ واحدة منها كافية لإلقائهم في تلك الهاوية فهم:

أ)- ﴿لا يرْجُون لقَاءنَا﴾: ومعنى الرّجاء هنا هو التوقع للشيء من غير تقييد بالخوف أو الطّمع، فهم لا يتوقعون وجود حياة أخرى سرمدية لأنهم ناكرون لذلك تماما، فهم في ضلال بعيد كما قال تعالى: ﴿أَلاَ إنَّ الذين يُمارُون في السَّاعَة لَفي ضَلاَلٍ بَعيدٍ﴾ (الشورى: ١٨).

ب)- ﴿ورَضُواْ بالْحَياة الدُّنْيَا﴾: والرّضا بالشيء يحجب رؤية غيره، وإن كان فيه الخير والصّلاح، ولا يرضى الإنسان بالشّيء إلا إذا اقتنع أنه الأفيد والأنسب له، فهؤلاء لاستغراقهم في ملذات الدّنيا تلفّهم الغفلة ويلح عليهم طلب المزيد من اللّذات الحسية، وبالتّالي يفقدون كلّ حسّ بالملذات الرّوحية، وذلك ما يفيده الوصف الثّالث.

ج)- ﴿واطْمَأَنُّواْ بهَا﴾: والاطمئنان هو السّكون النّفسي الذي هو أعلى مراتب السّموّ الرّوحيّ في الإنسان، ومصدره الفيوض الرّبانية التي يغدقها الإيمان الرّاسخ بالله ووثوق صلة المؤمن به، غير أن هؤلاء الأشقياء لا تسكن نفوسهم إلا لحبّ الدّنيا ومتاعها، فهم لا يتحركون إلاّ لاقتناص المزيد من اللّذات العاجلة، فصرفت همّتهم عن التّفكير في الحياة الآجلة، فكانوا كالذي قال الله فيه: ﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتنَا فَانسَلَخَ منْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ منَ الْغَاوينَ، وَلَوْ شئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بهَا وَلَكنَّهُ أَخْلَدَ إلَى الاَرْض واتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (الأعراف:١٧٥-١٧٦).

د)- ﴿والذينَ هُمْ عَنَ ءايَاتنَا غَافلُونَ﴾: وبما أنّ الصّفات السّابقة من شأنها أن تؤدي إلى الغفلة التّامّة عن آيات الله، وهي مجلبة للخسران، ونظرا لدمامة هذه الصّفة فقد تكرر اسم الموصول وجاءت صلته بصورة الجملة الاسمية لإفادة أن صفة الغفلة أصبحت لهم دأبا وسجية. وبالتّالي فهم جديرون بالعقاب المشار إليه في قوله تعالى: ﴿أُولَئكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بمَا كَانُواْ يَكْسبُونَ﴾. واختير التّعبير بـ"المأوى" لإفادة ما يكونون عليه من الخوف والاضطراب، وهم يواجهون مصيرهم عندما

يرون العذاب، يلتمسون اللّجوء إلى مكان آمن، أو إسعاف منقذ، ولكن هيهات. لا يجدون وليّا ولا نصيرا، وذلك بسبب غفلتهم وما كسبت أيديهم.

ذلك هو جزاء الفريق الأول، وبالمقابل يأتي بيان أحوال الفريق الثّاني وهم المومنون السّعداء بما ينالونه من جزاء فقال تعالى: **﴿إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمُ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**.

هذا البيان المستأنف لأحوال المؤمنين السّعداء، جيء به لمقابلة أحوال الكافرين الأشقياء، ونلاحظ التّنويع في العرض، إذ وقع بعض الإطناب في بيان صفات الفريق الأول مع الاختصار على ذكر النّار في جزائهم، بينما جيء بصفات الفريق الثّاني مختصرة في الإيمان والعمل الصّالح وهداية الله لهم، ثم وقع الإطناب في جزائهم وما لهم من الدّرجات الرّفيعة وذلك -والله أعلم- لإفادة التّنويه بشأن الفريق الثّاني، والاستهجان والمذمة للفريق الأول. ففي ذكر أحوال الفريق الثّاني من السّعداء جاء اقتران الإيمان بالعمل الصّالح وهما متلازمان في أغلب آيات القرآن. لأن الإيمان حقيقة روحية لا تتجسّد في الواقع إلا بالعمل الصّالح.

ثم قال تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾، "الباء" سببية لهداية الله لهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، أي أنهم بذلك الإيمان تيسّر لهم سبل الخير، إذ يخلق في قلوبهم الميل إلى فعل الخيرات والاستكثار منها، ونظير هذه الآية قوله تعالى:

أ)- ﴿وَمَنْ يُومِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن:١١).

ب)- ﴿وَالذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (محمد:١٧).

ومن فضل الله على المؤمنين أن يدم لهم تلك الفيوض الرّبانية، وتزداد إشراقا

على مرّ الأيام، وذلك ما تدلّ عليه صيغة المضارع: ﴿يَهْدِيهِمْ﴾، ولا جرم أنه كلما ازداد حجم النّور الإيماني في قلب المؤمن ازدادت مترلته في الحظيرة القدسية، وذلك هو الفوز المبين، لا يرقى إلى مراتبه العليا إلا الأنبياء ومن دونهم من أولياء الله، وقد أرشدنا المولى إلى طلب إتمام ذلك النّور في قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم: ٨).

وفي جزاء هؤلاء السّعداء يركّز النّصّ على الجزاء الرّوحاني أكثر، وذلك بعد ذكر الجزاء الجسماني باختصار: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، ثم قال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾.

والدّعوى بمعنى الدّعاء لله، أو بمعنى العبادة له، والدّعاء مخّ العبادة، فجلّ عملهم هنا مقتصر على حمد الله والثّناء عليه والتّسبيح له، وهم بذلك يستشرفون منازل الحظوة والقربى عند الله لبلوغ أعلى مراتب اللّذة الرّوحانية التي هي أعظم منالاً وأقوى جزاء من اللّذات الحسّية، كما قال تعالى بعد ذكر نعيم الجنة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (التوبة:٧٢). وإذ قد غمرهم كرامة الله في الجنة كانت تحيتهم فيها سلام، هكذا باللّفظ الدّال على الجنس، وهو يدلّ على السّلامة من مكروه.

والجملة: "السّلام عليكم" هي تحية المسلمين في الدّنيا، ونظرا لما تحمله من معاني التّكريم والتّلطف، أضيفت إلى المؤمنين: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ حتى لكأنها أصبحت شعارا لهم يردّدونه فيما بينهم، حتى وهم في روضات الجنات، لا يمسّهم فيها نصب ولا لغوب، وحتى ربّ العزة وملائكته الأقربون يكرمونهم بهذه التّحية:

أ)- ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ (يس:٥٨).

ب)- ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ، سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا

صَبَرْتُمْ﴾ (الرعد: ٢٣-٢٤).

ج)- ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً، إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً﴾ (الواقعة: ٢٥-٢٦).

﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: ومع التسبيح: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ يختمون دعاءهم بحمد الله والثّناء عليه، فالحمد لله هو أول ثنائهم لله عند دخول الجنة، إذ يقولون: ﴿وَقَالُواْ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ، وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الزمر: ٧٤-٧٥). فقد أُلهموا -بفضل الله- هناك من الكمال الرّوحانيّ ما تتصف به ملائكة الرّحمن من الحظوة عند الله، فأول عملهم التّسبيح، وتكريم بعضهم لبعض بالتّسليم، وختام أعمالهم الحمد لله والثّناء عليه، إنّها مقامات أهل الجنة وشغلهم الشّاغل، وقد استراحوا من هموم الدّنيا وأوصابها، وتطهّروا من قاذوراتها وأوشابها إخوانا على سرر متقابلين، لا يمسّهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين، جعلنا الله في عداد أوليائه الصّالحين. آمين. والله أعلم.

طبيعة الإنسان في الاستعجال، وحكمة الله في الإمهال

أ)- النص:

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ

وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ
﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي الْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾: التّعجيل: تقديم الشّيء على وقته المقدّر له، والمقصود بـ"النّاس" جميعُهُم، والمنكرون للبعث هم أوّل من يتبادر للذهن. ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾: القضاء: أجل الإنسان بمعنى هلاكه. ﴿وَلَوْ﴾: تفيد الامتناع من ذلك لأن الله وقّت للآجال مواقيتها، فيكون المعنى: أنّ الله يمهلهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾: العمه: عدم البصر، والمعنى هنا: يتردّدون في حيرة، إذ تجاوزوا كل حدّ في الشّرّ والكفر. ﴿لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً﴾: المقصود: أن الإنسان يدعو ربّه في كل أحواله عند إصابته بالضرّ. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ﴾: الكشف: إظهار شيء مستور، ويطلق على إزالة الشيء. ﴿مَرَّ﴾: أي بقي على الكفر، ونسي حالة اضطراره ودعائه. ﴿أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ﴾: الإهلاك: الاستئصال والإفناء. والقرون: مفرده قرن، مدة طويلة من الزّمان تقدّر بمئة عام. والمقصود: أهل القرون من الذين عاشوا في زمن واحد. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ﴾: خلائف: جمع خليفة: من يخلف غيره في الشيء أو الأمر. ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾: النّظر: العلم المحقق.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾: قرأ الجمهور: ﴿لَقُضِيَ﴾ بالبناء لنائب الفاعل، ورفع: ﴿أَجَلُهُمْ﴾ على أنه نائب الفاعل. وقرأه ابن عامر ويعقوب بفتح القاف والضّاد، ونصب: ﴿أَجَلَهُمْ﴾ على أنّ في فعل: ﴿قَضَيَ﴾ ضميرا عائدا على لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾.

د)- البيان والتفسير:

من أخص الصفات التي وصف الله بها الإنسان "العجلة" إذ قال: ﴿وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً﴾ (الإسراء:١١). وقد بلغ من غرور المشركين ومن تحدّياتهم للرسول أنهم كانوا يستعجلون نزول العذاب الذي كان يتهدّدهم به الرّسول إذا بقوا على عنادهم، كما تقدم ذلك في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٢). كما أن المؤمنين كانوا يستعجلون من الله النّصر كلما اشتدت بهم الضّوائق وطال أمد العنت. غير أن الله الحكيم واللّطيف بعباده قد وقّت لكلّ حالة ما يناسبها، فلا تجري أقداره إلاّ وفق تلك الحكمة، ولكن النّاس يستعجلون.

وخلال بيان تعنّت المشركين وتكذيبهم بآيات الله، وإنذارهم وتهديدهم تجيء هذه الآيات التي تزيل شبهات المشركين، وتطمئن المسلمين ببيان حكمة الله في الإمهال والاستدراج فقال جلّ من قائل: **﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الذينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾**.

يعتبر بيان هذه الحقيقة الإنسانية من العجلة، في ما يعرض به من خير أو شرّ، وكيف يلجأ إلى الله في حالة الشّدة بدعائه، ثم هو ينسى ذلك في الرّخاء، يعدّ بيان هذه الحقيقة وذلك الموقف متمّمًا لما تعرّض إليه السّياق من حالة المكذبين الذين لا يرجون لقاء الله، ولذلك جيء بالجملة معطوفة على ما قبلها، ووصف الإنسان بالعجلة قد تكرّر في القرآن بأساليب مختلفة، وقريبا من هذه الآية قوله تعالى.

-﴿وَيَدْعُ الإنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً﴾(الإسراء:١١)

- ﴿خُلِقَ الانسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (الأنبياء:٣٧).

- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمّىً لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَاتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (العنكبوت:٥٣).

ويقول المولى تبارك وتعالى في استعجال الذين كفروا بعذاب الآخرة:

- ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِهَا وَالذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ (الشورى: ١٨).

- ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً، وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ (المعارج:٦-٧).

لقد تهدّد الله الذين لا يرجون لقاءه بعذاب النّار في الآخرة -وإذ هم لا يؤمنون بها- فإنه تعالى يبين حكمة إمهالهم بتأخير العذاب الدّنيوي، بما جرت به سنّته في تدبير شؤون خلقه، وأنه تعالى رحيم بهم، عليم بما سيؤولون إليه من الهدى والإيمان -كما حدث لكثير منهم بعد فتح مكة- وأنه قد وقّت لكلّ حالة آجالها، فلو عجّل الشّر للذين يستحقونه لهلكوا جميعا، وفي إمهاله تعالى في إنزال العذاب منّة عظيمة ورفق بالخلائق، كما هو في تعجيله لهم بالخير، ولكل أجل كتاب عند الله، ويتفرع عن تلك القاعدة قوله تعالى: ﴿فَنَذَرُ الذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، أي هذا الصّنف من النّاس السّاهين عن لقاء الله يتخبطون في حيرتهم وضلالهم استدراجا لهم، وإلزاما للحجة عليهم، عندما يؤاخذون بما كسبت أيديهم.

وإذ بيّنت الآية مصيرهم المشؤوم ترسم الآية اللاحقة واقعهم الذّميم في حالتي الضّرّ والخير فقال تعالى: **﴿وَإِذَا مَسَّ الانسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ، مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾**.

وهذا بيان لطبيعة الإنسان في موقفه إزاء ما يصيبه من ضرّ، إذ يتضجّر وتضيق به الدّنيا، فلا يجد له مخرجا إلا في اللّجوء إلى ربّه يدعوه في كلّ حالة مع تقلباته اليومية، وهو يتحرك لشؤون دنياه، أو هو يسكن عندما تخور قواه، حتى إذا كشف الله عنه ذلك الضّرّ، مرّ على حاله الأولى من الغفلة والتّمرد وانطلق على طبيعته تلك، كأن لم يصب بضرّ، ولم يلتجئ إلى الله بدعاء.

وفي بيان هذه الحقيقة الإنسانية المتقلبة تبكيت لأولئك النّاكرين للبعث المتحدّين للرّسول باستعجال العذاب، إذ يكشف عن التّناقض في طبيعة هذا الإنسان الذي يستعجل الشّرّ، فإذا أصابه ضاق ذرعا به والتّمس المخرج منه بدعائه إلى الله، ثم عودته إلى ما كان عليه. ولذلك ناسب مثل هذا التّذييل بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

واختيرت صفة الإسراف مع الإظهار ليعمّ الحكم، وللتواؤم بين صفتي الطّغيان والإسراف في كلّ من الموقفين، وأسند فعل التّزيين إلى المجهول لأنه معلوم لدى المسلمين، وهو الشّيطان الرّجيم.

وزيادة في الاتعاظ والاعتبار بيّن الله عاقبة المسرفين من الأمم الخوالي فقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾**.

جيء بلفظي "النّاس" و"الإنسان" لبيان الحقيقة الإنسانية والطّبع البشريّ، وبيان حكمة الله وشأنه مع خلقه، تذكرة لمشركي مكة ولغيرهم ممن يتدبّر القرآن، وانتقل السّياق هنا إلى صيغة الخطاب، إيماء إلى التّشابه والتّماثل في صفة الكفر والعناد بين المخاطبين والذين سبقوهم من القرون الخوالي، وكيف أهلكهم الله بعذاب الاستئصال حين لجوّا في طغيانهم.

والمخاطبون يعرفون ذلك من تاريخ بلادهم، إذ لا تزال بقايا آثارهم تشهد

على ذلك، و لم يترل بهم ذلك العذاب إلا بعد أن أنذرتهم رسلهم وأقامت الحجة عليهم، فها أنتم أولاء تعاملون رسولكم بمثل ذلك الإعراض عن الإيمان به، وأنتم تعرفون نهاية ذلك، وأنّ الإجرام سوف ينال جزاءه في الماضين والحاضرين والآتين، ولا يظلم ربك أحدا، وقد قضت سنة الله أن تتلاحق الأجيال ويخلف بعضها بعضا.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾: وحكمة ذلك الاستخلاف في الأجيال أن يكون محلّ الاختبار لما تختاره من الأعمال صالحة كانت أو فاسدة، وهي تتجسّد في الواقع المعيش، ويتقرر على ذلك الواقع مصير الأقوام والأمم كما هي ثابتة في علم الله الأزلي، لأن علم الله هو كناية عن تجسيد تلك الأعمال وظهورها في الواقع. وقد تقدم معنى ذلك الاستخلاف وحكمته في كل من سورتي الأنعام والأعراف: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب:٦٢). ففي الآية بشارة للمؤمنين بالعز والتمكين، والله أعلم.

مطالبة المشركين بتصرّف الرّسول في القرآن بالتّبديل

أ)- النص:

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ
غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآءِي نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا
يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا
تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾: المقصود بالآيات القرآن الكريم، ووصفها بالبيّنات أي ظاهرات لزيادة الإشادة ببيانها. ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾: من التّبديل وهو التّغيير، وقد يكون في الذّوات أو في الأوصاف، أي يعمد الرّسول إلى الآيات التي تذمّ آلهة الكفر والشّرك، أو آيات البعث والنّشور فيبدّلها بغيرها. ﴿مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نَفْسِيَ﴾: ما يكون لي كذا أي لا ينبغي ولا أملك ذلك. "من تلقاء" على وزن "تفعال" بكسر التّاء كـ"تبيان"، صيغة مصدر بمعنى اللّقاء والبيان، ثم أطلق على الجهة والمكان، بمعنى: لا يكون تبديل القرآن من جهة نفسي، أي لا يملك التّصرف في ذلك. ﴿وَلَآ أَدْرَاكُم بِهِ﴾: من فعل درى يدري أي عرفّكم به وعلّمكم إياه، هو يتعدّى بنفسه وبـ"الباء". ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ﴾: أي لبثت بين ظهرانيكم مدة أربعين سنة لا أحدثكم بشيء من الوحي. وتنكير كلمة "عمر" لإفادة مقدار من الزّمن. ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً﴾: من الافتراء، وهو اختلاق الكذب سواء بنسبة الشّريك إليه، أو عدم التّصديق بالقرآن.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَلَآ أَدْرَاكُم بِهِ﴾: قرأ الجمهور بحرف النّفي عطفا على قوله: ﴿مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾، أي لو شاء الله ما أمرني أن أتلو عليكم القرآن ولا أعلمكم الله به. وقرأ البزّي عن ابن كثير في إحدى روايتين عنه، قرأ بـ"لام الابتداء" بدون ألف بعد اللاّم فتكون عطفا على جواب "لو" فتكون "لاما" زائدة للتوكيد، بمعنى: لو شاء الله لجعلكم تدرون معانيه، فلا تكذبون به.

د)- البيان والتّفسير:

في معرض ذكر شبهات المشركين في إنكارهم لرسالة محمد ﷺ وتحدّيهم له بإنزال العذاب عليهم إن كان ما يقوله حقا من عند الله، ثم بيان طبيعة الإنسان في

استعجال الخير والشرّ ولجوئه إلى الله عند نزول الضّرّ، ثم عودته إلى ما كان عليه بعد رفع الشّدة عنه، في معرض ذلك كله يذكر الله في هذه الآيات أسلوبا آخر للمشركين وشبهتهم لتكذيب الرّسول، فيردّ عليهم بما يلزمهم الحجة فيقول: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱيتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآءِىْ نَفْسِيَ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أثبت الرّوايات في أسباب النّزول أسماء من قال هذه المقالة من المشركين أنهم: عبد الله بن أمية، والوليد بن المغيرة، ومكرّز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس، والعاص بن عامر. كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: إيت بقرآن ليس فيه ترك عبادة الأصنام وليس فيه عيبها. فجاء الرّدّ من الله حاسما دامغا إذ أمر رسوله أن يواجههم به في جمل وجيزة تركّز على أمانة الرّسول وصدقه في التّبليغ. لأنّ مضمون طلبهم ينمّ على اعتقادهم بأن القرآن من وضع الرّسول، وليس من وحي الله، ولذا فهم يطلبون منه الإتيان بغيره مما لا يعيب آلهتهم، أي بنصّ آخر يوافق هواهم، أو هو يتصرّف بالتّبديل والتّغيير لبعض آياته، فإذا تمّ لهم ذلك فقد ثبتت دعواهم بأن القرآن لم يوح إليه من عند الله، كانوا يقولون عن سخرية وتهكّم أو عن جدّ، ظنا منهم أن الرّسول مثل أولئك البلغاء والشّعراء الذين كانوا يتنافسون في سوق الكلام فيثبتون ما شاؤوا من النّصوص ويحذفون، جاء الرّدّ الإلهي متضمنا لجوابين:

أ)- نفي قاطع لصريح اقتراحهم بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآءِىْ نَفْسِيَ﴾، أي ذلك التّبديل في بعض آياته أو الإتيان بغيره ليس من شأني، لأنني لا أملك التّصرّف فيه بمحض إرادتي.

ولما كان الكفار لا يصدقون بأن القرآن وحي من عند الله، وأن الرّسول هو

بشر عاديّ يمتاز عنهم بقوة الفصاحة والبيان، أتبع الله ذلك النّفي القاطع، فلقّن للرسول أن يقول لهم: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، أي إن مطلوبكم لا يملكه إلا الله، وما أنا إلا مبلّغ عنه بكل أمانة وإخلاص. ثم علّل مضمون ما سبق بقوله: ﴿إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أي إن الرّسول كغيره من البشر، هو متوعّد بالعذاب العظيم إن صدرت منه أية معصية، فكيف بتبديل كلام الله؟.

ب)- ثم جاء الجواب الثّاني مفصولا عن الأول وبأسلوب التّلقين قال تعالى:

﴿قُل لَّوْ شَآءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾.

وفي هذه الإجابة ردّ لما يفهم من التماسهم، أي الاتهام لرسول الله بالكذب والافتراء على الله، وذلك ببيان مشيئة الله في إنزال هذا الكتاب، إذ لو شاء الله ما تلوته عليكم، ولو شاء لما أعلمكم به بواسطتي ولكنه شاء -وما شاء الله فعل-. وها هو ذا أتلوه عليكم معجزا بليغا لا يمكن أن يرقى إلى فصاحته وبلاغته وما تضمّنه من الأحكام والعلوم أي إنسان عادي مهما تفوّق على أقرانه ذكاء وفطنة. والدّليل على أنه من عند الله أنّني عشت بين ظهرانكم عمرا طويلا، وعرفتم من أحوالي ما يؤكد لكم صدقي وأمانتي، إذ ما قرأت كتابا من قبل، ولا جلست أمام معلّم قطّ، فكيف يتسنّى لي أن آتيكم بكتاب أخرس البلغاء وأعجز العلماء.

وقوله: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾، الاستفهام للإنكار والتّعجّب ممن لزمته الحجّة، ثم هو لا يتدّبرها ولا يعقلها، وبذلك تمّ الاستدلال على أن القرآن هو من عند الله كما قال عنه في سورة النّساء: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً﴾ (١٦٦).

ونظير هذا الاستدلال قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن

قَبْله من كتَاب ولاَ تَخُطُّهُ بيَمينكَ إذاً لاَرْتَابَ الْمُبْطلُونَ، بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِئايَاتِنَا إلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٨-٤٩).

أما وقد قامت الحجة بأن القرآن كلام الله أنزله على قلب رسوله، وأنّ تبديله من قبل الرّسول هو من أعظم المعاصي، وليس من شأن الرّسول أن يعصي ربّه بذلك، ولا كان في استطاعته أن يأتي بمثله، وهو الأمّي الذي عاش مدة من الزّمن لا يدّعي وحيا ولا رسالة، فها هي الحجة الثّالثة فرّع عما سبق أن المفتري على الله كذبا أو المكذّبين بآياته هم أظلم النّاس وأضلهم سبيلا فقال: ﴿فَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً اَوْ كَذَّبَ بِئايَاتِه إِنَّهُ، لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

جاء التّعبير بصيغة الاستفهام وأسلوب التّفضيل لنوعين من الظّلم: الإشراك بالله بافتراء الكذب عليه، والتّكذيب بالقرآن، وبذلك ينفي الرّسول عن نفسه الكذب، ويلحق الوعيد الشّديد بخصومه حيث أنكروا دلائل الله وكذّبوا بآياته. والتّذييل بنفي الفلاح عن المجرمين عامّة يقتضي وصف المذكورين بالإجرام وأنهم لا يفلحون، والله أعلم.

عبادة الأصنام انحراف عن أصل الفطرة

أ)- النص:

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اِ۬للَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ
شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ اَ۬للَّهِ قُلَ اَتُنَبِّـُٔونَ اَ۬للَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِے اِ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِے
اِ۬لَارْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٨ وَمَا كَانَ اَ۬لنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٩ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ
أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلِ اِنَّمَا اَ۬لْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوٓاْ إِنِّے مَعَكُم مِّنَ اَ۬لْمُنتَظِرِينَ ٢٠

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾: أي يعبدون غير الله من الشركاء والأنداد. ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾: الشفيع هو الوسيط، أي تشفع لهم فيما يهمّهم من شؤونهم، لأنهم يشعرون بالقصور في المثول بين يدي الله مباشرة. ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾: وهو كناية عن بطلان ذلك من أساسه. ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: أي على دين الفطرة وهو الإسلام من لدن آدم عليه السلام وهو ما جاء به المرسلون كلّهم. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾: أي إمهال جزائهم إلى يوم القيامة لاختبارهم في الدّنيا. ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: أي عاجلا في الدّنيا، فيظهر المحقون من المبطلين. ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾: "لولا" للتحضيض، والآية: هي المعجزة المادية مما يقترحونه على الرّسول لتكون علامة على صدقه فيما يزعمون. ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾: الغيب: ما غاب عن حواس النّاس من الأشياء لا يقدر عليها إلا الله، و"اللام" للملك.

ج)- أوجه القراءة:

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: قرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿تُشْرِكُونَ﴾ بالتاء الفوقية على أنه من جملة المقول، وقرأه الباقون بالتحتية على أنها تعقيب للخطاب بجملة "قل" فكأنه قيل للنبي: قل أنت: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ويجوز أن يكون الله هو الذي نزّه نفسه عما قالوه.

د)- البيان والتفسير:

ما يزال السّياق يعدّد مواقف المشركين ويذكر أحوالهم في استرسالهم على الكفر وسخريتهم بما ينذرهم به رسول الله، إن هم تمادوا على عنادهم وتحدّيهم،

تمسّكا بعبادة آلهتهم واعتقادا منهم بأنها تشفع لهم عند الله إذا ما حلّ بهم ضرّ، وهي شبهة أخرى تمسّكوا بها، فجاء الرّدّ الإلهي يبكّتهم بأسلوب التّوبيخ والتّقريع. قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ من دُون الله مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلآءِ شُفَعَآؤُنَا عندَ الله قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وفي وجه المناسبة بعد هذه الآية وما قبلها يقول الإمام الرّازي: "اعلم أنا ذكرنا أن القوم التمسوا من الرّسول ﷺ قرآنا غير هذا القرآن أو تبديله، لأن هذا القرآن مشتمل على شتم الأصنام التي جعلوها آلهة لأنفسهم، فلهذا السّبب ذكر الله تعالى في هذا الموضع ما يدلّ على قبح عبادة الأصنام، ليبيّن أن تحقيرها والاستخفاف بها أمر حق وطريق متيقن".[١]

قلت: إن شرك هؤلاء قد تجلّى في أمرين:

أ)- عبادة الأصنام من دون الله، وفي معناها كلّ ما اتخذه البشر من أنواع المعبودات، سواء منها ما عُبد لذاته من حيوان أو شجر أو جماد، وحتى من البشر الذين تألهوا على النّاس عبر التّاريخ كفرعون. أو ما اتّخذه النّاس رموزا لقوى خفية كالملائكة والجنّ وأرواح القديسين والأولياء...إلخ.

ب)- اتّخاذ تلك المعبودات شفعاء لهم عند الله، يتوسّطون بها إلى الله لما يطلبونه منه اعتقادا منهم أنهم بعداء عن الله، لأنهم دنّسوا أنفسهم بالمعاصي كقولهم في آية الزّمر: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ (٣). ومثل هذا الاعتقاد هو أساس الشّرك وهو أن يعتقد الإنسان بوجود الله، ولكنه يتجاوز عبادته وحده إلى عبادة غيره زيغا وضلالا. وهذا هو معنى قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا

١- الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ٥٩/١٧.

يُومِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (١٠٦).

وقد نبّه الله على فساد ذلك الاعتقاد بأنّ تلك المعبودات لا تنفع إن عبدت، ولا تضرّ إن لم تعبد، لأنّ المعبود الحق هو القادر على النّفع والضّرّ، إذ هو الباسط لكل النّعم والمالك لمقاليد الأمور في ملكوته الواسع. ثم إن تلك المعبودات الباطلة هي أعجز من عابديها في النّفع والضّرّ، كيف وقد صوّر الله عجزها بأبلغ تصوير مرة في سورة الحجّ إذ قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (٧٣). ومرة في سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١).

فردّ الله عليهم ذلك الزّعم الباطل بأسلوب التّلقين لرسوله وبصيغة الاستفهام الإنكاري التّوبيخي فقال تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾، وينمّ هذا الرّدّ عن التّهكّم بهم، حين تجرءوا على الله بإخباره بما هو من خصوصياته تعالى في العلم والقدرة، حتى لكأنّهم يعلمون ما لا يعلمه الله من صفات ذاته العلية. ولما كان وهما باطلا اخترعوه من عندهم فقد أصبح منتفيا لاغيا، مما يجب فيه تنزيه الرّب تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، لأنّ في ذلك الاعتقاد الباطل حطّا وإهانة من مقام الألوهية والرّبوبية كما صرّحت به آية الحجّ: ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٧٤).

وعلى ذكر ظاهرة الشّرك عند العرب، وهم يجابهون دعوة الرّسول بالاستكبار والعناد، يبيّن الله تعالى الواقع البشريّ في مجال الاعتقاد، وكيف كانت تطوّراته من الوحدة والوفاق، إلى التّنوّع والاختلاف والشّقاق فقال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ**

فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

المقصود من "النّاس" عموم البشر، ومن ضمنهم العرب، إذ المراد بذكر هذه الحقيقة الاجتماعية والعمرانية هو تقوية قلب الرّسول وتسلية له في إرجاء العذاب للمستهترين من قومه ببيان طبيعة البشر وكيف خلقهم الله على الفطرة السّليمة في المعتقد بفكرة التّوحيد على أسس الدّين الصّحيح -وهو الإسلام- الذي دعا إليه رسل الله جميعهم.

ولا فائدة من محاولة بعض المفسّرين في تحديد تلك الفترة التي تميّزت بالوحدة الاعتقادية عند البشر: أهي فترة آدم ونوح خاصّة؟ أم هي فترات كل الرّسل عندما ينتصرون، ثم تتعاقب الأجيال بعدهم فينشأ الخلاف باتباع الأهواء والأباطيل؟، لأن هذه الظّاهرة تحدث لدى التّجمّعات البشرية كلما كثرت واتّسع عمرانها، إذ تقع في الغثائية كلما طال عليها الأمد وتشعّبت المسالك.

وللتخويف من عواقب الاختلاف جاء التّهديد بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وأقبح الاختلاف وأفظعه هو ما يكون في كتاب الله بين أتباعه، حين يصبح مجالا للشقاق والصّراع، وهو المنزل من عند الله للإخاء والوحدة، فلولا حكمة الله تعالى في إمهال الفصل بين عباده إلى يوم الجزاء لعجّل لهم العذاب، فيستأصل المبطلين، وينصر المحقين. وقد تكرّر ذكر هذه الظّاهرة الاجتماعية مقرونة بالوعيد على الاختلاف بتفصيل أكثر في سورتي البقرة وهود ﷺ وفي سور أخرى بإيجاز.

ثم يعود النّصّ إلى الحديث عن المشركين وتحدياتهم فيقول: **﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.**

هذه هي الشّبهة الرّابعة للمشركين تندرج في إنكارهم للنبوءة أن تكون لبشر مثلهم، وشكّهم في القرآن أن يكون منزلا من عند الله، والضّمير في قولهم:

﴿عَلَيْه﴾ عائد للنبي ﷺ وهو مفهوم من السّياق. وصيغة المضارع في: ﴿يَقُولُونَ﴾ تدلّ على التجدّد والتكرار،فهم لا يفتأون يكرّرون ذلك في مجامعهم للإدمان على الكفر، أو هم يكرّرون ذلك على المسلمين طمعا في ردّهم. وطلب الآية من الرّبّ أي آية كونية خارقة للعادة تكون علامة على صدق الرّسول كما كان ذلك للرسل من قبله.

وهذا المقترح منهم ورد ذكره في القرآن بأكثر تفصيل مع الرّدّ عليها، إذ حدّدوا مطلبهم بذكر نوع تلك الآيات كما في سورة الإسراء والفرقان. ولكن الإجابة تتشابه على لسان الرّسول بتلقين من الله أن يقول لهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً﴾ (٩٣). ولكن الإجابة هنا بأعلى مما يدركون، بكون الإتيان بالآيات المادية المقترحة هي من أمور الغيب التي لا تجري في نظام الكون وفي تدبير شؤون الخلق إلا بما قدّره. فلا يقدح في دعوة الرّسول ولا يعطلها أن يكذّب بها النّاس أو يتحداها فريق منهم بتعجيز الرّسول في أن يأتي بما ليس في مقدوره، وليس ذلك منهم إلا محاولة لاستفزازه علّه يترك ما أمره الله به من التّبليغ، كما فصّل الله ذلك في سورة الإسراء فقال جلّ من قائل: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ (٥٩).

ومن حكمته تعالى أن يجعل القرآن في إعجازه وبيانه هو الآية الكبرى لرسول الله، تحدّى به بلغاءهم وفصحاءهم فعجزوا عن الإتيان بمثله.

وإزاء ذلك التحدّي يأتي التّهديد الإلهي لهم، بأنه تعالى لو يلبّي طلبهم هذا ثم هم لا يصدّقون لنزل عليهم عذاب الاستئصال كما حدث لمن قبلهم، وذلك ما يعنيه بالانتظار لأمر الله بصفة مجملة، نجد تفسيره في الآيات الأخرى كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ﴾ (٨)، والله أعلم.

الكفر يدعو إلى المكر والعناد والبغي

أ)- النص:

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا
قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ
ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا
مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ
فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا﴾: أصل الإذاقة والذّوق إدراك الطّعم بالفم، ويستعمل في مطلق الإدراك مجازا. ﴿رَحْمَةً﴾: أي ما تتركه من أثر النّعمة والنّفع. ﴿ضَرَّآءَ﴾: والضّرّاء: أي جدب وبؤس ومرض. ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا﴾: "إذا" تفيد المفاجأة. والمكر: التّدبير الخفيّ للإضرار بالغير. والآيات: آيات القرآن يطعن الكفار في صدقها استهزاء بالرّسول. ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ﴾: الملائكة الموكلون بإحصاء أعمال الخلائق. ﴿يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: إسناد التّسيير إلى الله مجازيّ لأنه هو الذي أقدر الإنسان على إيجاد وسائل الرّكوب إلى جانب ما خلقه من دوابّ لذلك. ﴿فِي الْفُلْكِ﴾: اسم لمركب البحر جمعا أو واحدا. ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾: أي رخاء ليّنة، ضدّها ريح عاصفة، أي سريعة مدمرة، وصف للريح خاصّة استغني

فيها عن تاء التأنيث كنافس وحائض. ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾: يقال: أحاط العدوّ بالقبيلة إذا تمكّن منها وغلبها، والمعنى: ظنوا الهلاك. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: أي يمحّضون لله في دعائهم فلا يشركون معه الأصنام في تلك الحالة. ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾: البغي: الزّيادة على القصد والاعتدال المؤدية إلى الكفر والفساد، وبغي كل واحد منهم يرجع على نفسه. ﴿مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: المتاع: ما ينتفع به انتفاعا غير دائم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مَا تَمْكُرُونَ﴾: قرأه الجمهور بـ"تاء الخطاب"، وقرأه روح عن يعقوب: ﴿مَا يَمْكُرُونَ﴾: بـ"ياء الغائب"، والضّمير يرجع إلى: ﴿النَّاس﴾، وعلى هذه القراءة يكون الكلام موجّها لرسول الله. ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾: بتحتية في أوله مضمومة فسين مهملة فتحتية فراء، أي من السّير يجعلكم تسيرون. وقرأه ابن عامر وأبو جعفر: ﴿ينشركم﴾ من النّشر. وهو التّفريق على نحو قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ (الروم: ٢٠). ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: هو مرفوع في قراءة الجمهور على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي هو متاع الحياة الدّنيا. وقرأه حفص عن عاصم بالنّصب على الحال من "بغيكم"، كما يجوز أن يكون انتصابه على الظّرفية للبغي.

د)- البيان والتّفسير:

بعد أن ردّ الله شبه الكافرين المقترحين لإنزال آية كونية تدلّ على صدق الرّسول، وبعد أن حكى تمرّدهم وتحديهم بيّن هنا في هذه الآية الطّبيعة البشرية في مقابلة النّعمة بالكفران والجحود وأن هؤلاء الكفار قد أبطرتهم النّعمة والخيرات الكثيرة التي يتبجحون فيها، وضرب لذلك مثلا يدلّ على أنهم كاذبون في طلبهم لنزول آية من عند الله، لأنه لو تحقّق مرادهم فإنهم يتمادون على العناد والمكر فقال

جلّ من قائل: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً انَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾.

فهذه الظّاهرة البشرية من العناد والكفر والطّغيان عند الرّخاء والرّفاه إذا ما خلت القلوب من الإيمان، فهي وإن كانت حكاية عن سالف كفار قريش في وقت التّتريل فإنها ظاهرة عامّة تطال جميع النّاس، إذا تجرّدوا عن الإيمان فإنهم ينسون ويطغون عندما ينعمون بما يحبّون، ولا يتوقعون تغير حالة النّعمة إلى ضدّها، فيمعنون في التّكذيب والاستهزاء والمكر بمن ينصحهم وينذرهم من سوء العواقب.

وقد تقدم نظير هذا المعنى في ما تقدم من السّورة ولكن بالمثل الانفرادي المتمثل في الإنسان المنحرف عن الفطرة، بينما جاء المثل في هذه الآية جماعيا مع تغيير في الطّرح، فهناك تمثيل لنداء الفطرة في الإنسان عند نزول الشّدة بالتجائه إلى الله، ثم انقلابه إلى عادة سهوه وغفلته عند انفراج الأزمة، وهنا تمثيل لظاهرة البطر والكفران بسبب النّعمة والرّفاه ونسيان حالات الضّرّ والبؤس.

وقد تكرر في القرآن هذا المعنى بالمثل تارة، وبالحكاية عن واقع شخص أو أشخاص كقوله تعالى:

أ)- ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ، هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ، مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ اثِيمٍ، عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ، ان كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (القلم: ١٠-١٤).

ب)- ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ (المزمل: ١١).

وبالنّسبة لأحوال المشركين من قريش قد روي أنهم شكوا القحط والبؤس سبع سنين بدعاء رسول الله عليهم، ثم كشف الله الضّرّ بإنزال الأمطار وفاضت عليهم النّعم، ولكنهم عادوا إلى تمرّدهم في الطّعن في آيات الله ومعاداة رسوله، ثم إنهم نسوا تلك الرّحمة إلى آلهتهم وإلى الأنواء على عادة الجاهلية، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً انَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾.

وقد دلّت: "إذا" الفجائية في جواب الشّرط على سرعتهم إلى الكفر والمكر، فجاء الرّدّ الإلهي بفعل التّفضيل: ﴿أَسْرَعُ﴾، للمقابلة والمشاكلة لفعلهم على وجه الاستعارة إذ يستدرجهم من حيث لا يعلمون، فإنه تعالى عليم بما يفعلون، تحصى أعمالهم الكتبة من الملائكة الحفظة، لتعرض عليم يوم الجزاء.

وتسخير الكتبة لإحصاء أعمال النّاس وبالكيفية التي لا يعلمها إلا الله تعالى هو من مظاهر القوة والقهر في وصف عظمة الله وقدرته كما فصّل الله ذلك في سورة الأنعام فقال بعد بيان ما عنده من مفاتح الغيب فقال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ (٦١).

فعلى ذكر شدّة مكره وسرعته بأسلوب المشاكلة ضرب الله مثلا لضعف وسائل المشركين المعاندين أمام قدرته وقهره فقال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.**

الخطاب لجميع النّاس، ويدلّ عليه تصدير الآية اللاحقة بندائهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، والمثل المضروب هنا هو تشخيص للمكر في آيات الله المتقدم ذكره، وهو تشخيص حيّ يتكرّر وقوعه في حياة النّاس وهم يضربون في أرض الله برّها وبحرها للارتزاق وغيره من مختلف شؤونهم. وهو امتنان منه تعالى للتذكير بمختلف نعمه وموقف النّاس منها بالجحود والكفران، اغترارا بالاستدراج والإمهال، وأنه تعالى غير عاجز عن أخذهم، فيذكر المثل حالتي السّرّاء والضّرّاء التي تعتور الخلائق وفق تدبيره تعالى لشؤون خلقه، فيتوزّع الأسلوب بين ضمير الخطاب وضمير الغيبة. وذلك للتفريق بين شأن المؤمنين الشّاكرين لنعمة الله، إذ جاء ذكر النّعمة بضمير

الخطاب إكراما وتشريفا، بينما جاء ذكر النّقمة بضمائر الغيبة تنديدا وتهديدا للكافرين الجاحدين، وذلك من الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم.

وإسناد التّسيير إلى الله: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ تعبير على امتنانه تعالى بما هو خير ورحمة، لأنه هو مسخّر تلك الأسباب ما هو طبيعيّ منها كالدّواب، وما هو من صنع الإنسان كالفلك والمراكب الأخرى، والعرب يعرفون تلك الأحوال في ما ألفوه من الرّحلات البريّة والبحرية.

ولما كان ركوب البحر من أكثر الأسفار تعرّضا للأخطار إذ يتقلّب ما بين هدوء وارتياح في حالة سكون الأمواج واستقرار صفحة الماء، وما يصحب ذلك من فرح واطمئنان للمسافرين، وما بين اضطراب وهياج للأمواج بسبب العواصف الهوج وما يصحب ذلك من الخوف والفزع، إذ تنقطع حيلة الإنسان وتتعطل وسيلته، فالموج يتلاطم من كل جانب، ويحيط بالفلك إحاطة العدوّ بخصمه بحيث يقطع عليه سبل النّجاة، حتى يتيقن بالهلاك، ففي تلك الحالة الحرجة، لا يجد الإنسان مهما كان كفره وعناده، لا يجد ملجأ إلا إلى الله يخلص دعاءه إليه طالبا النّجاة، متعهّدا بالشّكر بكل الأيمان إن لطف الله به وأنجاه من الهلاك، ولكن ما مدى وفائه بذلك العهد عندما يحسّ بالأمن والطّمأنينة؟، إنه الرّجوع إلى البغي والطّغيان، والتنكّر لنداء الفطرة عند الضّيق والشّدة.

وجاء التعبير بـــ"إذا" الفجائية في جواب: "لمّا" للدلالة على سرعة التّنكّر عند الإنسان الجحود الكفور، وتقييد البغي: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لأن من معاني البغي تجاوز الحدّ في القصد والاعتدال، وهو محمود في خصال الخير أو في إنزال العقوبات على المجرمين.

وقد حرّم الله البغي والإفساد في الأرض لما ينجرّ عنهما من فساد العمران واضطراب الحالة الاجتماعية للناس، ولذلك أعقب الخبر بنداء النّاس الباغين،

وبصيغة الحصر بيّن أن الباغين لا يضرّون إلا أنفسهم في الحقيقة والواقع فقال جلّ من قائل: **﴿يآ أيها النّاسُ إنّما بَغْيُكُمْ علَىٰ أنفُسكُم مّتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمّ إلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنبّئُكم بما كُنتُمْ تعْمَلُونَ﴾**.

أي يعود وبال البغي على أنفسكم، وعلى بعضكم بعض على اعتبار الأمّة جسما واحدا يتأذّى كله لألم بعض أجزائه، ويكون وباله عليكم في الدّنيا والآخرة، فأمّا في الدّنيا فإنّ البغي أمده قصير في الدّنيا ويعقبه النّدامة والخسران، وأما في الآخرة فهو ما ينتظركم من الحساب والجزاء عند الله. وقد جاء في الحديث: «**ما من ذنب أجدر أن يعجّل الله لصاحبه العقوبة في الدّنيا، مع ما يدّخر له في الآخرة، من البغي وقطيعة الرّحم**».[1]

وغالبا ما يلقى البغاة مصارعهم على أيدي من بغوا عليهم، فاللّهم اكف عنا شرّ الحاسدين وكيد الباغين.

مثل الحياة الدّنيا بقرب منالها وسرعة زوالها

أ)- النص:

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

١- رواه الترمذي من حديث أبي بكرة، كتاب صفة القيامة، رقم ٢٥١١، وقال: حديث حسن صحيح.

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿مَثَلُ الْحَيَاة الدُّنْيَا﴾: "مَثَل": الحالة الماثلة على هيئة خاصّة، وجاء التّشبيه هنا حالة مركّبة بحالة مركّبة، ووجه الشّبه بينهما سرعة الانقضاء والإدبار، بعد الإقبال والإزهار. ﴿فَاخْتَلَطَ بِه نَبَاتُ الأَرْضِ﴾: الضّمير في: "به" للماء فـ"الباء" سببية، أي يزهو به النّبات حتى يخالط بعضه بعضا. ﴿ممَّا يَأكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ﴾: تصنيف للنبات مما يأكله النّاس من الحبوب والبقول وما تأكله الأنعام من العشب والكلأ. ﴿زُخْرُفَهَا﴾: الزّخرف: اسم للذهب، ويطلق على كلّ ما يتزيّن به. ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾: أصله: تزينت، قلبت "التّاء" "زايا"، وأدغمت في "الزّاي"، صارت ذات بهجة وزينة. ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادرُونَ عَلَيْهَآ﴾: أي متمكّنون من الانتفاع بخيراها وثمراها. ﴿أَتَاهَآ أَمْرُنَا﴾: أمر الله بمعنى قضاؤه تعالى بإهلاكها بجائحة من الجوائح الطّبيعية. ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾: الحصيد: بمعنى المحصود، أي استؤصل نباها وزرعها حتى لكأنه لم ينبت، ولم تقم نضرها من قبل. والأمس معرفا بـ"أل" مَثَلٌ للوقت القريب، وبدون تعريف "أمس" اسم لليوم الذي قبل يومك.

ج)- البيان والتّفسير:

على ذكر عواقب البغي في الأرض وما ينجرّ عنه من الفساد، ولما كان بغي النّاس سببه هو الإفراط في حبّ الدّنيا وطلب متاعها، جاء هذا المثل البليغ لبيان أن ذلك المتاع قصير المدة سريع الزّوال، فلا ينبغي للعاقل أن يغترّ به فقال تعالى: **﴿إنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰة الدُّنْيَا كَمَآء انزَلْنَاهُ منَ السَّمَآء فَاخْتَلَطَ به نَبَاتُ الأرْض ممَّا يَاكُلُ النَّاسُ وَالأنْعَامُ حَتَّىٰ إذَآ أَخَذَت الأرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً اَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصيداً كَأن لَّمْ تَغْنَ بالأَمْس**

كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

نحن أمام تشبيه بليغ، كلّ من المشبّه والمشبّه به فيه هيئة مركبة، ووجه الشّبه بينهما قصر المدة وسرعة الزّوال.

أ)- فالمشبّه: هو متاع الحياة الدّنيا في زينته وبهجته وافتتان النّاس به، وغرورهم بالتّمكّن منه.

ب)- والمشبّه به: مفعول ماء المطر بنبات الأرض يزهو وتتألق نضرته ويختلط بعضه ببعض.

ج)- وجه الشّبه بين الهيئتين، مصير كل منهما إلى الفناء والزّوال بسرعة حتى كأن تلك الهيئة لم تكن من قبل.

ولما كان المفتونون بمتاع الدّنيا يعتقدون دوام ما هم فيه من زينة وبهجة، فقد نزّلوا منزلة الغافلين عن تلك الحقيقة وجيء بصيغة القصر: "إنّما" لتأكيد مضمون التّشبيه في المآل وسرعة الزّوال. ثم إن الإطناب والتّفصيل في أطوار الحالين المتشابهين يقصد به استكمال الصّورة للمثل وإبرازه في حركية تتفاعل فيها مشاهد البهرجة والزّينة مع مشاعر النّاس وأحاسيسهم في الاطمئنان والرّضى بما فتنوا به يأتي عنصر المباغتة ليمحو جمال تلك الصّورة كلية، فإذا بذلك الخصب يجدب ويزول وإذا بذلك الغرور والافتتان تعقبهما النّدامة والخسران، ذلك هو الجانب البلاغي في عناصر التّشبيه.

وفي تفسير أحزانه **نقول**: ضرب الله هذا المثل لبهرجة الحياة الدّنيا في سرعة زوالها وأحوال مآلها، فشبّهها بصورة هي ظاهرة طبيعية نشاهدها، بل نعيشها في حيّزنا المكاني من رقعة الأرض، فنراها كيف تهتزّ وتربو بأنواع النّبات والأزهار عندما ينزل عليها المطر فيكسوها حللا زاهية مختلفة الأشكال والألوان، حتى لكأنها عروس تزيّنت بحللها وحليّها ليوم زفافها.

وفي التعبير بضمير العظمة: ﴿أنزلناه﴾ إيماء إلى قدرة الله في بديع صنعه، وأنه قادر على إحياء الموتى كما فعل بتلك الأرض. أي على معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت:٣٩).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾، فيه زيادة تفصيل لبيان تنوّع المعاش لجميع الأحياء يأكل كل منها ما يناسبه من أنواع ذلك النبات كما قال تعالى في سورة عبس بعد ذكر تلك الأنواع: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (٣٢).

وللإمام ابن عاشور ملحظ جيّد في فائدة ذلك التفصيل، إذ يقول: "ولما كان ذلك قد تضمّن المأكول والآكل صحّ أن تشبه به رغبات النّاس في تناول لذائذ الحياة على حسب اختلاف مراتب الهمم، وذلك يتضمن تشبيه معالي الأمور من نعم الدّنيا التي تسمو إليها الهمم العوالي بالنّبات الذي يقتاته النّاس، وتشبيه سفاسف الأمور بالنّبات الذي يأكله الأنعام، ويتضمّن تشبيه الذين يجنحون إلى تلك السّفاسف بالأنعام كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ (محمد:١٢)."[1]

ولاستيفاء غاية الجمال والزّينة للأرض بحيث بلغت بذلك كمال الإغراء والإفتان لأهلها جاء قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾، ولم يغفل النّصّ مع عنصر التّشويق هذا تصوير التّفاعل العاطفي للإنسان أزاء مغريات الجمال والزّينة فقال تعالى: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾، وفي مثل تلك الحالة من اندفاع العواطف قد يخطئ الإنسان الحقيقة، إذ تحتدم في نفسه الظنون والأوهام وتحجب عنه الرّؤية العقلية، فيظن ما ليس بواقع، يظن أنه متمكن من التّمتع بتلك اللّذائذ والخيرات، إذ يراها طوع يديه، ولكن الله العليّ الحكيم

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٤٣/١١.

يحطِّم تلك الرّغبات بما يقضيه من الأقدار التي تفاجئ الخلق في كل لحظة فلا يملكون معها حولا ولا قوة. فإذا بتلك الأرض تقفر وتجدب كأن لم يحصل فيها نبات من قبل، تلك هي حقيقة الدّنيا، كما يجب أن تنطبع صورتها في قلب المؤمن، حتى لا يركبه الغرور بها وبمتاعها.

ويجيء التّذييل المناسب لذلك التّفصيل وبيان آيات الله بمثل ذلك التّشبيه البديع وتمثيل حقيقة الدّنيا وغرور النّاس بها وسرعة زوالها، وكم لله من آيات بيّنات توضّح تلك الحقائق بما فيه صلاح النّاس في معتقدهم وسلوكهم وفي معاشهم ومعادهم، ينتفع بها من يستعملون عقولهم في التّفكير والنّظر في ما خلق الله، ليقتنعوا بما هم به مؤمنون، إذ أن الدّين في مبادئه وقيمه وأحكامه يسنده العلم كلما تجلّت حقائقه بعد النّظر والتّمحيص، فليت مسلمي اليوم يعتبرون بمثل هذه الآيات ويتجاوبون مع إرشاداتها للخروج من التّخلّف، حين يصبح القرآن في ألسنتهم وفي صدورهم حيّا نابضا يشعّ نورا في جوانحهم ويفيض هدى ورشدا في سلوكهم، ونظير هذا المثل في القرآن قوله تعالى:

أ)- في سورة الكهف: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ انزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الاَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ (٤٥).

ب)- في سورة الحديد: ﴿اِعْلَمُواْ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الاَمْوَالِ وَالاَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ اَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الاَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (٢٠).

ج)- في سورة الزّمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الاَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً اَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً اِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الاَلْبَابِ﴾ (٢١).

د)- أخذ الشاعر العربي الحكيم هذا المعنى فقال:

ألا إنما الدنيــا نضارة أيكــة	إذا اخضرّ منها جانب جفّ جانب
هي الدار ما الآمال إلاّ ودائــع	عليها وما اللّذات إلا مصائب
فلا تكتحل عيناك عنها بعَـبرة	على ذاهب منها فإنك ذاهبُ

التّرغيب في الجنة، وبيان حال المحسنين والمسيئين

أ)- النص:

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ
أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا
لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَاللهُ يَدْعُواْ إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾: ﴿يَدْعُواْ﴾: من الدّعوة، وهي الطّلب والتحريض، وهي أوامر الله ونواهيه في مجال التّكليف. و﴿دَارِ السَّلَامِ﴾: هي الجنة، وإضافتها إلى السّلام تحتمل وجوها في تسميتها بذلك، إما سلامتها من الفناء والآفات، أو سلام الله وملائكته على من يدخلها، أو "السّلام" من أسماء الله الحسنى أضيفت إليه تعظيما وتشريفا. ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: الهداية: الدّلالة على المقصود النّافع، وهي هنا هداية توفيق، أي خلق الاهتداء إلى

المقصود. ﴿الْحُسْنَى﴾: في الأصل مؤنث "الأحسن" ثم عوملت معاملة الجنس فأدخل عليها "لام" التعريف لتفيد الاستغراق مثل "البشرى"، والمقصود بها المثوبة الحسنى وهي الجنة. ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾: من الرَّهق وهو الغشيان. يقال: رهقه الذّل: غشيه حتى غطاه. القتر والقترة: غبرة فيها سواد، تغشى وجوههم من شدة البؤس والشقاء. ﴿مَا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾: "من" زائدة، والعاصم: المانع والحافظ، أي لا يمنعهم من عذاب الله وسخطه مانع. ﴿أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾: ﴿أُغْشِيَتْ﴾: معدّى "غشي" بمعنى غطى وأحاط، عدّي بالهمزة فصار من باب كسا وأعطى.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ﴾: في قراءة الجمهور: ﴿قِطَعاً﴾، جمع قطعة أي الجزء من الشيء، وقرأه ابن كثير والكسائي ويعقوب: ﴿قِطْعاً﴾ بسكون "الطّاء"، وهو اسم للجزء من زمن اللّيل المظلم.

د)- البيان والتّفسير:

إذا كان الكافرون الجاهلون لقدر الله والسّادرون في غفلتهم زهوا بمتاع الدّنيا قد رضوا بما هم فيه، واغترّوا بما عندهم وهو فان زائل، فإن الله تعالى بعد تنفيره من الاغترار بالحياة الدّنيا رغّب خلقه في العمل لسعادة الآخرة مع بيان حال المحسنين والمسيئين فيها فقال جلّ من قائل: **﴿وَاللهُ يَدْعُواْ إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**.

وفي معنى هذه الدّعوة الكريمة قال رسول الله: «**ما من يوم تطلع فيه الشّمس إلا وبجنبيها ملكان يناديان بحيث يسمع كل الخلائق إلا الثّقلين: أيها**

النّاس هلمّوا إلى ربّكم، والله يدعو إلى دار السّلام».[1]

فالدّاعي هو الله -وما أقدسها من دعوة-، والمدعوون هم كل الخلائق عامّة، ويستفاد ذلك من حذف المفعول لأجل التّعميم، ومناط الدعوة هو دار الكرامة في نعيم الجنة سمّاها "دار السّلام"، وهي إضافة تشريفية لتعظيم شأنها بكل ما تحمله كلمة "السّلام" من المعاني المبيّنة في التّحقيق اللّغوي.

فإذا كانت دعوة الله موجّهة لكلّ النّاس -وذلك من فيض رحمته وعدله- فإن الاستجابة لتلك الدّعوة لا تتحقّق إلاّ ممّن وفّقه الله وهداه إلى الطّريق الموصل إلى الجنة، وذلك بخلقه تعالى الاستعداد في نفوس من يشاء من عباده فتكون له القدرة على الاهتداء. فالنّاس أزاء تلك الدّعوة الإلهية على فريقين:

أ)- أمّة الدّعوة: إلى الإيمان والإسلام لكل النّاس.

ب)- أمّة الاستجابة: وهي التي يكرّمها الله بهداية التّوفيق لتكون على طريق الحق والاستقامة.

وتختلف أحوال كل من الفريقين في المآل. ولذلك جيء بالتّفصيل في قوله تعالى: ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ بعد قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

بيّن بأسلوب البدلية صفة الذين هداهم إلى صراطه، فساروا على نهجه إلى دار السّلام، وصفهم بأنهم "أحسنوا"، هكذا على الإطلاق ليشمل الإحسان كلّ ما يتعلق بشؤون التّكليف عقيدة وشريعة وسلوكا. والإحسان كما عرّفه الرّسول

١- أنظر روايات الحديث: الطبري، جامع البيان، ١١/١٠٤؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢/٤١٥

لجبريل الطَّيِّلا: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[١] هؤلاء لهم في الآخرة المثوبة الحسنى، وهم الجزاء الحسن في نعيم الجنة. وهكذا كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ الاحْسَانِ إِلاَّ الاحْسَانُ﴾ (الرحمن:٦٠). ﴿لِيَجْزِيَ الذِينَ أَسَآءُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ الذِينَ أَحْسَنُواْ بِالْحُسْنَى﴾ (النجم:٣١).

وقوله تعالى: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ يعني مضاعفة الأجر لهؤلاء بفضل من ربهم كما يدلّ على ذلك قوله في سورة النساء: ﴿فَأَمَّا الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ (١٧٣). ومضاعفة الأجر للحسنة الواردة قد ركز عليها القرآن في كثير من آياته، أعظمها ذلك المثل البليغ في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ اَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَّشَآءُ﴾ (البقرة:٢٦١).

وللمفسرين في تعيين تلك الزّيادة تفسيرات لا تخلو من تكلّف منها ما أورده القطب -رحمه الله- رواية عن الإمام علي وجابر بن زيد أنها غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب، أو أنها سحابة تمرّ وتقول: يا أهل الجنة ما تريدون أن أمطركم؟؟ فكل ما شاؤوا أمطرته. وقال من يعتقد برؤية الله يوم القيامة: إنها هي النّظر إلى وجه الله الكريم، ولهؤلاء أحاديث تروى في هذا الباب.

ولعل الأقرب إلى بيان منازل القربى لهؤلاء عند الله ورفعة شأنهم أن نفسّر "الزّيادة" بما هو أكبر من النّعيم الماديّ في الجنة وهو دوام رضوان الله عليهم لقوله تعالى في سورة التوبة، بعد ذكر نعيم الجنة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ (التوبة:٧٢).

وتبدو على وجوههم نضرة النّعيم إذ قال تعالى: ﴿وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ

١- رواه البخاري من حديث طويل لأبي هريرة، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان...، رقم ٥٠؛ ورواه مسلم من حديثه أيضا، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان...، رقم ٠٩.

وَلَا ذِلَّةٌ﴾، والوجه هو المرآة التي تنعكس عليها الحالة النّفسية للإنسان عندما يغمره الرّضى والاطمئنان بما هو عليه من التّمتع والتّنعمّ كما قال الشّاعر:

لا تسأل المرء عن خلائقه   في وجهه شاهد من الخبـــر

وهذه الأوصاف نظائرها في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ (عبس:٣٨-٣٩)، ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (المطففين:٢٤)، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة:٢٢-٢٣).

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: الإشارة إلى الذين أحسنوا، فهؤلاء هم أهل الجنة يمكثون فيها بصفة دائمة.

يعلّق القطب -رحمه الله- على هذه الآية لبيان أصل من أصول الدّين في قضية الخلود في النّار فيقول: "وفي الآية دليل على خلود الفاسق في النّار، فلو كان يخرج لنافى هذه الآية، لأنه إذا دخلها يرهق بالقتر ويذلّ، وكذلك إذا قلنا: المعنى لا يرهقهم ما يوجب ذلك من حزن وسوء الحال. وقولهم: المراد في الآية نفي الدّوام، حتى لا تنافي خروج الفاسق دعوى بلا دليل".(١)

وفي جانب المسيئين قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.**

عطف لبيان حال الأشقياء مقابل السّعداء -وقد شرفهم الله بالتّقدم- وعبّر عن هؤلاء المسيئين بفعل: ﴿كَسَبُوا﴾، للتنصيص على تحمّل مسؤوليتهم في ذلك، وبيان ظلمهم لأنفسهم. والتّعبير بالسّيئات يشمل كلّ الخطايا كبيرة أو صغيرة مما لم تحصل من المذنب توبة منها قبل الغرغرة، ومن أعظمها بالطّبع الكفر بالله. وكان

١ - امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ٢٢٤/٦.

من عدل الله تعالى أن لا يجازي هؤلاء إلا بمثل ما اقترفوه من السّيئات بلا زيادة عليها كما أكّده القرآن في غير ما آية. وعلى النّقيض من صفات المحسنين وصف الله المسيئين بكونهم ترهقهم ذلة، لأنهم افتضحوا أمام الخلائق، فهم في خزي وخذلان. ومما يزيدهم بأسا أنهم لا يجدون هناك وليّا ولا نصيرا يقيهم من عذاب الله، وكانوا في الدّنيا يتطاولون ويستكبرون.

ثم مثّل الله لذلتهم وخزيهم بما تبدو عليه وجوههم من اسوداد كقطع من اللّيل البهيم فقال تعالى: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾، ولا أبلغ من تشبيه حالة الكآبة والكسوف النّفسي بسواد اللّيل المظلم، وقد تكرر ذلك التّشبيه في القرآن كثيرا، حيث ترد مشاهد القيامة المفزعة وكيف تختلف وجوه الخلائق وهي تتلقى صحائف أعمالها. فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ (الزمر:٦٠). ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ (آل عمران:١٠٦). ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ (عبس:٤٠-٤١).

ثم يجيء التّذييل المناسب لأحوال هؤلاء من عذاب النّار والخلود فيها، أعاذنا الله من شرّها ووبالها. والله أعلم.

حشر المشركين وشركائهم، وتبرّؤ هؤلاء منهم

أ)- النص:

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا
بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ
مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾: الحشر: الجمع من كل جانب إلى موقف واحد، والضّمير يرجع إلى الفريقين المذكورين في الآية السّابقة، أي المحسنون والمسيئون من الخلائق. ﴿مَكَانَكُمْ﴾: منصوب على المفعولية بفعل محذوف تقديره: ألزموا مكانكم، وهو بمنزلة أسماء الأفعال الموضوعة للأمر. ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾: مضاعف "زال" المتعدي: يقال: زاله عن موضعه يزيله، بمعنى أزاله "وازيّل" فعل للمبالغة في الزّيل، أي التفريق. ﴿وقالَ شُرَكَاؤُهُم﴾: أي الأصنام تتبرّأ من عبادة المشركين لها. ﴿فكَفَى باللهِ شَهِيداً﴾: كفى بمعنى أجزأ وأغنى. والشّهيد والشّاهد: هو المؤيّد والمصدّق لدعوى مدّع. ﴿إن كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ﴾: "إن" مخففة من "إنّ" واسمها ضمير شأن يكون محذوفا. وتجيء "اللام" للتفريق بين: "إن" هذه المخففة المؤكدة و"إن" التي للنفي. ﴿هُنالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾: هنالك: الإشارة إلى المكان الذي أنبأ عنه بقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾: ﴿تَبْلُواْ﴾: تختبر. ﴿أَسْلَفَتْ﴾: أي ما قدمت من أعمال.

ج)- أوجه القراءة:

﴿تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ﴾: قرأ الجمهور: "تَبْلُو" بموحّدة بعد المثناة الفوقية من الابتلاء، وقرأه حمزة والكسائي وخلف بمثناة فوقية بعد الأولى، على أنه من "التّلو" وهو المتابعة، أي تتبع كلّ نفس ما قدمته من عمل فيسوقها إلى الجنة أو إلى النّار.

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان حال الفريقين الذين أحسنوا والذين كسبوا السّيئات، مع ذكر مصير كل منهما، جاءت هذه الجملة معطوفة عليهما لذكر البعث والجزاء، وذلك

يحشر الفريقين لموقف الحساب، ثم يذكر ما يحصل للمشركين، خاصّة فقال جلّ من جلّ من قائل: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ، فَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾.

إنه موقف رهيب، موقف حشر الخلائق وهم مسلوبو الاختيار، حيارى لا يتكلّمون ولا يبرحون أماكنهم انتظارا للفصل في شأنهم. ولّما كان الشرك والكفر من أفظع السّيئات التي يكتسبها الإنسان، فقد فصّل الله تعالى حالة المشركين وبيّن كيف يفتضحون أمام الخلائق، وقد حشرهم الله مع معبوداتهم الباطلة، وأمرهم بلزوم أماكنهم وذلك بمرأى من كلّ الخلائق إمعانا في افتضاحهم، وتفظيعا لسوء أحوالهم؛ ثم إن حشرهم مع معبوداتهم إثبات للجريمة بأنها مشتركة بين العابد والمعبود، فكلاهما في قفص الاتهام، والإجراء الأوّلي للتنكيل بهم هو التّفريق بينهم عقب الأمر بلزوم أمكنتهم.

جاء التّعبير بلفظ "شركاء" مضافا إلى ضمير المخاطبين بعد تأكيد الضّمير المتصل بـــ"أنتم" للتهكّم بهم بنوعية ذلك الشّريك المتمثل في صنم صنعوه بأيديهم وعبدوه من دون الله، أو هو كلّ ما جعلوه شريكا لله. وحشر هؤلاء مع بعضهم بعض إدانة قاطعة لهم بالجريمة، ليفتضحوا أمام الملأ، وهذا كقوله تعالى في سورة الصّافات: ﴿احْشُرُواْ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ، مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ (٢٢-٢٣).

وبعد الأمر بالمكث في أماكنهم أعقبه بالتّفريق بينهم: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾، وذلك لقطع الصّلة بين الفريقين، وتفكيك الشّراكة دليل على الإفلاس وما يعقبه من التّلاحي والتّخاصم بين الشّركاء. وهو ما حدث بالفعل، إذ جحد الشّركاء ما كان -وهي كل المعبودات بالباطل- ما كان من عبادة الكفار لها: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا

تَعْبُدُونَ﴾، وفي هذا النفي لأية عبادة لها من طرف الكفار في الدّنيا هو نفي لواقع ثابت، فهل يعدّ ذلك كذبا؟، وكيف خلق الله الكلام فيها؟.

للمفسّرين تأويلات أمعن بعضها في الغرابة، وذلك قياسا إلى المألوف الدّنيوي، غير أنّ أحوال الآخرة تجري على قدرة الله، وهو قادر على أن ينطق كل شيء، كما أثبت ذلك في شهادة أعضاء الإنسان عليه في موقف الحساب إذ تجيب أصحابها على إنكارهم لشهادتها عليهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُواْ أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (فصلت:٢١).

وللإمام ابن عاشور ملحظ دقيق يتفق فيه مع صاحب المنار في توجيه معنى الآية إذ يقول (والنّصّ للإمام ابن عاشور): "والذي ظهر لي أن يكون آخر كلام الأصنام مبّينا لما أجمله أوّله، بأنهم نفوا أن يكونوا عبدوهم عبادة كاملة، وهي العبادة التي يقصد منها العابد امتثال أمر المعبود وإرضاءه، فتقتضي أن يكون المعبود عالما وآمرا بتلك العبادة، ولما كانت الأصنام غير عالمين ولا آمرين استقام نفيهم أن يكون عبدتهم قد عبدوهم تلك العبادة، وإنّما عبدوا غيرهم ممّن أمروهم بالعبادة وهم الشّياطين ولذلك قالوا: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾، كما تفسّره الآية الأخرى وهي قوله تعالى: ﴿أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ، قَالُواْ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ (سبأ:٤٠-٤١)."[١]

ولإثبات البراءة ممّا اتّهموا به استشهدوا بالله في كونه حكما بينهم، وأنهم كانوا غافلين عن تلك العابدة، إمّا عن غفلة لأنّها جمادات لا تحسّ، أو عن حيرة واندهاش وعدم الرّضى عندما ركّب فيها الإحساس.

ونجد في القرآن بيانا مشابها لتلك المشاهد المرعبة في موقف الحشر، حيث يتنكّر القرناء والأخلاء من بعضهم البعض من هول الفاجعة يقول تعالى: ﴿الأَخِلَّاءُ

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٥٢/١١.

يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ الاّ المتقين﴾ (الزخرف:٦٧). ﴿إذ تبرّأ الذين اتُّبعوا من الذين اتّبعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الاسباب﴾ (البقرة:١٦٦).

وحتى الشيطان الرّجيم يتنكر لمتبعيه ويتبرّأ منهم أن استجابوا له، قال تعالى: ﴿وقال الشيطان لمّا قُضي الامرُ إنّ الله وعدكم وعد الحقّ ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم مّن سلطان الاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم مّا أنا بمصرخكم ومآ أنتم بمصرخيّ إنّي كفرتُ بمآ أشركتمون من قبل﴾ (إبراهيم:٢٢).

فإذا كان ذلك هو مآل العابدين والمعبودين بالباطل في موقف الحشر، فإنّ العدل الإلهي يقتضي أن تختبر كلّ نفس في ما قدّمت من عمل لتتحقق من نوعيته في ما هو منه نافع أو ضار، وما هو خير أو شرّ: **﴿هُنالك تبلوا كلُّ نفسٍ مّآ أسلفت ورُدّوا إلى الله مولاهم الحقّ وضلّ عنهم مّا كانوا يفترون﴾**.

الإشارة إلى موقف الحشر، ولعظمته قدّم "هُنالك"، وهو منصوب على الظّرفية، في ذلك الموقف تختبر كلّ نفس ما قدّمت من عمل في دنياها، فتعلم وتتحقق من نوعيته، أخير هو أم شرّ؟، وحسن أم سيء؟، وبالتّالي هي تدرك ثمرة ذلك في الجزاء دون حيف ولا ظلم، حيث لا مكان للشفعاء ولا للشركاء، ولا للمراء والجدال، وإنما هي النّتائج الطّبيعية لمختلف الأعمال.

﴿وردّوا إلى الله مولاهم الحقّ﴾: والرّدّ هو الإرجاع إلى المكان الذي جاء منه، والضّمير يعود إلى المتحدث عنهم من قوله: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾، ووصفه تعالى بأنه: ﴿مولاهم الحقّ﴾ تذكير بحقيقة ما غفلوا عنه من الإقرار بألوهيته الحقة، إذ رجعوا إليه خاضعين نادمين عما كانوا عليه من باطل، وقد زال عنهم ذلك الافتراء في زعمهم أنّ تلك المعبودات الباطلة تشفع لهم وتقربّهم إلى الله، واليوم لا يجدون لهم من دون الله وليّا ولا نصيرا.

يقول القطب -رحمه الله-: "وأضيف المولى إليهم باعتبار أنه مآلهم يردّون إليه للعقاب ردّ العبد العاصي إلى مولاه ليضربه ويسجنه مثلا.

وإذا قيل: ليس الله مولى لهم، فمعناه أنه لا ينصرهم، فلا منافاة بين قوله: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (محمد:١١)، لأن معنى الولاية في كل واحدة غيره في الأخرى"[1].

والله أعلم.

آيات قدرته تعالى لإثبات ربوبيته

أ)- النص:

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ
الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾
فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن
يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا
يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ
لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

١- امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ٦/٢٣٠.

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾: الاستفهام تقريري، وقوله: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾: فيه إدغام لـ "أم" في "من" وهو للإضراب الانتقالي من استفهام لآخر. أفرد كلمة: "السَّمْعَ" لأنه مصدر دالّ على الجنس، وجيء بـ"الأبصار" جمعا لأنه اسم ليدلّ على العموم. ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾: لإفادة التعميم بعد التخصيص. ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾: الاستفهام إنكاريّ، أي ليس بعد الحقّ إلاّ الضّلال. ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾: "أنّى" يُستفهم بها عن المكان، أي تُصرفون من ضلال إلى ضلال. ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾: أي سنته ووعيده على الذين فسقوا. ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾: أفكه: قلبه، أيّ إلى أيّ مكان تقلبون؟. ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾: يقال: يهدي إلى كذا أو لكذا بمعنى واحد. ﴿أَمَّن لاَّ يَهِدِّي﴾: أصله "يهتدي"، أبدلت "التاء" "دالا" وأدغمت في "الدّال"، ونقلت حركة "التاء" إلى "الهاء" السّاكنة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾: قرأ نافع "كلمات" بالجمع، وقرأها الباقون بالإفراد والمعنى واحد، لأن الكلمة تطلق على مجموع الكلام. ﴿أَمَّن لاَّ يَهِدِّي﴾: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بفتح التحية وفتح الهاء على ما تقدم في التّحقيق اللّغوي. وقرأ حفص عن عاصم ويعقوب بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدّال، على اختيار طرح حركة المدغمة واختلاف الكسرة على الهاء، على أصل من التقاء السّاكنين. وقرأ أبو بكر عن عاصم بكسر الياء وكسر الهاء باتباع كسرة الياء لكسرة الهاء. وقرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الياء وسكون الهاء وتخفيف الدّال على أنه مضارع "هدى" القاصر بمعنى اهتدى، كشرى واشترى.

د)- البيان والتفسير:

بعد بيان خيبة المشركين بتنكّر شركائهم لهم في موقف الحساب وأنهم هناك قد ردّوا إلى المولى الحق تبارك وتعالى، تجيء هذه الجمل لإثبات ذلك الاستحقاق الولائي لله بأسلوب السؤال والجواب ليكون ذلك أشدّ وقعا في نفوس السّامعين، وبالأسلوب التّقريري الذي يوظّف ما يقرّ به المخاطبون لإلزامهم الحجة فقال جلّ من قائل: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالاَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالاَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الاَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ افَلاَ تَتَّقُونَ﴾.

أمر الله رسوله في إطار دعوته إلى وحدانية الله ومحاربة مظاهر الشّرك، أن يحاور قومه بهذا الأسلوب التّقريري البليغ، فيعدّد لهم أمورا لا يستطيعون إنكارها، ولا يدّعون لأصنامهم القدرة على فعلها أو إيجادها، بل ينسبونها لله ويقرّون بذلك عندما يسألون عنها، فذكر لهم منها ما هو شديد اللّصوق بشؤون حياتهم ومعاشهم منها:

أ)- كفاية الأرزاق لما يأكلونه وتأكله أنعامهم وكيف يتمّ توفير ذلك بالتّكامل والتّعاون بين السّماء والأرض، وهم يعترفون بأن الله هو الذي خلقهما لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ (لقمان:٢٥). فنزول الأمطار من السّماء واختلاطها بنبات الأرض على مختلف أنواعه تكفل الأرزاق للعباد والبهائم، فمن غير الله يملك خزائن الرّزق: ﴿أَمَّنْ هَذَا الذِي يَرْزُقُكُمْ إِنَ اَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ (الملك:٢١).

ب)- ﴿أَمَّنْ يَّمْلِكُ السَّمْعَ وَالاَبْصَارَ﴾: خصّ الله هاتين الحاستين بالذّكر، وهما السّمع والبصر، لما لهما من الأهمية والنّفع في حياة الإنسان باعتبارهما أدق الحواس صنعا وتركيبا وأعظمها في تحصيل المعرفة والإدراك، وكون ملكيتهما لله

على اعتبار الخلق والإيجاد، فهو المتصرّف في قدرتهما على أداء الوظيفة التعليمية للإنسان والوظيفة الإحساسية لسائر المخلوقات.

قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨).

ومن تمام رحمته تعالى بخلقه أن جعل قوة السّمع و الإبصار حقّا ميسورا لكلّ الكائنات يتمّ بها الخلق السّوي لها إلا ما يعترض عليها من بعض الآفات تسبّب في العمى والصمم.

وللتذكير بنعمة هاتين الحاسّتين والتدليل بهما على قدرة الله تعالى، يعتبر الله سلبهما لو شاء عن المشركين والمنافقين من أفدح العقوبات فقال في سورة البقرة: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٠).

ج)- **﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾**: يرد هذا التعبير في كثير من سور القرآن الكريم، وهو من الإعجاز العلمي لما فيه من محسّنات التضادّ التي ترمز إلى لغز الحياة والموت، وذلك على اعتبار الوجه المنظور منهما لدى المخاطبين، ويضرب لذلك بمثل النّواة والبيضة تخرجان من الطّائر والنّبتة، وتنفلق النّواة عن النّبتة كما تنفلق البيضة عن فرخ الطّائر.

ولكن البحث العلمي الذي توصّل اليوم إلى ضبط خريطة الجينات الوراثية وتمكّن من استنساخ بعض الأحياء يدلّ على أنّ ما نعتبره نحن ميّتا جامدا يكشف العلم على أنه عالم مليء بالأسرار تكمن فيه أسرار الحياة والموت والتي لا يعلمها إلا خالقها سبحانه وتعالى، فإليه وحده وبقدرته يتمّ ذلك التّدبير العجيب.

د)- **﴿وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾**: يدبّر الأمر كلّه في أرجاء ملكوته من عالم الغيب والشّهادة في نظام بديع دقيق، وبسنن وقوانين لا تتخلّف ولا تحابي أحدا، وهذا السّؤال يفيد التعميم بعد التخصيص.

وفي الإجابة على هذه الأسئلة المحرجة لا يملك المشركون إلا أن يقولوا بأنّ مدبّر ذلك كلّه هو الله تعالى، لأنّهم لا ينكرون وجوده، وإذ يقرّون بذلك فقد ترتّب عليه الاستفهام التوبيخي: ﴿فقل افلا تتقون﴾؟، أي أتهملون أنفسكم بتعرّضكم لسخطه وغضبه لعدم تنزيهه عن الشريك؟.

ثم تفرّع عن ذلك الإنكار في قوله: ﴿افلا تتقون﴾ تفرّع قوله تعالى: **﴿فذلكم الله ربّكم الحقّ فماذا بعد الحقّ إلاّ الضّلال فأنّى تصرفون﴾.**

الإشارة إلى اسم الجلالة بأنه هو الجدير بحقية الرّبوبية والألوهية لثبات ما أقررتم به لذاته العلية من الأوصاف المتقدّمة، فماذا بعد الحق إلا الضّلال؟ هكذا يمثل هذا الاستفهام الإنكاري الذي يفيد نفي أية واسطة بين الحق والباطل، يقرّر الله تعالى وحده الحقّ وثبات معاييره بحيث يكون من تجاوزها قد وقع في الباطل حتما. فيكون الله تعالى هو الرّبّ الحقّ الجدير بالعبادة، وما سواه من الآلهة باطل وضلال. ولذلك ذيّل بالاستفهام التوبيخي: ﴿فأنّى تصرفون﴾، أي كيف تتحوّلون عن الحق إلى الباطل وعن الهدى إلى الضّلال؟

ثم قال تعالى: **﴿كذلك حقّتْ كلماتُ ربّك على الذين فسقوا أنّهم لا يؤمنون﴾:**

أي بمثل ذلك التّقدير الإلهي لموازين الحق والضّلال، واختيار المشركين لحالة الضّلال، فقد شاهدت -أيها الرّسول- كيف كان قدر الله وكلمته في الأزل بأن الذين ينحرفون عن الفطرة السّليمة وتتحجّر عقولهم بالتّقليد لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية. والتّيئيس من إيمان هؤلاء ليس معناه أن الله تعالى يمنعهم من الإيمان قهرا، بل لأنّهم قد انحرفوا باختيارهم عن طريق الإيمان وأعرضوا عن دلائله الموصلة إليه.

ثم يعود السّياق لمتابعة الاحتجاج على المشركين بنفي القدرة عن آلهتهم الباطلة فقال تعالى: **﴿قلْ هلْ من شركائكمْ مَنْ يَبْدؤا الْخلْق ثُمَّ يُعيدُهُ. قُل الله**

يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، فَأَنَّىٰ تُوفَكُونَ، قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

تتكرر الأسئلة في هذا المقطع وهو مفصول عما سبق لأنه غرض آخر مستقلّ، وإن كان يُعتبر من حيث المعنى نتائج لتلك المقدّمات السّابقة، إذ أنهم في مسلّماتهم الأولى بانفراد الله في تدبير الخلق والرّزق وتدبير جميع الأمور في العالم المشاهد استدرجهم إلى العالم الغيبي، ولذلك لا ينتظر منهم الجواب كالحالة الأولى، فجاء السّؤال على بدء الخلق وإعادته --وهم لا يعتقدون بالبعث-.

وبمقتضى تسليمهم بأن الخلق والرّزق من تدبير الله وحده، ولا يدّعون بأن آلهتهم تستطيع فعل ذلك فمن البديهي في منطق العقل أن يكون القادر على بدء الخلق قادرا على إعادته: ﴿قُلِ اللهُ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

أدمج الله هذه الحقيقة الغيبية في جملة السّؤال الذي يسلب تلك القدرة عن شركائهم حتى يتمّ قصر ذلك على الله وحده، ثم جاء التّذييل بالاستفهام الإنكاري: ﴿فَأَنَّىٰ تُوفَكُونَ﴾، كيف تُصرفون عن الحقّ بتعطيل عقولكم عن التّفكير السّديد؟.

ثم ذكر شأنا آخر من شأن الرّبوبية الحقّة يدلّ على كمال الخلق والإبداع بالإرشاد والهداية إلى الحق وذلك بالنّسبة للنوع البشري، والذي لا تكتمل لديه الكرامة الإنسانية إلا بتزاوج الاستواء البدني بالكمال النّفسي بتوفير وسائلهما وتيسير أسباب الهداية بنور العقل وإرشاد الوحي، وهل من تلك الآلهة الباطلة من يهب ذلك؟، كلاّ، وإنّما الهادي هو الله وحده: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (الشعراء:٧٨). فليتقرر ذلك على لسان الرّسول: ﴿قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾.

وإذ قصرت الهداية إلى الحق على الله وحده دون الآلهة المزعومة فقد تفرّع

عن ذلك هذا الاستفهام التقريري: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى﴾، فالذي يستطيع أن يزكّي النّفوس ويهيّئها للبقاء الأبدي، ويوفّر ذلك التّكريم للإنسان بهدايته إلى الحقّ أولى بالاتّباع وأحقّ بالطّاعة من ذلك الذي لا يهتدي في نفسه فضلا أن يهدي غيره، وفاقد الشّيء لا يعطيه. ومثل هذا لا يستحق الإتباع، والمراد هنا الأصنام وكل ما عُبد من دون الله.

﴿فما لكُمْ كَيْفَ تحْكُمُون﴾: الاستفهام للتعجبّ من تصرفات هؤلاء الضّالّين، كيف تختل موازين تفكيرهم فيخطئون الحكم السّديد والتّقرير الرّشيد.

ثم بيّن الله أسباب زيغهم وضلالهم فقال: **﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً انَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً انَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾**.

والظّن يرد لمعنيين: فيطلق على الاعتقاد الجازم، ويطلق على الاعتقاد المشوب بالشّك، وهو المراد هنا.

وبما أن المشركين يختلفون في الاعتقاد الباعث على عبادة الأصنام، وأنّ منهم من لا يعتقد أهليتها لما تقدم من صفات الرّبوبية الحقة، بل يعبدها تقليدا وحفاظا على منزلهم بين قومهم، جيء بإسناد اتّباع الظّن إلى الأكثرية لا إلى الكلّ، وما أكثر تلك الظّنون الباطلة التي تستحوذ عليهم في نظرهم إلى الدّعوة الجديدة: ظنونهم في عبادة تلك الأصنام، ظنونهم في قضية الوحي والرّسالة، ظنونهم في قضية البعث والجزاء...إلخ.

والظّن لا يحقّق من الحقّ شيئا، ولا يغني صاحبه ولو بشيء قليل من اليقين في مجال الاعتقاد والإيمان، والله وحده مطّلع على خوالج نفوسهم وهو يجازيهم على ما يفعلون، وحسبهم ذلك تهديدا ووعيدا.

والله أعلم.

تحديّ العرب بالقرآن، ودلالة عجزهم على صدقه

أ)- النصّ:

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾: أي ما وجد القرآن أن يفترى، فوجوده مناف لافترائه، عدل عن الإتيان بـ"لام" الجحود لأنها تقع في نفي كون عن فاعل لا عن مفعول بما تدلّ عليه "اللاّم" من معنى الملك. ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أي مصدّقا للكتب السّابقة إذ أنزل مطابقا لما تقدمه من الكتب الالهية المشهود على صدقها. ﴿لاَ رَيْبَ﴾: لا شك. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾: الافتراء: الكذب والاستفهام للإنكار. ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ﴾: "بل" للإضراب الانتقالي والإحاطة بالشّيء، يُكنىّ به عن التّمكّن من الشّيء بحيث لا يفوت منه، كما يفعل الحائط بالشّيء، والتّأويل: من فعل "آل" إذا رجع إلى الشّيء ويطلق على تفسير اللّفظ الذي خفي معناه فيظهره جليّا. ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾: أي مصائرهم من الهلاك والاستئصال، كيف فصّل الله ذلك في آيات أخرى.

ج)- البيان والتّفسير:

عالجت السّورة الكريمة قضية الوحي والرّسالة في مفتتحها، وبيّنت عدم اهتداء المشركين لإدراك ما في القرآن من الآيات البيّنات التي تدلّ على صدق رسول الله، إذ أنه عاجز مثلهم عن الإتيان بمثله في مبناه ومعناه، وما تخلّل ذلك من دحض شبهاتهم لإبطال شركهم وسؤالهم الرّسول أن يأتي بقرآن غير هذا، أو أن يبدّله، أو أن تنزل عليه من عند الله آية أخرى غير القرآن...إلخ.

وهنا يعود السّياق إلى ترسيخ عقيدة الوحي والرّسالة بأنها حقا من عند الله فوصف القرآن بما يدلّ أنه حق وتحدّاهم بالإتيان بمثله فقال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾**.

جاءت جملة: ﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللهِ﴾ جاءت معطوفة، ويمكن عطفها على الجملة السّابقة لها من اتّباع المشركين للظّنّ في كلّ تصوراتهم لشؤون العقيدة، أو هي معطوفة على مجموع ما تحدث عنه السّياق في شأن نزول القرآن. وجاءت للتحدّي بإعجاز القرآن مرّة أخرى وهي تنفي أن يكون مفترى من غير الله، وليس مجرّد نفي الافتراء، ولكن إمكانية وجوده أصلا هو المنفي، وذلك أبلغ في النّفي وأبعد في الوقوع. ولبيان سبب ذلك النّفي جاءت الحجج الدّامغة:

أ)- **﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾**: جاء الخبر بصيغة المصدر للمبالغة وللدلالة على أن القرآن بلغ حدّ الكمال في ذلك، فهو مصدّق "بكسر الدّال" موافق لما تقدمه من الكتب السّماوية في أصول التوحيد ومكارم الأخلاق وصالح الأعمال، وبما حكاه من أقاصيص الأولين، وهو مطابق لما في التوراة والإنجيل، مع أنه كشف

ما وقع فيهما من الزّيادات الباطلة والتّأويلات الفاسدة. كلّ ذلك والرّسول كان أمّيا، لم يجلس إلى عالم، ولا سافر إلى أنحاء العالم ليتزود بتلك المعلومات. ثم هو مصدّق "بفتح الدّال" في تلك الكتب، إذ بشّرت بمقدمه وبعثته، وذكرت نعوته وأوصافه بما تحقق في شخصه الكريم.

ب)- ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾: والتّفصيل هو التّبيين لما أجملته الكتب السّماوية المتقدمة، مع مراعاة ما يناسب التّطوّر البشري في علوم الحياة والكون، والقرآن معجز لاشتماله على العلوم الكثيرة، فلم يكن إعجازه مقتصرا على ناحية واحدة، بل يتناول الحالات الدّينية والدّنيوية، إن في مجال العقيدة والسّلوك أو في مجال النّظم الإنسانية في تصوير طبيعة البشر وما يتلاءم معها في الحياة الفردية والاجتماعية، ثم إخباره بما وراء الطّبيعة انطلاقا من تأمّل قدرة الله في العالم المشاهد إلى الإقرار بقدرته في ما أخبر به عن العالم الغيبيّ، كما قال تعالى عن القرآن في سورة يوسف: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (١١١). بصفة أعمّ.

ج)- ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾: تقرير وتوكيد لنفي إمكانية افترائه. لأن كتابا في مثل حجم القرآن وتنوّع موضوعاته مع انعدام التّناقض فيه، لا يمكن للعاقل الفطن إلا أن يجزم أنه من ربّ العالمين، كما قال تعالى عنه في سورة النّساء: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢).

ثم انتقل السّياق من النّفي الجازم أن يكون القرآن كلامًا مفترى على الله. انتقل إلى الاستفهام الإنكاري التعجبي لإبطال دعوى الافتراء فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي على فرضية زعم المشركين أنّ محمدا افترى هذا القرآن، وقد قدّم الله تعالى على هذه الفرضية المزعومة من أوصاف القرآن ما يقتضي إبطال تلك

الفرضية تشريفا وتعظيما له، ثم هو في تحدّ كبير يأمر الرّسول أن يجيب عن دعوى الافتراء بتعجيزهم، وذلك بأن يأتوا بسورة من مثل القرآن، ولو ما يشابه أقصر سورة منه في المبنى والمعنى، وأن يستعينوا في ذلك بمن يستطيعون من أعوانهم من الجنّ والإنس. وقد ورد مثل هذا التحدّي والتّعجيز للخلق أجمعين في سور مختلفة، وعلى مراتب تناسب السّياق الذي وردت فيه، فتحدّى الجن والإنس أن يأتوا بمثله كما قال في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨).

وتحدّى بعشر سور كما سيأتي في سورة هود: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ (١٣).

وتحدّى بسورة واحدة كما في سورة البقرة وكما هذه السّورة الكريمة، مع إدخال "من" في سورة البقرة وحذفها في سورة يونس، يقول الإمام الرّازي في الفرق بين التّعبيرين ما ملخصّه: "إضافة "من" يعني: فليأت إنسان يساوي محمدا ﷺ في عدم التّلمذ وعدم مطالعة الكتب والاشتغال بالعلوم، فهذا لا يدلّ على معجزة السّورة في نفسها، وإنما يدلّ على أن ظهور مثل تلك السّورة من مثل محمد في أميته هو المعجز، أما في هذه الآية من سورة يونس فقد بيّن الله تعالى أن الإتيان بمثل تلك السّورة في نفسه معجز، وإن تتلمذ الخلق وتعلمّوا".

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، أيْ في كون الرّسول قد افترى، لأنه إذا أمكن له ذلك -وهو مستحيل- فإنه تمكنكم معارضته لأنكم سواء في اللّغة العربية.

ثم أوضح الله بواعث تكذيبهم فقال جلّ من قائل: **﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾**.

إضراب عن ذلك الجدل العقيم، ثم تقرير أن المشركين في تكذيبهم للقرآن، لا يعتمدون على إعمال الفكر والتدبّر في معانيه والإحاطة بعلومه وأحكامه، بل هم معرضون عنه بداية استكبارا وعنادا، والإنسان بطبعه عدوّ لما جهل، وكان الحقّ والإنصاف أن يدقّقوا النّظر ويمعنوا الفكر في تدبّر معانيه لا الاعتماد على الهوى والظّن، لأن الظّن لا يغني من الحق شيئا.

وللمبالغة في تجهيل هؤلاء زاد قوله: ﴿وَلَمَّا يَأتِهِمْ تَأوِيلُه﴾، أي من قبل الوحي، إذ المتوقع أن يجيء ذلك التّأويل في وقته المناسب فيتبيّن من خلاله أهو صدق أم كذب -كما يدّعون- لأن القرآن يفسّر بعضه بعضا. وتلك هي حكمة تنزيله مقسّطا منجّما. وتعجيلهم بالتّكذيب يعود إلى المكابرة والعناد أولا، ثم إلى التّقليد الأعمى لآبائهم وأجدادهم واعتيادهم في نظرهم إلى الأمور على ما ألفوه من المشاهد المحسوس فاستعصى عليهم بذلك فهم المغيّبات ومقاصد التّشريع والحكمة في ذكر أخبار الماضين ...إلخ. ولو أنهم آمنوا برسول الله وتابعوا مسيرة دعوته لعلموا كل ذلك في إبّانه كما اقتضت حكمة الله، كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ (١٠٦).

ولتسلية الرّسول ﷺ مما يلاقيه من هؤلاء المكذّبين جاء التّشبيه لمواقف المكذبين مع الرّسل السّابقين فقال: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ثمّ فرّع عنه الأمر للرسول ولمن يسمع القرآن بالنّظر في العواقب الوخيمة للظّالمين: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾، ويتضمّن التّعريض بالنّذارة لهؤلاء أن يحلّ بهم من العواقب الأليمة ما حلّ بالأمم السّابقة وهم لا يجهلون ذلك لما يتداول بينهم من أقاصيص الأولين، ولما يمرّون عليه من آثارهم البائدة.

والله أعلم

موقف المشركين من الوحي بين الإيمان وعدمه

أ)- النص:

وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن
كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن
يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ
شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ
النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾: الضمير في "مِنْهُم" أي من مشركي مكة وضمير: "به" يعود إلى القرآن أي يصدّق بالقرآن في نفسه، ولكنه يعاند ويكابر. ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُم﴾: تعبير عن المتاركة بين الفريقين وهو مما أجري مجرى المثل. ﴿بَرِيءٌ﴾: التخلي عن التلبّس بشيء وعن مخالطته. ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾، ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾: جمع أصمّ وأعمى، جعلهم نفس الصّم والعمي على أسلوب الاستعارة والاستفهام للتعجيب من حالهم، والمقصود بهما عمى وصمم البصيرة. ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾: السّاعة: المقدار من الزّمان. وغالبا ما تطلق على الزّمن القصير، وهي تشبيه لمكوثهم القصير في الدّنيا.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: "ولكنّ" قرأ الجمهور بتشديد النون على

أن "النّاس" اسمها منصوب، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بتخفيف النّون ورفع: "النّاسُ". ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾: قرأ الجمهور بنون العظمة، وقرأه حفص عن عاصم بياء الغيبة: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾، وذلك بعود الضّمير إلى اسم الجلالة في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾.

د)- البيان والتّفسير:

عطف الله على قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ﴾ جملة: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يُومِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُومِنُ بِهِ﴾، وكلتا الجملتين بيان لحال مشركي قريش بطعنهم في النّبوءة والوحي.

وبما أن قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ هو تهديد للمكذبين بتسليط العذاب الدّنيويّ عليهم -وقد يكون استدراجا أو استئصالا- فقد بيّن تعالى في هاتين الآيتين أقسام أولئك المكذبين في تفاوت تكذيبهم، وكيف يكون مستقبل أمرهم في الإيمان، وموقف الرّسول منهم فقال جلّ من قائل: **﴿وَمِنْهُم مَّنْ يُومِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُومِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ، وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾**.

شاءت حكمة الله أن يرفع عذاب الاستئصال عن أمة الرّسول، فأخبر في الآية الأولى أنّ المكذبين المشركين هم على فريقين في الحال والمآل، وذلك ما تفيده صيغة المضارع في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يُومِنُ بِهِ﴾، أي:

أ)- فمنهم من يصدّق بنسبة القرآن إلى الله ويعلم أنّه حقّ، ولكنّه يكتم إيمانه مكابرة وعنادا في الحال وقد يؤمن به في المآل.

ب)- ومنهم من لا يؤمن به حالا ومآلا، بل يبقى على كفره وعناده.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾، أي عُلِم حال الفريقين عند الله، وأن الهداية وعدمها هي من الله وهو أعلم بالمفسدين منهم ممن لا رجاء في إيمانهم.

وفي اختيار كلمة: ﴿رَبُّكَ﴾ معنى الرّعاية الرّبانية لرسوله. كما أن اختيار كلمة: ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ فيه تهديد بالانتقام، لأن الذي يكون مفسدا في الأرض هو الذي بلغ الدّرجة القصوى في العناد والمكابرة وفقد أيّ استعداد للإيمان والصّلاح، كما وصف الله فرعون في استعلائه وطغيانه فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:٤). وفي الجملة تعريض بالوعيد والإنذار وفي حالة الإصرار على التكذيب وما يتبعه من الإفساد في الأرض من بعد ما أقمت عليهم الحجة فقل لهم يا محمد: ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

إنها المفاصلة والمتاركة بين الرّسول وخصومه إذ يعمل كلّ على شاكلته، والله وحده هو الذي يجازي كلّ فرد على عمله، ومع المفاصلة في الأعمال تأتي المباعدة بين الفريقين بالبراءة وعدم المخالطة فلا يؤاخذ أحد بعمل الآخر، إذ تنحصر مسؤولية كل إنسان في نفسه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾(المدثر:٣٨)، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام:١٦٤).

وقد يجدي أسلوب المباعدة والتّرك للمجرم حين يترك مصيره لنفسه، فتنقطع عنه الموعظة والنّصيحة، إذ تسكن في نفسه بواعث العناد والمكابرة، وربما دفعه ذلك إلى إعادة تقييم موقفه والتماس الحق والصّواب، وهو أسلوب معتمد في التّربية قديما وحديثا لكسر شوكة الشّرود والنّفور عندْ بعض المتمردين، وقد تكرّر في القرآن مثل هذا الموقف فقال تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام:

أ)- ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ (هود:٣٥).

ب)- ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سبأ:٢٥).

ج)- ﴿فإنْ عَصَوْكَ فَقُلِ إنّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (الشعراء:٢١٦).

د)- ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ (الإسراء:٨٤).

هـ)- ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ (الممتحنة:٤).

وتجيء سورة الكافرون في قمة أسلوب المتاركة والمفاصلة بين الرّسول وخصومه.

وبعد تقسيمهم إلى فريقين في إمكانية إيمانهم بالقرآن وعدمها، يمضي السّياق في تقسيم آخر لبيان تلقّيهم عن رسول الله، وكيف أن البعض منهم قد استغلقت مداركه، فلا استعداد فيه لإيمان مهما حاول الرّسول إقناعهم لذلك، فقال تعالى: **﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ. إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.**

لم يكن رسول الله ليقصّر في إبلاغ دعوته، حتى وهو يعلن لخصومه تلك المفاصلة بل كان يسيئه ذلك الموقف منهم لما ينجرّ عنه من نقمة الله عليهم، فبيّن في هذه الآية كيف أنّ قسما منهم يحضرون مجلسه ويستمعون إلى كلامه، وفي ذلك وسيلة كبرى للتوفيق والهداية وإثارة لنوازع الخير في نفوسهم.

وبما أنهم مع ذلك قد استمرّوا في كفرهم وعنادهم، فإن ذلك يدلّ على أنهم بلغوا من الحقد والنّفور ومن العداوة لرسول الله ما لا رجاء له في استجابتهم لدعوته، لأنهم يستمعون إلى كلام رسول الله ولكنهم كالصمّ لا يبلغ صوته شغاف قلوبهم فيعقلون معانيه، ويشاهدون شخصه الشّريف ولكنهم عميٌ عن إدراك جلال النّبوءة ووقار الرّسالة، وأنّى لرسول الله أن يملك جعل الأصمّ سميعا أو جعل

الأعمى بصيرا مهما أوتي من فصاحة وبيان؟: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾: كما قال تعالى على لسان حالهم في سورة فصّلت: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ (فصلت:٥).

فما أحوج الرّسول الدّاعية إلى ما يطمئن نفسه بأنه لم يقصّر في دعوته لمثل هؤلاء، ولذلك أعلمه الله بعد تشخيص تلك الحالة المعنتة فأخبره بالعدل الإلهي في تدبير شؤون الخلق فقال: **﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**. أي إن صيرورتهم إلى تلك الحالة المخزية كانت بظلم من أنفسهم، إذ عطّلوا ما وهبهم الله من نعمة السّمع والبصر والعقل، فلم يهتدوا إلى الحق والرّشد، فإنّ عقاب الله الذي يلحقهم هو جزاء وفاق على ما اختاروه لأنفسهم من الكفر والشّرك، ويشمل هذا التّهديد عموم المشركين في كل زمان ومكان بما يلحقهم من ذلة ومهانة في الدّنيا، وأتبعه الله بما يكون لهم من الجزاء في ا لآخرة فقال: **﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاءِ اللهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾**.

أي أنذرهم -أيها الرّسول- أو أذكر لهم يوم نحشرهم لموقف الحساب والجزاء. وقد تقدم نظير هذا التّذكير في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ (يونس:٢٨).

وبعد التّفصيل والتّفريع لمقتضيات ذلك الحشر وأن القرآن قد أنذرهم مما يلحقهم فيه من الذّلة والهوان يعود السّياق إلى الإنذار من الحشر مرة أخرى بعد بيان أقسام المكذبين للتذكير بأنه آت لا ريب فيه، ولبيان حالتهم النّفسية عند البعث من قبورهم مفجوعين من هول الموقف جاء التّشبيه بقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ

يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾، وهذا اللبث يحتمل أن يراد به لبثهم في الحياة الدّنيا، وأنها قصيرة الأمد، وذلك بالنّسبة إلى ما وجدوه حقا من الحياة الأبدية التي كانوا يكذّبون بها، وهو الوجه الأظهر، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾، ويحتمل أن يراد باللّبث الفترة التي يقضونها في قبورهم.

ومثل هذا التّشبيه لقصر الدّنيا في إحساس المفجوعين بأهوال العذاب في الآخرة قد تكرّر في القرآن بما يرجّح أن المقصود باللّبث هي أيام الدّنيا، وأنّ متاعها قصير لا يكفي حتى للتعارف الحقيقي بين النّاس حتى يفنى ويزول، قال تعالى:

- ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

- ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ﴾(المؤمنون: ١١٢-١١٣).

- ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (النازعات: ٤٦).

- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ (الروم: ٥٥).

وتلك هي أحوال النّاس وأحاسيسهم عند اشتداد الكرب، فإنهم ينسون في غمرة الألم والعذاب ما ذاقوه من اللّذات وإن طال أمدها، كما قال أبو العلاء المعريّ:

إنّ حـــزنا في ساعـــة المـــو ت أضعاف سرور في ساعة الميلاد

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ اللهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾، هو بيان مستأنف من الله تعالى للشهادة عليهم بالخسران، إذ باعوا آخرتهم بدنياهم، وتلك تجارة خاسرة كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ (١٦). وذلك هو مصير من كان لا يرجو لقاء الله اغترارا بمتاع الدّنيا، وتكذيبا لداعي الله، والله أعلم.

وعد الله حق في تحديد الآجال، وإيقاع العذاب بالمشركين في الدّنيا والآخرة

أ)- النص:

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ
لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً
وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾
أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا
ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ
إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ
بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ
لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ
يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾: "إمَّا": زيدت "ما" في حرف الشّرط "إن" فأدغمتا وكتبت "إمَّا" بدون "نون" وشدّدت "الميم" محاكاة لحالة النّطق بها، وأكّد فعل الشّرط بنون

التوكيد: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ فكان توكيده مزدوجا. ﴿بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ﴾: أي من العذاب في الدّنيا قبل وفاتك. ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: أي قبل أن نريك تعذيبهم. ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾: هو جواب للشرطين، وقدم المجرور: ﴿إِلَيْنَا﴾ على عامله ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ للاهتمام به. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾: أي من الأمم الخوالي، وإن طالت فترتها، لأنه لا يلزم من ذلك أن يكون الرّسول حاضرا مع القوم، لأن وجوده في فترة معينة ومع ناس معيّنين لا يمنع من كونه رسولا إليهم جميعا كحال المسلمين مع رسولهم إلى الأبد. ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾: أطلق الوعد على الموعود به أي العذاب متى يظهر ويقع؟ يقولون ذلك استبعادا له واستهزاء. ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾: بياتا: اسم مصدر التبييت، ليلا: منصوب على الظّرفية، وجواب الشّرط محذوف دلّ عليه قوله: ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾، وهو يسدّ مسدّ المفعولين لـ"أرأيتم". ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾: النّبأ: هو الخبر المهمّ ذو الفائدة العظيمة، والاستنباء: طلبه، والضّمير في: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ عائد إلى عذاب الخلد. ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾: "إي" بكسر الهمزة، حرف جواب لتحقيق ما تضمنّه سؤال سائل، وهو مرادف "نعم"، ومن خصائصه أنه لا يقع إلا وبعده القسم. ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾: لجعلته فدية لها، وزيادة التّاء فيه لزيادة معنى التّكلّف. ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾: الإسرار: هو إخفاء الشّيء، والنّدامة أو النّدم: هو ما يجده الإنسان في نفسه من الألم والحسرة عقب كل فعل يظهر له ضرره، وقد يظهر ذلك بالكلام كالتّحسّر والتوبة، وقد يخفيه في نفسه. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾: أي يحكم بين الخلائق بالعدل يوم القيامة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ﴾: قرأ الجمهور "ثُمَّ" بالضّمّ على أنه حرف عطف يدلّ على التّرتيب والتّراخي، وقرئ بالفتح وهو اسم إشارة بمعنى "هنالك"

وعلى قراءة الجمهور بالضّم يكون استفهاما آخر معطوف على فعل مقدر بعد الهمزة علم مما قبله من إنكار استعجال مجرميهم بالعذاب. ﴿ءَالآنَ﴾: قرأ نافع: "آلان" بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على "اللام"، وهو استفهام إنكاري.

د)- البيان والتّفسير:

تصدّرت السّورة الكريمة بتكذيب المشركين لرسالة محمد ﷺ فردّ الله تعالى على مختلف شبهاتهم وهدّدهم بعذاب يحلّ بهم، ولكنهم كذّبوا بذلك أيضا وتعجّلوا وقوعه بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. وكان رسول الله مشفقا أن يحلّ بهم عذاب الاستئصال كما حلّ بالقرون من قبلهم، وكانت رغبته ﷺ أن يهتدي النّاس المدعوون لهذا الدّين، وكان في تأخّر ذلك العذاب شبهة للمشركين وجدوا فيها مقدحا في نبوته ﷺ فجاءت الإجابة الإلهية في هذه الآيات، بأن الإمهال في الدّنيا لا يعني عدم حصول العذاب، ولا يعني الإفلات من العذاب الآجل في الآخرة، وأنّ ذلك كلّه يرجع إلى حكمة الله وحسن تصرّفه. فقال تعالى: **﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ. وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾**.

خاطب الله رسوله تثبيتا له وتأكيدا لوقوع ما توعّد الله به أولئك المشركين من العقاب في الدّنيا والآخرة وفق مشيئته تعالى وحكمته في ما يناسب طبيعة هذه الأمّة التي أرادها حاضنة لدينه فصاغها وأخرجها للناس على غير المعهود من الأمم السّابقة في المحق والاستئصال، بعد إقامة الحجة عليها بإرسال رسول إليها. فإحدى الحالين من عذاب الدّنيا أو عذاب الآخرة حاصل لهم -لا محالة- ولكن علم ذلك عند الله، وقد يشاهده الرّسول في حياته، وقد يتوفّاه الله قبل ذلك فلا يدركه. وفي كل حالة، فإن الأمر في ذلك يرجع إلى الله وحده، فيجزيهم على علم وشهادة

حق، لأنه مطّلع على ما يخفون وما يعلنون، والعطف بـ"ثم" بين الإخبار بالإرجاع والإخبار بالمجازاة هو للتراخي الرّتبي يقتضيه التّفصيل للوعيد المذكور.

وإذ لا يقتصر ذلك الموقف المعادي للدّعوات السّماوية على أمّة محمد ﷺ عطف الله على الآية السّابقة قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾، وفرّع عليه قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ ليبيّن أن منتهى الإمهال لأمّة من الأمم هو مجيء الرّسول إليها ليهديهم إلى مناط النّجاة من العذاب في الدّنيا والآخرة، فإذا قامت الحجّة بذلك وتمادوا في التّكذيب والإعراض قضى الله بينهم وبين رسولها بالعدل وفق ما يناسب عملهم. ولتأكيد العدل الإلهي في ذلك القضاء جيء بالجملة الحالية: ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ لنفي كلّ ظلم قد يصحب تلك العقوبة كما يفعله الطّغاة من البشر. ونظير هذه الآية قوله تعالى:

أ)- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ (القصص: ٥٩).

ب)- ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء: ١٥).

ج)- ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤).

وفي الآية تحذير لأهل مكّة من مشاقة رسولهم وإشعار مسبق لما نالهم من العذاب في غزوة "بدر" وغيرها، وإن لم يكن ذلك العذاب من نوع الاستئصال فهو -لا محالة- نوع من الزجر والعقاب، يفلّ حدّهم، ويحدّ شنشنتهم. وكان لطف الله بهم تحقيقا لرغبة رسوله في أن يهديهم الله ويكون منهم دعاة وهداة لدينه: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ (الأنفال:٣٣). وتلك إحدى بركات رسول الله على أمّته. وإذ كانوا يتهكّمون على تأخير العذاب جاء الرّدّ الإلهي على لسان رسوله. فقال جلّ من قائل: **﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَآءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ**

فَلاَ يَسْتَاخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

وقد ورد مثل ذلك الاستعجال للعذاب من طرف المشركين في كثير من آيات القرآن بأساليب مختلفة، وجاء الرّدّ الإلهي عليها كذلك، كما ورد نظير هذا الرّدّ في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً الاَّ مَا شَآءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ اِنَ اَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾ (الأعراف:١٨٨). إلا أن بين الآيتين خلافا في تقديم الضّرّ على النّفع هنا وتقديم النّفع على الضّرّ هناك لاختلاف المقام، وذلك لأنّ المقام هنا جواب على الكفّار لاستعجالهم نزول العذاب الذي أنذروا به، بينما في الأعراف فإن المقصود هو ذكر حقيقة أن الرّسول لا يملك لنفسه نفعا لنفسه ولا ضرّا لأن ذلك من خصائص الألوهية والرّبوبية.

ويقول المفسّرون إن الاستثناء في كلّ من الآيتين منقطع: ﴿الاَّ مَا شَآءَ اللهُ﴾، فهو بمعنى "لكن" أي: لكن ما يشاء الله من ذلك النّفع والضّرّ يكون بقطع النّظر عن الأسباب التي يملك فيها الإنسان التّصرّف، وهو تعالى يجيب عن ذلك الاستعجال بقوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ اَجَلٌ﴾ ليبيّن أن تأجيل العذاب ليس عن عجز ولا غفلة، بل هو لما اقتضته حكمة الله في تحديد الآجال لكل أمة يحلّ موعدها في التّأديب والانتقام، وبما أن الأجل جاء هنا موصوفا بجملة الشّرط ومرتبطا بها حذفت "الفاء" بينهما وهو أبلغ في نفي تأخير الوعيد، فإذا كان الرّسول قد انتفت عنه صفة الضّرّ والنّفع لنفسه بله غيره، فما بال غيره من الصّدّيقين والأولياء والصّلحاء؟، فهل يرعوي ضعاف الإيمان عن التّمسّح بأضرحتهم وعن التوسّل إليهم؟.

وبعد إبطال تهكّمهم في استعجال العذاب أمر الله رسوله بأن يجيبهم بجواب آخر لا يملكون إزاءه إلا التّسليم به جدلا فقال تعالى: **﴿قُلَ اَرَآيْتُمُ إِنَ اَتَاكُمْ عَذَابُهُ**

بَيَاتاً اَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ، أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِ ءَالْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ، ثُمَّ قِيلَ لِلذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

فسؤال: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ بمعنى: أخبروني، والرّسول في ذلك ينقلهم من جوّ التهكّم والاستهزاء إلى تصوّر الخطر الذي يتهدّدهم إن نزل بهم العذاب في ليل أو نهار، كيف يكون حالهم عندها وماذا يمكنهم أن يفعلوه؟، وأي نوع من العذاب يستعجلون؟، أهو عذاب الدّنيا أم عذاب الآخرة؟، وأيّ النّوعين يحصل فلا خير لهم فيه، وإنّما هي الحماقة والجهالة، لا يجنون من ورائها أية فائدة.

وهم إذ يدّعون بأنهم عند وقوعه يؤمنون، جاء السّؤال: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِ﴾، فالاستفهام بمعنى إفساد رأيهم في دعواهم للإيمان وقت نزول العذاب، لأنها دعوى كاذبة يقصدون بها الهزء والسّخرية، فوقع الجواب هنا مجاراة لظاهر أحوالهم وبيان أخطائهم، فكأنما العذاب قد وقع والإيمان قد حصل، ولذا جيء بالاستفهام الإنكاري من قبل الله تعالى: ﴿ءَالْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾، فلا إيمان يصحّ عند حلول العذاب، فإذا كان ذلك حالهم مع عذاب الدّنيا، فكيف بهم مع عذاب الآخرة. وهو أعظم وأشدّ إذ يقال للذين ظلموا: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ﴾، هكذا بأسلوب التّبكيت والتّقريع، وإذ كان هذا النّوع من العذاب مؤجّلا جيء بـ"ثم" للتراخي، ووصفهم بالظّلم لبيان أنّ تحديهم للرّسول باستعجال العذاب هو كفر وشرك؛ وما نالوه من الجزاء فهو بكسبهم واختيارهم.

ويتمّ مشهد الاستهزاء والتّحدّي باستنباء القوم لرسول الله إن كان العذاب الموعود به حقا: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلِ اِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

والتّفنّن في ذكر أسئلة المكذّبين هو لتصوير الحيرة والقلق في نفوس المرتابين

والزّائغين في عقيدتهم، فهم لا ينقطعون عن مثل هذه الأسئلة، طلبا لبرد اليقين والاطمئنان. وهيهات أن يجدوهما في ظلمات الشّرك والكفر. والضّمير في قوله: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ راجع إلى أقرب مذكور وهو: ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ لأنّه محلّ الشّكّ والرّيبة عندهم أهو واقع حقّا أم هو لمجرّد التّخويف والتّهديد؟، فجاء الرّدّ الإلهي مؤكّدا بعدّة مؤكّدات بأنه واقع لا ريب فيه، ولا يقسم الرّسول بربّه إلا لما هو حق ثابت. ثم هو يثبت لربّه القدرة والسّلطان بنفي التّعجيز عن أولئك المكذّبين، لأنه تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء، والإيمان الصّحيح وحده هو الذي يجعل المؤمن مذعنا لقدرة الله وعظمته مهما يغتر بالقوة والجبروت، ألا ترى إلى مؤمني الجنّ على قولهم كيف أذعنوا لقوة الله عندما قالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ (الجن:١٢).

وزيادة في تضخيم هول ذلك العذاب عطفت هذه الجملة على ما سبق من بيان حقيته فقال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾**.

أي إنه عذاب ليس في مقدور أحد أن يتحمّله، وأظهر مكان الإضمار: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ ليشمل المخاطبين وغيرهم ممن هم على شاكلتهم في الظّلم. والتّعبير: ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ يشمل كلّ ما على ظهر الأرض وباطنها يقدمّه الظّالم فدية لنفسه من ذلك العذاب، ولو فعل لا تنفعه تلك الفدية كما قال تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٦).

ومع الخيبة و الخزي أمام العذاب المشاهد يتحسّر الظّالم و يندم على ما فرط منه في الماضي ولات ساعة مندم. وإخفاء تلك النّدامة هو دليل على هول المفاجأة، فهم لعظيم انذهاشهم وخوفهم من الذّلة والشّماتة يخفون في أنفسهم ذلك النّدم،

إذ يواجهون بخصومهم ممن آذوهم وكذّبوهم من رسل الله، أو ممن تجبّروا عليهم من الأتباع والمستضعفين، فلا مفرّ لهم من عدل الله ومقاضاة الحقوق بالقسط والإنصاف دونما محاباة لهم ولا ظلم من الله تعالى.

وللتدليل على قدرته تعالى في إنجاز ما توعّد به، من إنزال العذاب على المشركين، وإتيان يوم البعث، أعقب ذلك بالإخبار أن لله ما في السّماوات والأرض من العقلاء وغيرهم، فهم خلقه وملكه وهم تحت سلطانه، وأنّ وعده حقّ في كلّ ما جاء على لسان رسله.

وقد تكرّرت أداة التنبيه "ألا" لتمييز هذا الإخبار عمّا سبقه لأنه المقصود من السّياق. ولكن غفلة منكري البعث والجزاء أكثرهم لا يعلم من أمر الآخرة شيئا إما مكابرة وعنادا، وإما جهلا وتبلّدا، ومظهر قدرته تعالى هو الإحياء والإماتة، وهو ما لا يستطيعون إنكاره، وإليه مرجع الخلائق كلها ليوم الحساب والجزاء، والله أعلم.

فضل الله على خلقه بالقرآن، واختصاصه بالتّحليل والتّحريم

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ
أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ
أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

ب)- التّحقيق اللغويّ:

﴿جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: "مِن" للابتداء. والموعظة: مصدر ميميّ بمعنى الوعظ، وهو إرشاد المكلف ببيان ما ينفعه وما يضرّه. ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾: الشّفاء: زوال المرض والألم في معناه الحقيقي، ويطلق مجازا على زوال النّقائص والضّلالات. و﴿الصُّدُورِ﴾: شاع استعمال الصّدور على القلب في معناه الحقيقي الحسّي -أي عضلة ضخّ الدّم في الجسد- ويطلق على القلب المعنويّ، أي النّفس في مداركها وانفعالاتها. ﴿وَهُدًى﴾: بيان الحق المنقذ من الضّلال في الاعتقاد بالبرهان، وفي العمل ببيان الحكم والمقصد. ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: في التّفسير المأثور أنّ فضل الله هو القرآن، ورحمته هي أن جعلكم من أهله. والفرح: هو شدة السّرور. وما يجمعون: المقصود به هو الأموال والمكاسب. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّآ أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾: ﴿أَرَأَيْتُم﴾: أيّ أخبروني أيها الجاحدون، والاستفهام للتقرير، والرّؤية على الأرجح علمية مفعولها الأول هو جملة: ﴿مَآ أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾، ومفعولها الثّاني هو جملة: ﴿قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾. ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾: أي شيء ظنهم به يوم القيامة والاستفهام للتعجيب من حالهم، وقد حذف مفعولا الظّن لقصد تعميم ما يصلح له.

ج)- أوجه القراءة:

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: قرأ الجمهور بـــ"ياء الغيبة" فالضّمير عائد على معلوم من الكلام، أي ما يجمعه المشركون من الأموال. وقرأه ابن عامر وأبو جعفر ورويس عن يعقوب: ﴿تَجْمَعُونَ﴾ بـــ"تاء الخطاب". فيكون موجها للمشركين الذين شملهم الخطاب في أول الآية في قوله: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾، لأنه تعالى بعد أن

عمّم الخطاب خصّ المؤمنين بالذّكر وبجدارتهم بالفرح، فبقي الخطاب لمن عداهم من المشركين.

د)- البيان والتّفسير:

بعد ردّ شبهات المشركين في دعوى افتراء الرّسول للقرآن، وبعد التّدليل بإعجازه على أنه آت من عند الله، وأن المنزّل عليه صادق في ما بلّغه عن الله من التّهديد والوعيد لكلّ من كذّب برسل الله، بعد بيان ذلك عاد السّياق إلى نداء جميع النّاس وتذكيرهم بما في القرآن من المنافع لهم وما في إنزاله من المقاصد العظيمة في التّشريع فقال جلّ من قائل: **﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ﴾**.

النّداء من ربّ العالمين لأمة الدّعوة، وبما أن من بينهم من يشكّ وينكر تلك الأوصاف التي أضفاها الله على القرآن افتتح الإخبار بحرف "قَدْ" للتأكيد والتّعبير بالمجيء يقصد به الإعلام والإبلاغ به، وتلك الأوصاف جامعة للإصلاح الفردي والاجتماعي وهي من خصائص هذا الكتاب المقدّس، نكّرت للتعظيم، وزادها تعظيما أنها جاءت من ربّ العالمين، مالك أمر الخلائق كلها ومربّيها بفضله وإنعامه. وهذه الصّفات هي:

أ)- أن القرآن موعظة من الله بما يتضمّنه من الوصايا بالحق والخير، واجتناب الباطل والشّر بأساليب التّرهيب والتّرغيب، وقد تكرر وصف القرآن بأنه موعظة من الله كقوله تعالى:

أ)- ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُومِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (البقرة:٢٣٢).

ب)- ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٨).

ج)- ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ (النساء:٥٨).

ب)- ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾: أي إزالة ما في النّفوس من الحيرة والقلق، وما في القلوب من الشّكوك والأوهام وضلالات الزّيغ في الاعتقاد والانحراف في الأخلاق، مما يسمّيه علماء الأخلاق بدباغ السّوء. وهذا النّوع من الأمراض خطير على صحة الأبدان، إذ لها تأثير مباشر على أجهزتها مما يبدو أنها أمراض بدنية. وقد اكتشف الطّبّ الحديث ما بين الأمراض النّفسية والبدنية من علاقة كبيرة، ولعلّ هذا مما تطلب فيه الرّقيا الشّرعية بآيات القرآن تكون لها فعالية في نفس المُرَقّى سكينة واطمئنانا يكون لهما الأثر الفعّال في تهدئة أوجاعه. فقد روى أبو سعيد الخدريّ ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله فقال: إنني أشتكي صدري فقال له: «**إقرأ القرآن، يقول الله: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾**».

ج)- ﴿وَهُدًى﴾: وهو بيان وسائل الحصول على المنافع الحقة في المعتقد وفي السّلوك والعمل بما يكفل للإنسان سعادتي الدّنيا والآخرة.

وهذه الأوصاف الثّلاثة ثابتة للقرآن في ذاته سواء في ذلك من آمن به أم من لم يؤمن، ومن ثمرات الهدى أن ينتفع به المؤمن خاصّة، إذ يدفعه إيمانه إلى التّحلّي بأنواع الكمالات، فيوفّقه الله تعالى إلى المزيد منها مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (محمد:١٧). فيكون القرآن رحمة للمؤمنين كما وصف الله بذلك الصّحابة الكرام وهم النّموذج الأعلى في الانتفاع بهدي القرآن إذ قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾(الفتح:٢٩)

ورُوِي عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «**لا تنزع الرّحمة إلا من شقيّ**».[١]

١- رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الصبيان، رقم ١٩٢٣ ، وقال: هذا حديث حسن، ورواه أبو داود من حديثه أيضا، كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم ٤٩٤٢.

وإذ خصّ الله المؤمنين بصفة الرّحمة التي هي من تربية القرآن وآثارها على النّفس، أمر الرّسول أن ينبّه المؤمنين بأن هذه الميزة هي من فضل الله ورحمته بهم وأنّ ذلك أحقّ وأولى ما يجب أن يفرحوا به فقال تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾.

للإشادة بكل من فضل الله ورحمته تكرّر حرف الجرّ لإفادة ما يجب أن يكون من فرح المؤمن بكلّ منهما، لأن رحمة الله وفضله وإن وصفهما القرآن بالسّعة والشّمولية لكلّ الخلق فهما أوسع وأعظم بالمؤمنين، والمراد بهما هو هذا القرآن، إذ جعلكم الله من أتباعه، فبذلك وحده يجب أن تفرحوا.

والإشارة إلى المذكور من مجموع الفضل والرّحمة للتنويه والتّعظيم وتقديمه على: ﴿**فَلْيَفْرَحُواْ**﴾ لإفادة الحصر، ثم بيّن المقصود به بجملة: ﴿**هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾، والضّمير في: ﴿**يَجْمَعُونَ**﴾ عائد إلى النّاس من مسلمين ومشركين وهو أنسب لحالة المشركين في تكالبهم على حطام الدّنيا وحبّهم الشّديد للمال، لأن أغلب المسلمين كانوا يومئذ فقراء ضعافا. وكم ندّد القرآن على الافتتان بشهوة المال وأرشد رسوله ومن خلاله سائر المؤمنين إلى الاعتزاز بكرامة الإسلام وصرف النّظر عن زينة الدّنيا حتى لا تفتنهم عما هم فيه من خير كقوله لرسوله في سورة الكهف: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٢٨). وقال في سورة طه: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (١٣١). ذلك لأن القيم المادية وحدها لا توفّر للناس السّعادة والهناء، إذا تجردت عن القيم الرّوحية الدّينية، كما قال شاعر النّيل:

فالنّاس هذا حظه مال وذا علم وذاك مكارم الأخلاق
فالعلم إن لم تكتنفه شمائل تعليه كان مطية الإخفاق
والمال إن لم تدخره محصنا بالعلم كان نهاية الإملاق
لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يتوّج ربّه بخلاق

ثم بيّن الله أن التّشريع العملي بما جاء به القرآن الكريم من التّحليل والتّحريم في الأرزاق والمعاملات، إنما هو حقّ الله تعالى وحده.

وبما أن النّاكرين للوحي كانت لهم تجاوزات في التّحليل والتّحريم وفق هواهم فقد ندّد الله عليهم في الآيتين اللاحقتين فقال تعالى: **﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّآ أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ، وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾**.

يأمر الله نبيّه بأن يقول للمشركين المكذبين بالقرآن افتراءً على الله بما لم يحيطوا بعلمه، يقول مبيّنا لهم تناقضهم مع أنفسهم في ما يدّعون، إذ أن اجتراءهم على التّحليل والتّحريم في ما رزقهم الله، وأصله الإباحة ما لم يقم عليه دليل، ولا حق لأحد في تشريع التّحليل والتّحريم إلا بإذن من الله الرّازق، فمجرّد قبولهم لذلك من غير الله -وهو باطل- يكون اعترافا ضمنيا بأصل الدّين، بينما الذين شرعوا لهم ذلك من كهّانهم هم كاذبون محتالون، إذ لم يأذن الله لهم بذلك بوحي من السّماء، أو أنهم وضعوا ذلك من تلقاء أنفسهم وكذبوا على الله، فثبت بالاستفهام التّقريري في الآية تهمة الكذب التي ألصقوها برسول الله وبرّأه الله مما قالوا.

وقد بيّن الله تعالى في كلّ من سورتي المائدة والأنعام بعض ما حرّموه من تلك الأرزاق، وأغلبها في الأنعام كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ

وَالأنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَذَا لله بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ للهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١٣٦). وقال في سورة المائدة: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (١٠٣).

وكم ندّد القرآن الكريم بالذين يفتاتون على الله بفتوى التّحليل والتّحريم بدون علم ولا هدى ولا كتاب منير، وقد كثر المتفيقهون المتعالمون في هذا الزّمان فضلّوا وأضلّوا، وحسب هؤلاء من التّهديد والوعيد ما عقّب الله به هذه الظّاهرة بقوله: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، جاء هذا التّهديد لجميع النّاس، وفيه التّعريض بالمشركين والاستفهام فيه للتعجيب من حالتهم في هول يوم القيامة، بما يكونون فيه من سخط الله وعذابه.

وينتهي السّياق بهذا التّذييل المناسب: ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾، وأيّ فضل من الله أعظم لخلقه من نعمة العقل ونور الهداية، ولكن جحود الإنسان وغروره قد يفضي به إلى بطر تلك النّعمة، مما يبعثه على التّمرّد والعصيان، وأسهل ما عند الله زوال النّعم، جعلنا الله من الشّاكرين الصّابرين، والله أعلم.

مراقبة الله لعباده، وإحاطته بكل شيء علما

أ)– النصّ:

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾: "مَا" نافية، والشّأن: الأمر المهمّ العظيم، من فعل شأنته أي قصدته، والشّأن مصدر بمعنى مفعول. ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾: الضّمير في "مِنْهُ" يرجع إلى الشّأن، أي من الشّأن قرآنا. فتكون "مِن" للبيان و"مَا" موصولة، أو الضّمير يرجع إلى القرآن، أي من التّنزيل قرآنا، فتكون "مِن" للتبعيض، لأنّ الإضمار قبل الذّكر تفخيم وتعظيم. ﴿إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: شُهُوداً: جمع شاهد، بمعنى حاضر، أطلق على العالم بطريقة المجاز، والإفاضة في العمل: الخوض والاندفاع فيه. ﴿مَا يَعْزُبُ﴾: العزوب: البعد وهو مجاز للخفاء وفوات العلم. ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾: "مِن" زائدة لتأكيد النّفي، والمثقال: اسم آلة يعرف به مقدار ثقل الشيء. والذرة: النّملة الصّغيرة، ويطلق على الهباءة التي ترى في ضوء الشّمس كغبار دقيق جدّا. ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾: الكتاب: يطلق على علم الله الأزلي في اللّوح المحفوظ. ومُبين: بمعنى بيّن واضح لا احتمال فيه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يَعْزُبُ﴾: قرأ الجمهور بضمّ الزّاي، وقرأه الكسائي بكسر الزّاي، وهما وجهان في مضارعه. ﴿وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ﴾: قرأ الجمهور ﴿وَلاَ أَصْغَرَ﴾ بالفتح ممنوعا من الصّرف معطوفا على ﴿ذَرَّةٍ﴾ المجرورة وجائز أن يكون العطف عطف جملة، فتكون "لا" نافية للجنس و"أصغر" اسمها على الفتح. وقرأ حمزة وخلف ويعقوب: ﴿وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ﴾ برفعهما بالعطف على محلّ ﴿مِثْقَالِ﴾، لأنه فاعل لـ"يعزب" في المعنى، أو على اعتبار عطف الجملة على الجملة، وتكون "لا" نافية تعمل عمل "ليس"، و"أصغر" اسمها.

د)- البيان والتّفسير:

تضّمن التّذيل للآية السّابقة تذكير الله تعالى عباده بفضله، وأن أكثرهم لا يشكرون نعمه، فعطف عليه هنا تذكير الرّسول والمؤمنين بإحاطة علمه تعالى بشؤوهم وأعمالهم وبكلّ ما في العوالم من أصغر صغير إلى أكبر كبير، وفي ذلك تعريض بالثّواب لهم، ووعد بالنّصر والتّأييد، لأنهم يتيقنون أنّ أعمالهم لا تكون إلاّ في مرضاة الله، كما يتضمن التّخويف للمذنبين المقصّرين في ذكر الله وشكره وعبادته فقال تعالى: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ**﴾.

الخطاب في أول الآية لرسول الله ﷺ، وقد خصّه الله تعالى بأمرين تسلية له وتنويها بمقامه العظيم بين المؤمنين.

أ)- الأمر الأول: قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ**﴾، والنّكرة في سياق النّفي تدلّ على الشّمول والاستغراق فتتناول كلّ الشّؤون الخاصّة والعامّة مما يقوم به الرّسول نحو نفسه وأهله أو نحو الأمة من شؤون التبليغ والدّعوة والتّعليم والإرشاد.

ب)- الأمر الثّاني: قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ**﴾، وعلى الاحتمالات المذكورة في معاد الضّمير "منْهُ" فإن الأنسب أن يعود إلى كلمة "الشّأن"، وأعظمه من شؤون رسول الله هو تلاوته للقرآن تعبّداً لله أو تبليغا له، وتخصيصه بالذّكر من عموم شأن الرّسول هو للتنبيه على علوّ مرتبته، وأنه أعظم الفضل من الله لعباده.

ثم جاء الخطاب بعد ذلك عاما لجميع المؤمنين بما فيهم رسول الله، وخصّت بعض شؤون النّبي بالذّكر أولا لأن له خصوصيات في الأمور الدّينية كان له المقام

الرّفيع بها عند الله؛ ويشركه بقية المسلمين في الشّؤون العامة الأخرى، وكلاً وعدَ الله الحسنى. وجيء بنكرات ثلاث في سياق النّفي لإفادة العموم واختير للرسول لفظ "شأن" -وهو الأمر العظيم- وهو مناسب لمهمّته النّبيلة، بينما ذكر العمل البسيط للمؤمنين وفق مستواهم وطاقتهم.

﴿الاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً اذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: لأنه تعالى هو الموجد لجميع الأشياء، فهو العالم بها المطّلع على خفاياها وأسرارها. واختيار صفة "الشّهود" الذي يتضمّن العلم الرّاسخ بالشّيء للدّلالة على المراقبة الصّارمة والإطّلاع على دقائق المعلومات لجميع الأشياء.

وقوله تعالى: ﴿اذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ حال لتخصيص نوع الأعمال العظيمة التي يكون الاهتمام بها أكثر لضمان مجازاة الله عليها.

ثم أكّد الله إحاطة علمه بكل الأشياء فقال: **﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الاَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ وَلآَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلآَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾**.

وبما أن الإنسان مهما كان منتبها وضابطا لما يقوم به من أعمال قد يسهو ويغفل عن بعضها كما تغيب عنه دقائق الأشياء وجزئياتها، ولكن الله العليم بكل شيء لا يخفى عليه مهما دقّ وبعد عليكم إدراكه، ولو كان يبلغ وزنه مثقال ذرّة في الصّغر والخفة، ونرى الإعجاز العلميّ في هذه الآية وفي نظيرتها من سورة سبأ مع تقديم السّماء هناك على الأرض على عكس التّرتيب هنا، لأنّ السّياق في ذكر الإحصاء لأعمال أهل الأرض.

قلت: يبدو الإعجاز العلمي في اختيار لفظ "الذّرة" للتّمثيل على الصّغر والخفة، فإذا بالعلوم المادية تستعمل نفس المصطلح للجزء غير المنقسم للمادة في نظر القدامى من علماء الإغريق. وقوله تعالى: ﴿وَلآَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ﴾ يشير إلى

نظرية تحطيم الذّرة واكتشاف جزئياها وما في ذلك من طاقة كامنة أصبحت تستغل اليوم في المجالات المدنية والعسكرية. فسبحان مدبّر الكون الذي يعلم السّرّ وأخفى.

ثم عطف الأكبر على الأصغر ليشمل كلّ ما في الكون مما نبصره وما لا نبصره من عظيم المخلوقات كالشّموس والمجرّات، فالله تعالى محيط ها مدبّر لأمرها وفق ما هو مضبوط مبيّن في الكتاب، وهو المعبّر عنه باللّوح المحفوظ حيث تكتب فيه مقادير الموجودات كلها، كما تقدم تفصيل ذلك في سورة الأنعام عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ﴾ (الأنعام:٥٩).

إن أمثال هذه الآيات الكريمات التي تبيّن وتؤكد إحاطة علم الله بكل حركاتنا وسكناتنا وترصّده لأعمالنا في كلّ زمان ومكان، يبعث على الرّهبة والإشفاق في نفس المؤمن ليكون دافعا له إلى طريق الاستقامة والخشية من الله. ونحن الأحياء في هذا العصر الذي يمتاز بالتّطوّر التّكنولوجي في مجال الإستخباراتية والمعلوماتية، بما توصّل إليه الفكر الإنساني، من المفروض أن نكون أخشى لله وأتقى لما يعرضّنا لغضبه وسخطه، لأنّ قدرته وقوته تعالى فوق كلّ قدرة وقوة مهما اغترّ الإنسان بقدرته وجبروته، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، والله أعلم.

من هم أولياء الله؟، وما جزاؤهم عند الله؟

أ)– النص:

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟
يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ
هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

ب)- التّحقيق اللغويّ:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ﴾: "ألا" أداة للتنبيه وتوجيه الفكر لما يأتي بعدها، والأولياء جمع وليّ، هو وصف من الولاء والتوالي ومن الولاية والتولّي، وكلّها ترجع إلى معنى "الولْي" بسكون "اللاّم" وهو القرب، أي بالنّسب والصّداقة أو بالتّناصر والتآزر. وفسّرها بأنّه الذي يتولّى الله بالطّاعة، ويتولاّه الله بالكرامة. ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾: الْبُشْرَى: الخبر السّارّ الذي تنبسط به بشرة الوجه فتتألق أساريره، والتعريف للجنس ليشمل كلّ أنواع البشرى. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾: أي لا تغيير ولا خلف لمواعيد الله عزّ وجلّ. ﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: في إعرابه ثلاثة أوجه: النّصب على أنه صفة للأولياء، أو بدل، والنّصب على المدح، أو الرّفع على الابتداء، وخبره قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾.

ج)- البيان والتّفسير:

الإيمان الجازم بإحاطة علم الله الشّامل ومراقبته لعباده، يقوّي قلوب المؤمنين ويدفعهم إلى شكر نعم الله، ويعرّض قلوب الفاسقين إلى الحسرة والانكسار، ولمزيد من التّفصيل والاهتمام بحال الشّاكرين من عباده، أتبع الله تعالى في هذه الآيات الثّلاث بيان حالهم وحسن جزائهم في الدّنيا والآخرة فقال جلّ من قائل: **﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾**.

افتتحت الآية بأداة التّنبيه "ألا" لتوجيه الفكر إلى ما يأتي بعدها من التّعريف بأولياء الله، فمن هؤلاء الأولياء؟. ذكرهم الله بهذه الصّفة من الولاية المضافة إلى لفظ الجلالة للتشريف والتّكريم، فهم الذين يتولّون الله بالطّاعة والعبادة، ويتولاّهم الله بالكرامة والقربى، وبالتّأييد والنّصر والتّمكين. وهذه الصّفة عامّة تضم كلّ من

يتصف بها من وقت التنزيل إلى يوم القيامة. ثم جاء خبر "إنّ" بقوله: ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ونفي الخوف والحزن عنهم جاء مطلقا دون ذكر الأسباب والظّروف ليدلّ على أنّ هؤلاء حالهم هي حال من لا ينبغي أن يخاف أو يحزن، لأنهم ينظرون إلى الأحوال كلّها بنظر اليقين الذي يملأ نفوسهم سكينة وطمأنينة، فهم لا يتأثرون بالمظاهر، لأنّ استغراقهم في حبّ الله وشعورهم بمعية الله وكونهم في كنفه لا يشعرون معها في تلك اللّحظات بشيء سوى جلال الله وعظمته وهيمنته على الأسباب والمسبّبات.

ولا شكّ أنّ الأولياء يتفاوتون في هذه المراتب، ولا شكّ أنّ أعلاهم منزلة في ذلك هم الأنبياء والرّسل، ولنا مثال من رسول الله ﷺ عندما أصبح في أحرج موقف بإحاطة المشركين على مدخل الغار مع صاحبه المفجوع إذ قال له: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠). ولنا مثال آخر من سيدنا موسى عليه السلام عندما أصبح مع قومه بين فكيّ الأسد "فرعون وجنوده وأمواج البحر"، وهو خارج من مصر إلى الأرض المقدسة، قال تعالى في سورة الشّعراء: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ، قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٦١-٦٢).

يعلّق الإمام ابن عاشور على التّفسير البياني لهذه الآية فيقول: "فالكلام يفيد أن الله ضمن لأوليائه أن لا يحصل لهم ما يخافونه وأن لا يحلّ بهم ما يحزنهم، ولما كان ما يخاف من شأنه أن يحزن من يصيبه كان نفي الحزن عنهم مؤكّدا لمعنى نفي خوف خائف عليهم. وجمهور المفسّرين حملوا الخوف والحزن المنفيين على ما يحصل لأهل الشّقاوة في الآخرة بناء على أن الخوف والحزن يحصلان في الدّنيا، كقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ﴾ (طـه:٦٧). وقد علمت ما يغني عن هذا التّأويل، وهو يبعد عن مفاد قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

الآخِرَةِ﴾.(١)

قلت: بين المفسّرون تأويلهم ذلك على ما وصف الله تعالى به الإنسان من طبيعة الخوف والهلع ما لم يتصف بالإيمان والتّقوى. ثم بناء على وصف مشاهد يوم القيامة وما فيها من هول وفزع يكون المؤمنون في مأمن منهما كقوله تعالى: ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الاَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٣). ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذ ءَامِنُونَ﴾ (النمل:٨٩). ﴿يَا عِبَادِي لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (الزخرف:٦٨).

ثم استأنف الله وصف الأولياء بقوله: ﴿الَّذينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، أي أنهم جمعوا بين المعتقد الصّحيح والعمل الصّالح، وتنوّع الوصف بين صيغة الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾، والمضارع ﴿يَتَّقُونَ﴾ للدّلالة على أن وصفهم بذلك يغطّي حلقات الزّمان الثّلاث: الماضي والحاضر والمستقبل، إذ هم مخلصون في طاعته واتقاء كل ما يسخط الله أو يغضبه من المعاصي والآثام. فهم جديرون أن يزفّ الله إليهم البشرى وأنه تعالى يتولاهم بالكرامة إذ قال: **﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**.

والبشرى هي كلّ ما يسرّ النّفس ويبهج الخاطر لم يذكر متعلقها لتدل على كلّ ما بشّر به المتقون في كتاب الله وعلى لسان رسوله من أنواع الخيرات التي يحصلون عليها في الدّنيا بالنّصر والتّمكين، والعزّة والسّيادة، وفي الآخرة بالرّضوان وجنّة النّعيم. وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى في آية الزخرف: ﴿الاَخِلاَّءُ يَوْمَئِذ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ الاَّ الْمُتَّقِينَ، يَا عِبَادِي لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ، الَّذينَ ءَامَنُواْ بِئَايَاتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ، ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (٦٧-٧٠).

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٢١٨/١٠.

وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، أي لا خلف في مواعيد الله، وهو تأكيد لما وعد الله به المؤمنين من البشائر تثبيتا لهم على الإيمان والتقوى، وبيّن أنّ ما ذكره من أنواع البشرى هو الفوز العظيم، هكذا بصيغة القصر.

بعض ما ورد في الأولياء من الأخبار والآثار:

أ)- عن أبي هريرة مرفوعا: «**إن من عباد الله عبادا يغبطهم الأنبياء والشّهداء**. قيل: يا رسول الله من هم؟، قال: **هم قوم تحابّوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور، على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف النّاس، ولا يحزنون إذا حزن النّاس ثم قرأ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**.[1]

ب)- قيل: يا رسول الله، من أولياء الله؟، قال: «**الذين إذا رُؤُوا ذُكر الله تعالى لرؤيتهم**».[2]

ج)- «**من عادى لي وليًا فقد آذنته بحرب**».[3]

وبقطع النّظر عن صحة هذه الآثار أو ضعفها، فإنّ في الآيات المتقدّمة غناء عن كلّ وصف أو تكريم، وكفاء لكلّ ثواب وجزاء، جعلنا الله في زمرة أوليائه الصّالحين، آمين، والله أعلم.

١- رواه أبو يعلى في مسنده من حديث أبي هريرة، رقم ٦١١٠؛ قال ابن حجر الهيثمي في مجمع الزوائد بعد ذكره: رجاله رجال الصحيح غير حوشب وقد وثقه غير واحد،(١٠/٢٧٧)

٢- رواه البزار من حديث ابن عباس مرفوعا، ومن حديث سعيد بن جبير مرسلاً، أنظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢/٤٢٣.

٣- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب الرّقاق، باب التواضع، رقم ٦١٣٧.

قول المشركين لا يحزن الرّسول لاعتزازه بقوة الله

أ)- النص:

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلاَ يُحْزِنكَ قَوْلُهُم﴾: حذف مقول القول، والضّمير عائد إلى المشركين، والحزن المنهيّ عنه الرّسول هو الحزن النّاشئ عن أذى المشركين له بأقوالهم البذيئة، من مثل قولهم: لست مرسلا، أو أنّه شاعر مجنون أو ساحر...إلخ. ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لله جَميعاً﴾: الجملة استئناف بمعنى التّعليل للّتي قبلها، والعزّة هي القوّة والغلبة، وهي ردّ على قولهم: وإنّما العزّة للكاثر. ﴿أَلاَ إِنَّ لله مَن في السَّمَاوَاتِ وَمَن في الأَرْضِ﴾: تطلق "مَن" على العقلاء، تغليبا لهم على غيرهم، لأنّ من يملك الأقوى من الموجودات يملك الأضعف منها من باب أولى. ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ الله شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾: "ما" و"ان" نافيتان ، ويحتمل أن تكون "مَا" استفهامية. و﴿شُرَكَاء﴾ مفعول ﴿يَدْعُونَ﴾، وجملة ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ توكيد لفظي لجملة ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾، والظّن مفعول لكلا فعلي ﴿يَتَّبِعُ﴾، ﴿يَتَّبِعُونَ﴾، فإنّهما كفعل واحد. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾: من الخرص، وهو القول بالحزر والتّخمين، ويستعمل الخرص بمعنى الكذب. ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فيه وَالنَّهَارَ

مُبْصِراً﴾: قابل السّكون في جانب اللّيل بالإبصار في جانب النّهار واللّيل والنّهار ضدّان، فدلّ ذلك على أن علّة السّكون هو عدم الإبصار، وأن الإبصار يقتضي الحركة، فكان في الكلام احتباك، وإسناد الإبصار إلى النّهار مجاز، لأن نوره سبب لإبصار النّاس.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد الرّدّ على شبهات المشركين في تكذيبهم بالدّعوة المحمدية، وما تضمّن ذلك من الوعيد والتّهديد لهم، ومن الوعد لأولياء الله بالنّصر والغلبة، وأنّهم لا يخافون ولا يحزنون. ولا شك أن الرّسول في طليعة أولياء الله فقد نهاه الله أن يحزنه اغترار المشركين بقوتهم وتكذيبهم بوعد الله، لأن القوة والعزة الحقيقية هما الله الذي يملك ما في السّماوات وما في الأرض، فقال جلّ من قائل: **﴿وَلاَ يُحْزِنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾**.

عطفُ هذه الجملة ﴿وَلاَ يُحْزِنكَ قَوْلُهُمْ﴾ على قوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، يدلّ على أنّ الحزن الذي نهى الله رسوله عنه هو نوع من الحزن المنفي عن أولياء الله، ذلك لأنّ الرّسول هو أولى الأولياء عند الله، وقد كفاه الله شرّ المستهزئين وعصمه من النّاس، إذ كان المشركون يومئذ في غرور بقوّة شوكتهم ووفرة أموالهم وأتباعهم، ويعتقدون أنّ العزة لهم، كما حكى الله ذلك عنهم في سورة سبأ: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ:٣٥).

ولما كان المخاطب -وهو رسول الله- يعلم تلك الأقوال التي كانت تؤذيه من المشركين، حذف مقول القول ليشمل كلّ تلك الأقوال المؤذية، وقد يتأثر الإنسان بما يسمعه من الأقوال السّيئة في شخصه، فجاء نهي الله لرسوله عن التّأثر

بذلك الحزن، حتى لا يجعل ذلك سببا لحزنه، لأن الله تعالى يمنع عنه ذلك التأثر بمنع أسبابه عنه، ولذلك قال: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾، وهي جملة مستأنفة بمعنى التعليل للتي قبلها. أي إنّ الذي بعث الرّسول بحقّ، وأمره بدعوة الخلق إلى دينه القويم، كان -لا محالة- مؤيدا له وراعيا لدعوته، وله -سبحانه وتعالى- كلّ العزّة والقهر والغلبة. ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (المجادلة:٢١). وعزته تعالى ذاتية لا يحتاج فيها إلى ناصر ولا معين وكتبها لرسوله والمؤمنين لأنه يعزّ من يشاء ويذل من يشاء فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون:٨). وشبيه هذه الآية قوله تعالى:

أ)- في سورة الأنعام: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٣).

ب)- وفي سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(٩٧-٩٩)

وقوله تعالى: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تذييل مناسب لمضمون السّياق، بأن الذي يدرأ عنك -أيها الرّسول- التأثر بتلك الأقوال البذيئة سميع لما يقولون ومحيط علمه بما يكيدون وما يدبّرون.

وليدلّل على تلك القدرة والعزة قال تعالى مفتتحا كلامه بأداة التّنبيه: **﴿أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾**.

جاءت هذه الجملة على الاستئناف البياني مفتتحة بأداة التّنبيه "ألاَ" ومؤكّدة بـ"إن" وبتقديم الخبر "لله" كلّ ذلك للاهتمام بمضمونها، بإسناد الملكية الحقيقية لله وحده وبذكر أمكنة الموجودات كلّها في أرض وفي سماء. وجيء بـ"من" التي تطلق على العقلاء بعد استعمال "مَا" لغير العقلاء في الآية المتقدمة لتستوعب كل

الخلائق وخصّ العقلاء هنا بالذّكر لأن الحديث في شأنهم عندما يعتزون بغلبتهم وقوتهم. وفي حصر الغلبة والعزة في الله تيئيس لهم من أي احتمال لغلبتهم بما يغترّون به من القوّة، وتهوين لشأنهم عند الله وعند النّاس وما دعاؤهم لشركائهم من دون الله واستنصارهم بهم إلا اتّباع لظنّ خاطئ ووهم باطل.

وقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ توكيد لفظي لجملة: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ﴾. وقوله بعدهما: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ تأكيد لبطلان ذلك الظّن بأن لا دليل عليه، بل هو محْض الخرص والتّخمين. والظّن إذا لم يسنده دليل يثبته فهو محض كذب وزور، وصاحبه أفاك أثيم.

ومن مجالات قدرته تعالى، والتي لا ينازعه فيها شريك في الخلق والتّدبير تقديره وتقليبه الليل والنّهار لما في ذلك من المنفعة للخلق. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

اختلاف اللّيل والنّهار وما يترتب عنهما من منافع للكائنات كلها ظاهرة طبيعية مألوفة قد يغفل عن حكمتها النّاس في ازدواج منفعتهم بهما بانتشار النّور في النّهار لتتحرّك الخلائق في نشاطها وهي تبصر الأشياء وتتبيّن أحوالها فتسخرّها لما فيه مصلحتها بجلب النّافع ودفع الضّارّ منها، كما أن غشيان الظّلمة على الكون في اللّيل هو باعث للخلائق على السّكون والهدوء لتأخذ راحتها وتستعيد قوتها، ولما كان المعني بهذه الالتفاتة هو المكلّف العاقل انتقل الأسلوب إلى صيغة الخطاب حتى لكأنّه المستفيد الأول من تلك الظّاهرة الطّبيعية، ولا يعني ذكر فائدة السّكون والإبصار أنه لا حكمة في تقليب اللّيل والنّهار إلا ذلك، بل يعني حصول تلك الفائدة ضمن الفوائد الأخرى.

وقد تكرّر في القرآن تقدير اللّيل والنّهار وما في ذلك من الحكمة وحسن التّدبير غير أنّ الإلف قد يحجب على النّاس سماع تلك التّنابيه فجاء قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ مناسبا للتنبيه مرة أخرى عن تلك الغفلة، إذ نجد في ذلك الغافلون عن قدرة الله دلائل قاطعة لبديع صنعه وبالغ حكمته بحيث لا تحتاج إلا إلى التأمل والنظر فيها.

وهذه الآية توجز في أسلوب بليغ ما فصّلته آية القصص لمن يسمع ويبصر إذ قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ، وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٧١-٧٣)

والله أعلم

• تعالى الله عن اتّخاذ الولد سبحانه هو الغنيّ

أ)- النصّ:

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

ب)- التّحقيق اللغويّ:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾: "قالوا" مرجع الضّمير هو قوله: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي المشركون، والاتّخاذ: جعل الشّيء لفائدة الجاعل، لأنّ المتخذ يأخذ الشّيء الذي يصطفيه، و"الولد" مأخوذ من الولادة أي النّتاج،

ويستعمل للمفرد والجمع. ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾: كلمة التّسبيح معناها التّتريه والتّقديس لذاته تعالى أن يتبنّى ولدا لأنه الغنّي لا يحتاج إلى غيره. ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَآ﴾: "إِنْ" للنفي، "مِن" مزيدة لتأكيد النّفي بالاستغراق. "سُلْطَان": محله الرّفع بالابتداء و"عِندَكُم" خبره، والسّلطان: البرهان والحجة. و"الباء" للملابسة. "بِهَذَآ": الإشارة إلى المقول: ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾: الاستفهام للتوبيخ والتّقريع. ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾: المنفعة القليلة في الدّنيا، والتّنكير للتقليل، وكونه في الدّنيا مؤذن بالزّوال. ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ﴾: الإذاقة: إيصاله إلى الإحساس، واللّسان أقوى حاسّة للّمس.

ج)- البيان والتّفسير:

الإشراك بالله أخذ أشكالا متعددة عند الجاهليين وعند غيرهم من أهل الكتاب أو من عبدة الأوثان، فبعد أن ذكر الله في الآية السّابقة الذين يدعون من دون الله شركاء وبيّن كذبهم في ذلك، أعقبه هنا بذكر نوع آخر من الكفر، وهو الزّعم بأن الله اتّخذ ولدا، على غرار ما يدّعيه النّصارى واليهود في المسيح وعزير. ذلك لأن مشركي مكة يزعمون أن لله بنات -أي الملائكة- وقد حكى الله ذلك عنهم فقال:

أ)- ﴿وَجَعَلُواْ الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾ (الزخرف:١٩).

ب)- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ (سبأ:٤٠-٤١).

ولما كان العرب الجاهليون وأهل الكتاب مشتركين في هذا النّوع من الكفر، ذكر هنا مستقلاً عما سبق ليردّ الله عليه بحدّة فقال جلّ من قائل: ﴿قَالُواْ

اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ، هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ، مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

ينتهي سياق الرّدّ على شبهات المشركين بذكر هذا النّوع من الشّرك في دعوى اتخاذ الله للولد وفق التّصوّر السّاذج والقصور المذموم في إدراك حقيقة الألوهية الخالقة المقتدرة، وما يفرّق بينها وبين الحقيقة البشرية المخلوقة، التي تخضع للموت والفناء وتحتاج لبقائها وامتدادها إلى الذّرية والعقب، لأنّ عبدة الأوثان يدّعون ويزعمون باطلا بأن الملائكة بنات الله استولدها من سراة الجنّ. وقد تصدّى القرآن للرّدّ على تلك الدّعوى الباطلة من مثل قوله تعالى في سورة النّحل:

أ)- ﴿وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ، وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ (النحل:٥٧).

ب)- ﴿وَيَجْعَلُونَ للهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ (النحل:٦٢).

وفي سورة الصّافات: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ، أَمْ خَلَقْنَا الْمَلاَئِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ، أَلاَ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ، وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾. (١٤٩-١٥٤).

وقبل الرّدّ ينزّه الله ذاته بقوله سبحانه، ووجه هذا التّتريه أنه تعالى غنيّ عن اتخاذ الولد، وغناه ذاتيّ مطلق، لا يحتاج إلى غيره، فكما لم يحتج في وجوده إلى الوالدين، فهو في بقاء وجوده لا يحتاج إلى ولد.

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً﴾ (الجن:٣).

﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَّلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ (المؤمنون:٩١).

وتفسير ذلك في الاعتقاد أنّ الإله الواجب الوجود ينتفي عنه التّركيب من أجزاء وأبعاض. ومن أجل ذلك امتنع أن ينفصل عنه شيء منه، والولد ينشأ من جزء منفصل عن الوالد، فلا جرم أن كان الغنيّ منــزها عن الولد من جهة

الانفصال، ثم هو أيضا لا يجوز أن يتخذ بعض المخلوقات ولدا له بالتبنّي لأجل كونه غنيا عن الحاجات التي تبعث على اتخاذ الولد من طلب معونة أو إيناس أو خلف". (١)

ويتجلّى غناه تعالى في ما يملكه في السّماوات وما في الأرض، خلقا وتدبيرا، وكل ما فيهما مسخّر لمشيئته، عبيد تحت تصرّفه: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً، إن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إلاَّ ءَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً، وَكُلُّهُمْ ءَاتِيه يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ (مريم:٩٢-٩٥). وهؤلاء المبطلون لا يملكون حجة على دعواهم تلك وبالتّالي فهي باطلة في منطق العقل، وفي أصول الفطرة السّليمة. فهم أحرياء بالتّوبيخ والتّقريع بقوله تعالى: ﴿أَتقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. وبناء القول على الجهل تيه وضلال لا يكشف حقيقة ولا يستقيم به علم، والجملة تأكيد للجواب السّابق.

وبعد التّوبيخ يأتي التّهديد والوعيد فيقول تعالى: **﴿قُلِ إنَّ الذينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ، مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.**

الخطاب للرسول ليبيّن للمخاطبين ما يترتب على ذلك الإدّعاء الأثيم من اتخاذ الشّركاء لله أو اتخاذه الولد من نفي الفلاح عنهم في الدّنيا والآخرة وذلك لأنهم يفترون على الله الكذب، ونفي الفلاح يعني خيبتهم في حصول المقصود من كذبهم في عرقلة دعوته ﷺ، لأن الفلاح الحقيقي في الدّنيا والآخرة لا يتأتّى إلا بالسّير على الخطّ المستقيم الذي رسمه الله لعباده.

ثم بيّن الله أن متاع الدّنيا، وإن اغترّ الكفار ببريقه وظواهره فهو متاع قليل

(١) [illegible]

زائل، وقد تكرّر هذا المعنى في القرآن، لأن البشر لصيقون بالواقع العاجل، وينسوْن في زهوهم بمتاع الدّنيا أنهم معرّضون للموت في كل لحظة، كما أن ما بأيديهم من متاع الدّنيا مقطوع زائل، ثم ما مقدار لذة التّمتع به إن كان يعقبه العذاب الشّديد في الحياة الأبدية، ولا شك أن ذلك هو الخسران المبين بسبب ما اختاروه من الكفر والكذب على الله. وقدم الجار والمجرور على متعلقه في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ للاهتمام والتّذكير به لأنه محلّ الغفلة والسّهو في زهو الحياة ومتاع الدّنيا، قال تعالى في سورة الشّعراء: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ، ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ، مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ (الشعراء:٢٠٥-٢٠٧)، والله أعلم.

نبأ نوح مع قومه في مقام الاحتجاج على المشركين

أ)- النصّ:

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى
وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ
غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى
ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ
خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

ب)- التّحقيق اللغويّ:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾: الخطاب لرسول الله. والتّلاوة: القراءة. والنّبأ: الخبر. ﴿كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي﴾: بمعنى: شق عليكم وأحرجكم. ﴿مَقَامِي﴾: أي إقامتي ومكثي فيكم. واستعمل المصدر الميمي: ﴿مَقَامِي﴾ للدلالة على شأن المرء

وحاله. ﴿أَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ﴾: إجماع الأمر: هو العزم على الفعل بعد التردّد بين فعله وفعل ضدّه. ﴿لاَ يَكُنَ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾: يجري هذا التركيب مجرى المثل، أي لا يكن أمركم في قصدي مستورا خفيا فيه شيء من التردّد في الإنفاذ. ﴿ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾: القضاء: يطلق لأداء الشّيء وتنفيذه، ويطلق بمعنى الحكم بالشّيء، وهو هنا بمعنى أنفذوا الأمر الذي تريدون بي ولا تمهلونِ، وعدّي ﴿اقْضُواْ﴾ بـ"إلى" لإفادة الإبلاغ والإيصال إلى متعلقه بالفعل. ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾: التولّي: الإعراض. والأجر: العوض الذي يعطى لأجل عمل يعمله آخذ ذلك العوض، أي ما طلبت منكم ثوابا على تذكيري ودعوتي. ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾: أي نجيناه من الغرق هو ومن معه في السّفينة. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ﴾: جمع خليفة، وهو الذي يخلف غيره أي في عمارة الأرض وإصلاحها.

ج)– أوجه القراءة:

﴿فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾: "شركاءكم" منصوب في قراءة الجمهور على أنه مفعول معه. و"الواو" بمعنى "مع". وقرأ يعقوب: ﴿شُرَكَآؤُكُمْ﴾ مرفوعا عطفا على ضمير ﴿فَأَجْمِعُواْ﴾، وسوّغه الفصل بين الضّمير وما عطف عليه بالمفعول، أي: وليجمع شركاؤهم أمرهم. ﴿ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ﴾: قرئ: ﴿أَفْضُواْ إِلَيَّ﴾: من الإفضاء إلى الشّيء، وهو الوصول والانتهاء إليه.

د)– البيان والتفسير:

قصص الأنبياء مع أقوامهم تكررت في القرآن بأساليب مختلفة مجملة ومفصّلة، ولكلّ منها موقعها المناسب، ويأتي بعضها هنا في أواخر هذه السّورة الكريمة تتميما لمحاجّة المشركين ممن كذّبوا رسول الله في دعوته بمكة، ولكل من

تبلغهم دعوته من المكذبين. وقد تخلّلت ذلك الحجاج الطّويل إيماءات تهدّد المكذّبين بالعاقبة الوخيمة في أثناء السّورة، آخرها قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (يونس:٤٧).

ففي مثل هذا القصص تسلية للرّسول وأصحابه حتى يثبت ويصبر، وهو متأكد بنصر الله له في نهاية المطاف، وتذكير للمكذّبين بمصير من سبقهم إتماما للحجة، وقد اختار الله قصة رسولين هما من أولي العزم، نوح وموسى وأردفهما في نهاية السّورة بقصة يونس مع قومه، فقال تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ**﴾.

أمر الله رسوله بأن يتلو على قومه قصة نوح مع قومه، وجاء الأمر معطوفا على قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾، لأن القصة تعتبر تكميلا لما سبق من ذلك الوعيد الشّديد بما تتضمنه من بيان سنة الله في خلقه واستدراج المكذّبين إلى نهايتهم بعد إقامة الحجة عليهم. وبعد التّمهيد بتلاوة نبأ نوح يأتي البيان للحدث مسبوقا بـ"إذ" وهو يدلّ على الزّمان الماضي، بمعنى: اذكر يا محمد لكفّار قومك خبر نوح مع قومه حين قال لهم في تحدّ وعزيمة.

وقد افتتح نوح خطابه لقومه: بـ"يَا قَوْمِ" لاستمالة نفوسهم إليه، ولفت أنظارهم إلى ما سيلقيه إليهم، وأنهم مهما عارضوه وكذّبوه فهم قومه وقبيله يريد لهم الخير والصّلاح. ومثل هذا الأسلوب في استئناس النّفوس الشّرودة هو من أخلاقيات الدّعوة التي يجب على الدّعاة أن يتأسّوا فيها برسل الله.

ويتركّب مقول القول من شرط وجزاء يتضمّن كلاهما قيودا متعدّدة:

أ- نجد في الشّرط قوله: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ

الله﴾. ويستعار الكبر للمشقة والحرج، وقد ثقل عليهم مقامه بينهم لطول مكثه ﷺ وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده لقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً﴾ (١٤). ثم لتجذّر الكفر في نفوسهم حتى ألفوه وتوغّلوا فيه بحيث أصبحوا يشمئزون من الحق وتأباه نفوسهم، وبالتّالي فهم ينفرون من التّذكير بآيات الله الدّالة على وحدانيته، وتلك هي الحالة الغالبة على المستغرقين في طلب اللّذات العاجلة، المنكرين للحياة الآجلة.

وفي جواب الشّرط تأتي قيود أخرى تعبّر كلها على التّصميم والتّحدّي لأولئك المكذبين -وهم في قوة ومنعة- وقد بلغوا من الحنق والكره لرسولهم ما يؤدي إلى الانتقام منه. ولذلك بادرهم بقوله ﷺ: ﴿فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ﴾، بتقديم الجار والمجرور ليبيّن لهم أن توكّله على الله وحده في تدبيره أمره معهم، فهو حسبه ونعم الوكيل، فتلك هي عدّته التي واجه بها قومه وهو يتحداهم بقوله: ﴿فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾.

فقد ألّبهم بفعل كلّ ما يملكون من وسائل المكر والكيد، يجمعون أمرهم عليه متضامنين لينفذوه بطريقة واضحة لا تستر فيها ولا لبس، وذلك بإحكام الخطة وإنفاذها تامّة جلية الحكم دونما انتظار ولا تردّد في التّنفيذ، وهذا نظير قوله تعالى باختصار في سورة هود: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ، إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ (٥٤- ٥٦).

إنه خطاب الواثق بربّه، المعتدّ بقوة إيمانه، المتيقّن بالنّصر، المتوكّل على العزيز الجبّار، الذي تتضاءل أمام قوته وجبروته كل الطّواغيت من أولياء الشّيطان.

ويقف نوح هذا الموقف الصّلب لأنه نفض يديه من كل مطمع يرجوه في قومه من قطع خير أو إيصال شرّ.

وصاحب الأمر متى تجرّد من تلك المطامع واعتمد على الرّازق الوهّاب، فإنه لا تستفزّه المغريات ولا تستميله المطامع. ولذلك فرّع على قومه جملة أخرى بالشّرط والجواب فقال: ﴿**فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنَ اجْرٍ انَ اجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنَ اكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾.

قال لهم ذلك ليؤكد لهم عدم خوفه من كيدهم لأنه ما أخذ عنهم مالا ولا أجرا على دعوته إياهم، فهو لا يأبه لتولّيهم عنه، لأنه لم يتسبّب بأي شيء في ذلك الإعراض بعد نفيه لأي نفع يطلبه منهم، إذ قصر أجره على الله وحده، وهو مأمور أن يطبق ما يدعوهم إليه من إسلام الوجه لله سواء أقبلوا أم أعرضوا.

وبعد إتمام حديثه إليهم فكيف كانت عاقبتهم بعد ذلك؟: ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ، فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ**﴾.

يختصر السّياق تفاصيل ما ورد في سورة هود من أخبار صنع السّفينة والطّوفان، وشحن السّفينة وإبحارها، ويقتصر على ما به الحاجة من موضع العبرة والعظمة في ذكر عاقبة القوم ومآل الدّاعية ومن آمن به، ومآل الكفار المكذبين، فقدم الإنجاد على الإهلاك لتعجيل المسرّة للمؤمنين وتسليتهم بوعد الله لهم بالنّصر والتّمكين، والتّعريض للمشركين بما يتهدّدهم من مثل ذلك المصير المشؤوم. فذكر الله سبب الإهلاك، وهو إصرارهم على التّكذيب ليقطع بذلك حجتهم لأن تكذيبهم قائم من قبل.

وكانت النّجاة من نصيب نوح والقلة المؤمنة معه واستخلافهم في الأرض على قلتهم لتنطلق منهم النّبتة الصّالحة بعد إهلاك أصول الشّرّ والفساد. وتلك سنة الله يتدبّرها ويعيها الرّسول وأصحابه وكل من يسمع القرآن، وأنّ الله يقطع دابر الكافرين بعد إقامة الحجة عليهم، والله أعلم.

تكذيب الأمم للأنبياء، وقصّة موسى مع فرعون

أ)- النصّ:

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟
بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم
مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا
جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ
لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ
فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ
أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: الضّمير يرجع إلى نوح وفيه إشارة إلى أنه أول الرّسل. وأهم ذكر الرّسل، وممن ذكرهم في غير هذه الآية: هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب. ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: الحجج الواضحة للدلالة على صدق دعواهم. ﴿نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: من الطبع وهو الختم على قلوبهم فلا يدخلها إيمان قطّ. ﴿وَمَلَإِي۟هِۦ﴾: هم خاصّة النّاس وسادتهم. ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: زيادة السّين والتّاء للمبالغة في خلق التّكبر. الإجرام:

الوصف منه مجرم وهو الجناية والذّنب العظيم. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: وصف السّحر بالمبين، أيْ شديد الوضوح لا لبس فيه. والسّحر هو التّخييل والتّمويه. ﴿لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾: لفت يلفت لفتا: صرف وجهه عن النّظر إلى شيء مقابل لوجهه. ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾: يشمل كل الأحوال التي كان آباؤهم متلبسين بها. ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِي الْأَرْضِ﴾: أيْ الملك وإظهار التّسلط والتّفوق على النّاس.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ﴾: قرأه الجمهور همزة وصل في أوله هي همزة "أل" فتكون "ما" في قوله: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ﴾ اسم موصول. و"السّحر" عطف بيان له. وقرأه أبو عمرو وأبو جعفر: ﴿آلسِّحْرُ﴾ بهمزة استفهام في أوله وبالمدّ لتسهيل الهمزة الثّانية. فتكون: "ما" استفهامية ويكون: ﴿آلسِّحْرُ﴾ استفهاما مبيّنا لها، وهو مستعمل في التحقير.

د)- البيان والتّفسير:

قبل أن يثني الله بقصة موسى مع فرعون وقومه، عطف بـ"ثم" على قصة نوح فذكر بعثة رسل كثيرين إلى أممهم فتلقتهم بمثل ما تلقّى به قوم نوح رسولهم بالكفر والتّكذيب، فتعرضت تلك الأمم إلى ما تعرّض إليه قوم نوح من الختم على قلوبهم وإهلاكهم، عسى أن يتعظ بذلك أهل مكة فقال جلّ من قائل: **﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾**.

العطف بـ"ثم" للتراخي الرّتبي، إذ كان بين نوح وموسى فترة زمنية طويلة، نشأ فيها أقوام عديدون. وهكذا يحمل النّصّ المسار البشري بين نوح وموسى،

فيذكر على الإجمال بعثة رسل عديدين إلى أقوامهم، وكيف جاءوهم بالبيّنات الدّالّة على صدقهم، أي كلّ على حسب ما يناسب قومه من الأدلة والبراهين ومن المعجزات الواضحة لصدق دعواهم، فترتب على ذلك أنهم لم يؤمنوا، وجاء النّفي بـ"لام" الجحود للمبالغة في نفي الشّأن، لأن قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ﴾ مؤذن بأنّ التّكذيب حاصل من أول أمر الدّعوة، واستمرّوا على التّكذيب بعد مجيء البيّنات، لأن شأنهم كذلك، إذ ختم الله على قلوبهم، فلا يدخلها إيمان قطّ كشأن من سبقوهم في الكفر، والكفر اعتداء وظلم يؤدّي بأصحابه إلى مثل ذلك الطّبع على القلوب، وهو سنّة مطّردة تكون آثارها حتمية على كل من اختار طريق الكفر والضّلال مثل كفار قريش بالنّسبة لدعوة رسول الله، لأنهم بموقف التّكذيب صاروا متصفين بالاعتداء والظّلم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ بِئَايَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾:

قصة موسى مع فرعون تأتي هنا ملخّصة في مشاهد معيّنة مما تدعو إليه حاجة الموعظة والتّذكير، تأتي بعد طيّ الفترة الزّمنية لكثير من الرّسل مع أقوامهم، لأن بعثة موسى وهارون -عليهما السّلام- كانت ذا طابع خاصّ في أطوارها وفي مضامينها، وكانت إلى نوع من الأقوام بلغوا الحدود القصوى في الطّغيان والجبروت استخفافا بحق الألوهيّة والرّبوبية واستذلالا للمستضعفين. ونظرا لثقل الأمانة وصعوبة المهمّة التي كلّف الله بها موسى في تأسيس أمة بني إسرائيل وتصميم كيانها الاجتماعي واتخاذ وطن مستقلّ لها، جعل الله معه أخاه هارون مؤيّدا وناصرا، استجابة لطلب موسى ذلك من الله إذ قال: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾. (طه:٢٩-٣٢).

وتكررت هذه القصة في القرآن بأشكال وأساليب مختلفة -أيضا- وفق ما

يقتضيه سياق كل سورة، وهي مفصّلة أكثر في سورة الأعراف كما تقدم. وهي هنا تتناول خمسة مشاهد:

أ)- المشهد الأول: يقول تعالى فيه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ، قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ، قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

بعد التّقديم للمشهد بوصف جوّ فرعون وقومه في منتهى الطّغيان والإجرام، ينتقل السّياق مباشرة إلى ذكر الحوار الذي تبادله كلٌ من موسى وفرعون في أول لقاء رسمي بينهما، أي بعد أن بعثه الله رسولا إليه، فذكر الله أنّ مجيء الحقّ لهم من عنده بصفة مجملة، وقد فصّل ذلك في سورة الأعراف وغيرها، وكما دلّت البيّنات التي أيّد الله بها موسى على مجيء ذلك الحق من عند الله دليلا على صدق موسى في دعوته، فكان جواب القوم -وقد انبهروا بما أتاهم به- أن قالوا في عناد واستكبار: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي هو من قبيل التّخيّلات والتّمويهات السّحرية، فأكّدوا كلامهم بعدّة توكيدات، وبوصف السّحر بأنه واضح مبين لإثبات دعواهم في تبرير تكذيبهم لرسولهم. غير أن موسى عليه السلام ردّ عليهم في تقريع وإنكار: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾، وقد حذف مقول القول لدلالة ما بعده عليه: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾. صدّرت الجملة -أيضا- بالاستفهام الإنكاري لتأكيد التوبيخ. وتكرّر ذكر مجيء "الحق" في جواب موسى لإثبات حقية دعواه، وأنها لا يمكن أن تكون سحرا، وقد رأوا تلك الآيات بأعينهم؛ أي انقلاب العصا ثعبانا مبينا وتلقفها لكلّ ما هيأه السّحرة وإبطالها لشعوذتهم وتمويهاتهم.

ولتقوية ذلك الإنكار لآيات الله أن تكون سحرا زاد موسى قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾، فأبان بذلك فساد ما يعتقدونه من السّحر وسوء عاقبة من

يتعاطاه؛ وليس من الحكمة ولا من العقل في صاحب حرفة أن يحقرها ويحكم بفسادها في أعين مريديه.

فكيف كان جواب القوم، وقد لزمتهم الحجة وأفلسوا في إقناع أنفسهم بعد ما شاهدوه من الحق الواضح؟، لقد برّروا موقفهم في التّكذيب والرّفض بأمرين:

أ)- بقولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾، فقد أظهروا باستفهامهم الاستدراجي لموسى أن يقرّ بما يضمرونه في نفوسهم من الدّوافع السّيّئة لاتخاذ ذلك الموقف وهي أنه جاء ليصرفهم عن دين آبائهم وأجدادهم وعن تلك المعتقدات التي نشأوا عليها، وهذه حجة وهمية تنمّ عن التّقليد والإصرار.

ب)- ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِي الأَرْضِ﴾: ويلاحظ أنهم في أمور الدّعوة وجّهوا الخطاب لموسى وحده، لأنه هو الذي باشرها وأسندها بالمعجزات، وأمّا في ما ينتج عن الدّعوة من النّصر والتّمكين فقد أشركوا معه هارون لأنهما يشتركان فيها، أي طلب زينة الدّنيا، والسّلطة والجاه. والتّعبير بالكبرياء في الأرض ينمّ عن السّياسة الاستبدادية التي كان لقب "فرعون" -وهي لقب الملك في مصر- كان نموذجا لها من بعد في كل زمان ومكان، فيقال: فرعون هذا العصر، أو هو فرعون في قومه. وبناء على ذلك التّعليل صرّح القوم بموقفهم فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُومِنِينَ﴾، والصّيغة تدلّ على انتفاء إيمانهم انتفاء متمكّنا مستمرّا على الدّوام. وما يزال مطلب الدّنيا وزينتها هما ذريعة كلّ من يتصدّى للدعوات الصّالحة بالصّد والمعارضة، فيكون الصّراع بين الحق والباطل، وتكون النّصرة للحق في نهاية المطاف.

وليظهر القوم للناس صحة دعواهم بأن ما أتى به موسى هو السّحر، طلب فرعون من ملإه إحضار السّحرة المهرة لمعارضة معجزة موسى: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ايتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ، فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُواْ مَآ أَنْتُم**

مُّلْقُونَ. فَلَمَّآ أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ، وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

انتقل السّياق إلى المشهد الثّاني من القصة بالعطف على المشهد الأول، إذ أمر فرعون حاشيته أن يأتوه بكل ساحر عليم يعرفونه في مملكتهم ظنا منهم أنّ ما أتى به موسى لا يعدو أن يكون من نوع ما شاع بينهم من السّحر فيعارض بمثله، وأن القضية ليست بمعجزة من الله كما يدّعيه موسى. واستغنى النّصّ هنا عن ذكر الجزئيات التي وردت في الأعراف وغيره من تجمّع النّاس لميقات يوم معلوم، وإغراء فرعون للسحرة بمقام رفيع إن هم انتصروا على موسى، ثم تخييرهم لموسى في أن يبدأ هو أو أن يبدؤوا هم في إلقاء ما عندهم. فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾، أي أمرهم بإلقاء حبالهم وعصيّهم ليظهر باطلهم أمام النّاس.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ﴾: كان سيّدنا موسى واثقا بربّه معتزًا بما معه من معجزة الله، إذ لم يبال أن يكون معارضوه هم المبتدئين، لأنّه متيقّن أنّ ما عنده سيدمغ باطلهم بعد أن يستنفدوا ما لديهم من حيل. وقد أبهم النّصّ تلك الوسائل التي استعملوها، وما لقيه الذين آمنوا بموسى، لأن الغرض هنا هو إظهار جبروت فرعون وتحدّيه للحقّ، وكيف واجه ذلك موسى بإصرار حين بيّن لهم دونما خوف ولا تردّد فقال: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾، أي هذا الذي أتيتم به هو السّحر بعينه، لا ما جئتكم به من عند الله فوصفتموه ظلما بأنه سحر. والإخبار بأنّ الله سيبطله بمعنى يفضح الله سرّه فلا يكون له تأثير على نفوس الناس، على معنى قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ (١٠٢). ثم ذيّل الكلام بما فيه نفي الإصلاح في ذلك العمل الخسيس الذي من شأنه الإفساد، والفساد مآله الاندحار

والتلاشي أمام الحق الذي يركّزه الله تعالى وينصره بقدرته المؤيّدة لرسله. وكلمات الله هي تعلق قدرته تعالى بالإيجاد، وهو المعبّر عنه بالتكوين. ولو كره المجرمون من أمثال فرعون وملئه ذلك النّصر لإحقاق الحقّ، والله أعلم.

إيمان بعض من قوم موسى وإرشاده لهم

أ)- النص:

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن
يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ
إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا
رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ
إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾: ءَامَنَ: أصله "أأمن" بهمزتين، إحداهما أصلية والثانية مزيدة للتعدية، وهو بمعنى صدّق، وعدّي باللاّم للتفرقة بين "آمن" بمعنى صدّق أي من الأمانة، وبين "ءَامَنَ" بمعنى جعله في أمن، وتسمّى "لام التبيين" وقد يعدّى بالباء لتضمنه معنى صدّق. والذّرية: في الأصل لصغار الأولاد، وتطلق عرفا للصغار والكبار. ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾: بمعنى آمنوا مع خوفهم. ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾: من الفتن، وهو إدخال الرّعب والاضطراب على العقل بسبب تسليط ما لا تستطيع النّفس تحمّله، والمصدر المؤوّل بدل اشتمال مجرور. ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ

في الأرْضِ﴾: من العلوّ، وهو مستعار للغلبة والاستبداد. ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾: الإيمان هو تصديق الرّسول فيما جاء به وهو عمل قلبي، والإسلام: النّطق بما يدل على الإيمان وهو عمل جسماني. وفي الجملة تعليق الشّرط على الشّرط. ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾: التّبوّؤ: اتّخاذ مكان للسكنى وهو من "البوء" أي الرّجوع. ﴿وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾: القبلة: اسم لجهة الكعبة، وهي ما بين المشرق والمغرب، فتكون جهة القبلة هي الجنوب، ومن معانيها أن يجعلوا بيوتهم محلّ صلاتهم.

ج)- البيان والتّفسير:

هذا هو المشهد الثّالث من قصّة موسى مع فرعون وملائه، تفرّع عن المشهد الثّاني، وقد أصرّ القوم على التّكذيب والإعراض بالرّغم مما شاهدوه من المعجزات على يد موسى عليه السلام، فأخبر الله هنا بأنه لم يؤمن به إلاّ طائفة من قومه بني إسرائيل مع خوفهم من فرعون أن يردّهم قهرا إلى ما كانوا عليه من الكفر، قال تعالى: **﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾**.

بين المشهدين أحداث طواها النّصّ، إذ المقصود هو محلّ العبرة بإظهار نتيجة دعوة موسى على ما أوتيه من المعجزات الباهرة، إذ أصرّ القوم على كفرهم وعنادهم، حتى يكون في ذلك تسلية للرسول وأصحابه، فلا يغتمّون لإعراض قومهم وإصرارهم على الكفر. فمن هي هذه الطّائفة المؤمنة القليلة؟.

فالتّعبير بلفظ "الذّرية" والاحتمال الوارد في مرجع الضّمير ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ أهو لموسى أم لفرعون؟، جعل المفسّرين يختلفون في تحديد تلك الطّائفة. فأما قلّتها ونوع أفرادها فمستفاد من لفظ "الذّرية" إذ قال ابن عباس: "لفظ الذّرية يعبّر به

عن القوم على وجه التحقير والتصغير، وأما عود الضّمير فالأظهر أنه يعود إلى موسى، لأنه أقرب المذكورين". وقيل: "هم الأحداث من المراهقين والشّبان".

وقوله: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾، أي إنّ أولئك المؤمنين بموسى كانوا خائفين من بطش فرعون، وكان يخشى أن يفتنهم القوم عن إيمانهم بالتّعذيب والتّنكيل، إذ كان فرعون وملؤه يتجاوزون كل الحدود ويسرفون في البغي والطّغيان، وعلى ذلك الخوف كان هؤلاء المؤمنون في حاجة إلى ما يزيل خوفهم ويثبّت قلوبهم على الحق. وكان على الرّسول الدّاعية أن يرشدهم إلى أسباب ذلك فنادى موسى قومه: **﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ، فَقَالُواْ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾**.

لقد أفرزت هذه المواجهة طائفتين متميّزتين، وعلى رأس كلّ منها زعيم يسعى لجمع قومه وتحريضهم للوجهة التي يختارها، فبعد أن استنفر فرعون قومه بما حكى الله عنه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾، نجد موسى بعد أن انتهت المواجهة بنصره وإيمان طائفة من قومه نجده يوجّه إليهم هذا النّداء بـــ"يا قوم"، تحبّبا إليهم واستمالة لعاطفتهم، بينما نلاحظ الجفاء والغلظة في خطاب فرعون لقومه. والغرض من نداء موسى هو تثبيت الذين آمنوا به بتوكّلهم على الله، لأن ذلك يجسّد حقيقة إيمانهم بالعمل، حتى يعتمدوا على الله ويثقوا بنصره، لأن الإسلام الذي جاء شرطه معلّقا على شرط الإيمان في نداء موسى معناه الاستسلام والانقياد للتكاليف الصّادرة عن الله تعالى، وإظهار الخضوع والإجلال لعظمته.

وفعلا فقد كان لذلك النّداء أثره البليغ في نفوسهم فلم يتردّدوا في الاستجابة فورا: ﴿فَقَالُواْ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ

مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، أعلنوا توكّلهم على الله وحده بصيغة القصر، ثم توجّهوا بالدّعاء إليه مخلصين. ويلاحظ في الدّعاء طلب الوقاية أولا بقولهم:

أ)- ﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: لأن الفتنة في الدّين هي شرّ ما تصاب به المجتمعات المؤمنة، حين يتسلّط الفسقة الظّلمة فيتمكّنون من ناصية المؤمنين، وفي جوّ الفتنة يكون المفتون والفاتن، وفي كلتا الحالتين هم يسألون الله أن لا يتسلط عليهم الظّلمة فيفتنوهم، وأن لا يفتن بهم غيرهم فيلجوّن في كفرهم وعنادهم.

ب)- طلب السّلامة والنّجاة: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، لأن العيش في كنف الكفر كما يقول فيه قطب الأئمة -رحمه الله-: "معاشرة الأشرار مصيبة تتعب الأبرار وتزيد في فجور الفجّار". وفي كل حالة فإن التوكّل على الله يقتضي اتخاذ الأسباب التي تحصّن الإيمان والدّين، وتردّ عنهما غوائل الظّالمين المعتدين. وبعد ذلك تستنزل رحمات الله وألطافه بمثل هذا الدّعاء، وقد جاء مثله على لسان إبراهيم والذين آمنوا إذ قالوا بعد معارضتهم وتبرئتهم من عبدة الأوثان ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الممتحنة:٤-٥).

وعندما يتمحّض الإيمان لله تعالى، ويعتمد عليه في ردّ مكائد الأعداء، فإن الطّائفة المؤمنة تحتاج إلى مزيد من شحن القوة الرّوحية وإذكاء الطّاقة المعنوية لمواصلة السير في طريق الله، وذلك هو ما أرشد الله إليه موسى وأخاه هارون فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فما المراد من تبوّء البيوت بمصر؟، فإذا كان المراد من التبوّء اتخاذ المبوّأ أو المباءة، أي مسكنا ثابتا يرجع إليه، فما نوع تلك البيوت؟، وأين كان يسكن قوم

موسى من قبل؟، وعلى أيّ كيفية يتخذون البيوت المأمور بها؟. أسئلة عديدة اضطرب المفسّرون في الإجابة عنها، والذي يدلّ عليه السّياق وتدلّ عليه الرّوايات أن بني إسرائيل كانوا يسكنون في مصر، أما تحديد نوعية البيوت ومكانها فليس في النّصّ القرآني ما يحدّده. إلا أن فعل: ﴿تَبَوَّءَا﴾ يفيد بأنها مساكن للالتجاء والسّكن. وقيل: هي خاصّة بالعبادة بدليل قوله: ﴿وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾، أي متجهة نحو القبلة صوب بيت المقدس -وهو قبلة اليهود إلى اليوم- أو صوب مكة. ومن قال: إنها بيوت عادية، وليست مخصّصة للعبادة فسّر قوله: ﴿وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ بأنها يقابل بعضها بعضا.

وللإمام ابن عاشور رأي آخر في نوعية تلك البيوت نورده بنصّه لما فيه من ملاحظة دقيقة أسندها بما ورد في سفر الخروج فقال: "فالذي يظهر بناء عليه أن هذه البيوت خيام أو أخصاص أمرهم الله باتّخاذها تهيئة للارتحال، وهي غير ديارهم التي كانوا يسكنونها في "جاسان" قرب مدينة فرعون، وقد جاء في التّوراة ما يشهد بهذا التّأويل في الفصل الرّابع من سفر الخروج: إن الله أمر موسى أن يخرج بني إسرائيل إلى البادية ليعملوا عيد الفصح ثلاثة أيام، وأن ذلك أوّل ما سأله موسى من فرعون، وأن فرعون منعهم من ذلك، وأن موسى كرّر طلب ذلك من فرعون، كلّ ذلك يمنعه. كما في الفصل السّابع والفصل الثّامن من سفر الخروج، وقد صار لهم ذلك عيدا بعد خروجهم".(١)

ثم قال بعد ذلك في تفسير القبلة: "والحكمة في جعل البيوت إلى القبلة أن الشّمس تدخلها من أبوابها في غالب أوقات النّهار في جميع الفصول، وفي ذلك منافع كثيرة".(٢)

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتنوير: ٢٦٥/١١.

٢- المصدر نفسه، ٢٦٦/١١.

﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤمِنِينَ﴾: أمروا بالمحافظة على الصّلاة فلا يثنيهم عنها خوف ولا شغل لأن حالة التّعبئة للخروج ووضعيتهم أمام جبروت فرعون تجعلهم في حالة مضطربة قد يسهون عن صلاتهم. وقد قيل في جملة تفاسير هذه الآية: إن فرعون أمر بتخريب مساجد بني إسرائيل ومنعهم من الصّلاة، فأمرهم الله أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلّوا فيها. كما أورد ذلك الإمام الرّازي: "وفي هذه الحالة المربكة أمر الله موسى أن يبشر قومه بالنّصر وحسن العاقبة فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤمِنِينَ﴾، فأظهر وصف المؤمنين ليشمل هذا الوعد كل المتصفين بالإيمان، كما خصّ هذا الأمر بموسى عليه السلام لأنه هو المأمور بالدّعوة والتّبليغ".

والله أعلم.

دعاء موسى على فرعون وملإه، واستجابة الله له

أ)- النصّ:

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

ب)- التّحقيق اللغويّ:

﴿ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً﴾: الزّينة: ما يتزيّن به النّاس، وما يحسن في أنظارهم من طرائف الدّنيا، كما ورد في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ

وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ (آل عمران:١٤). والأموال: ما به قوام المعاش ومنها ما تقدم فهو تعميم بعد تخصيص. ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾: للمفسّرين تأويلات في معنى "اللام" وهي للعاقبة والصّيرورة، وهي الدّالة على أنّ ما بعدها أثر وغاية فعلية لمتعلقها يترتب عليه بالفعل لا بالسببية، لأنّ وجود النّعم على الكفر استدراج. ولذلك قال البعض: هي للتعليل. ﴿اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: الطّمس: المحو والإزالة، واشدد بمعنى الشّدّ أي العسر، حتى يقعوا في الشّدة. فيزيدون قساوة وإصرارا. ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾: من الاستقامة والاعتدال وملازمة طريق الحق والرّشد.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لِيُضِلُّوا﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب قرأوا: ﴿لِيَضِلُّواْ﴾ بفتح الياء. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بضمّ الياء على معنى سعيهم في تضليل النّاس. ﴿وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ﴾: قرأه الجمهور بتشديد النّون مكسورة وهما نونان: إحداهما للمثنى والأخرى للتوكيد. وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر: ﴿وَلاَ تَتْبَعَانِ﴾ بنون خفيفة مكسورة، أي نون رفع المثنى لا نون التّوكيد، فتعيّن على هذه القراءة أن تكون "لاَ" نافية غير ناهية.

د)- البيان والتّفسير:

بعد أن انحسم الموقف بين موسى بدعوته ومعجزاته، وبين فرعون وملائه بالإصرار على الجحود والعناد والاستكبار، لم يجد موسى بدّا من الدّعاء عليهم، وبيان سبب تلك الجرائم التي ارتكبوها، بأنه حبّ الدّنيا وانغماسهم في التّرف والنّعيم الذي أبطرهم فقال جلّ من قائل: **﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيَضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ**

أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُومِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الاَلِيمَ﴾.

لقد تحقق النّصر لموسى وأخيه إذ تجمّع من حولهما طائفة من المؤمنين، وهم يتهيأون للخروج من مصر في تعبئة دينية ودنيوية، وما تزال ألطاف الله تترى عليهم بمختلف المعجزات والكرامات. وما يزال فرعون وملؤه مزهوّين في ترفهم ونعيمهم الدّنيويّ، وليس لموسى أمام تلك القوّة العاتية إلا أن يجأر بالدّعاء إلى الله عليهم أن يسلب عنهم تلك النّعمة حتى يعلو الدّين والحق الذي جاء به، فمهّد لدعائه ببيان سبب طغيان فرعون وملائه، بأنه زينة الدّنيا ومختلف الأموال التي فتنوا بها، وأغراهم ذلك على الاسترسال في الجبروت والطّغيان، وتلك شنشنة الإنسان عندما تخطئه التّقوى والإيمان: ﴿كَلاَّ إِنَّ الانسَانَ لَيَطْغَىٰ، أَن رَّءاهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (العلق:٦-٧).

افتتح موسى دعاءه بنداء ربّه، وذلك أدعى لاستنزال اللّطف والرّعاية، وبصيغة الجماعة لأنها أرجى للقبول والاستجابة، فقدّم على عبارات دعائه قوله: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾. وعند المحققين أن هذه "اللام" هي لبيان العاقبة والصّيرورة، بمعنى أن إعطاء تلك الأموال تكون في ما هو غالب على طبع الإنسان، تكون سببا للطغيان والضّلال، فموسى بتقديم ذلك الإخبار على دعائه لا يقصد الانتقام لنفسه وقومه، بل يقصد الانتصار لدينه ودعوته. وهو في هذا الموقف العادل كسلفه نوح ﷺ عندما يئس من إيمان قومه فدعا عليهم بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الاَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً، اِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُواْ إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ (نوح:٢٦-٢٧). وقيل: إن اللاّم للتعليل على اعتبار أن الله آتاهم تلك الأموال استدراجا لهم.

وأعاد موسى نداء ربه لتأكيد التّذلّل ورجاء الاستجابة: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، وطلب الطّمس على الأموال هو بمعنى إزالتها ومحوها بمختلف الأسباب والآفات، وفي ذلك نوع من التّربية من الحق تعالى لخلقه،

كما قال في سورة الرّوم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١). والشّدّ على القلوب بمعنى إخراجها والتّضييق عليها لأن القلوب مستودع للعواطف الإنسانية، فإذا وقعت في حرج وضيق انتابتها الهموم والأحزان فلا تستطيب تلك الزّينة ولا تتمتع بتلك الأموال، وقد يكون ذلك سببا لمراجعة موقفهم من الدّعوة بالكفر والضّلال.

أما قوله ﷺ: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، فقد بيّن به سبب إيمانهم وهو وقوعهم في العذاب الأليم، إذ انطلق موسى من واقعهم في الغلظة والقساوة فلا تجدي فيهم الموعظة الحسنة ولا المعجزة الباهرة، فشأنهم هو شأن من لا يذعن إلا للغلظة والقساوة.

استجاب الله هذا الدّعاء، فجاءت صيغة الاستجابة بصيغة التثنية على أساس أن الدّعوة كانت واحدة من موسى وأخيه على وجه التّكامل والتآزر أو أن أحدهما وهو موسى كان يدعو وأخوه يؤمّن: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ولإفادة حصول الاستجابة جاء الإخبار بـــ"قد" وبالفعل الماضي لتحقيق الوقوع في المستقبل، وفرّع على تلك الإجابة أمرين:

أ)- الأمر بالاستقامة: وإذ كانا مستقيمين -لا محالة- فإن الأمر بذلك يقتضي الثّبات والدّوام على الاستقامة، أي ملازمة الهدى والرّشد ومتابعة الدّعوة إلى الله على طريقه المستقيم.

ب)- ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فهو نهي على القراءة بالنّون المشدّدة، لأن من شأن الذين لا يعلمون استعجال الأمور قبل أوانها، والله تعالى لا يغيّر من سننه في تقرير الآجال والمواقيت للأعمار والأقدار. ومن شأن الذين لا يعلمون ضعف الوازع الدّيني، فتخور عزائمهم لأدنى اختبار يتعرّضون له. ومظاهر

تلك الاستجابة كانت في ما حلّ بفرعون وقومه من الكوارث والمصائب، وكانوا كلما ضاقت بهم السّبل وعظم الخطب التجأوا إلى موسى فيدعو الله ليرفع عنهم الرّجز، وقد تقدم تفصيل ذلك في سورة الأعراف.

وفي نهاية المطاف أذعن فرعون فأذن لموسى لقومه بالخروج، ثم كان ما كان من لحاقهم بجنده وقوته وإهلاكهم في البحر في آخر ما يتناوله سياق القصّة.

والله أعلم

إغراق فرعون، ومبوّأ الصّدق لبني إسرائيل

أ)- النصّ:

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى
إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا
مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ
بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) وَلَقَدْ
بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ
رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾: جَاوَزْنَا: من جاز المكان وجاوزه وتجاوزه، إذا ذهب فيه وقطعه حتى خلّفه وراءه، أي قطعنا بهم البحر، و"الباء" للتعدية، أي جعلناهم قاطعين البحر. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾: يقال: تبعه فأتبعه إذا سار

خلفه فأدركه. ﴿بَغْياً وَعَدْوًا﴾: البغي: الظّلم. والعدْو: مصدر "عدا"، وهو تجاوز الحدّ في الظّلم. ﴿ءَالآنَ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، و"ءالآن" اسم ظرف للزمان الحاضر. ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾: أي نلقيك على نجوة، وهي المكان المرتفع من الأرض، والبدن: الجسم بدون روح، و"الباء" مزيدة للتأكيد. ﴿ءَايَةً﴾: أي عبرة وعظة. ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾: بَوَّأْنا: أي أنزلناهم منزل كرامة، وأضيف إلى الصّدق للدلالة على صدق وعد الله. ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ﴾: المراد بالعلم إما ما جاءهم به أنبياؤهم، أو ما جاء في القرآن.

ج)- أوجه القراءة:

﴿ءَامَنتُ أَنَّهُ﴾: قرأ الجمهور: "أَنَّهُ" بفتح همزة "أن" على تقدير "باء" الجرّ محذوفة، وقرأه حمزة والكسائي وخلف بكسر الهمزة على اعتبار "إن" واقعة في أول الجملة، وأن جملتها بدل من جملة: ﴿ءَامَنتُ﴾.

د)- البيان والتّفسير:

يأتي المشهد الأخير من قصّة موسى مع فرعون، بعد استجابة الله لدعاء موسى وهارون، وبعد أن تهيّأوا للخروج ويسّر الله لهم أسبابه، وتذكر هذه الآيات كيف كانت خاتمة القصّة بتأييد الله لموسى وأخيه ونصرهما على أكبر طاغية يومئذ على وجه الأرض فقال تعالى: **﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّىٰ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُواْ إِسْرَآءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾**.

كان أمر الله لموسى أن يستعدّ للخروج من مصر مع قومه عندما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً﴾، وكان ذلك تمهيدا لبيان رحلة الخروج التي جعلها الله سببا لإهلاك فرعون وجنوده. فقوله تعالى

هنا: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ﴾ معطوف على الجملة التّمهيدية السّابقة، ومجاوزة المكان هي قطعه، وإسناد الفعل إلى ضمير العظمة: "جَاوَزْنَا" للدّلالة على قدرة الله ورعايته لموسى بفلقه البحر وجعله طريقا يبسًا للمرور بأمن وسلامة كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدَ اَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنَ اَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَىٰ﴾ (٧٧).

ووصف الله لحاق فرعون بهم بأنه بغي وعدوٌ لتأكيد فظاعة ذلك البغي وتجاوزه الحدّ في الظّلم والعدوان، لأن سلطة فرعون على بني إسرائيل قد انتهت بخروجهم من مملكته، ثم إنه قد أذن لهم بالخروج، فلحاقه بهم على ذلك ليردّهم قسرا هو محض العدوان والظّلم. ولم يكفّ عن اللّحاق بهم حتى أدركه الغرق، وذلك بعد أن نجّى الله بني إسرائيل على الضّفة الأخرى من البحر، وكان فرعون وجنوده قد نزلوا كلهم في ذلك الطّريق المضروب، فأطبق الله أمواج البحر كما كانت، فأصبحوا يعالجون الموت مع الأمواج إلى غاية انتهائهم إلى الغرق.

وجملة: ﴿حَتَّىٰ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لآَ إِلَهَ إِلاَّ الذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُواْ إِسْرَآءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ تفيد أن الأمواج لم تنطبق عليه جملة واحدة، وذلك نكاية في تعذيبه وهو يعالج الموت، وعند بداية الغرق أدركته داعية الإيمان لما شاهده من رعاية الله لموسى وقومه، ولم يكد ينطق بالشّهادة حتى يئس من الحياة، مما يدلّ على شدة صلابته في الكفر والطّغيان.

وعند تأمّلي لعبارة الشّهادة التي نطق بها فرعون، استرعت انتباهي تلك الصّلة التي ذكرت إيمان بني إسرائيل ولم يقل مثلا: "آمنت أنه لا إله إلا الله". فوجدت تفسيرين للإمام الرّازي والإمام ابن عاشور:

أ)- يقول الإمام الرّازي: "إن ذلك الإقرار كان مبنيا على محض التّقليد، ألا ترى أنه قال: ﴿لآَ إِلَهَ إِلاَّ الذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُواْ إِسْرَآءِيلَ﴾، فكأنه اعترف بأنه لا

يعرف الله، إلاّ أنّه من بني إسرائيل وأنّ للعالم إلها، فهو أقرّ بذلك الإله الذي سمع من بني إسرائيل أنهم أقرّوا بوجوده فكان هذا محض التّقليد، فلهذا السّبب لم تصر الكلمة مقبولة منه". [1]

ب)- يقول الإمام ابن عاشور معبّرا عن نفس الفكرة، ولكن بتحليل أدقّ، قال: ﴿الذي ءَامَنَتْ به بَنُواْ إسْرَآءِيلَ﴾ ليفيد مع اعترافه بالله تصويبه لبني إسرائيل فيما هُدُوا إليه، فجعل الصّلة طريقا لمعرفته بالله، ولعدم علمه بالصّفات المختصّة بالله إلا ما تضمنته الصّلة، إذ لم يتبصّر في دعوة موسى تمام التّبصّر، ولذلك احتاج أن يزيد "وأنا من المسلمين"، لأنّه كان يسمع من موسى دعوته لأن يكون مسلما، فنطق بما كان يسمعه، وجعل نفسه من زمرة الذين يحق عليهم ذلك الوصف". [2]

قلت: قد أطال المفسّرون في بيان رفض ذلك الإقرار وذكروا لذلك احتمالات لا تخلو من غرابة. ثم إن القول بقبول توبة فرعون كما ذهب إليه البعض لا قيمة له، إذ النّصوص القطعية تردّ ذلك كما جاء بعد هذه الآية بالذّات، وكما تقدم في شروط قبول التّوبة في سورة النّساء، وقوله تعالى في سورة غافر: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٥).

وقد أجيب فرعون في دعوته تلك لطلب الإنجاء من الهلاك، والمجيب هو الله على لسان الحال، أو هو جبريل بلسان المقال، أجيب بأسلوب تهكّميّ وتقريعيّ: **﴿ءَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾**.

١- الفخر الرازي، مفاتيح الغيب،١٧/١٥٤.

٢- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتنوير، ١١/٢٧٦.

﴿ءَالآنَ﴾: استفهام إنكاريّ أن يكون ذلك الوقت الذي حدث فيه الغرق ظرفا ينفع فيه الإيمان، وفي هذا الرّدّ تيئيس لفرعون من النّجاة في الدّنيا والآخرة، وأضيفت للظّرف جملة حالية: ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لتأكيد معنى الإنكار في الاستفهام: ﴿ءَالآنَ﴾، وذلك لسببين:

أ)- العصيان والتّمرّد على الله حتى ادّعاء الرّبوبية.

ب)- الإفساد في الأرض بالظّلم والطّغيان.

وحتى يبقى عبرة للمعتبرين، أخرج الله جثّته الهامدة ليشاهدها من كان يظن أن فرعون لا يلحق به الهلاك والفناء. وقوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، والظّرف: "خَلْفَكَ" مستعمل للمتأخر والباقي، والمعنيّون الأوّلون هم من يخلفه من الفراعنة وحاشيتهم، بل حتىّ من بني إسرائيل ممن لا تزال رهبة فرعون في نفوسهم. وكم في هذه الآيات من عبر دالة على قدرة الله وعظمته، ولكنّ أكثر النّاس يغفل عنها جهلا أو سهوا، أو قهرا وإذلالا.

ولذمّ الغفلة وسوء عاقبتها في حياة الفرد والمجتمع جيء بالجملة مؤكدة بـــ"إنّ" وبعدم تعميم الحكم على كلّ النّاس، وقال بعض المفسّرين: "لم يعدم فرعون فائدة من إيمانه، فإنّ الله بحكمته قدّر له الخروج من غمرات الماء، فلم يبق طعما للحيتان كبقية جيشه ممن غرق، وذلك أقلّ خزيا منهم".

وبالمقابل يذكر الله تعالى نعمته على بني إسرائيل كيف كان مصيرهم بعد غرق فرعون فقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾**.

جاءت في هذه الآية نهاية قوم موسى بني إسرائيل، كيف مكّنهم الله من

أرض الميعاد، كما أصبحوا الوارثين لخيرات تلك الأرض، واستقرّ فيها ملكهم وعظمت دولتهم سيما على عهد داود وسليمان. وقد طوى النّصّ مسارهم في تلك الرّحلة وما عاشوه في التّيه من معجزات الرّزق بتفجير ينابيع الماء، ونزول المنّ والسّلوى، وذلك يتلخص في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، تلك كانت نعمة الإيمان والصّبر والاستقامة على طريق الله: التّمكّن والاستقرار، والرّخاء والازدهار، مع الوحدة والتّوافق على نهج الله.

﴿فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ﴾: والضّمير يرجع إلى المتحدث عنهم من بني إسرائيل، كما أن مجيء العلم لهم فيه احتمالان للمفسرين:

أ)- أن المراد من بني إسرائيل اليهود الذين كانوا في زمن موسى وأن العلم هو ما جاءهم به أنبياؤهم من شرع الله، وأعظمه التّوراة على يد موسى، والزّبور على يد داود والإنجيل على يد عيسى.

ب)- أن المراد بهم هم يهود المدينة: "قريظة وبنو النّضير وبنو قينقاع، قاله ابن عباس. والعلم هو القرآن وكلا الفريقين من الآباء والأجداد، أو الأبناء والأحفاد، قد قامت عليهم حجة الله، وتبيّنوا وجه الحق والصّدق إن في كتبهم أو في ما أوحى الله به لمحمد ﷺ فقد كانوا يفاخرون العرب في التّبشير به كما قال الله عنهم في سورة البقرة: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨٩).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وهو تذييل مناسب بتوعّد يقصد به العبرة للحاضرين حتى يجتنبوا التّفرقة والخلاف في أمور الدّين، لأنّ الدّين وسيلة للتجميع لا للتفريق وفيه دلالة أنّ هذا النّوع من الاختلاف واقع -لا محالة في الدّنيا-، وأنّ الله تعالى يحسم بين خلائقه يوم القيامة بالحق فيتميز هناك المحق من المبطل. وهذا المعنى له نظائر كثيرة

في آيات القرآن منها قوله:

أ)- ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ (آل عمران:١٩).

ب)- ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (البينة:٤).

والله أعلم

التأكيد على صدق القرآن، والتعريض بالشاكين فيه

أ)- النص:

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ
مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟
ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾: المخاطب هو كلّ من يسمع القرآن، أو هو للرّسول، والمراد به قومه على سبيل التعريض، لأنّ الرّسول غير شاك -حاشاه-، وقد روي عنه أنه قال: «**لا أشكّ ولا أسأل**». ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾: الكتاب للجنس، أي كتب الأنبياء ومنها التوراة والإنجيل، والذين يقرأونهما هم اليهود والنّصارى. ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾: الامتراء هو الشّك في ما لا

شبهة فيه، وهو أخصّ من الشّكّ. ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾: كناية عن القضاء الأزلّي في علم الله تعالى بأنهم يموتون على الكفر. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الاَلِيمَ﴾: الرؤية كناية عن حلول العذاب بهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَاسْأَلِ﴾: قرأ الجمهور ﴿فَاسْأَلِ﴾ بهمزة وصل وسكون السّين، وهمزة بعد السّين، وقرأه ابن كثير والكسائي "فَسَلْ" بفتح السّين دون همزة الوصل، وبحذف الهمزة التي بعد السّين. ﴿كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾: قرأ نافع وابن عامر: ﴿كَلِمَاتُ﴾ جمع سلامة، وقرأها غيرهما: ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ على مراعاة الجنس.

د)- البيان والتّفسير:

لقد كان ذكر قصص الأنبياء ومنها قصتا نوح وموسى -عليهما السّلام- مسوقتين للتقرير على صدق القرآن بأنّه منزّل من عند الله، ثم للتّعريض بالمكذّبين به، أن يحلّ بهم ما حلّ على أمثالهم في الأمم الخوالي، ففرّع الله على ذلك في هذه الآيات الأربع طلب التأكّد من صدق تلك القصص بأن يسأل الشّاكّون من هم على علم بحوادثها من أهل الكتاب فقال جلّ من قائل: ﴿**فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ، وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾.

الخطاب لرسول الله، والمراد به قومه على أسلوب التّعريض، وهو أسلوب حكيم في الحوار تفاديا لأيّ نفور أو استفزاز للسامع، فيتلطّف به في الخطاب على حدّ قولهم: "إياكِ أعني واسمعي يا جارة". كما أن استعمال "إن" الشّرطية بدلا من "إذا" يدلّ على أنّ الشّكّ المذكور هو على سبيل الافتراض لا الحقيقة. وهذا

الأسلوب معروف في كلام البلغاء، قد تكرّر في القرآن مثل قوله تعالى بالنّسبة لسيدنا محمد: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزّمر:٦٥). وكقوله في محاورة عيسى عليه السلام يوم يقوم الأشهاد: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ (المائدة:١١٦). وقد روى الأصحاب قول رسول الله في هذا الصّدد: «**لا أشكّ ولا أسأل، بل أشهد أنّه الحق**».

والآية اللاحقة تؤيّد أن المراد بهذه الآية التّعريض بالمكذبين الذين وجّه إليهم الخطاب مباشرة في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (يونس: ١٠٤).

والسّؤال هو من وسائل الحصول على العلم إذا كان على نية التّثقيف وطلب المعرفة، كما أنّ انتقاء المسؤول عنه من أصدق العلماء يورث اليقين والقناعة عند السّائل كما أرشدنا الله تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٤٣).

والمراد بالذين يقرأون الكتاب هم اليهود والنّصارى -أي الصّادقين منهم- فهم الذين يشهدون على تلك الأحداث التي يرويها القرآن من قصص الأنبياء مع أقوامهم، لأنهم يقرأونها في كتبهم لا يستطيعون إنكارها.

وشهادة أهل الكتاب على ما في القصص القرآني هي وسيلة كبرى للتصديق عند الشّاكين المكذّبين، وللتّدعيم والتّثبيت عند المؤمنين المصدّقين، لأنها أقرب إلى الواقعية المتعارفة بين النّاس.

ويأتي التّعقيب على الجملة الشّرطية السّابقة بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، ويجري على نفس الأسلوب ويؤكّدين "لام" القسم و"قد" لدفع الإنكار والشّكّ، ثم عطف عليها قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وهي أصرح في التّعريض

بالمشركين، لأن الرّسول -حاشاه- أن يكذب بما أنزل عليه، أو أن يكون من الخاسرين، وإنما كان اختيار مثل هذا الأسلوب من تأكيد الأمر والنّهي لتثبيت رسول الله في موقفه حتّ لا يكون للمشركين مطمع في أن يكفّ عن تبليغ دعوته.

ولا نعجب من مثل هذا الأسلوب في القرآن المكّي إذا علمنا ما تعرّض إليه الرّسول من تضييق وإعنات هناك سيما في عام الحزن كما ترويه السّيرة النّبوية. والغرض من هذا الأسلوب في أخلاقيات الدّعوة هو قطع أيّ عذر للضالّين المكذبين.

وبعد ذلك يظهر مصير كلّ أصناف النّاس وموقفهم من الدّعوة وفق ما ثبت في علم الله الأزلّي فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لاَ يُومِنُونَ، وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الاَلِيمَ﴾**.

أخبر الله بالتّأكيد على مصير من حقّت عليهم كلمات الله بأن لا يؤمنوا، وكلمة الله هي كناية عن أمر التّكوين المسبوق في علمه الأزلي، فهذا الصّنف من النّاس يفقدون في فطرتهم أيّ استعداد للهداية لأنّهم أهل مكابرة وعناد، وطلاّب نفوذ وجاه واستعلاء على العباد، وقد اختاروا لأنفسهم هذا المسلك، وهم مسؤولون عن اختيارهم، إذ كان لهم عقل وإرادة.

وللتيئيس من إيمانهم قال تعالى: ﴿لاَ يُومِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الاَلِيمَ﴾، و"لَوْ" وصلية للمبالغة، كما أن "كلّ" تستعمل للكثرة، فإذا كان هؤلاء لا يؤمنون مع مجيء كل آية تدلّ على صدق وحقية ما أنزل الله، فكيف بهم إذا لم تجئهم آية أو البعض منها؟، ورؤية العذاب التي جعلت غاية لإمكان إيمانهم لا يمكن أن ينفعهم ذلك الإيمان كما تقدم في شأن مصير فرعون.

والله أعلم

إيمان قوم يونس وكشف العذاب عنهم قبل وقوعه

أ)- النص:

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ امَنَتْ﴾: "لَوْلاَ" و"هلاّ" تَرِدان للتحضيض، وهو طلب الفعل بحثّ وتحريض، و"لولا" هنا دخلت على فعل قد فات وقوعه، فهي مستعملة في التّغليط والتّندم والتّوبيخ على تفويته. ﴿قَرْيَةٌ﴾: المراد: أهل قرية، من تسمية الحالّ باسم المحلّ. ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ﴾: يجوز أن يكون الاستثناء متصلا بمعنى "لكن" ويجوز فيه الانقطاع إذا اعتبرنا معنى النّفي في جملة: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ امَنَتْ﴾. ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾: الكشف: إزالة ما هو ساتر للشيء، والمراد هنا رفع ذلك العذاب. و﴿الْخِزْيِ﴾: الإهانة والذلّ. ﴿افَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾: الاستفهام للإنكار، وتقديم المسند إليه: "أنتَ" على المسند: "تُكْرِهُ" يفيد قوة الإكراه من النّبي على الإيمان ليكون ذلك محلّ الإنكار من الله تعالى. والمقصود بـ"النّاس" هنا المدعوون الأولون إلى الإسلام، وهم العرب وبالأخصّ أهل مكة منهم. ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾: الإذن: الإعلام بإجازة الشّيء والرّخصة فيه، والمراد إذْنُ تقدير وتكوين من الله. ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾: الرِّجْس: الشيء الخبيث المستقذر. وأُطلق هنا على الكفر.

ج)- من هو يونس، ومن هم قومه؟

هو يونس بن متّى عليه السلام، واسمه في العبرانية "يونان بن أمتّاي" ويجوز في نونه عند العربية الحركات الثلاث، ذكر في القرآن باسمه "يونس" أربع مرات في السّور: النّساء، الأنعام، يونس، الصّافات. وذكر بالوصف: "ذو النّون" في الأنبياء، و"صاحب الحوت" في القلم، أرسله الله إلى قرية "نينوَى" من أرض الموصل في شمال العراق، وكان أهلها يومئذ خليطا من الأشوريين واليهود، وكانت بعثة يونس إليهم في أول القرن الثّامن قبل المسيح، ولما دعاهم إلى الإيمان فأعرضوا عنه توعّدهم بالعذاب وأمهلهم أربعين يوما، وخرج مغاضبا فركب السّفينة من "يافا" وحدث له ما أخبر الله به في سورتي الصّافات والقلم. فلما رأى قومه مقدمة العذاب آمنوا وخضعوا لله تعالى فأمسك عنهم ذلك العذاب، لأنهم آمنوا قبل أن يقع، وذكر بعض المفسّرين أن قبره يقع بقرية "حلحون" بين القدس وبلد الخليل.

د)- البيان والتّفسير:

فرّع الله تعالى عن قوله في ما سبق: ﴿إِنَّ الذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾، فرّع هذه الآيات الثّلاث لذكر قصة يونس عليه السلام مع قومه في بيان مختصر تكميلا لمحلّ العبرة من القصّتين السّابقتين فقال تعالى: **﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ امَنَتْ فَنَفَعَهَآ اِيمَانُهَآ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمُ إِلَىٰ حِينٍ﴾**.

تصدّرت الآية بأداة التّحضيض "لَوْلاَ"، وبما أنها دخلت على فعل ماض فإنها تفيد أنّ مدلوله لم يقع. وأهل القرية هم من مرّ ذكرهم ممن لم يؤمن برسل الله، فلم ينفعهم إيمانهم حين نزل عليهم العذاب، فكانوا ممن حقّت عليهم كلمات ربّك، والغرض من ذكر ذلك هو التّعريض بأهل مكة -كما تقدم-، فهم يوشكون

بإعراضهم عن رسول الله أن يحدث لهم ما حدث لأهل القرى بنزول العذاب عليهم، كما جرت سنّة الله فيمن سبق من الأقوام. فهلاّ كانوا مثل قوم يونس، إذ آمنوا قبل نزول العذاب عليهم، فكان ذلك سببا لرفع العذاب عنهم، وصرف الله عنهم الذّلة والهوان في الدّنيا، وبقوا يتمتّعون بخيرات قراهم حسبما قدّر الله لهم من آجال أعمارهم، فقد بادر قوم يونس بالإيمان عندما فارقهم رسولهم مغاضبا، إذ خرج قبل أن يأذن له بذلك، فكان له ذلك التّأديب من الله في ظلمات البحر وفي بطن الحوت كما قال تعالى في سورة الصّافات: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤٣-١٤٤).

وبذلك الخروج تفطّن القوم إلى صحة ما يتهدّدهم من العذاب، كما أن حجّة الله بإبلاغ رسوله لم تتم، وبالتّالي لم تحقّ عليهم كلمة العذاب، فصحّ بذلك استثناؤهم من جريان سنّة الله، فلا خصوصية لهم في ذلك. وتاريخ الدّعوة الإسلامية في بيان إسلام أهل مكة خصوصا والعرب عموما، ودخولهم في دين الله أفواجا بعد الفتح، يندرج في مثل هذا الاستثناء، أي بمبادرتهم إلى الإيمان قبل حدوث العذاب، والله أعلم.

ولما كان الرّسول ﷺ كما وصفه الله حريصا على إيمان النّاس، عطف الله على قصة يونس وقومه بيان القاعدة العامّة في الكفر والإيمان وفق مشيئة الله فقال تعالى: **﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لأَمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُومِنِينَ﴾**.

صدّرت الجملة بـ"لو"، وهي تقتضي امتناع جوابها لامتناع شرطها، أي مشيئة الله اقتضت غير ما كان الرّسول يحرص عليه من إيمان النّاس به كلهم إلى حدّ محاولة إكراههم على ذلك، إذ خلقهم الله متفاوتين في الاستعداد لذلك، تختلف مداركهم في معرفة الحقائق، وتتأثر طبائعهم بمؤثرات شتى.

وجريا على مشيئة الله التي يخضع واقع النّاس لها، فقد تفرّع عن ذلك هذا الاستفهام الإنكاريّ: ﴿افأنت تكره النّاس حتّى يكونوا مومنين﴾، أي لا يمكن أن يكون منك أيّها الرّسول هذا الإكراه للنّاس على الإيمان، لأنّ الإيمان متروك لاختيارهم، فليس بمقدور الرّسول أن يتحكّم في مشاعر القلوب -وهي مستودع الإيمان- فليس عليه إلا أن يبلّغ رسالته، والنّاس بعد ذلك أحرار في الإيمان وعدمه كما قال تعالى في سورة الغاشية: ﴿فذكّر انّما أنت مذكّر، لست عليهم بمصيطر﴾ (٢١-٢٢). ويقول الفقهاء بأنّ إيمان المكرَه باطل لا يصحّ لقوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدّين﴾ (البقرة:٢٥٦).

ولزيادة تركيز تلك القاعدة جاءت الآية اللاحقة لتأكيد ذلك: **﴿وما كان لنفس ان تومن إلاّ بإذن الله ويجعل الرّجس على الذين لا يعقلون﴾**، أي ليس من شأن أيّ نفس أن تؤمن إلاّ بإرادة الله، وعلى مقتضى سنّته في الأمر التكويني وتقديره في العقول والنّفوس، فالمنفيّ هنا هو استطاعة الخلق الخروج عن تلك السنّة العامة، وليس لنفي الإيمان مع الأخذ بأسبابه وسلوك طريقه، ومع توفيق الله فللناس الاختيار والكسب باتّخاذ الأسباب، فيكون الوقوع بالفعل على ما أراده الله. ويؤيّد ذلك قوله تعالى في آخر الآية: ﴿ويجعل الرّجس على الذين لا يعقلون﴾، فإنّ كان كلّ شيء بإذن الله وتيسيره، فإنّه تعالى يجعل الرّجس المنجرّ عن الكفر والضّلال على الذين عطّلوا عقولهم عن إدراك الحقّ، وبالتّالي تتدنّس نفوسهم ويتيهون في متاهات الأهواء ويزيّن لهم الشّيطان أعمالهم. والرّجس هو أبشع صور الدّنس الرّوحي، وصف القرآن به المنافقين وعبدة الأوثان فقال تعالى في شأن المنافقين:

أ)- ﴿وأمّا الذين في قلوبهم مّرض فزادتهم رجساً الى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ (التوبة:١٢٥).

ب)- وقال في الأوثان: ﴿فاجتنبوا الرّجس من الاوثان﴾ (الحج:٣٠).

الأمر بالنظر في دلائل وحدانية الله

أ)- النصّ:

قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾
فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ
﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿قُلِ انظُرُوا﴾: النّظر: أي بعيون أبصاركم وبصائركم، فهو بالمعنى الحقيقي والمجازي، والجملة: ﴿مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ في موضع نصب، وجواب الأمر مفهوم من السّياق، تقديره: انظروا تروا آيات وحدانية الله. ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾: يجوز في الجملة النّفي والاستفهام. ﴿وَالنُّذُرُ﴾: جمع نذير أو إنذار، عطفت عن الآيات لزيادة التّعميم. ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾: الاستفهام تهكّمي إنكاريّ، أي لا ينتظرون إلاّ وقائع الهلاك مثل ما وقع لمن قبلهم. ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾: جملة معترضة، لأنّ المصدر بدل من الفعل، أي كذلك الإنجاء ننجيّ المؤمنين معك أيها الرّسول.

ج)- أوجه القراءة:

﴿نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: قرأ الجمهور: ﴿نُنَجِّ﴾ بفتح النّون الثّانية وتشديد الجيم على وزن: ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾، أي من التّنجية. وقرأ الكسائي وحفص عن عاصم: ﴿نُنجِ﴾ بسكون النون الثّانية وتخفيف الجيم، أي من الإنجاء، وذلك للتفنن بالمخالفة بينه وبين نظيره قبله، والمعنى واحد.

د)- البيان والتفسير:

بعد بيان سنّة الله تعالى في خلق الإنسان وجعله مستعدًا للكفر والإيمان وللخير والشرّ، وأنّ ذلك لا يحصل إلاّ وفق إرادة الله ومشيئته، وأنّ الرّسول على حرصه لا يستطيع أن يجعلهم مؤمنين، بعد ذلك أمر الله في هذه الآيات بالنّظر والاستدلال في الأدلة لتحصيل أسباب الإيمان وحسن الاختيار فقال تعالى: ﴿**قُلُ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُومِنُونَ**﴾.

الأمر بالنّظر إلى ما في السّماوات والأرض عموما جاء عقب التّهديد للذين لا يعقلون، بأن يجعل الله عليهم الرّجس، لأنّهم عطّلوا مداركهم عن التّأمّل والتّدبّر، ورضوا بالكفر والتّحجّر. وقد بُعث رسول الله في قوم أمّيّين يجهلون كثيرا من الحقائق الكونية. والمقصود بقوله: ﴿مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يشمل كلّ شيء فيهما يتوجّه إليه النّظر العقلي للاستدلال على عظمة الله وقدرته، كما قال الشّاعر:

وفي كل شيء له آية تدلّ على أنه الواحد
ولله في كلّ تحرُكَة وتَسْكِنَة أبدا شاهد

وقد أشار القرآن إلى كثير من الظّواهر الكونية العجيبة، والمخلوقات المعروفة والغريبة، ودعا إلى النّظر فيها والتّدبّر في وجودها وحياتها، لتكون سندا لتكوين التّصوّر الإسلامي الصّحيح في حقيقة الألوهية والرّبوبية. والإنسان المخاطب بهذه الآيات هو جزء من هذا الكون الموّار، فهو وإن ضلّ السّبيل بغفلته، وأخطأه ذلك الإدراك -أحيانا- فإنّ حاجته إلى الإيمان بإله واحد قادر يلوذ إليه في الملمات، مستكنّة في فطرته تحتاج إلى ما ينبّهها لتتجاوب مع تسبيحات الكون. والمعرفة الصّحيحة بحقائق الكون والتّأمّل في أسرار الخلق تثير تلك الكوامن الفطرية في

الإنسان وتدفعه إلى حظيرة الإيمان فتزيده هدى ويقينا، وأمّا إذا استغلق القلب وتحجّر العقل، ولم يجد نور الإيمان منفذا إلى النّفس، فلا تجدي الآيات ولا النّذر عن قوم هم بكفرهم محجوبون أساسا عن آيات الكون وإنذارات خالقه. فماذا ينتظرون؟، وسنة الله في إهلاك المكذبين لا تتخلف: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

جاء هذا السّؤال الموجّه إلى الرّسول مفرّعا عن قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾، تحذيرا للمكذبين مما ينتظرهم من العذاب والنّكال، فهم لا ينتظرون إلاّ ما حلّ بمن قبلهم من الأمم الخوالي التي ذكرت وقائعها في هذه السّورة وغيرها، والحصر يفيد نفي وقوع غير ذلك مما يرجوه النّاس من الخير والنفع، أي لا يقع لهم غير ذلك أبدا، وتلك سنّة الله أمر الله رسوله أن يهدّدهم بها: ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾، فإذا كان هؤلاء لا ينتظرون إلا سوء العواقب بكفرهم، فإن رسول الله وجماعته ينتظرون حسن العاقبة بالنّصر والتّأييد، فالآية في أسلوبها البليغ تتضمن الوعيد وضدّه، ومفاد ذلك أن الرّسول ينتظر هلاك أعدائه جريا على سنّة الله.

وبما أن العذاب يأخذ الصّفة الجماعية للمخاطبين وفيهم الكافرون والمؤمنون عطف الله بـــ"ثم" لإنجاء الرّسول والمؤمنين فقال: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُومِنِينَ﴾، "ثُمّ" للترتيب الذكري لا الزّماني والمضارع ﴿نُنَجِّي﴾ لحكاية الحال حتى لكأنها مشاهدة، والتنجية للرسول والمؤمنين قد تكون قبل الإهلاك وقد تكون معه بكيفية يقدر الله أسبابها، كما تحقق ذلك للرسل من قبله.

﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُومِنِينَ﴾: الإشارة إلى التّنجية المستفادة من قوله: ﴿نُنَجِّي﴾، وقوله: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ جملة معترضة، أي إنجاء المؤمنين هو حقّ على الله

أوجبه على نفسه تكرمة لهم ولرسوله، وعدل ورحمة منه تعالى.

وبعد، فقد صادف تفسير هذه الآية الكريمة ما يسود العالم في هذه الأيام من الترقب والحذر، بما يخططه أعداء الإسلام من ضربه في عقر دياره وإهانة مقدّساته، وهم يقرعون طبول الحرب ضدّ العراق، ويحشدون قواتهم في أغلب دول الجوار مهدّدين مستكبرين، يستهدفون مقوّمات الشّعوب الإسلامية بالمسخ والتّحريف بدعوى محاربة الإرهاب العالميّ.

ولا شكّ أن هذه المصائب هي مما كسبت أيدي النّاس ليذيقهم الله بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون، ولا شكّ أنّ في النّاس بقية إيمان وغيرة على دين الله ومقدّساته، وهو أغير على دينه من أن يهلك تلك الطّائفة المؤمنة، ففي هذه الآية بشرى لنحاقها، والله أعلم.

إخلاص العبادة لله والإيمان بقدره

أ)- النصّ:

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن
فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ
بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

ب)- التّحقيق اللغويّ:

من عند الله. ﴿فَلاَ أَعْبُدُ الذينَ تَعْبُدُونَ من دُون اللّه﴾: هذه الجملة وإن وقعت موقع جواب الشّرط، فالتّقدير: فأنا على يقين من فساد دينكم، وهذه خلاصة ديني اعتقادا وعملا. وهو معنى ثان تتضمنه الجملة. ﴿وَلَكِنَ اَعْبُدُ اللّه الذي يَتوَفَّاكُمْ﴾: أي يميتكم، واختيار صفة التّوفيّ للدلالة على كمال التّصرف في المخلوق، ولأن الأصنام عاجزة عن الإحياء والإماتة، ثم للتعريض بالكافرين على أنّهم مهدّدون بالموت. ﴿وَأَنَ اَقمْ وَجْهَكَ للدّين حَنيفاً﴾: الإقامة جعل الشّيء قائما والمراد بها التوجّه إلى الله وحده بحيث لا ينثني الوجه إلى شيء آخر. وقوله: ﴿حَنيفاً﴾ أي مائلا إليه ميلا كليّا معرضا عما سواه، وذلك هو الإخلاص التّامّ لله. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللّهُ بضُرٍّ﴾: حقيقة المسّ هي وضع اليد على جسم لاختبار ملمسه، ويطلق مجازا على الإصابة. ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بخَيْرٍ﴾: أي تقدير الخير والقصد إليه. ﴿يُصيبُ به مَنْ يَشَاءُ منْ عبَاده﴾: الإصابة: اتصال شيء بآخر ووروده عليه.

ج)- البيان والتّفسير:

لما أمر الله بالنّظر إلى ما في السّماوات والأرض لإثبات انفراده تعالى بالإلهية، أعقبه هنا بأن أمر رسوله بإظهار دلائل صحة دينه وإزالة الشّكوك والشّبهات في أمره ومباينته عن المشركين فقال تعالى: **﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا النّاسُ إن كُنتُمْ في شَكٍّ مِّن ديني فَلاَ أَعْبُدُ الذينَ تَعْبُدُونَ من دُون الله وَلَكنَ اَعْبُدُ الله الذي يَتوَفَّاكُمْ وَأُمرْتُ أَنَ اَكُونَ منَ الْمُومنينَ﴾**.

إنّه النّداء إلى أمّة الدّعوة يكلّف به الرّسول ليعلن عن دينه الصّحيح ملخّصا في هذه الجمل التي تحدّد موقفه من المشركين وتبيّن خطّته بوضوح وأنه ماض عليها دونما مواربة ولا تردّد. وإذ كان المشركون يشكّون في حقية دينه، ويقولون عنه: إنه صابئ عن دين أبيه إبراهيم، فقد جاء البيان متضمّنا لعدّة أوصاف وقيود تنفي عنه كلّ شكّ.

أ)- ﴿فَلاَ أَعْبُدُ الذِينَ تَعْبُدُونَ من دُون اللهِ﴾: تتضمن هذه الجملة بيان أصل العبادة كما يقول عنها بعض العلماء: "أصل العبادة ألا تسأل سوى الله حاجة، فلكل أحد في الله عوض من كلّ أحد، وليس لأحد من الله عوض بأحد". فتقديم هذا النّفي واجب في حق الله تعالى؛ لأنّ معنى العبادة هي غاية التّعظيم مع المحبة والإجلال، ولا يليق ذلك بغير الله تعالى.

ب)- ﴿وَلَكِنَ اَعْبُدُ اللهَ الذي يَتَوَفَّاكُمْ﴾: بعد النّفي القاطع لعبادة الأصنام يأتي الإثبات أنه يعبد الله الحق، ثم تتلوه الأوصاف الأخرى التي تعتبر خلاصة لمبادئ الدّين الحق ينفي عنه كلّ ريبة أو شك. واختيار صفة التوفّي لذات المعبود في مخاطبة الشّاكّين ليكون ذلك أدعى لزجرهم، وهو ما يناسب تهديدهم في الآية السّابقة في قوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾.

ج)- ﴿وَأُمِرْتُ أَنَ اَكُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾: خصّص الإيمان بالذّكر بعد العبادة للجمع بين أصول الاعتقاد والعمل الصّالح لتكتمل بذلك صورة الدّين الصّحيح وكون الرّسول ﷺ من جملة المؤمنين هو تكريم وتشريف لهم.

﴿وَأَنَ اَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾:

هذه تتمة للأوصاف الباقية في رسم صورة الدّين الصّحيح الذي يدعو إليه رسول الله، وهو القدوة لغيره من المؤمنين.

د)- ﴿وَأَنَ اَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾: وإقامة الوجه للدّين كناية عن التوجّه الكلّي إلى الدّين بالإخلاص والوفاء له، وبالاستقامة على طريقه الذي لا عوج فيه إلى اليمين أو اليسار. والإخلاص هو مخّ العبادة بتوجّه القلب إلى الله وحده، سيما في الدّعاء، بحيث يتجنّب المؤمن كلّ ما يعتبر من الشّرك الخفيّ،

وذلك ما يفيده قوله تعالى: ﴿حَنِيفاً﴾ أي مائلا إلى الله ميلا كلّيا معرضا عمّا سواه، وقد تكرر هذا المعنى في كثير من الآيات، كما قال تعالى في سورة الحج: ﴿فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ، حُنَفَآءَ لله غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ (٣١-٣٠).

هـ)- **﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**: أكّد الأمر بإخلاص العبادة لله بالنّهي عن الإشراك به مؤكدا بنون التّوكيد، للتركيز على نبذ الشّرك بكل مظاهره التي منها ما نُهي عنه في الآية المعطوفة بقوله تعالى:

و)- **﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾**: وهذا النّهي هو لمزيد التّأكيد على التّوحيد. ونفي الضّرّ والنّفع عن سوى الله تعالى، هو للنعي على ما ألفه المشركون من التّوجّه بدعائهم للأصنام. ويدخل في هذا الإطار ما أحدثه النّاس من التوسّل إلى أضرحة الأولياء والاستشفاع بهم بطرق مختلفة.

وفي ختام تلك الأوصاف قال تعالى: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي إن دعوت غير الله في جلب نفع أو دفع ضرّ، فإنك إذًا من الظّالمين. وأفدح الظّلم هو الشّرك بالله تعالى، وفرضية فعل ذلك من رسول الله -وحاشاه ذلك- هو للتنبيه على فظاعة ذلك العمل، بحيث أن الله لا يحابي في الحقّ أحدا ولو على فرض أن يكون ذلك من أشرف خلقه.

ولمزيد من التّركيز على تمحيض الدّعاء والتّوجّه إلى الله قال تعالى: **﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**.

على ذكر النّهي عن طلب النّفع ودفع الضّرّ من غير الله عطف عليه هذا الإخبار بسلب صلاحية النّفع والضّرّ عن غيره تعالى. ولكلّ من الخير والضّرّ أسبابه المعلومة والخفية عن الإنسان. فعلى الإنسان أن يأخذ بالأسباب المعلومة لجلب نفع

أو دفع ضرّ ويستعين بالله على ذلك، ويلتجئ إلى الله في المجهول من تلك الأسباب، وليجزم في أصول عقيدته أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، لأنه تعالى خلق كلّ شيء بقدر، فجميع الممكنات مستندة إليه، وكلّ الموجودات محتاجة إليه، ورحمته وسعت كلّ شيء، فكلّ من الضرّ والنّفع واقعان بقدرة الله وإرادته، فلا الأصنام المعبودة، ولا الأولياء المتوسّل بهم إلى الله من طرف الجهلاء بقادرين على التّأثير في إرادة الله.

وإذا كان الخطاب موجّها إلى رسول الله فلأنه الأولى برعاية الله وفضله، وهو القدوة في تركيز عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشرّه.

ويلاحظ في جواب إرادة الخير، أي في جواب الشّرط لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يلاحظ استعمال كلمة الفضل في مكان الضّمير للدلالة على ترجيح جانب الخير منه تعالى فضلا منه ورحمة بعباده عموما، بينما الضرّ لا يترتب إلا عن أسباب عرضية هي من كسب الإنسان -غالبا-. وقوله: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، بيان يؤيّد تلك الشّمولية للفضل الإلهي، وأنّه تعالى غفور رحيم لكثير من الذّنوب التي تجلب الضرّ، كما قال تعالى في سورة الشّورى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ (٣٠)، والله أعلم.

الإسلام دين الحقّ، والكلّ يختار لنفسه

أ)- النصّ:

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ
إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قَدْ جَآءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾: الْحَقُّ: القرآن، أو مطلق الوحي عموما، أو هو الرّسول. ﴿وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾: الوكيل: أي الموكول إليه تحصيل الأمر و"عليكم": أي على اهتدائكم. ﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾: والحكم يكون بين فريقين، أي بينك وبينهم، وحذف متعلقه لقرينة السّياق، ويكون بالانتصار على المشركين أو الأمر بقتالهم.

ج)- البيان والتّفسير:

تجيء الآيتان حوصلة لما في السّورة كلّها من تركيز أسس العقيدة الإسلامية في التّوحيد والنّبوءة والمعاد، وجاء ختام السّورة تكليفا لرسول الله أن يعلن ذلك للناس ليضعهم أمام مسؤوليتهم في الاختيار، على اعتبار أنه الرّجل المختار من الله لأداء مهمّة التّبليغ، كما افتتحت به السّورة. فقال جلّ من قائل: **﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾**.

إنه النّداء الثّاني لأمة الدّعوة كافّة، أمر الله رسوله بتبليغه للناس من حضر منهم ومن ستبلغه الدّعوة. ومضمون الخبر المعلن عنه أكّد بحرف "قَدْ" لمجيء الحق من الرّبّ تعالى ممثلا في هذا الدّين الذي نزل به القرآن من لدن ربّ رحيم، يخطّ لكم طريق السّعادة في الدّارين في وضوح وبيان مقرونا بالأدلة القاطعة على صدقه وحقيته.

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾: أي النّاس أزاء ذلك الحق المبين هم في اختيار تامّ من أمرهم في الأخذ به أو تركه، يترتب عن كلّ من الموقفين إمّا هداية تنفع صاحبها باستقامة أحواله وسعادة حياته،

وإمّا ضلال يرجع عليه بالشّقاء والوبال، وهكذا تنتهي مهمّة الرّسول في التّبليغ، وليس بموكول إليه تحقيق أيّ من الأمرين في واقع النّاس، لأنّ ذلك موكول إلى إرادة الله ومشيئته.

وإذ أدّى رسول الله مهمته في تبليغ ذلك الإعلان يجيء الختام المناسب لتثبيت رسول الله وتسليته في ما يصيبه من الأذى بعناد المشركين وإعراضهم: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، واتّباع الرّسول لما يوحى إليه من الله علما وعملا وسلوكا لأنه في محلّ القدوة يجسّد ما يدعو إليه، وذلك يقتضي منه الثّبات والصّبر إلى غاية التّحقيق لما يحكم الله بينه وبين معانديه، إمّا بأن يؤمنوا، وتلك هي غاية دعوته وأقصى أمنيته، وإمّا أن ينتصر عليهم فيقضي على الشّرك والظّلم والفساد، والله خير الحاكمين في قضايا شؤون الخلق على العموم.

وقد صدق الله وعده فنصر عبده وأيّد جنده، فأتمّ الرّسول رسالة ربّه وأدّى الأمانة ونصح الأمة حتى أتاه اليقين.

فاللّهم آته الفضيلة والوسيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته.

والله أعلم

تمّت

سورة هود مكيّة، وآياتها ١٢٣

أ)- بين يدي السّورة:

سميت بسورة هود في جميع المصاحف وكتب التّفسير والسّنة المطهّرة، وذلك لاشتمالها على قصة هود مع قومه عاد في الآيات (٥٠-٦٠) منها. وقد تكرر فيها خمس مرات، وتعتبر قصته أطول مما ورد عنها في غيرها من السّور.

وهي مكية كلها عند الجمهور إلا آية واحدة عند ابن عباس وابن الزّبير وقتادة، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (هود:١١٤).

وأما ابن عطية فقد استثنى منها ثلاث آيات نزلت بالمدينة، وهي قوله تعالى:

أ)- ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ (هود:١٢).

ب)- ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ (هود:١٧).

ج)- ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ (هود:١١٤).

نزلت بعد سورة يونس، وعدّت الثّانية والخمسين في ترتيب نزول السّور، وتشبهها من حيث مضامينها، وقد تُحمل منها ما فُصّل في الأخرى، وتنفرد كل منهما ببعض الفوائد، وتختلفان في النّظم والأسلوب مما يأتي تفصيله -بحول الله-.

وعلى الاختلاف ما بين أهل الحجاز والشّام وأهل البصرة والكوفة فإن عدد آياتها إحدى وعشرون ومائة عند أهل المدينة، واثنان وعشرون بعد المائة عند أهل الشّام، وثلاث وعشرون بعد المائة عند أهل الكوفة والبصرة، قال عنها رسول الله

في ما رواه الترمذي عن ابن عباس، إذ قال أبو بكر لرسول الله ﷺ: "قد شبت". فقال الرسول: «**شيّبتني هود وأخواتها**». وعندما سئل عمّا يشيّبه من سورة هود قال: «هو قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هود:١١٢)».(١)

ب)- محاورها الأساسية:

أ)- تضمّنت السّورة ما تضمنته سورة يونس من التّركيز على أصول العقيدة الإسلامية في التّوحيد والنّبوءة والبعث والحساب والجزاء.

ب)- تثبيت النّبي وتسليته في ما يعانيه من مواجهة المشركين، وما يقترحون عليه من الآيات المادّية لتدل على صدقه، وذلك بتحدّيهم على أن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن فعجزوا عن معارضته ولو بآية من مثله، ثم بإيراد قصص الأنبياء، بعضها مجمل، وبعضها مفصّل كقصة نوح عليه السلام إذ اختصت بتفصيل حادثة الطّوفان، ثم التّعقيب على ما في تلك القصص من عبر وعظات، مع ما يتخلل ذلك من بيان طبائع البشر في الاختلاف حتى أزاء الدّين المنزل من عند الله رحمة للعالمين.

ج)- إيراد بعض الأوامر الإلهية التي هي في صالح البشر كالأمر بالاستقامة في الدّين كما أمر الله به، والأمر بإقامة الصّلاة في جميع أوقاتها ليلا ونهارا لما لها من

١- رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث عقبة بن عامر، رقم ٧٩٠؛ ورواه الحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس، قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: أراك قد شبت؟ قال: «شيبتني هود والواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كوّرت» قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري و لم يخرجاه، رقم ٣٣١٤؛ ورواه الترمذي من حديثه، رقم ٣٢٢٧، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه؛ وأما الزيادة التي في آخر الحديث فأوردها القرطبي عن عبد الرحمن السلمي عن أبي علي السري، أنظر: الجامع لأحكام القرآن، ١٠٧/٩.

الأثر البالغ في سلوك الإنسان.

والأمر بالصّبر في الدّعوة والثّبات عليها، والنّهي عن الفساد في الأرض، لأنه لا عذاب للأمم في حال الإصلاح، وأن العاقبة للمتقين.

د)- وتتساوق السّورة في بدئها وختامها بالدّعوة إلى عبادة الله وحده، والاتكال عليه، لأنه تعالى لا يغفل عما يعمل الظّالمون.

ج)- التّعرف بهود وقومه عاد:

قال الإمام ابن عاشور في التّحرير عند تفسيره لقصة هود في سورة الأعراف: "وهود اختلف في نسبه، فقيل: هو من ذرّية عاد، فقال القائلون بهذا: هو ابن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد. وقيل: هو من ذرية سام جدّ عاد، وليس من ذرية عاد، والقائلون بهذا قالوا: هو هود بن شالخ بن أرفخشد بن نوح.

وذكر البغويّ عن عليّ أن قبر هود بحضرموت في كثيب أحمر. عن عبد الرحمن بن سابط أنّ قبر هود بين الرّكن والمقام وزمزم"[١]. وزاد قطب الأئمة فقال: "وبين هود ونوح ثمانمائة سنة. وعاش أربعمائة وأربعا وستين".

وعاد هي قبيلة هود، وهي أمة عظيمة من العرب العاربة البائدة، وكانوا عشر قبائل، وقيل: ثلاث عشرة قبيلة، وهم أبناء عاد بن عوص، وعوص هذا هو ابن إرم بن سام بن نوح. وكانت منازلهم في بلاد العرب بالشّحْر من أرض اليمن وحضرموت وعمان والأحقاف، أي الرّمال التي بين حضرموت وعمان. ذكر القرآن أنهم أشداء الأجسام. ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ (الأعراف:٦٩). وأنهم كثيرو العدد: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾ (الأعراف:٨٦).

إحكام القرآن، ودعوته إلى أصول العقيدة

وإلى عبادة الله والتوبة إليه

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ
ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ① أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ
نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ② وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ
③ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ④ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ
لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ⑤

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾: الإحكام: إتقان الصنع بحيث يكون المصنوع سالما من الإخلال، وإحكام آيات القرآن من حيث أنها ألفت تأليفا متقنا سالما من أي خلل في اللفظ أو المعنى والتفصيل هو التوضيح والبيان، وهو بمعنى التفريق بين الشيء وغيره مما يميزه، أي كما تزين القلائد بفرائد الدرر، أو جعلت فصولا سورة سورة وآية آية، ومن حيث المعنى: أي فصل بها ما يحتاج إليه العباد من الأحكام. ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾: أي من عند الموصوف بالعلم والخبرة، وهي أبلغ من العلم، لأنها تتعلق بمعرفة الخفايا الباطنة للأشياء. ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾: من النذارة بالعذاب، والبشارة بالأجر والثواب. ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ

﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾: الاستغفار: طلب المغفرة أي عدم المؤاخذة بذنب مضى، والتّوبة هي الإقلاع عن عمل ذنب والعزم على عدم العودة إليه. ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾: المتاع: كلّ ما ينتفع به من متاع الدّنيا. والحسن: أي المتاع الخالص من المكدّرات، والأجل المسمّى في حياة الأفراد أو الجماعة، أي العمر المقدّر لنهاية الحياة. ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾: يثنون من الثّني وهو الطيّ، فالذي يطوي الشيء يجعل أحد طرفيه ثانيا للذي قبله. فثني الصّدور: إمالتها وحنيها، أي بمعنى الطأطأة. ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾: من الاختفاء، فـ"السّين" و"التاء" فيه للتأكيد. ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾: من الإستغشاء: وهو الإخفاء والسّتر، أي يتغطّون بثيابهم أو يدخلون رؤوسهم فيها للنّوم. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: كلمة "ذات" مؤنث "ذو" يتوصل به إلى الوصف بأسماء الأجناس، والصّدور: مراد بها النّفوس والقلوب.

ج)- البيان والتّفسير:

تتناسب سورة هود مع سورة يونس التي قبلها في كثير من الأمور، في موضوعها وفي معناها. وفي افتتاحيتها بالحروف: ﴿الر﴾ وفي اختتامها بالدّعوة إلى عبادة الله والتوكل عليه، وبتفصيلها لما أجمل في سورة يونس من أصول الاعتقاد وإعجاز القرآن، وما يتخلل قصص الأنبياء فيها من القوارع والزّواجر، فقال تعالى:

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

﴿الر﴾: يقال في هذه الافتتاحية بالحروف المقطعة: ألف، لام، را. ما قيل في مثيلاتها من سورة يونس، إلاّ أنّها عند بعض أقطاب اللّغة كسيبويه والخليل اسم للسورة، فهي عندهم مبتدأ، خبره قوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ...﴾ وما بعدها صفات له، ويمكن أن يعتبر "كتاب" مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾. وما بينهما صفات. ومعنى إحكامه أنه ألّف تأليفا بديعا متقنا لا خلل فيه. وتنكير

﴿كتابٌ﴾ يدلّ على سموّ نوعيته، أي أنّه كتاب عظيم الشّأن في مبناه ومعناه. فالإحكام في المبنى بإتقان نظمه ألفاظا وجملا لا تنافر بينهما ولا خلل. والتّفصيل هو التّوضيح والبيان لما فيه من المعاني والحكم والأحكام والمواعظ، هي كالوشاح المرتّب بأنواع من النّقوش البديعة. ويأتي التّفصيل بمعنى التّفريق، إما في آياته وسوره كما رتبت، أو للتفصيل بعد الإجمال، كما يلاحظ ذلك في بعض الآيات وحتى بين سورة وأخرى ما بين السّور القصار والطّوال.

ومثل هذا النّسج البديع لا يصدر إلا من عند الله العليم الخبير، وكلّ من الوصفين المقدّسين للذات العلية هو تقرير للإحكام والتّفصيل، فالإحكام يقتضي العلم الكامل والتّفصيل يقتضي الخبرة الكاملة بالخفايا الباطنة لأسرار الصّنعة في الإتقان، وصدق الله إذ قال: ﴿أفلا يتدبّرُون القُرْءانَ ولوْ كانَ منْ عند غيْر الله لوَجدُواْ فيه اخْتلافًا كثيرًا﴾ (النساء:٨٢).

ولتفسير وبيان معنى الإحكام والتّفصيل لآيات القرآن، جاءت الجمل التّفسيرية في قوله تعالى: ﴿ألاّ تعْبُدُواْ إلاّ الله إنّني لكُم مّنْهُ نَذيرٌ وبَشيرٌ﴾، أي إن أوّل ما أحكمت به آيات هذا الكتاب وفصّلت أن تدعوكم إلى عبادة الله ولا تشركوا به شيئا، أو هي بمعنى: لئلا تعبدوا إلا الله، وهذه الدّعوة هي الأصل المشترك بين كل الدّعوات السّماوية.

أ)- ﴿ولَقَدْ بَعثْنا في كُلِّ أُمّةٍ رّسُولاً أنُ اعْبُدُواْ الله واجْتنبُواْ الطّاغُوتَ﴾ (النحل:٣٦).

ب)- ﴿ولَقدْ أوحيَ إليْكَ وإلى الّذينَ منْ قبْلكَ لئنْ أشْرَكْتَ ليحْبطنّ عَمَلُكَ ولَتكُونَنّ منَ الْخاسرينَ﴾ (الزمر:٦٥).

ويأتي قوله تعالى على لسان رسوله: ﴿إنّني لكُم مّنْهُ نَذيرٌ وبَشيرٌ﴾ بين جملتين تفسيريتين، يأتي في المكان المناسب لبيان مهمّة الرّسول في التّبليغ، وقد جمع

بين النّذارة والبشارة للكافرين والمؤمنين من كافّة الخلق. وهذا الجمع بينهما مناسب للجمع بين طرفي التوحيد السّلبيّ والإيجابي في قوله: ﴿ألاّ تعبُدوا إلاّ الله﴾، أوّلا بالنّهي عن عبادة غير الله، ثم طلب عبادته وحده بالاستثناء. ويمثل هذا الإيجاز البليغ جمع الله بين أصول الاعتقاد: توحيد الله، والرّسالة، وما أخبر به الرّسل من أمور الغيب.

ثم قال تعالى: **﴿وأن استغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه يمتّعكم متاعا حسنا الى أجل مُسمّى ويؤت كلّ ذي فضل فضله وإن تولّوا فإنّي أخاف عليكم عذاب يوم كبير. الى الله مرجعكم وهو على كلّ شيء قدير﴾**:

﴿وأن استغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه﴾: جملة تفسيرية ثانية معطوفة على سابقتها، ترشد المخاطبين إلى طريق عبادة الله واتّخاذ الوسائل للتخلّي عن أوضار الشّرك بالاستغفار والتّوبة بطلب المغفرة من الرّبّ تعالى شعورا بالتقصير في ما مضى وعدم المؤاخذة على الذّنب، ثم العزم على عدم العودة إليه في المستقبل، جمعا بين القول والعمل في وسيلة التّطهير والتزكية، لأن ذلك أضمن للاستقامة والسّلوك النّظيف، فكم من مستغفر بلسانه لا تصدق توبته عمليا، إلاّ أن يوفقه الله إلى تمام الإنابة إليه.

وفي اختيار صفة "الرّبّ" مضافة إلى ضمير المخاطبين استجاشة لطيفة لإثارة العاطفة الإيمانية، وزيادة في أسلوب التّرغيب إذ رتّب على الاستغفار والتوبة جزاءين دنيويّ وأخرويّ:

أ) - **﴿يمتّعكم متاعا حسنا الى أجل مُسمّى﴾**: جزاء عاجل محمود، يتمثل في متاع الدّنيا بكل أنواعه من أطايب العيش ورغد الحياة، وصف ذلك المتاع بالحسن، لنفي كل ما يخالط المعيشة الدّنيوية من المكدّرات والمنغّصات، ومع حسن ذلك المتاع العاجل فهو محدود إلى أجل مسمّى بحسب ما تقدّر لكم في علم الله

من الأعمار والأرزاق، فهو -وإن طال عليكم أمده في عمر طويل- قليل بالنّسبة للنعيم الأبدي، ولذا يرد وصفه بالقلة في القرآن كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ (النساء:٧٧).

ب)- ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾: ويتمثل إيتاء فضل الله لكل ذي فضل من النّاس في الجزاء الأخروي، وذلك بمجازاة كلّ فرد على ما قدمّه من المعتقد الصّحيح والعمل الصّالح في الحياة الدّنيا. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده. وعلى ما في مقابلة الفضلين من جمال الصّيغة وحسن التّرغيب فإنّه شتّان ما بين الفضلين، لأن الله هو الغنيّ ونحن الفقراء إذ يزيد عبده الصّالح من فضله في الجزاء الأخروي بعد الجزاء العادل على عمله. ونظير هذا التّقابل قوله تعالى في سورة الرّحمن: ﴿هَلْ جَزَآءُ الاحْسَانِ إِلاَّ الاحْسَانُ﴾ (٦٠). ونظير معنى هذه الآية قوله تعالى في سورة النّحل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ اَوُ انثَىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمُۥ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧).

وإسناد الفعلين "يمتعكم" و"يوت" إلى الله تعالى يدلّ على أنّ خيري الدّنيا والآخرة كلّه بيده، وإن غفل بعض النّاس عن هذه الحقيقة باتّخاذهم لبعض الأسباب الفانية وتعلّقهم بها.

ويأتي التّرهيب بعد التّرغيب معطوفا على ما قبله لإتمام التّفسير ممّا كلّف به الرّسول أن يبلّغه للناس فقال تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ، اِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فقوله: ﴿تَوَلَّوْا﴾ أصله "تتولوّا" على أسلوب الخطاب حذفت إحدى التّائين للتخفيف، والتّولّي يكون بالإعراض عن دعوة الرّسول ممن يشتغل بعبادة غير الله، ويستنكف عن التّوبة والاستغفار.

وقوله في جزاء الشّرط: ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هو بيان

للنّذارة التي تندرج في مهمّة الرّسول الدّعوية، وكونها مما يخاف الرّسول على قومه فيه إشارة ذكية إلى عذاب الاستئصال، مما تفيض فيه القصص المذكورة في السّورة. فتنكير لفظ "يوم" ووصفه بالكبر للتهويل والتّضخيم، وهو يحتمل أن يكون يوما من عذاب الدّنيا أو من عذاب الآخرة. وإذ كان المخاطبون ينكرون اليوم الآخر، ويعرفون آثار الأمم الخوالي بعد عذاب الاستئصال، فإن ترهيبهم بالعذاب العاجل يكون أوقع في نفوسهم، ولا مانع من جعل اليوم الكبير هو أهوال القيامة كما ذهب إليه أكثر المفسّرين، على اعتبار موضع التّعليل لذلك الخوف في قوله تعالى: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وتقديم المجرور على عامله للاهتمام: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، أي وإن طال الزّمان بأعماركم في الدّنيا حتى ظننتم أنكم قادرون عليها وأنكرتم المصير الأخرويّ. ولذلك يأتي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لإبطال ذلك الظّن الفاسد منهم، وحيرتهم كيف يعيد الله خلقهم بعد أن يصيروا ترابا. وللدلالة على قدرة لله في الإحياء والإماتة، بدءا وإعادة.

وينتقل النّص إلى أسلوب الغيبة لبيان حال أولئك الذين أمر الرّسول بتبليغهم تلك الدّعوة، وهم يحاولون إخفاء تولّيهم، ظنا منهم أن الله لا يطّلع على خفاياهم فقال جلّ من قائل: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

تبرز الآية وضعيتين للكفار المعرضين يتستّرون بها ظنا منهم ووهما أن ذلك يخفى على الله:

أ)- ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾.

ب)- ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾.

وثني الصّدور إمالتها، لأن ثني الشّيء هو طيّه بحيث يكون أحد طرفيه ثانيا للآخر، أي إن هؤلاء يستدبرون الرسول عند تلاوة القرآن حتى لا يسمعوه، ذلك إذا فسّرنا اللّفظ على حقيقته، أمّا إذا اعتبرنا التّمثيل فإنّه تعبير عن حالتهم النّفسية في كراهة الرّسول وهو كناية عن نفاقهم بإخفاء ما يضمرونه.

والاستغشاء بالثوب يكون بتغطية رؤوسهم بها، وذلك صورة الاستخفاء المقصود إمعانا في التولّي والإعراض، وقياسا منهم لصفات الله على صفات النّاس، بأنه -حاشاه تعالى- تلتبس عليه تلك المحاولات من التّخفّي والتّستّر، وذلك هو الخطأ الكبير عند عامّة النّاس ممن تغلب عليهم الجهالة حتى من بعض المسلمين البسطاء، لأنّ الإنسان لصيق بواقعه المشاهد، حبيس المألوف والعادة، إذ يتحايل على القانون ويخترق الأنظمة في غفلة عن الوازع السّلطاني، وسهو عن الوازع الإيماني فجاء التنبيه الإلهي الدّافع لكلّ وهْم، وأن لا فائدة من تلك المحاولات لأنّه تعالى:

أ)- ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

ب)- ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

فعلم الله الشّامل تنكشف أمامه كلّ الأشياء ظاهرها وباطنها، فلا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السّماء، بحيث لا يكون منها خفيّ أو معلن عنه، كما درج عليه الإنسان بإدراكه المحدود. وقد بدأ الله بعلمه لما يسرّه النّاس وثنّى لما يعلنونه من أعمالهم لدفع ذلك التوهّم الفاسد لأنّ العليم بالأسرار لا تخفى عنه الظّواهر.

وللتأكيد على إحاطة علم الله وشموليته جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بصيغة المبالغة "عليم"، والصّدور يراد بها عند العرب الحواسّ الباطنية، لأنّ مستودعها النّفوس، ويقصد بإضافة "ذات" إلى الصّدور ما يستقرّ فيها من

الخواطر. وقد تكرّر في القرآن مثل هذا الوصف لله، وهو أكثر وضوحا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق:١٦).

فاللّهم اغفر لنا ما قدمنا وأخرّنا وأسررنا وأعلنا وما أنت أعلم به منا، إنك على كل شيء قدير، والله أعلم.

علم الله وقدرته في تدبير شؤون خلقه

أ)- النص:

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۞ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۞

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾: "من" زائدة للتأكيد، والدّابة تجمع على دوابّ، هي كلّ ما يدبّ على الأرض زحفا أو مشيا، الخفيّ منها والظاهر، ويطلق الاسم عرفا على الخيل والبغال والحمير. قال تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور:٤٥). والرِّزق يجمع على أرزاق، وهي الأقوات والأغذية التي يقوم عليها المعاش. ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: المستقرّ: مكان الاستقرار حيث تسكن

الخلائق، والمستودع مكان الإيداع، وهي الأصلاب والأرحام قبل بروز الكائنات إلى الحياة في الأرض. ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾: هو كناية عن علم الله الأزلي المقدّر في اللّوح المحفوظ. ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: جملة حالية أو اعتراضية بين فعل "خلق" و"لام" التّعليل. والعرش وكونه على الماء ولفظ الاستواء عليه كما تقدّم بيانه في السّور السّابقة، كلّ ذلك من المغيّبات التي نكل فيه الأمر إلى الله، لأنه لا قبل لأفهامنا بإدراك حقيقتها وكنهها. ويرى كثير من المفسّرين أنّه تمثيل لسعة ملك الله، ومركز التّدبير لشؤون خلقه. والاستواء عليه هو بمعنى استقامة أمر ذلك الملك لله تعالى وكونه على الماء لا يعني التصاق أحدهما بالآخر، وإنما يعني أن الماء هو المخلوق الأصلي دون العرش، والذي انبثق عنه خلق الموجودات الأخرى من السّماوات والأرض. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: اللام للتعليل والابتلاء هو الاختبار.

ج)- أوجه القراءة:

﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: قرأ الجمهور: ﴿إِلاَّ سِحْرٌ﴾ على أن "هَذَا" إشارة إلى المدلول عليه بـ"قلت" وأن الإخبار بالبعث هو من قبيل ما يخبر به السّحرة لخصائص تؤثر في النّفوس. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿إِلاَّ سَاحِرٌ﴾ إشارة بـ"هذا" إلى الرّسول المفهوم من ضمير "قلت".

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان قدرة الله في رجوع خلائقه إليه للحياة الأخرى، وإحاطة علمه بما يسترون وما يعلنون، وذلك ما يغفل عنه النّاس عادة أعقبه هنا ببيان ما لا يستطيعون إنكاره من توفير الأرزاق لجميع الكائنات وإحاطة علمه تعالى بكلّ ما يتعلق بحياتها وتدبير شؤونها، وكيف قدّر مجالات تلك الحياة في أرجاء ملكه الواسع بإحكام وإتقان فقال جلّ من قائل: **﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا**

وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

العطف بالواو هو الرّابط بين الجمل السّابقة واللاحقة في تناسق بديع ليجعل الله من كفالته لأرزاق الدّوابّ والتي لا حيلة لها في شؤون تدبير وسائل اكتسابها، ويجعل من إحاطة علمه بمستقرّها ومستودعها دليلا على قدرته الشّاملة وعلمه الواسع، وأن الذي قدّر ذلك في الحياة الأولى لا يعجزه أن يعيد الخلق للحياة الثّانية. فيكون هذا الإخبار بمثابة التّوطئة للاستدلال على حقية البعث الذي ينكره الكفار الجاحدون.

وتقديم الجارّ والمجرور على متعلقهما لإفادة القصر. وليس في قوله تعالى: ﴿على الله رزقُها﴾ معنى الوجوب إذ لا واجب على الله، بل للدلالة على اللّزوم والمحقوقية التي هي من مجالي رحمته بخلقه، إذ تكفّل بتلك الأرزاق بعد أن أحسن كلّ شيء خلقه، فقد وضع تلك السّنن وأوجب ذلك النّظام بمقتضى علمه ومشيئته تعالى لا بإيجاب موجب ذي سلطان عليه، لأنّ ذلك يستحيل على الله عقلا وشرعا.

وكفالة الأرزاق من الله تعالى لجميع خلائقه لا يعني بحال من الأحوال عدم الكسب والارتزاق واتخاذ الأسباب، فإن ذلك مخالف لسنّة الحياة، بل ولتوجيهات الشّرع الحنيف. فالله تعالى يقول: ﴿هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك:١٥). ويقول في مجال الإنفاق: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ (البقرة:٢٦٧). وقد أخطأ أولئك الذين يظنون أن السّعي في الرّزق بغي وجنون بدعوى التّوكّل على الله والرضى بما قسم وكان هذا التّوجّه السّقيم سببا لانحطاط المسلمين في القرون الأخيرة، وانعكس ذلك على بعض ما تركه الشّعراء من أفكار في هذا الصّدد، فهذا ابن زريق البغدادي يقول عن نفسه:

كأنما هو في حل ومرتحل موكل بفضاء الله يذرعه
والسعي في الرزق والأرزاق قد قسمت بغي، ألا إن بغي المرء يصرعه

وقول آخر:

جرى قلم القضاء بما يكون فسيّان التحرّك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

ومن عجيب تدبير الله ورحمته ببعض مخلوقاته، عندما تعجز عن طلب الرزق، حتى من الإنسان نفسه، أنه تعالى يسخّر لها ما يضمن لها حياتها. قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (العنكبوت: ٦٠).

وبعد التدليل على علم الله الشامل وحسن تدبيره لشؤون مخلوقاته يأتي التدليل على مجال قدرته وحكمته في خلق السّماوات والأرض وما سبق ذلك من خلق العرش والماء، ربطا بين ما تقوم عليه حياة الكائنات والنّظام الذي يقوم عليه الكون كله، مما يدلّ على وحدة الوجود وتناغمه في إطار الزّمان والمكان فقال جلّ من قائل: **﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾**.

تبرز هذه الآية مرة أخرى قدرة الله في الخلق والتكوين، كما تقدم نظيرها في سورتي الأعراف ويونس، إلاّ أنّ الجديد هنا هو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، فإذا كان خلق السّماوات والأرض في العالم المشاهد للإنسان نسبيا يرسم له حدود الزّمان والمكان التي يعيش فيها مع الكائنات المادية الأخرى، فإن خلق العرش والماء قد سبق ذلك بالكيفية التي لا يعلمها إلا الله وهو يرسم بحالات العالم الغيبيّ، مما لا نستطيع -نحن البشر- التطاول إلى معرفته إلا أن يكون من أخبار رسول الله ﷺ الثابتة عنه. وقد روي عنه أنه قال: «**كان الله وما كان معه شيء،**

ثم كان عرشه على الماء».[١]

وأمثال هذه النّصوص التي تتعرّض لبعض الظّواهر الكونية للدلالة على قدرة الله قد نستعين على فهمها ببعض النّظريات العلمية في علمي الفلك والكون، وليس في ذلك من حرج، بل هو المطلوب الشّرعيّ في التّأمّل والتّدبّر. غير أننا لا نشكّ في إيماننا بصدق القرآن وأنه من علم الله، وذلك عندما تبدو النّظرية العلمية المتداولة غير موافقة لما في النّصّ القرآني.

يقول سيّد قطب -رحمه الله- في هذا المعنى: "والنّصّ القرآني صادق بذاته اهتدى العلم إلى الحقيقة التي يقرّرها أم لم يهتد". ثم يقول: "وتلمّس موافقات من النّظريات العلمية للنصوص القرآنية هو هزيمة لجدّية الإيمان بهذا القرآن واليقين بصحّة ما فيه، وأنه من لدن حكيم خبير. هزيمة ناشئة من الفتنة بالعلم وإعطائه أكثر من مجاله الطّبيعي الذي لا يصدق ولا يوثق به إلا في دائرته".[٢]

قلت: وهذا المعنى نأخذه من قوله تعالى في سورة غافر: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٨٣).

وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ تعليل لذلك الخلق العظيم بأن المقصود به هو تلك الخلائق التي تسبّح بحمده وتدين له بالتّذلل والخضوع. سيما الإنسان، وهو محط التّكليف، وقد أودع الله فيه قابلية الصّلاح والفساد، وسخّر له ما في السّماوات وما في الأرض جميعا منه ليختبره في ما آتاه، لا لتحصيل العلم بأحواله، لأن الله عليم بأحوال خلقه، وعليم بكل شيء، ولكن ذلك كناية عن

١- رواه البخاري من حديث عمران بن حصين، كتاب بدء الخلق، باب في قول الله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده...﴾، رقم ٣٠١٩.

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن.

ظهور آثار خلقه للمخلوقات.

وبما أن النّاس يختلفون في أحوالهم بحسب ما يختارون، فمنهم كافر ومنهم مؤمن، ومنهم أمين وديع، ومنهم خائن جبّار، فإنّ حكمة الله اقتضت الجزاء على تلك الأعمال، ويترتب على ذلك إعادة الخلق ليوم الحساب.

وبما أن في المخاطبين من ينكر البعث والحساب، لعدم معرفتهم لقدرة الله، وجّه الله الخطاب لرسوله، ليخبره كيف يكون ردّ المشركين في قضية البعث فقال جلّ من قائل: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

تأتي المؤكدات المختلفة في هذه الجملة للدلالة على التّعجيب من حال المنكرين للبعث، وهم يشاهدون بديع صنع الله في الخلق الأول الذي هو أعظم، سيما تلك الأجرام العظيمة الذي هي أعظم من خلق النّاس كما قال تعالى في سورة غافر: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧). ووجه اعتبارهم أخبار البعث كالسّحر المبين بصيغة الحصر، أنهم يعتقدون استحالة وقوعه، وإن القول فيه هو ضرب من الشّعوذة والأقوال الكاذبة، وحاشا للرسول أن يكذب على ربّه، ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران:٥٣). والله أعلم.

موقف الإنسان من النعماء والضراء

أ)- النص:

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٨ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ

مِّنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ
مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ١١

ب)- التّحقيق اللغويّ:

﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾: الأمّة في الأصل الجماعة الكثيرة من النّاس، ولكنّها تطلق لمعان أخرى، منها المدة من الزّمن كما في الآية، وتطلق على الدّين والملّة. ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ (الزخرف:٢٢). وتطلق على الرّجل المشهور الجامع لخصال الخير: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (النحل:١٢٠). و﴿مَّعْدُودَةٍ﴾: مقدّرة بآجال. وشاع في كلام العرب إطلاق العدّ والحساب على التّقليل كقوله تعالى في الصّوم: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ (البقرة:١٨٤). ويقولون في عكسه: بغير حساب. ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾: الاستفهام للإنكار والاستهزاء، والحبس: إلزام الشيء مكانا لا يتجاوزه. أي ما يمنعه من النّزول؟. ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾: من الصّرف: وهو الدّفع والإقصاء للشيء. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: من الحوق وهو الإحاطة، أي نزل بهم العذاب بشمولية وشدة. وصيغة الماضي في "حاق" لمعنى التحق. ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: اللام موطئة للقسم. والإذاقة: إيصال الإدراك على وجه المجاز، وهي هنا كناية عن الإعطاء القليل. ﴿نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ﴾: النّعماء: هي النّعمة من أنعم عليه إنعاما، تقابلها الضّراء من الضّرّ، وبينهما طباق. ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾: أي ما يسوء من المصائب والإضرار، وهو تعبير عن الإزدهاء والإعجاب.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد الاستدلال على قدرة الله في خلق الكون، وأنه قادر على إعادة الخلق

بعثه بعد الموت، وبعد أن بيّن عناد الكفار وإنكارهم للبعث باعتباره نوعا من السّحر في نظرهم، عطف على ذلك تهكّمهم بإنذار الرّسول إياهم بنزول العذاب عليهم إن هم استمرّوا في الإشراك، فقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

والجملة شرطية مؤكدة بالقسم، وجواب الشّرط والقسم قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾، والعذاب الذي يستعجلون نزوله تهكّما هو المقصود من قول رسول الله لهم: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (هود:٣).

واستعجالهم له بقولهم: ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾، ينمّ عن التهكّم والاستهزاء ظنا منهم أن تأخّره عنهم لفترة معيّنة وفق سنّة الله وحكمته في تقدير الأمور إنما هو عجز، ولذلك جاء سؤالهم عن سبب تأخّره وحبسه، أي أنّه لا يقع بتاتا، فأجابهم الله على إنكارهم كما يقرّعهم ويخوّفهم مصدّرا الإخبار بأداة التّنبيه: "ألاَ" للاهتمام بمضمون ما يأتي بعدها، بأنّ ما أنذروا به من العذاب هو آت -لا محالة- في الوقت الذي قدّره الله ولا يصرفه عنهم صارف، بل سيشملهم ويحيط بهم من كل جانب فلا خلاص لهم منه، وذلك بسبب استهزائهم وتماديهم في الإنكار. وجاء الفعل: ﴿حَاقَ بِهِم﴾ بصيغة الماضي للدلالة على تحقق وقوعه.

ثم بيّن الله تعالى موقف الإنسان أزاء الاختبار المذكور في تعليل خلق السّماوات والأرض: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، فقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ، وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

بعد بيان حكمة الله في تأخير العذاب، وكيف أن أهل الكفر والضّلال تبطرهم النّعمة، فيسخرون من إنذار الرّسول، عطف على ذلك بيان صفات ذميمة

في الإنسان إذا أخطأه الصّبر والإيمان، وهي أنه في غمرة زهوه بنعمة حظي بها، ينسى واهب تلك النّعمة، ويسهو عن تقلبات الأحوال، ويتمادى في لذّاته جاحدا ضالاً. ويبدو هذا الإنسان في موقفين مختلفين يكون فيهما بين يأس وقنوط أو فرح وفخر:

أ)- ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ﴾: جاء التّعبير بضمير العظمة تذكيرا بالخالق الرّحيم واهب النّعم ومقدّر النّقم، كما أن التّعبير بفعل: ﴿أذقنا﴾ جاء للدلالة على إدراك كمال اللّذة المشتهاة، وعلى التّقليل من أمد حصولها، حتى إذا حرمها الإنسان وانتزعت منه ركبه اليأس والقنوط، وكفر بما يتمتع به من النّعم الأخرى.

وجيء بالوصفين على صيغة المبالغة وأكّدت الجملة بمؤكدين "إنّ" و"اللام" للدّلالة على رسوخ تلك الحالة في الإنسان إذا حرم من فضيلتيّ الصّبر والشّكر.

ب)- ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾: وعلى العكس من الحالة الأولى، إذا كشف الله عنه الضرّ وأصاب بعده نعمة يكون في هذه الحالة أشدّ من الحالة الأولى تلذّذا ومتعة، ذلك لأن مسّ الضّراء يمرّ عابرا عليه، كما أنّ إدراكه للنعماء بعد ذلك يكون أشدّ تأثيرا في نفسه لما عاناه قبلها من أثر الضّراء، لأنه بضدّها تتميّز الأشياء.

وهذا المعنى هو ما يدلّ عليه استعمال فعليٍ "أذاق" و"مسّ" في الحالتين، ويؤكّد معنى القوة في التّلذذ بالنّعماء قوله في جواب الشّرط: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾، إنه الغرور والإعجاب بنفسه، والنّظرة القاصرة على الحاضر المعيش، حتى لكأن الزّمان قد توقف في نظر هذا المغرور المتعجرف، إذ نسي ما ألمّ به في الماضي، وتغافل عما يخبّئه المستقبل، إمعانا في الزّهو والفرح والفخر.

وفي سورة فصّلت نظير هذا المعنى وزيادة في تجسيد الغرور والزّهو بالمستقبل

في هذا الإنسان إذ قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ (فصلت: ٥٠).

ولبيان أن هذه الأحوال المتناقضة، تعتور الإنسان إذا هو رضي بالكفر والجحود، جاء الاحتراس عن الإنسان المؤمن بالله بأنه يكون صبورا شكورا في كل الأحوال متوازنا في حالته النفسية فقال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

والصّبر نصف الإيمان كما قال رسول الله ﷺ، فعلى قدر رسوخ الإيمان في نفس المؤمن تكون درجة الصّبر وأثره البالغ في سلوكه طاعة لله وعملا صالحا، لأن الصّبر هو ملاك كلّ الخصال الحميدة يجعل المؤمن متوازنا في حالتي السّرّاء والضّرّاء شكرا لله على نعمه، وصبرا على نقمه التي يقضي بها ابتلاء واختباراً كما تقدم.

﴿أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾:بيان لجزاء هذا الصّنف من النّاس، واختير اسم الإشارة لهم للدّلالة على أنّهم استحقّوا الأجر المذكور لاتّصافهم بتلك الأوصاف الحميدة من الصّبر والعمل الصّالح، ولذلك اعتبر الرّسول أمر المؤمن عجبا، إذ لا تبطره نعمة ولا تضيق به نقمة، فهو بين شكر وصبر، فهو في الحالتين في خير وليس ذلك إلا للمؤمن.

وحسبه من الجزاء الأوفى عند الله أن يعده الله بتوفية أجره بغير حساب فقال جلّ من قائل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزّمر: ١٠). جعلنا الله من الصّابرين الشّاكرين.

والله أعلم.

ضيق صدر الرّسول بأقوال المشركين، وتحدّيهم بالقرآن

أ)- النص:

فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ
عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ
ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن
كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾: لعلّ: للترجّي والتّوقع في اللّغة، ولكنها من الله للقطع، وحصر ابن هشام معانيها في ثلاث: التّوقع، والتّعليل، الاستفهام. وهي هنا للاستفهام الإنكاريّ الذي يراد به النّفي أو النّهي. ويجوز تقدير أداة استفهام قبلها والتّقدير: "ألعلّك تارك". تارك وضائق: من التّرك والضّيق. والضّيق مستعمل مجازا في الغمّ والأسف، ضدّه الانشراح. وجاء على صيغة اسم الفاعل للدّلالة على عدم تمكّن الضّيق من صدره ﷺ. والباء في: "به" للسببية. ﴿أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾: ﴿أَن يَقُولُواْ﴾: مجرور بلام التّعليل مقدرة، أي لأجل أن يقولوا، أو كراهة أن يقولوا. و"لَوْلاَ" للتحضيض. والكنز: هو ما يدّخر من المال يكون مخبوءا. وإنزاله إتيانه من عند الله. ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾: أي يكون شاهدا على رسالته. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾: "أم": بمعنى "بل" التي هي للإضراب وللانتقال من غرض إلى آخر. ﴿افْتَرَاهُ﴾: من الافتراء، وهو الكذب

الصّراح الذي لا شبهة لصاحبه، والضّمير لما يوحى إلى الرّسول من القرآن. ﴿وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ﴾: الدّعاء هنا بمعنى النّداء لعمل، أي تدعون من توسّمتم فيه المقدرة لمساعدتكم من غير الله، لأنهم أنكروا أن يكون القرآن من عند الله. ﴿فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾: العلم الاعتقاد اليقين، وأن القرآن أنزل بمقتضى علم الله وملابسا له، فهو حقّ وصدق. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: الاستفهام للتحريض على الفعل، والخطاب إما للكفار أو للمسلمين.

ج)- البيان والتّفسير:

لقد تحدّثت السّورة في مفتتحها عن القرآن الكريم ودعوته العامّة وكيف أن المشركين قالوا عنه: إنه سحر مبين تكذيبا وإنكارا ليوم البعث بالخصوص، وكيف كانوا يستهزئون برسول الله إذ يستعجلونه بالعذاب الذي توعّدهم به، فجاءت هذه الآيات تفريعا على ذلك لبيان غمّه ﷺ وحزنه من تكذيب قومه، إذ يلتمسون منه أشياء ليست في مقدرته، ولا هي تليق بمهمّته فقال جلّ من قائل: **﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾**.

الخطاب للرسول مصدّر بأداة "لعلّ" الذي تفيد التّرجي والتّوقع في الأصل، ولكن تتفرّع إلى معان أخرى على حسب موقعها من الجملة، وهي هنا مستعملة للاستفهام الإنكاري المراد به النّهي أو النّفي للتحذير، والتّقدير: "ألعلك تارك"؟.

والمستفهم عنه هو تلك الحالة النّفسية لرسول الله، وهو يواجه عناد المشركين وتكذيبهم له، فيؤذيه ذلك ويحزنه، وقد تكرّر في القرآن الكريم بيان الحالة النّفسية لرسول الله، مما هو من الطّبيعة البشرية، في الأسف والحزن عند الضّوائق والمكايد، من مثل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٣)، ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ

أسفاً﴾(الكهف:٦)، ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ (فاطر:٨)، ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ (الأنعام:٣٣)، ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ (الحجر:٩٧-٩٩).

والطبع البشريّ في مثل تلك الأحوال يلتمس الطّرق التي من شأنها أن تخفف من حدّة التوتّر بمحاولة إزالة أسبابه، وبالنّسبة لرسول الله في هذا الموقف هو الكفّ عن تبليغ بعض ما يوحى إليه مما فيه استفزاز للمشركين بتسفيه آلهتهم أو إنذارهم بالعذاب إن لم يؤمنوا...إلخ.

وبما أنّ هذا الموقف يستحيل على رسول الله، فإن المقصود من هذا الاستفهام هو تحذيره من ذلك، وإغراؤه وتحريك همّته أكثر في تبليغ الرّسالة وعدم المبالاة بما يقوله المشركون، سيما اقتراحهم أن ينزل عليه كنز من ربه يغنيه ويميّزه عن بقية النّاس تماشيا منهم مع ما ألفه النّاس مع الملوك والأمراء. وكذا طلبهم بمجيء ملك من السّماء يشهد له بصدق الرّسالة.

وجاء نظير هذا المعنى وزيادة في سورة الفرقان، إذ قال تعالى: ﴿وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾ (الفرقان:٧-٨). أما وقد عصم الله رسوله من التّقصير أو الخيانة في تبليغ الوحي، فقد أكّد مهمّته التّبليغية بأداة "انّما"، وبأنّه نذير لا يملك من أمر هدايتهم شيئا، لأن الله وحده هو الوكيل بأمور عباده والرّقيب على تصرّفاتهم، وجاء هذا التّذييل بصيغة العموم: ﴿على كل شيء وكيل﴾، يدخل فيه قلوب المكذّبين، وفي ذلك تسلية لرسول الله بأنه تعالى لا يؤاخذه بما ليس من مهمّته، وأنه غير مقصّر في التّبليغ وإن لم يؤمن هؤلاء.

ثم انتقل السّياق إلى بيان إعجاز القرآن الكريم في تحدّي العرب به، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وقد تقدّم نظير هذا التّحدّي في كلّ من سورة البقرة وسورة يونس. وبتقدير همزة الاستفهام بعد "أم" التي تفيد الإضراب وتكون بمعنى "بل" يكون الاستفهام للإنكار، والضّمير في: ﴿يَقُولُونَ﴾ يرجع للمشركين المكذبين بالقرآن. والافتراء: هو الكذب عن عمد، أي إن محمدا قد افترى هذا القرآن من عند نفسه، فجاءت الإجابة مفحمة لهم بالتّحدّي -وهم فصحاء العرب- أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، ثم وسّع عليهم في التّحديّ أن يستعينوا بمن شاؤوا من نظرائهم في الفصاحة من دون الله، لأن قوله: ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾ تعني إتيانها من عند أنفسهم لا من الله، لأنّ الرّسول إذا كان قد افترى القرآن كما يزعمون بصفته البشرية، فهم أقدر على الإتيان بمثلها، والقصد بالمماثلة هو مجال الفصاحة والبلاغة لأنهم أهل ذلك. وأما المضمون والمحتوى فأنّى ذلك؟.

أما وقد تحقّق عجزهم فلم يبق إلا الإذعان والتّسليم جدلا -بالنّسبة إليهم- بأن هذا القرآن إنما أنزل بعلم الله وذلك ما يفيده قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

وبما أن هذا التّفريع هو على قوله: ﴿وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم﴾، فإنّ قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾، يحتمل أنه تتمّة لما أمر به الرّسول من التّحدّي للمشركين بأن يقول لهم: إن لم يستجب لكم من تدعولهم للاستعانة بهم، فأنتم أعجز عن الإتيان بمثله.

والاحتمال الثّاني: أن يكون الخطاب للرسول وأصحابه على اعتبار أنهم كلهم دعاة إلى الله، والمعنى واضح.

والاحتمال الأول هو أنسب لسياق الكلام في إلزام الحجة وقرع المعاندين، وقوله: ﴿فَاعْلَمُواْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾، والعلم في قوله: ﴿فَاعْلَمُواْ﴾ لإفادة الاعتقاد اليقيني بأن هذا القرآن في إعجاز مبناه ومعناه، إنما أنزل بمقتضى علم الله وملابسا له، وبما لا يعلمه إلا الله من علوم الغيب ومن التشريعات الحكيمة.

ونظير هذه الآية الداحضة لشبه المفترين قوله تعالى في سورة النساء: ﴿لَّكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً﴾ (النساء:١٦٦). وبما أن علم الله متفرّد يعجز عن شأوه شركاؤكم فإن دعوى إلهيتهم باطلة، وقد لزمتكم الحجة فهل أنتم بعد ذلك مسلمون؟، أي بعد أن علمتم وتيقنتم بعجز البشر بمثل هذا القرآن. وفي هذا الاستفهام حث وتحريض على اعتناق الإسلام بصفة دائمة وثابتة مما يفيده استعمال الجملة الاسمية، والخطاب فيها للكفار -على الأرجح- ويحتمل أن يكون للمسلمين، فيكون المعنى ثباتهم على الإسلام والإخلاص له، والله أعلم.

جزاء من كان عمله للدنيا وحدها

أ)- النص:

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾: الاسم الموصول "مَن" يندرج فيه

المؤمن والكافر والصدّيق والزّنديق. وقيل: المراد به هنا الكفّار وحدهم بدليل قوله تعالى في آخر الآية: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾. وزينة الدّنيا هي الأموال والأولاد والصّحة والعزّ والجاه..إلخ. ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾: التّوفية: إعطاء الشيء وافيا غير منقوص، وعدّي بـ"إلى" لتضمنّه معنى "نوصل". ﴿وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾: البخس: هو الحطّ من الشّيء والنّقص منه على ما ينبغي أن يكون، وكرّر الجار والمجرور: "فيهَا"، للتأكيد والتّفريق بين جزائي الدّنيا والآخرة حيث لا ظلم في الآخرة ولا بخس لأي حقّ، لأنّ جزاء الآخرة هو بفعل الله. ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾: الحبط بالتّحريك، وهو داء يصيب الأنعام من بعض المراعي، إذ تستطيبها فتأكل منها حتى تنتفخ أحشاؤها وتفسد. ﴿مَا صَنَعُواْ﴾: أي ما عملوا من أعمال ظاهرها البرّ والإحسان ولكنها مشوبة بالرّياء والسّمعة. ويجوز في ضمير: "فيهَا" أن يعود إلى الدّنيا أو إلى الآخرة.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد بيان حقّية القرآن وإعجازه وثبات عجز الكفار عن تحدّيه، ودعواهم بأنهم ينشدون الحقّ في موقفهم من رسول الله، بيّن الله في هاتين الآيتين ما يصرفهم عن متابعة الحقّ، وهو حبّ الدّنيا وزينتها، وما ينتج عن ذلك من الكبرياء والغرور فقال تعالى: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾**.

كثيرا ما يغترّ النّاس ببريق الدّنيا لدى بعض من فتنه الله بمتاعها، فيظنون أن ذلك الشّخص محظوظ، وأن الله -حاشاه- ما تفضّل عليه بذلك إلاّ لأنّه يحبّه، كما أوضح الله ذلك في قصّة "قارون" عندما خرج على قومه في زينته، فقال الذين يريدون الحياة الدّنيا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (القصص:٧٩). جاء قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ في تذييل الآية السّابقة حثا

وتحريضا على الإسلام بعد قيام الحجة القاطعة على الكفّار بحقية القرآن وصدق رسول الله، فإن كانوا حقا يريدون الصّلاح والخير فإنه يتحتّم عليهم قبول الإسلام واتّباع رسوله، وبما أنهم يأنفون من ذلك فقد بيّن الله في هاتين الآيتين بأنهم يريدون الدّنيا وزينتها وحذّرهم من مغبّة ذلك، وإن وجدوا فيها بعض المتاع، لأن وراء ذلك العذاب المقيم، إذ لا يكون له حظّ في الآخرة فقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾.

وقد اختلف المفسّرون في المراد من الاسم الموصول: "مَن"، أهم المشركون أم كفار أهل الكتاب والمنافقين؟، والأولى أن يعتبر عموم اللّفظ فيدخل فيه كلّ من اتصف بمضمون الصّلة، وهو إرادة الإنسان ونيته في توجّهه واختياره، ولو كان مؤمنا مرائيا لقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنّيات، وإنما لكلّ امرئ ما نوى**».[١] لأن الإيمان الحقيقي الصّحيح يقتضي العمل للآخرة، ولو يكون ذلك عند المؤمنين بدرجات متفاوتة، بينما إرادة الدّنيا وحدها لا تتصوّر إلا في الذين لا يؤمنون بها إطلاقا. كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ (الشورى:١٨).

ونجد في نفس السّورة نظير آية هود في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢٠). وكذا نظيرها في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ (١٨-١٩).

١- رواه البخاري من حديث عمر بن الخطاب، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدأ الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم ٠١.

وبما أن آية الإسراء نصّت على شرط الإيمان في قبول العمل الأخرويّ. فيمكن أن نستنتج ما يلي:

أ)- يمكن أن تصدر من الكافر أعمال خيرية في الدّنيا كصلة الرّحم والصّدقة والبرّ والإحسان، ولكنها تردّ عليه ولا تقبل لخلوّها من عنصر الإيمان.

ب)- كما يكون ذلك شأن المؤمن إذا حصر همّه في زينة الدّنيا، ولا يعمل إلا لقصد الرّياء، والسّمعة وطلب الرّياسة والجاه، لأنّ العمدة في الجزاء الأخرويّ هو الإخلاص لله عزّ وجلّ، فإحباط العمل يطال الجميع، وذلك ما يقتضيه عموم اللّفظ، ويبقى الخلاف بين المتكلّمين في خلود المؤمن في النّار أو عدمه.

وقوله تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾، فالموفّي هو الله تعالى، والتوفية إعطاء الشيء وافيا غير منقوص، ومعنى ذلك أنهم ينالون حظّهم من الدّنيا وزينتها تامّا وفق ما وفّروا لذلك من الوسائل والأسباب المادية والمعنوية التي تدلّ عليها كلّ من فعل: "يريد" ولفظ: "الأعمال". ذلك لأنهم لا يحرمون من لذات متعهم بأيّ معاكسة للهوى والرّغبات كما يفعل المؤمن عندما يطلب رضى الله، ويستحيل في عطاء الله أن يبخس أحدا حقّه كما يفعل البشر.

وقوله تعالى: **﴿أُوْلَئِكَ الذينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾**، ولبيان استحقاق أولئك المتصفين بما سبق جيء باسم الإشارة: "أولئك" لتمييزهم بتلك الصّفات، ثم ذكر في الجزاء ثلاث حالات:

أ)- **﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾**: إذا كانت الآخرة دار الجزاء، وهو أنواع ودرجات، فإن هؤلاء ليس لهم شيء فيها إلا النّار خالدين فيها.

ب)- **﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾**: والحبط هو الدّاء الذي يفتك بالحيوانات.

فكل الأعمال التي قاموا بها في الدّنيا ولو كان ظاهرها برّاً وإحسانا تفسد وتحبط في الآخرة فتكون هباء منثورا كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ (٢٣).

ج)- ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: والعمل الباطل هو الذي لا يترتب عليه فائدة ولا أجر، فصاحبه في ضياع وخسارة، لأنّ الأعمال بمقاصدها ودوافعها. وروي عن رسول الله أنه قال: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلى ما في قلوبكم**».[١]

فاللّهم اهدنا سبل رشدنا، ووفقنا لصالح الأعمال، ولا تجعل الدّنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا إنك أنت اللّطيف الخبير، والله أعلم.

الموازنة بين من يهتدي بالقرآن ومن يكفر به

أ)- النص:

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾: الهمزة للاستفهام التّقريري. والبيّنة: ما

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، رقم ٢٥٦٤ بلفظ: « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم»، وفي رواية: « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

يتبيّن به الحقّ في كلّ شيء بحسبه، وفي المراد بـ"من" احتمالات أن يكون هو النبي أو المؤمنون أو كلاهما وبيّنتهم هي القرآن، أو مؤمنوا أهل الكتاب. ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: يتْلُوهُ: من التّلو، وهو الإتباع وليس من التّلاوة، شاهد بصدقه من الله وهو القرآن. ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾: الضّمير في: "قَبْله" للإنجيل أو للقرآن تشهد عليهما التّوراة، يؤتمّ بها في الدّين وهي رحمة للنّاس بما فيها من أحكام. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾: الأحْزَاب: جماعات الأمم الذين يجمعهم أمر يجتمعون عليه، فمشركو مكة حزب، واليهود حزب، والنّصارى حزب...إلخ. ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾: المرية: الشّك، و"في" للظرفية المجازية تفيد تمكّن التّلبيس. وفي ضمير "منه" احتمالان: أنه عائد إلى القرآن أو إلى لفظ: "موعده".

ج)- البيان والتّفسير:

تأتي هذه الآية الكريمة بعد الآيتين السّابقين فيمن يريد الدّنيا وزينتها. تأتي للموازنة والمقابلة بينه وبين من يريد الآخرة ويهتدي بهدي القرآن فقال تعالى: **﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾**.

فرّع الله على الآية السّابقة صنف من كان على بيّنة من ربّه، واختير الاسم الموصول والاستفهام التّقريريّ في مفتتح الآية، ثم نجد حشدا من الضّمائر ترد في مراجعها عدّة احتمالات، وأيّها نختار من بيان المفسّرين، فإن الموازنة تبني هنا على تفريع الضدّ على ضدّه، أي التّفريع على صنف المكذّبين وتعنّتهم كما وصفوا في الآيات السّابقة، صنفا من المؤمنين هم على بيّنة من ربّهم سواء قلنا إنّهم المسلمون فتكون بيّنتهم هي القرآن الكريم، أو المؤمنون من أهل الكتاب فتكون بيّنتهم الإنجيل.

ويتلخّص معنى الآية على النّحو التّالي:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾: في ما آمن به وهو على بصيرة من أمره هاديا مهتديا، كمن هو مفتون بالدّنيا. وقوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: الضمير في: "يَتْلُو" راجع إلى "مَن". والضّمير في: "مِنْهُ" عائد إلى الله. فيكون المعنى: يؤيد صاحب البينة شاهد من الله، وهو هذا القرآن المعجز يشهد بصدقه وحقيته. أما وقد اكتملت صورة هذا الصّنف المؤمن، فهي تقابل صورة الصّنف الأول ممن يريد الحياة الدّنيا وزينتها وليس له في الآخرة إلا النّار. ذلك هو ما اختاره المحققون في تفسير هذه الآية. وترد فيها احتمالات أخرى في مرجع الضّمائر وتعيين المراد من الاسم الموصول، وهي لا تخلو من التّكلّف.

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾: الجملة معطوفة على قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ و﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ معطوف على: ﴿شَاهِدٌ﴾. وكتاب موسى هو التّوراة، ولكونها نزلت قبل القرآن أو الإنجيل، قيّد نزولها بأنه من قبله، وللإشارة بما فيها من هداية ونور جيء بالحالين: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾. واتّباع التّوراة والإنجيل للقرآن هو اتّباع في الاستدلال على المطلوب الحق من الإيمان الصّحيح، ولكونهما قد بشّرا ببعثة رسول الله وذكر أوصافه كما قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ (الأعراف:١٥٧).

ويكتمل خبر: "مَنْ" وما بعدها بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، الضّمير عائد إلى القرآن المفهوم من السّياق، أي إن أولئك الذين هم على بيّنة من ربّهم يؤمنون بالقرآن بأنّه من عند الله، وليس بمفترى من عند محمد كما يدّعيه المشركون. وجاء التّحذير والوعيد لهؤلاء في قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾، والأحزاب هم كلّ من تحزّب ضدّ الدّعوة الإسلامية من مشركي العرب أو من أهل الكتاب، والتحزّب يعني التّوجّه الواحد والاجتماع عليه. قال تعالى في معنى التّحزب: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (المؤمنون:٥٣). فكل طائفة كفرت بهذا القرآن فإن مصيره النّار بمقتضى

وعيده تعالى، وهو الذي حدّد موعده، وهو آت لا ريب فيه. وقد ورد في معنى الآية قوله ﷺ في ما رواه أبو موسى الأشعريّ ﵁: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمّة يهوديّ أو نصرانيّ لا يؤمن بي إلا دخل النّار**».[1]

ولما كان الإيمان الصّحيح، يقتضي نفي أيّ شكّ مما يندرج في أصول المعتقد تفرّع على جملة: ﴿**ومنْ يّكْفُرْ به منَ الاحْزاب فالنّارُ موْعدُه**﴾، تفرع عنه قوله تعالى: ﴿**فَلا تكُ في مرْيةٍ مّنْهُ إنّهُ الْحقُّ من رّبّكَ ولكنّ أكْثرَ النّاس لاَ يُومنُونَ**﴾.

الخطاب للنبي ولكلّ من يصلح له، على قاعدة "إياك أعني واسمعي يا جارة". وفي هذا النّهي تعريض بالكافرين بالقرآن، وضميرا الغيبة عائدان إليه على الأرجح. ويجوز أن يعودا إلى كلمة: ﴿مَوْعدُه﴾. غير أن الجملة المستأنفة في قوله: ﴿إنَّهُ الْحقُّ من رَّبّكَ﴾ تقوّي أن يكون المراد هو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الحقّ الكامل من عند الرّبّ تعالى. وفي اختيار صفة الرّبوبية تسلية وتثبيت لرسول الله.

فإذا كان هذا الحق هو الحاصل الموجود في علم الله وإرادته، فإن واقع النّاس أزاءه على خلاف ذلك، إذ أن أكثرهم لا يؤمنون به، لتغليبهم دواعي الهوى والرّغبات الذّاتية على الحق، وهؤلاء هم الأكثرية في مسار الدّعوات، كما قال تعالى لرسوله مسليا ومعذرا له: ﴿وَمَآ أكْثرُ النّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بمُومنينَ﴾ (يوسف:١٠٣).

وقوله في الأقلية المؤمنة الشّاكرة: ﴿الاَّ الذينَ ءَامَنُواْ وَعَملُواْ الصَّالحَات وَقَليلٌ مَّا هُمْ﴾ (ص:٢٤). وقال: ﴿وَقَليلٌ مّنْ عبَاديَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ:١٣)، والله أعلم.

١- رواه مسلم بلفظ قريب من حديث أبي هريرة، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبيّنا محمد ﷺ، رقم ١٥٣.

جزاء المؤمنين والكافرين، ومثل الفريقين

أ)- النص:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ
الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ
يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ
لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ
مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ
وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾
مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: سؤال إنكار في معنى النّفي، أي لا أحد أظلم، وافتراؤهم على الله هنا هو ما نسبوه إليه من الشّريك والولد. وقولهم في إتيانهم كثيرا من الفواحش: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ (الأعراف:٢٨). وكذا نفيهم أن يكون القرآن من عند الله. ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: أي في موقف الحساب إذ تعرض أعمالهم، وإسناد العرض إلى ذواتهم هو أقطع لهم وأدعى لفضحهم أمام الخلائق. ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾: إما جمع شاهد بمعنى حاضر أو شهيد، وهو المخبر بما عليهم من الحق وهم الملائكة يشهدون للرسل بالتّبليغ ويشهدون

على الكفار بالتكذيب، كما يكون رسل الله أشهادا على أقوامهم لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء:٤١). ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: العوج: الالتواء، الضمير في ﴿يَبْغُونَهَا﴾ عائد إلى سبيل الله، أي يريدونها عوجاء وهي مستقيمة على فطرة الله. ﴿لَا جَرَمَ﴾: كلمة جزم ويقين جرت مجرى المثل. وهي تعني: لا محالة ولابدّ، حوّلت إلى معنى القسم وصارت بمعنى: حقا. ولذلك تجيء "اللام" في جوابها نحو: لا جرم لأفعلن كذا. ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: الإخبات: الخضوع والتواضع، أي أطاعوا ربّهم حق الطّاعة، وأصله من الإخبات وهو قصد المكان المطمئن المنخفض من الأرض، كما يقال: أنجد وأسهل.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد الحديث عن فريقين من النّاس: المريدين للحياة الدّنيا وزينتها، والذين هم على بيّنة من ربّهم، انتقل السّياق إلى بيان حال الفريقين بدءا بالفريق الأول المستحق للنار على كفره وجحوده وقد كرّ الله عليهم في هجمة قوية شديدة إذ بلغوا غاية الظّلم في موقفهم الشّائن فقال جلّ من قائل: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾**.

تصدرت هذه الجملة المعطوفة بأداة استفهام إنكاريّ لإفادة معنى النّفي، واختيار صيغة التّفضيل: "أَظْلَمُ"، للدلالة على أن المتحدث عنهم قد بلغوا غاية الظّلم، بافترائهم على الله الكذب بإثبات الولد له أو الشّريك، وإنكار ما أنزله على رسله، والافتيات عليه بتحليل ما حرّم وتحريم ما أحلّ.

﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: الإشارة إلى أولئك المفترين على الله ليخبر الله عنهم بما يستحقونه من الزّجر والنّقمة، إذ يفتضحون أمام الخلائق بعرض أعمالهم للمحاسبة والجزاء، غير أن المشهد يذكر عرض ذواتهم دون ذكر أعمالهم، لأن ذلك أفظع وأوغل في الافتضاح. والإسناد مجازيّ لأن الله منزّه عن التحيّز وهو عالم بهم وبأعمالهم.

ولمزيد من النّكاية بهم عطف على مشهد العرض الإدلاء بشهادة الأشهاد - وهم على الأرجح الملائكة والأنبياء وصالحو المؤمنين- وهم يشيرون إليهم لمزيد من الافتضاح أمام النّاس إذ يقولون عنهم: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

اختلف المفسّرون في تحديد مقول الأشهاد، أهو قولهم في الجملة الأولى: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؟ أم أضافوا ما جاء بعد أداة التّنبيه: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾؟ أم هذه الجملة هي مستأنفة من كلام الله، إخبارا منه تعالى بأن هؤلاء ملعونون من الله قبل يوم القيامة؟. وقيل: هي من بقية قول الأشهاد في مقام التّشهير بهم يدعون عليهم بالخزي والنّكال.

ويؤيّد القول الثّاني أنها من قول الأشهاد ما جاء بذلك صريحا في سورة الأعراف: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ (٤٤-٤٥).

وقد تقدم تفسيرها هناك إلا أن هذه الآية زيد فيها ضمير: ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ لتوكيد الحكم عليهم من طرف الأشهاد، وسبيل الله هو دينه القويم وهو الصّراط المستقيم ولكن هؤلاء الظّالمين يريدونه أعوج حتى يوافق أهواءهم، وينفّرون النّاس عنه بإلقاء الشّبه، والحال أنهم يكفرون بالآخرة، فلا يؤمنون ببعث ولا جزاء.

وبعد مقولة الأشهاد أضاف الله لهؤلاء المنكرين صفات كثيرة تكرّر فيها اسم الإشارة للدلالة على أنهم أحرياء بتلك الأوصاف التي تأتي بعده فقال تعالى: **﴿أُوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ، لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾**.

زيادة على الصّفات السّابقة التي جعلت الكفّار في موقف التّشهير والخزي أمام الأشهاد يوم القيامة، وحتّى لا يظنّ أحد أنّ تهديدهم مقتصر على عقابهم في الآخرة جاء ما ينفي ذلك في قوله تعالى:

أ)- **﴿أُوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾**: أي إذا كان الله قد أمهلهم في الدّنيا وأرخى لهم العنان استدراجا وإملاء لهم وفق حكمته تعالى في تدبير شؤون خلقه، فلا يعني ذلك أنّهم منفلتون من قبضة الله، فليس لهم مهرب في أرض الله، إذ لو شاء لعذّبهم كما فعل بغيرهم من الأمم الخوالي.

ب)- **﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾**: فإذا انتفى المهرب من الأرض -وهو من أسباب النّجاة- فإن انعدام ناصر يلتجئون إليه ليكون ملاذا لهم من عذاب الله يزيد في ضياعهم وهلاكهم وبذلك تنقطع حيلتهم في الخلاص من عذاب الدّنيا والآخرة. ويندرج في لفظ: "أَوْلِيَاءَ" تلك الأصنام التي عبدوها من دون الله، واستنصروها جهلا وغباوة.

ج)- **﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾**: ومضاعفة العذاب لهم، قيل: لكفرهم في نفسه. ويقول الإمام الرّازي: "والأصوب أن يقال إنهم مع ضلالهم الشّديد سعوا

في الإضلال ومنع النّاس عن الدّين الحق".[١]

قلت: ويؤيّده قوله تعالى بسورة الأعراف: ﴿قَالَتْ اخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلآءِ اضَلُّونَا فَئاتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ﴾ (٣٨).

وقال في سورة ص: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ﴾ (٦١).

د)- ﴿**مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ**﴾: والمراد ما كانوا عليه من الصّمم والعمى المعنويّ باستغلاق قلوبهم في الضّلالة ودنس نفوسهم بالكفر والشّرك، بحيث يكرهون سماع القرآن وما فيه من البيّنات، وعلى أبصارهم غشاوة، فلا تنكشف لهم نصاعة الحق.

هـــ)- ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ**﴾: الإشارة إلى الصّنف المتحدّث عنهم وهي تأكيد للإشارة السّابقة، حكم الله عليهم بخسارة أنفسهم في موقف الإشهاد، إذ دسّوها بالكفر والضّلال بافترائهم على الله وزعمهم أنّ الأصنام تشفع لهم عنده، فقد تفرّق عنهم الأولياء، وضل عنهم الشّفعاء، فلا تنفعهم معذرتهم ولا هم يستعتبون، وتلك هي الخسارة الفادحة أكّدها الله بقوله:

و)- ﴿**لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ**﴾: والتّعبير بـــ"لا جرم" مع التّوكيد بـــ"أنّ" وضمير الفصل وصيغة التّفضيل كلّها أدوات لإفادة الجزم واليقين بسوء العاقبة لهؤلاء، وأنّهم أخسر النّاس صفقة وأفدحهم غبنا.

قال تعالى في التّشنيع على تلك الخسارة: ﴿قُلِ انَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَاَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الزمر:١٥).

[illegible]

وفي مقابل ذلك الصّنف الخاسر ذكر الله أحوال المؤمنين الفائزين، ولخصها في ثلاثة أوصاف فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**.

فإلى جانب الإيمان والعمل الصّالح -وهما العنصران الأساسيان في شخصية المسلم- يأتي وصف "الإخبات" لبيان ثمرة الإيمان وهي الخشوع والخضوع لله مما هو من الأحوال النّفسية والقلبية التي هي محطّ القبول عند الله إذعانا لجلاله وعظمته، واطمئنانا بذكره ومحبته، والتماسا لحبّه ورضاه.

فجزاء من توفرت فيهم هذه الصّفات الثّلاث هو نعيم الجنة الخالد من كلّ ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

أعقب الله على بيان أحوال الفريقين ببيان التّنظير بينهما على طريقة التمثيل فقال تعالى: **﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾**.

.. التّمثيل للمعنوي بالشيء المحسوس له أهميته في التّعبير البليغ، وجاء في هذه الآية بأسلوب التشبيه فشبّه فريق الكفار بحال الأعمى والأصمّ، وشبه فريق المؤمنين على ضدّ ذلك بحالي البصير والسّميع فشتان بين الفريقين صفة وحالا ومآلا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، الاستفهام إنكار للاستمرار على الضّلال وعدم التّذكّر والاعتبار بما في مضمون المثلين، جعلنا الله هداة مهتدين.

والله أعلم.

قصّة نوح عليه السلام، ودعوته لقومه

أ)- النص:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا
وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ
نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ
عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ
عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ
أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾
وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ
أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: بكسر همزة "إن" على حكاية القول، وبفتحها على أنه مصدر، على تقدير حرف الجرّ بـ"أن"، من الإنذار البيّن ببيان موجبات العذاب علّهم يستجيبون للخلاص. ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ﴾: جملة تفسيرية لأرسلنا، أو لـ ﴿نَذِيرٌ﴾، لما فيه من معنى القول. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾: أي أخشى عليكم، تستعمل للأمر المظنون أو المقطوع به، يتعدى بنفسه أو بـ"على". ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾: الْمَلأُ: سادة القوم وكبراؤهم. ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾: البشر: الإنسان ذكرا أو أنثى واحدا كان أو جمعا، عبّر به عن الإنسان اعتبارا بظهور

بشرته، على خلاف الحيوانات إذ تغطّى بالصّوف والشّعر والرّيش والوبر. ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾: الأراذل: جمع أرذل أو جمع رذيل على خلاف القياس، وهو المحتقر من النّاس لخساسة حرفته وفقره، وعلى اعتبار رؤية القلب فتكون "الكاف" مفعولا أوّلا، وجملة: ﴿اتَّبَعَكَ إِلاَّ الذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ مفعولا ثانيا، وعلى اعتبار رؤية العين تكون الجملة في موضع الحال، و"بادي الرّأي" منصوب بالنّيابة عن الظّرف، أي لا تعمّق في رأيهم، لأنهم يأخذون بأوّل الرّأي دون إعادة النّظر، بحيث لو أعادوا النّظر في اتّباعك لَبان خطؤهم. ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾: الفضل: الزّيادة في الشّرف والكمال، أي لا تستحقون المتابعة. ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾: أي أخبروني إن كنت ذا برهان واضح على صدق دعواي. والرّؤية هنا بمعنى الاعتقاد، والاستفهام للتقرير. ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾: الاستفهام إنكاري، أي لا نكرهكم على قبول الدّعوة حال كرهكم لها. ﴿لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً اِنَ اَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾: أي لا يريد جُعْلاً على تبليغه الدّعوة، بل يرجو بذلك ثوابه من الله. ﴿وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ الذِينَ ءَامَنُواْ﴾: الطّرد: الأمر بالبعد عن مكان الحضور تحقيرا أو زجرا. ﴿عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ﴾: الخزائن: جمع خزانة، وهي بيت أو مشكاة كبيرة يتخذ لها باب لخزن المال أو الطّعام، وهي استعارة مكنية شبهت فيها نعم الله بالأموال النّفيسة التي تحفظ في الخزائن. ﴿لِلذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾: من الازدراء: افتعال من الزّري، وهو الاحتقار وإلصاق العيب.

ج)- أوجه القراءة:

﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة "إِنّي" بكسر الهمزة على أنه محكيّ بفعل قول محذوف في محل الحال، أي قائلا. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف بفتح الهمزة على تقدير حرف

جرّ وهو "الباء" للملابسة بـ"آتي"، أي متلبّسا بالنّذارة البيّنة. ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾: قرأ الجمهور بياء تحتية في آخره، على أنّه مشتق من "بدا" المقصور إذا ظهر، والمعنى فيما يبدو لهم من الرّأي دون بحث عن خفاياه. وقرأه أبو عمرو وحده بهمزة في آخره، على أنه مشتق من البداء، وهو أول الشيء. ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾: قرأه الجمهور بتشديد الذّال، وقرأه حفص بالتّخفيف.

د)- بين يديّ النصّ:

تقدّم التّعريف بسيّدنا نوح عليه السلام في سورة آل عمران، وهو الرّسول الكريم الذي امتدّت دعوته إلى الله في قومه لتسعمائة وخمسين عاما، ورد ذكر اسمه في القرآن ثلاثا وأربعين مرة في مختلف السّور منها هذه السّورة الكريمة هود، إذ تكرّر فيها اسمه سبع مرات، كما أفردت له سورة كاملة باسمه وهي سورة نوح، وحسب ما ورد في كتاب "أطلس القرآن" للدكتور شوقي أبو خليل، فإنّ قوم نوح كانوا يسكنون في جنوبي العراق حول موقع مدينة الكوفة حاليا. وأما جبل الجودي الذي استوت عليه سفينة نوح، فهو جبل قبالة جزيرة "ابن عمر" عند ملتقى الحدود السّورية التّركية حاليا على الضّفة الشّرقية لنهر دجلة، ويُرى جبل الجودي بوضوح من بلدة "عين ديوار" السّورية.

ويبدو من الخريطة التي وضعها كتاب "الأطلس" أن الطّوفان العظيم قد غمر بلاد ما بين النّهرين، ويقول الدّكتور شوقي: "ونقلت وكالات الأنباء المرئية في الفضائيات والمسموعة يوم الأربعاء ١٣ سبتمبر ٢٠٠٠ خبرا مفاده أنّه تمّ العثور على مدن كاملة مغمورة في قاع البحر الأسود، وقال العلماء المكتشفون: إنها تثبت الطّوفان كما ورد في الكتب المقدّسة".(١)

١- شوقي أبو خليل، أطلس القرآن، ص ٢٧.

وقد نتساءل عن تكرار قصص الأنبياء في القرآن وتنوعّه بذلك الأسلوب الفنيّ البديع ما بين إجمال وتفصيل، نتساءل ما فائدة ذلك في مجال الدّعوة؟. فيجيبنا الشّيخ محمد الغزالي في كتابه القيّم "نظرات في القرآن" إذ يقول: "كان القصص الحسن من أبرز الأساليب القرآنية في نشر الإسلام وبيان رسالته، ومزج تعاليمه بالقلوب. ولم يكن هذا القصص الواعي المحكم سرداً مجرّدًا لبعض الرّوايات القديمة يتسلّى بها السّامعون ثم يغفلون عن حكايتها أو يتعظون، لأن هذا القصص كان تاريخا لسير الدّعوة الدّينية في الحياة، وكيف خطت مجراها بين النّاس منذ فجر الخليقة وما هي العقبات التي اعترضتها؟ وهل وقفت عندها أو تغلبت عليها؟، وما صنع الأنبياء بإزائها؟، وكيف قبلت الأمم المدعّوة رسالات الله أو صدّت عنها؟ وبما انتهى الصّراع بين الغيّ والرّشد؟...إلخ. والحكمة المنشودة من وراء هذا القصص المتراسل المكرر تقرؤها في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف:١١١).

فالقرآن كتاب الدّعوة وتاريخها، وفي تضاعيف السّرد التّاريخي لأخبار الأولين يزداد عرض الدّعوة وضوحا، ويستبين منهجها الذي تحدو البشر إليه لا يختلف وإن اختلفت العصور وكرّت الدّهور".[١]

وللأستاذ محمد قطب بحث مستفيض في الموضوع يبرز فيه الأهداف البارزة للقصص القرآني، ويذيّل على كلّ هدف بنصوص من القرآن، ونحن نلخّص عنه تلك الأهداف بشيء من التّصرف في التّعبير.

أ)- إثبات صدق الوحي المنزل على رسول الله ﷺ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾

١- محمد الغزالي، نظرات في القرآن: ص ١٠٨.

(يوسف:١٠٣).

ب)- التسرية عن رسول الله ﷺ فيما يلقاه من قومه من تكذيب وأذى واتهام بالسحر والجنون: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ (الأنعام:٣٤). ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ أَنبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤمِنِينَ﴾ (هود:١٢٠).

ج)- التسرية عن المؤمنين كذلك وهم يلقون العنت والتشريد والعذاب بسبب إيمانهم يقول الله في قوم موسى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص:٥).

د)- إبراز وحدة الرسالات السماوية، وأن للرسل على تتابع الأجيال قضية واحدة هي: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (الصافات:٣٥). ﴿اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف:٥٩). ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ يُوحَىٰ إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٢٥).

هـ)- الشعور بالانتماء إلى أمة واحدة كبيرة موحدة: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٩٢).

و)- إبراز الموقف الواحد لمختلف الجاهليات من كل رسول، وهو الإعراض والتكذيب، ثم التشهير بالرسول، ثم التهديد بالأذى له وللذين آمنوا معه، ثم تنفيذ التهديد -أحيانا- أو الحيلولة دون ذلك بقدر من الله. ثم تكون النهاية دائما هي انتصار الحق وتدمير المكذبين. يقول تعالى مخاطبا قريشا: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (القمر:٤٣).

ز)- الابتلاء والتمحيص لابد أن يحدثا للمؤمنين، وذلك سنة دائمة في الدعوات، وليس حادثا عارضا يحدث لبعض المؤمنين.

﴿الم، أحَسِبَ النَّاسُ أنْ يُتْرَكُوا أنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الذينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾. (العنكبوت:١-٢-٣).

تلك هي الأهداف البارزة من قصص الأنبياء، ويلاحظ أنّ أغلبها ورد في القرآن المكي، أي في فترة الإعداد والتربّص للجماعة المؤمنة".[1]

هـ)- البيان والتفسير:

بعد إثبات الدّلائل على أصول العقيدة الإسلامية من توحيد الله والنّبوءة والبعث والجزاء وذكر بعثة محمد وإنزال القرآن عليه وقد عجز قومه أن يأتوا بمثله، بيّن الله أنه من خلال قصص الأنبياء ليس محمّدا بدعا من الرّسل في معارضة قومه له، إذ أنّ ذلك من سنّة الله في خلقه، فكما أرسل الله محمدا فقد أرسل من قبله رسلا إلى قومهم ومنهم نوح عليه السلام، وبهذا يتبيّن معنى الرّبط بين ما سبق وبين قصة نوح بـ"الواو" إذ قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ أرْسَلْنَا نُوحاً الَى قَوْمِهِ إنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ، اَن لاَّ تَعْبُدُواْ إلاَّ اللهَ إنِّيَ أخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ ألِيم، فَقَالَ الْمَلأُ الذينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاَّ الذِينَ هُمْ أرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾**.

القصص في سورة هود يغطّي أكبر حيّز منها، وهو يسير على خطّ التّاريخ مع موكب الرّسل، بدءا بنوح ثم هود وصالح، ثم يلمّ بإبراهيم ليسلك إلى قصة لوط، ثم شعيب، وبعد ذلك إلى موسى في كلام موجز.

بدأ السّياق بقصة نوح عليه السلام وتعرّض بتفصيل إلى قصّة الطّوفان بكلّ تداعياتها.

وافتتحت القصّة بـ"لام" القسم و "قد" لأنّ المخاطبين بها هم في كفرهم

١- محمد قطب، دراسات قرآنية، ٩٩ - ١١٠ (بتصرف).

غافلون عمّا يحيق بالمنكرين لرسالات الله من الويل والثّبور.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾: فهو واحد منهم اختاره الله لتبليغ رسالته، التي تتضمن قوله لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، والنّذارة البيّنة هي تهديد العصاة بالعقاب، وأنه بيّن لهم ذلك بالبيان الواضح القويّ. ثم فسّر ذلك الإنذار بقوله: ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ﴾، نهاهم عن عبادة غير الله، لأنهم كما قيل: كانوا أوّل من أشرك بالله واتخذ له أندادا، وأنّ دعوة نوح هي أوّل دعوة لتوحيد الله وعبادته، ثم أكّد دعوته تلك بقوله: ﴿إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، أي شديد الألم، وإسناد الألم إلى اليوم مجازيّ للمبالغة، وتنكير لفظ: "عَذَابَ" ليحتمل عذاب الدّنيا بالاستئصال وعذاب الآخرة بالنّار، فهم معذّبون -لا محالة- إن عاجلا أو آجلا، ولحرصه على تبليغ ذلك الإنذار. أكّد قوله: بـ"إنّ" مع ما في تعبيره من الإشفاق عليهم إن هم بقوا على الكفر، وذلك بقوله: ﴿إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾، ولكن قومه بادروه بالتّكذيب، وطعنوا في نبوءته بأربع شبهات:

﴿فَقَالَ الْمَلأُ الذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الذِينَ هُمُ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾:

إن الكبراء وعلية القوم هم الذين يتولّون تلك المواجهة، وإنما جمهور الدّهماء والسّوقة تبعٌ لهم. والرّبط بـ"الفاء" يدلّ على ردّهم السّريع لنذارة "نوح" فما أشبه موقفهم بموقف سادات قريش من دعوة رسول الله. بل تتكرّر نفس الشّبهات ونفس الاتهامات، ذلك لأن الكفر ملّة واحدة، وإن اختلفت الدّهور والعصور؛ ألم يقل كفار قريش: ﴿وَقَالُواْ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف:٣١)

ألم يطلبوا من رسول الله أن يطرد عنه أولئك الفقراء المستضعفين الذين آمنوا

به حتى يؤمنوا به هم ويصدّقوه فتنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بالْغَدَاة وَالْعَشيّ يُريدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ منْ حسَابهم مِّن شَيْءٍ وَمَا منْ حسَابكَ عَلَيْهم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ منَ الظَّالمينَ﴾ (الأنعام:٥٢).

ألم يقل هؤلاء الطّغاة زهوا وتعاليا واغترارا بالسّؤدد المادّي الزّائف كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ الذينَ كَفَرُواْ للذينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْه﴾ (الاحقاف:١١).

فنجد أن الشّبهات التي روّجها قوم نوح ليبرّروا بها تكذيبهم إياه هي نفس الشّبهات التي يردّدها الطّغاة المتعجرفون، وكلها تبنى على مغالطات باطلة ومعايير زائفة للسؤدد والفخار عندهم تقوم على القيم المادية المحضة.

أ)- أولى تلك الشّبهات: ﴿مَا نَرَاكَ إلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا﴾، إنها رؤية العين القاصرة التي لا ترى إلاّ الصّورة المادية المتشابهة بين البشر، وأن الفروق الضّئيلة التي بين شخص وآخر لا يمكن أن يبلغ بأحد منهم أن يمتاز حتى يصير متبوعا من غيره رسولا واجب الطّاعة، إذ يعتقدون -باطلا- أنّ رسالة السّماء هي فوق طاقة البشر. وقد دحض القرآن تلك الشّبهة في سورة الأنعام: ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزلَ عَلَيْه ملَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ، وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهم مَّا يَلْبسُونَ﴾ (٨-٩).

ب)- والشّبهة الثّانية: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاَّ الذينَ هُمْ أَرَاذلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾، أي لم يتبعك إلاّ من هم من أحقرنا مكانة من الضعفاء والفقراء، فلو كنت على حقّ مما تدّعيه لاتّبعك الأشراف الأكابر. وهاتين الشّبهتين نفوا عن نوح كلّ سيادة وعزّ في ذاته هو وفي أتباعه، إذ لم يتروّوا في رأيهم بل آمنوا به بدون تفكّر في العواقب والتّعمق في خوافي الأمر.

ج)- الشّبهة الثّالثة: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا من فَضْلٍ﴾، وهم هنا لَزُّوه في

قَرن واحد مع قومه نافين عنهم كلّ فضل يمكن أن يتميّزوا به عنهم لا من عقل ولا من شرف أو حسب يجعلهم أسيادا متبوعين.

د)- الشّبهة الرّابعة: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾، والظّن هنا بمعنى العلم، إذ ترجّح لديهم أنّهم كاذبون، فنوح في دعوى الرّسالة والاتّباع في حصول اليقين بصدق نوح عليه السلام وهذا الحكم الأخير منهم عليه بالكذب قد علّلوه بما سبق من تلك الشّبهات، فكان ذلك كالنتيجة للمقدّمات، وهي كلّها باطلة، وبالتّالي يكون ما استخلصوه من الحكم على كذبه باطلا.

إنّها شبهات أربع تنمّ عن الكبرياء والتّعاظم، يواجهها نوح عليه السلام بأربع ردود وهو يحاورهم بلطافة ويستأنس شرودهم بترديده لندائهم بــ"يا قوم"، مضافا إلى ضميره الذي حُذف لأجل التّخفيف، يحاورهم في ثقة واطمئنان، في ثقة بالحقّ الذي يدعوهم إليه، وفي اطمئنان إلى ربّه الذي أرسله، بأنّه لا يخذله ولا يسلمه. وهو يقول لهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ، وَيَا قَوْمِ لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً اِنْ اَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَاقُواْ رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ، وَيَا قَوْمِ مَنْ يَّنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ، وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُّوتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمُ إِنِّيَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

أوّل شبهة تصدّى لها بالرّدّ هي اعتقادهم بكونه مجرّد بشر عاديّ مثلهم، فقال لهم: يا قومي أخبروني بما عساه أفعله معكم إن كنتم على عمى عمّا حباني الله به من براهين واضحة، وما خصّني به من رحمة الهداية والرّسالة بأن اختارني من بينكم رسولا، فبادرتم إلى الإنكار والتّكذيب. وعبّر بالعمى عن الشيء للدلالة على

شدة الخفاء، ذلك لأنّ الكفر والعناد قد طمس بصائرهم، وحجب عنهم نور الهداية، وبالتّالي ركبهم الغرور والكبرياء، فلا مطمع لإقناعهم ولا سبيل لإكراههم على الإيمان وهم كارهون له. والإنسان كاره لما يجهله. وبقوله ﷺ: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾، يركّز الله به تعالى قاعدة: "لا إكراه في الدّين"، من أوّل دعوة سماوية، كما أنه بردّه لإنكارهم وتكذيبهم إيّاه يكون قد نفى شبهة المساواة بين البشر التي بنوا عليها شبهتهم الأولى: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا﴾، وأن الواقع في تفاوت البشر خَلقا وخُلقا هو الحق الذي أثبته القرآن في كثير من الآيات من مثل قوله تعالى:

أ)- ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص:٦٨).

ب)- ﴿وَهُوَ الذي جَعَلَكُمْ خلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَاكُمْ﴾ (الأنعام:١٦٥).

ج)- ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة:٢٥٣).

د)- ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ (النحل:٧١).

وتدعيما لصدقه في رسالته أعاد استعطافهم بندائهم: ﴿وَيَا قَوْمِ﴾، والعطف للنداءات مع تكرارها للتنبيه على اتّصالها بعضها ببعض، وأنّ أحدها لا يغني عن الآخر، فهو إذ لا يطلب منهم مالا على دعوته، إنما يدلّل لهم على مدى صدقه في إسداء النّصح إليهم، وبالتّالي فهو لا يتملّق الأثرياء ليعطوه من أموالهم، ولا يطرد أتباعه ممن آمنوا به لأجل فقرهم، فيسترضي بذلك الأغنياء، وفي ذلك ردّ ضمنيّ لقولهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الذينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾، فهو وإن استغنى عن أموال قومه، فإنّ أجره هو ثواب الله على حسن قيامه بما كلّفه به من أمانة التّبليغ.

﴿وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ الذينَ ءَامَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُواْ رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً

تَجْهَلُونَ، وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾.

وكشأن الكبراء المتعجرفين، إنهم يستنكفون من الالتقاء والتجمّع بمن دونهم من الفقراء الأراذل -كما يزعمون- ويظهر من ردّ نوح أنهم طلبوا منه طردهم إن كان يريد من الكبراء أن يؤمنوا فجاء ردّه قويًا على تلك الشّبهة بتأكيد النّفي بـ"الباء"، ثم تعليل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُم مُّلاَقُواْ رَبِّهِمْ﴾ بأنّ هؤلاء هم صائرون إلى الله، هو الذي يجازيهم على إيمانهم، كما يجازي غيرهم، وليس أمر ذلك إليّ، إذ ما عليّ إلا البلاغ، ولكنكم قوم تجهلون معايير التّقييم للناس، فتسفهون على بعضهم وترضون بآخرين وفق هواكم وتصوّركم الفاسد.

ثم كرّر النّداء ليأتي بالاستفهام الإنكاري أن يجد النّصرة من الله إن هو آذاهم بالطّرد، لأنّ ذلك ظلم عظيم لا يرضاه الله، بل يعاقب من اقترفه. ثم أنكر على قومه عدم التّذكّر في العواقب، إذ أنساهم ما هم عليه من التّرف والبطر ميزان العدل والإنصاف لخلق الله.

وها هو مرة أخرى يعرض عليهم في معرض تذكيرهم حقيقة شخصه ورسالته، فينفي عن نفسه تلك الامتيازات التي يظنون وجوب توفّرها لمن يكون حقا رسولا من عند الله، وهي كلّها تتصل بالملأ الأعلى، فيقول: ﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

نفى نوح عن نفسه ثلاثة أمور، فجاءت الجملة الأولى معطوفة دون تكرار: ﴿يَا قَوْمِ﴾، لأنّها في المعنى تفصيل لقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً﴾، وفي هذه الجمل يردّ نوح على قومه ادّعاءهم بأنهم لم يروا له فضلا عليهم حين ادّعى النّبوءة، فبيّن لهم أن النّبوءة لا تستلزم أن يكون صاحبها فوق البشر فيتصف بما ليس في مقدوره بأن يدّعي أنه يملك التّصرف في خزائن الله مما يكفل لعباده من

الأرزاق، ولا أنّه يعلم الغيب فيختار لنفسه وأتباعه ما يريده من النّفع، ولا أنّه ملك يمتاز بروحانيته مما لا يملكه البشر، فإذا انتفت عنه تلك الصّفات، فقد بيّن لهم أن ذلك ليس من موضوع الرّسالة ولا من خصائصها كما يزعمون، وقد جاء نفي تلك الصّفات على لسان سيدنا محمد ﷺ في سورة الأنعام: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عندي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥٠).

فبين الآيتين تشابه كبير، في موقف الرّسولين من مزاعم قومهما ومواقفهم من الضّعفاء المؤمنين، ثمّ إن نوحا عليه السلام زاد لبيانه تأكيدا بأن نفى أن يقول في شأن أولئك المحتقرين في أعين قومه ما يرموهم به من قصر النّظر ومن النّفاق في ادّعائهم الإيمان به، وبما أنه لا يدّعي الغيب، فإنّ الله وحده يعلم ما في نفوسهم فيؤتيهم من الجزاء ما يستحقّونه؛ لأنّ الحكم على ما في سرائر النّاس ظلم، وحاشا لسيّدنا نوح أن يكون من الظّالمين. وبهذا الرّدّ الهادئ الرّصين يكون سيّدنا نوح قد قدّم الصّورة النّاصعة للرّسالة وبيّن حقيقتها مجرّدة من كلّ المقاييس المادية الزّائفة التي يتعاظم بها الكبراء المتعجرفون، والله أعلم.

التّحدّي بعد الجدل واستعجال العذاب

أ)- النصّ:

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾
قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ
أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ
قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قَدْ جَادَلْتَنَا﴾: من المجادلة وهي المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وتكون في الخير أو في الشرّ. وأصلها من: جدلت الحبل إذا أحكمت فتله. ومنه: الجديل: الحبل المفتول، فهو منهيّ عنه إذا كان في الشرّ والخصومة، ومحمود إن كان للوقوف على الحق. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾: الإتيان بالشيء إحضاره، أرادوا تعجيل العذاب. ﴿وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي﴾: النصح: قول أو عمل يريد صاحبه صلاح المعمول لأجله. يقال: نصحه ونصح له، وهو أفصح. ﴿يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾:من الإغواء: الإيقاع في الغواية والفساد. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾: "أم" للإضراب، وهي تؤذن باستفهام إنكاري، والافتراء هو الاختلاق. ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾: الجملة تفيد القصر، والإجرام اكتساب الجرم، وأنه مؤاخذ عليه.

ج)- البيان والتفسير:

بعد دحض نوح لشبهات قومه تأخذ المحاورة معهم شكلا آخر فتفضي إلى التحدّي بعد طول الجدال معهم في إثبات النبوءة والتوحيد، وهو إذ توعدهم بالعذاب على عنادهم، فقد استعجلوه في تحدّ وعناد فقالوا: **﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾**.

لقد أفلس القوم من الحجّة في مجال الحوار فضاقوا ذرعا من الدّاعية لكثرة جداله إياهم، فاستعجلوا العذاب، وهم يكذبونه في دعواه بأنّ الله يعذبهم إن هم تمادوا على العصيان، وقد قال لهم: ﴿إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، ولكن نوحا عليه السلام يردّ عليهم بالحقيقة التي غفلوا عنها، **﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ، وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِيَ إِنَ اَرَدْتُّ أَنَ اَنصَحَ لَكُمُ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾**.

أي إن أمر التعجيل بالعذاب هو لله، وأنّ أمر ذلك هو لله وحده وهو القادر على نقمتهم متى شاء ووفق ما أراد، لا يملكون الانفلات من قبضته وهو لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء، ثم ألمح إليهم بأنّه ليس إلاّ رسولا ينصح لهم بما هو خير، وأنّه لا يملك أن ينفع ويؤثر نصحه فيهم إذا اقتضت إرادة الله أن لا يأخذوا بأسباب الهداية فيبقون في الغيّ والضّلال وفق اختيارهم وكسبهم. وليس معنى إغواء الله لهم أن يصدّهم عن الانتفاع بالنّصح مقهورين، وإنما يتمّ ذلك بربط الأسباب بالمسبّبات، لأنه الربّ الحكيم المالك لناصية خلقه، يرجعون إليه للحساب والجزاء.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلِ انِ افْتَرَيْتُهُ، فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾:

اختلف المفسّرون في موقع هذه الآية، أهي معترضة بين أحداث قصّة نوح، جيء بها التفاتة إلى وضعية مشركي قريش مع رسول الله ورميهم إياه بافتراء القرآن، وذهب إلى ذلك بعض المفسرين، أم هي من جملة قصة نوح جيء به لتلوين الأسلوب وتنبيه الأذهان إلى ما يرد من بقية أحداث القصة؟، وذهب إلى هذا الرأي الجمهور وابن عباس ﷺ.

وعندي أن لا تعارض بين الاحتمالين عند تحقيق النّظر، وذلك لوجه التّشابه الكبير بين الموقفين وتكرار نفس التّهمة من طرف المشركين المعاندين، والالتفات من صيغة إلى صيغة في الأسلوب هو من الدّقائق البلاغية التي يمتاز بها أسلوب القرآن، بل يمكن أن تخرّج تلك الالتفاتة من باب: "إياك أعني واسمعي يا جارة".

وكان الرّدّ بأمر الله: **﴿قُلِ انِ افْتَرَيْتُهُ، فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾**، أي إنّ الافتراء على الله جرم عظيم أتحمّل وحدي وزره إن كنت فعلته كما تدّعون، كما أنني بريء مما تجرمون في حق الله من الذّنوب والآثام والله

عادل في حكمه، يجزي كلّ إنسان بما فعل، فلكلّ نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت. ونظير معنى هذه الآية بأكثر تفصيل قوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤١)، والله أعلم.

إيئاس نوح من قومه، وأمره بصنع السّفينة، وإهلاك المكذبين

أ)– النص:

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم
مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن
تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ
اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾
وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾

ب)– التحقيق اللغوي:

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾: من الابتئاس: اشتداد البؤس والحزن بسبب إصرارهم على الكفر. ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾: الْفُلْك: السّفينة ويطلق على المفرد والمؤنث، وقد ذكرها الله في سورة القمر بالوصف فقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ (القمر:١٣)، أي أخشاب ومسامير، كما

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: الأعين: استعارة للرعاية والمراقبة، والوحي: لبيان كيفية صنعها. ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾: جيء بالمضارع لاستحضار الحالة للسامع بأن نوحا بصدد العمل. ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾: الجملة في موضع الحال. ﴿وَكُلَّمَا﴾: مركبة من "كل" و "ما" الظّرفية، وهي من العموم مع الظّرفية أشربت معنى الشّرط. ﴿سَخِرُواْ مِنْهُ﴾: يقال: سخر منه وسخر به، أي استهزؤوا بعمله ذاك إذ كانوا لا يتصوّرون فائدة ذلك العمل. ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾: سخرية نوح ومن آمن معه تعني استجهال الكافرين بسفه عقولهم، ووجه التّشبيه بين السّخريتين هو التّشبيه في السّبب الباعث على السّخرية. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾: حتى لغاية إتمام صنع الفلك، ومجيء أمر الله بمعنى تقدير إهلاك الكافرين بالغرق. ﴿وَفَارَ﴾: يفور فورانا وهو غليان القدر. و﴿التَّنُّورُ﴾: المكان الذي يخبز فيه الخبز. ويقال: التّنُّورُ لصفة الوادي. ويستعمل: ﴿فَارَ﴾ في الحقيقة والمجاز، فيقال: فار الماء من العين إذا علا وارتفع، ويقال: فار الغضب من فلان، وهو هنا اشتداد غضب الله على المشركين. ولذلك اختلف المفسرون في حمل التعبير على الحقيقة وعلى المجاز. ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾: "مِن" تبعيضية، و﴿اثْنَيْنِ﴾: مفعول به لـــ"احمل"، أي من كل زوج اثنين ذكر وأنثى، وأهل الرّجل: اسم جمع لقرابة الرّجل وأهل بيته. ﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾: أي من مضى قول الله عليه وقضى بإهلاكه، وهو ولده كنعان وزوجته. ﴿بِسْمِ اللهِ مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾: "الباء" للملابسة، وهي في موضع حال من ضمير: ﴿ارْكَبُواْ﴾، أي ملابسين لاسم الله. "المجرى" و"المرسى" بضم الميمين مصدران لـــ"أجرى"، أي سيّرها بسرعة، وأرسى: إذا أوقفها على الشّاطئ.

ج)- أوجه القراءة:

﴿احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾: قرأ الجمهور: ﴿مِن كُلِّ

زَوْجَيْنِ﴾: بإضافة "كلّ" إلى زوجين. وقرأه حفص: ﴿مِن كُلٍّ﴾ بتنوين "كُلٍّ"، فيكون تنوين عوض عن المضاف إليه. وفي هذه القراءة يكون: ﴿زَوْجَيْنِ﴾: مفعولا لـــ ﴿احْمِلْ﴾، و"اثنين" صفة له. ﴿بِسْمِ اللهِ مُجْرٰاهَا وَمُرْسَاهَا﴾: قرأ الجمهور بضمّ الميمين، مصدرا "أجرى" و"أرسى"، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف: ﴿مَجْرٰاهَا﴾ فقط بفتح الميم، على أنه "مفعل" للمصدر أو الزّمان أو المكان. وأما: ﴿مُرْسَاهَا﴾ فقرءوه كلّهم بضمّ الميم. وفي إعرابها ثلاثة أوجه:

أ)- أن يكونا في محل نصب على تقدير حذف الظّرف.

ب)- أن يكونا مرفوعين على الابتداء و﴿بِسْمِ اللهِ﴾ خبر.

ج)- أن يكونا في محل رفع بالظّرف، وهو حال من "ها" "فيها".

د)- البيان والتّفسير:

تتوالى أحداث قصّة نوح مع قومه، وقد انتهت المحاورة إلى التّحدّي واستعجال العذاب، فيتلقى نوح الوحي من ربّه يؤيّسه من إيمان بقية قومه ويأمره بصنع السّفينة فيقول تعالى: **﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ، لَنْ يُؤمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ، وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾**.

أخبر الله نوحا عليه السلام بواقع قومه من حيث الإيمان وعدمه، وأنّ أمد الدّعوة قد انتهى، وأن لا جدوى مع البقية المصرّة على الكفر إذ لا مطمع في إيمانهم، والله أعلم بذلك الواقع، وأمّا من سبق إيمانه فهو ثابت عليه لا يرتدّ عنه أبدا، ويدلّ على ذلك تأكيد فعل "آمن" بـــ"قد"، وفي مثل هذا الموقف المؤسف نهى الله نوحا عن الغمّ والحزن على ما صدر من قومه، إذ حكم قضاء الله وانتهى الأمر. لأن الدّاعية

مهما يلاق من الصّدود والإعراض فإنه لا يفقد الرّجاء ولا يجنح إلى اليأس، ولكن نوحا عليه السلام قد امتثل لإرشاد الله واستنزل سخط الله عليهم بدعائه: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً، إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُواْ إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ (نوح:٢٦-٢٧).

وفي غمرة هذا اليأس المشروع يأمره الله بصنع السّفينة لتكون أداة لنجاته مع من آمن من أهله وقومه: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾، يصنعها بإرشاد من الله ورعايته، وجيء بلفظ "أعين" جمعا للدّلالة على كمال الرّعاية، بحيث يتفادى الأخطاء المحتملة في الصّنع، لأن تلك الصّناعة لم تكن معروفة في ذلك الوقت، وهي تقتضي من نوح التفرّغ والاعتناء، فقد فرغ من أمر الدّعوة، ويستعدّ لقضاء الله، فلا تأخذه رأفة على الظّلمة وقد تأكد إغراقهم.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾:

فقد امتثل نوح لأمر الله وشرع في صناعة الفلك، وصيغة المضارع: ﴿يَصْنَعُ﴾ تضفي على المشهد حيوية، إذ نتخيّل نوحا جادًا في عمله، ونسمع أولئك السّاخرين، وهم يمرّون عليه فاكهين، كيف أصبح هذا الرّسول نجارا وأين هو الماء الذي تجري عليه السّفينة؟، إنهم مغرقون في تكذيبهم، فلا يستشفون ما وراء الظّواهر التي يشاهدونها، ولا يرون ذلك العمل من نوح عليه السلام إلا ضربا من الهوس والعبث، ولكن الرّسول الكريم يبادلهم سخرية بسخرية وهو ماض في تنفيذ أمر الله واثق بإنجاز وما وعد. مستخفا بسفاهتهم وحمقهم، إذ يجهلون ما يحلّ بهم من السّخط والعذاب. ولذا خاطبهم بكل ثقة واطمئنان بأنّهم سوف يعلمون من

هو الأحقّ بالسّخرية والتندّر يوم ينكشف الغيب عما قدره الله عليهم من الهلاك في الدّنيا يلبسهم ثوب الخزي والعار، ويحلّ عليه العذاب الدّائم في الآخرة.

ولكلّ أجل كتاب عند الله، وصناعة نوح مستمرة حتى حلول أمر الله بإهلاك القوم، وقد تمّ لنوح أداة النّجاة ووقف على أهبة الاستعداد وبدء التّعبئة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾:

جعل الله لبدء الكارثة علامة، وهي فوران التّنور بالماء، والتّنور له معان مختلفة في كلام العرب، فهو موقد الخبز من مأوى الإنسان، وهو وجه الأرض كما يراه ابن عباس، وهو ضفة الوادي. هذا إذا أجرينا معنى اللّفظ على حقيقته، وفي الدّلالة المجازية يكون تعبيرا على غضب الله الشّديد، أي تمثيل للشيء إذا بلغ أقصى مداه مثل قولهم: "حمي الوطيس وفاض الكأس".

وإذا كان لنا أن نستعين بما ورد في الآيات الأخرى حول الحادثة، فإنّه تعالى يقول في سورة القمر: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ، وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ، وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ (١١-١٣). فيكون التّنور في مجال مشاهدة نوح قد فاضت منه إحدى تلك العيون التي فجّرها الله على وجه الأرض ليعرف منها بدء الكارثة، فيأتي أمر الله بتعبئة السّفينة بحيث تحتوي حمولتها على العناصر التي تستبقي الحياة على وجه الأرض من الإنسان والحيوانات البريّة الأخرى:

أ)- أن يأخذ من أزواج كلّ الحيوانات ذكرا وأنثى، و"كلّ" المضافة تدل على العموم، ومعنى ذلك أن يحمل منها ما يقدر على إمساكه في ذلك الحيّز من المكان، وذلك حفاظا على أصول الأنواع.

ب)- أن يحمل معه أهله، وهم نساؤه وأولاده وأزواج أولاده، واستثنى

منهم من بقي على الكفر، كما تفصّل القصة الآتية لولده، وكذا إحدى امرأتيه التي رضيت بالكفر، كما ورد ذكرها في سورة التّحريم.

ج)- ويحمل معه كل من آمن من قومه، ولم يذكر النّص شيئا من التّفصيل لكيفية جمع تلك الحيوانات، ولا لعدد من آمن به من قومه إلا ما بيّنه النّص من أهم قليل. قال ابن عبّاس: إنّهم ثمانون ما بين الرّجال والنّساء.

وهكذا تمت التّعبئة كما أمر الله، فأخذ الكلّ مكانه في السّفينة فعلت فوق الأمواج وأعطى الله للسفينة إشارة الانطلاق: ﴿**وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللهِ مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

عدّى الرّكوب بـ"في" لأنّها ليست كالدّابة تركب ويركب عليها، إذ ركوب السّفينة على سبيل المجاز هو في الحقيقة جلوس على ظهرها، وكون جريها ورسوّها "بسم الله" هو للدّلالة على كونها في رعاية الله طول خطّ سيرها والتّذييل بجملة: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يرجّح أن يكون هذا الكلام مما قاله نوح لرفاقه، ويحتمل أن تكون قد لقّنها نوح لأتباعه حتى يقولوها جميعا استدرارا لرحمة الله ومغفرته، إذ نجّاهم من الغرق، وذلك من تمام رعاية الرّبّ الرّحيم، والله أعلم.

انتهاء الطّوفان، ونجاة نوح، والعبرة من ذلك

أ)- النّصّ:

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ

ابْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ
بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ
وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ
أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ
بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن
قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾، ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ﴾: قدّم المسند إليه على الخبر لتقوية الحكم، وجيء بالمضارع ليستحضر السّامع تلك الحالة حتى لكأنه يشاهدها، وهي متصلة بمحذوف دل عليه: ﴿ارْكَبُوا﴾ أو هي حال، أي فركبوا وهي تجري بهم، والموج جمعه أمواج، وهو ما يرتفع من الماء على سطحه عند اضطرابه، وتشبيهه كالجبال لضخامته. ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾: أي ألجأ إلى جبل يحفظني من الماء لعلوّه. ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾: الاستثناء إما منقطع فيكون: ﴿عَاصِمَ﴾ بمعنى معصوم، أي لكن من رحمه الله يعصمه الله، وإما متصل أي يكون: ﴿عَاصِمَ﴾ للنسب، بمعنى لا ذا عصمة إلا الله الرّاحم. ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾: أي فرق بين الوالد والولد. ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾: من البلع، وهو اجتياز الطّعام والشّراب من الحلقوم بدون استقرار في الفم، واستعير هنا لإدخال شيء في باطن شيء بسرعة. ﴿وَيَا سَمَاءُ

اقْلِعِي﴾: بمعنى أمسكي نزول المطر. ﴿وَغِيضَ الْمَآءُ﴾: أي غار في الأرض ونضب بابتلاعها له. ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾: أي تمّ إهلاك الظّالمين وإنجاء المؤمنين. ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾: أي استقرت السّفينة على الجبل المسمّى بالجوديّ وهو جبل بين العراق وأرمينيا يسمّى اليوم "أرارات". ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنَ اَهْلِي﴾: الجملة بيان للنّداء الذي هو في معناه دعاء يقصد كون ابنه من أهله أن الله وعده بنجاتهم. ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾: تعليل لمضمون جملة: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ اَهْلِكَ﴾، في معنى الجملة احتمالات: أي جعل الابن نفس العمل للمبالغة، أو يقدّر: إنه ذو عمل غير صالح. وقيل: إن ترك ركوبه السّفينة عمل غير صالح، وقيل: إن نداءك لتنجيته عمل غير صالح. ﴿انِّيَ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: أي أنهاك أن تكون من زمرة الجاهلين، والجهل هنا ضدّ العلم لمناسبة قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، ﴿اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾: "الباء" للمصاحبة، أي اهبط مصحوبا بسلام منّا. والبركات: هي الخيرات النّامية، وهي مما يدعى بها. ﴿تِلْكَ مِنَ اَنبَآءِ الْغَيْبِ﴾: أي الأخبار المغيّبة عن النّاس أو عن فريق منهم، ومنهم العرب إذ كانوا يجهلون تفاصيل القصة. ﴿انَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾: الْعَاقِبَةَ: جمعها عواقب، وهي الحالة التي تعقب حالة أخرى، وشاعت في معنى الخير، و"أل" فيها للجنس، و"اللاّم" للاختصاص والملك.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾: ﴿يَا بُنَيِّ﴾: قرأه الجمهور بياء مشددة مكسورة، لإضافة المصغّر "بني" إلى ياء المتكلم، فلزم كسر الواو ليصير "بنيْوِيّ" فلما وقعت الواو بين عدوّيتها الياءين قلبت ياء وأدغمت في ياء التّصغير فصار "بنييّ" بياءين في آخره أولاهما مشددة، ولما كان المنادى المضاف إلى ياء المتكلم يجوز حذف ياء المتكلم وإبقاء الكسرة فصار "بنيِّ" بكسر الياء مشدّدة. وقرأه عاصم بفتح ياء

المتكلم المضاف إليها لأنه يجوز فتحها في النّداء. ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾: ﴿عَمَلٌ﴾: قرأه الجمهور بفتح الميم وتنوين اللام، مصدر أخبر به للمبالغة، وبرفع: ﴿غَيْرُ﴾ على أنه صفة لـ ﴿عَمَلٌ﴾. وقرأه الكسائي ويعقوب: ﴿عَمِلَ﴾ بكسر الميم على صيغة الماضي وبنصب: ﴿غَيْرَ﴾ على المفعولية. ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِ﴾: قرأه نافع وابن عامر وأبو جعفر: ﴿فَلاَ تَسْأَلَنِّ﴾ بتشديد النّون، وهي نون التّوكيد الخفيفة ونون الوقاية أدغمتا، وأثبت ياء المتكلم من عدا ابن كثير من هؤلاء، أما ابن كثير فقرأ: ﴿فَلاَ تَسْأَلَنِّ﴾ بنون مشدّدة مفتوحة. وقرأه أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف: ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِ﴾ بسكون اللاّم وكسر النّون مخففة على أنه غير مؤكد بنون التّوكيد ولا معدّى إلى ياء المتكلم. وأكثرهم حذف الياء في حالة الوصل، وأثبتها في الوصل ورش عن نافع وأبو عمرو.

د)- البيان والتّفسير:

في هذا النّصّ تتمّة القصّة في مشهد رهيب مؤثر، فقد امتثل نوح لأمر الله، وعبّأ سفينته بمن كتب الله لهم النّجاة وهم يحرّكونها باسم الله، والطّوفان في هياج شديد، وقد رسم الله صورة هوله بالأمواج العاتية ترتفع كالجبال، ونوح الأب يتفقد من في السّفينة قبل انطلاقها، كما يفعل الرّبّان المحنّك المتحمّل لمسؤوليته التّامّة قال تعالى: **﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ، قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾**.

تبدو رحمة الله ورعايته لهذه الطّائفة المؤمنة في صورة حيّة بديعة، كيف يسّر لها تلك الوسيلة التي تضمن نجاتها في وسط الأمواج العاتية، وهي تجري بهم هكذا بصيغة المضارع حتى لكأنّ السّامع يشاهد المنظر في ترقب وإشفاق.

ونوح الرّبّان المحنّك وهو يتأهب للانطلاق، لا يجد بين أهله الرّاكبين ولده العاق. وقيل: اسمه "يامًا" وقيل: "كنعان"، إذ انعزل عن الرّكب لاختياره الكفر، والاعتداد بقوته في الصّعود إلى جبل عال يعصمه من الماء، وبعاطفة الأبوّة الحنونة نادى نوح ابنه بـ"يا بنيّ" يرجوه أن يقلع عن كفره ليركب مع النّاجين المؤمنين.

ومع تمادي الولد في العصيان، ظنا منه أن يجد من الجبل منقذا من الغرق، يجيبه نوح إجابة الواثق بعظمة الخالق ورحمته بخلقه، وأنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، وأمر الله هو قضاؤه بحدوث ذلك الطّوفان الذي تعجز أمام عظمته حيلة الإنسان ووسائله، فلا ينجو منه إلاّ من رحمه الله وكتب له وسيلة النّجاة، ومن مظاهر رحمته أمره لنوح بصنع تلك السّفينة.

ويحتمل في المستثنى: ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ أن يكون بمعنى مرحوم، أي من كتب الله لهم النّجاة، ويحتمل أن يكون بمعنى الرّاحم وهو الله تعالى. وتنتهي تلك المحاورة بين الوالد والولد بحيلولة الموج بينهما فكان الولد العاق مع غيره من المغرقين.

﴿وَقِيلَ يَآ أَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ وَيَا سَمَآءُ اقْلِعِي وَغِيضَ الْمَآءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾:

والقول هنا وإن بُني للمجهول فهو لا يكون إلاّ من الله العليّ القدير، من عالم الغيب في مستويات الأمر التّكويني، وقد تمّ النّداء العلويّ للأرض والسّماء كما ينادى العقلاء. ووجّه الأمر إلى الأرض أن تبلع ماءها، وإلى السّماء أن تكفّ عن إنزال المطر، وما أبلغ التّعبير في هاتين الجملتين لما بين "السّماء" و"الأرض" من الطّباق، وما بين "أقلعي" و"ابلعي" من الجناس، ثم استعارة النّداء والأمر لغير عاقلين.

وكان من نتيجة سرعة الامتثال لأمر الله أن غاض الماء في بطن الأرض، بعد قضاء أمر الله وإنجاز وعده بإهلاك الظّالمين، وقد استقرت السّفينة على جبل

الجودي، أي بعد أن تقلّص الماء من جنباته، وهو يشكل مرفأً طبيعيًا للسفينة ومهبطا آمنا لركابها، وهم يقولون: ﴿بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كراهة لهم وذمّا لمصيرهم المشؤوم. ويجوز أن يعطف على ما قبله فيكون القائل هو الله.

لقد فُتِن علماء البلاغة بهذه الآية، واعتبروها أبلغ آية في كتاب الله العزيز، وتنافسوا في بيان الأوجه الفنية البلاغية في تفصيل مطوّل.

يقول صاحب المنار في شأنها ما يلي: "قرّر علماء البلاغة الفنية أن هذه الآية أبلغ آية في كتاب الله العزيز أحاطت بالبلاغة من جميع جوانبها: المعاني والبيان والبديع، وإنّ مثل هذا التفاضل بين الآيات الذي يقتضيه الحال والمقام لا ينافي بلوغ كل آية في موضعها وموضوعها درجة الإعجاز، ولا يعدّ من التفاوت المعهود في كلام أشهر البلغاء كأبي تمام والمتنبي وكذا غيرهما من شعراء الجاهلية ومن بعدهم في الدّرجات الثّلاث العليا والسّفلى وما بينهما، فآياته كلّها في الدّرجة العليا المعجزة للبشر".[١]

قلت: إن تذييل مشهد الإغراق للظالمين الكفرة بالدّعاء عليهم بالطّرد والبعد يشعر بشدّة غضب الله عليهم بإنزال ذلك السّخط الذي يجعلهم مبعدين عن الوجود الإنساني لأنه لا يستمرّ على الظّلم، ومبعدين عن رحمة الله لأن الشّرك به ظلم عظيم.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١٢/٨٠.

﴿الْخَاسِرِينَ﴾:

المتبادر إلى الذّهن في تسلسل الأحداث أن يكون هذا النّداء الثّاني من نوح عليه السلام إثر محاولته مع ولده العاق أن ينقلع عن الكفر ويركب السّفينة، وهو يدرك أنه إن بقي في معزل يكون من المغرقين.

وبدافع من عاطفة الأبوّة الحنونة التجأ إلى الله بدعائه يسأله سؤال استعطاف وكشف عن حال ولده، على اعتبار أنّه من جملة أهله الذين وعده الله بإنجائهم، سأل نوح ربّه وهو مترفّق في دعائه لله بالتزامه لآداب الدّعاء، بأن أضفى على الله صفات الكمال في إنجاز الحقّ والعدل في ما يحكم به لعباده.

قلت: إن التّسلسل يقتضي أن يتتابع النّداءان، غير أن الأداء البلاغيّ لتلاحق أحداث القصة اقتضى هذا التّقديم والتّأخير، على اعتبار أن هذا النّداء الثّاني ليس من صلب القصّة، بل هو مسألة فرعية لتقرير ما توحي به من العقائد وأصول الدّين، إذ المراد من نوح أن يطلب من ربّه النّجاة لابنه، لا أن يطلب له المغفرة بعد أن يتيقن من غرقه كما ذهب إلى ذلك بعض المفسّرين، ولذلك كان مترفقا في دعائه باستعماله أسلوب التّلميح في تردّد وإشفاق. ولكن الرّدّ الإلهي جاء حاسما عليه مسحة التّأنيب والتّوبيخ، مع الإقناع والتّعليل: ﴿**إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنَ اَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾.

هكذا يجيء النّفي القاطع المؤكد بعدم أهلية الولد لنوح عليه السلام لا من حيث الدّم والنّسب، ولكن من حيث قرابة الدّين والعقيدة؛ لأن الكفر يقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين، فهي المفاصمة التامّة بين الفريقين قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوا ءَابَآءَهُمُ أَوَ اَبْنَآءَهُمُ أَوِ اِخْوَٰنَهُمُ أَوْ عَشِيرَتَهُم﴾ (المجادلة:٢٢).

وهذا هو حكم الله العادل في خلقه: ﴿وَمَنَ اَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ

يُوقِنُونَ﴾ (المائدة:٥٠).

لقد أكّد الله لنوح حقيقة ولده بما لا يدع له مجالا لتوقع صلاحه، فهو لا محالة من الهالكين، فتفرّع عن ذلك النّهي التأنيبي له أن يسأل من الله ما ليس له به علم ويحذره أن يكون من الجاهلين. ومن الجهل في الدّعاء أن يطلب الإنسان من الله الحكيم العادل أن يعطّل سننه في خلقه، والتي تقوم على القسط والعدل، فلا محاباة لأحدهم بقرابة أو نسب أو حظوة وجاه.

لقد اجتهد نوح فأخطأ، والخطأ في الاجتهاد لا تترتّب عليه معصية عند البشر العاديّين، ولكن ذلك بالنّسبة للأنبياء يعدّ تجاوزا للأدب مع الله. وقد استشعر ذلك نوح نفسه فبادر إلى الاستغفار والتّوبة والعياذ بالله من الجهل: **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيَ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾**.

والاستغفار من الذّنوب بالنّسبة للأنبياء لا يستلزم أن يكون من ذنب عظيم، وإنما هو من باب ترك الأفضل -أحيانا- بما يليق من مقامهم الرّفيع عند الله، إذ يقعون في ذلك أحيانا ليشعروا بنقصهم البشري ويلتجئوا إلى الله لإكمال ذلك النّقص.

لقد أنجز الله ما وعد لنبيّه، برسوّ السّفينة على برّ الأمان، فكيف تنطلق الحياة من جديد ولم يترك الطّوفان إلا الفراغ والفناء. ومرة أخرى تتدخل عناية السّماء، فيتلقّى نوح بسلام الملأ الأعلى، وتباركه عناية الله مع كلّ من معه حتى تتفرع منهم الأجيال، وتمضي سنّة الله في الخلق في مصيرهم على أساس الكفر والإيمان، زكاء ونماء أو محقا وفناء.

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

وبذلك يسدل السّتار على مشاهد هذه القصّة المثيرة بكلّ تداعياتها في أبلغ عرض تتفاعل معه نفس السّامع وتحمله أحاسيسه ليغوص في أغوار الماضي السّحيق، لتتكشف الحقائق الإنسانية عارية من كلّ تنميق أو تكلّف، وهي باقية على الفطرة السّليمة، أو ملطّخة بالأهواء والشّهوات ومنساقة مع مألوف العادات وأوهام الأباطيل والخرافات، ويختم السّياق بهذا التعقيب الذي يستخلص الموعظة ويبرز العبرة.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾:

الإشارة إلى ما تقدّم من أخبار القصّة، وكونها من أنباء الغيب لأنّ الرّسول وقومه ما كانوا يعلمون تلك التّفاصيل سيما ما كان فيها من حوار بين نوح والملأ الأعلى، وكذا موقف الابن العاق من أبيه، وما صاحبه من إشفاق الأب عليه ...إلخ.

ونفي العلم عن الرّسول وعن عموم قومه يدلّ على تمام جهلهم بالقصة على تفاصيلها المذكورة، ولا ينفي علم بعضهم بمجملها أخذا مما عند أهل الكتاب، وبذلك تتمّ الحجة عليهم بصدق الرّسول في ما يوحى إليه.

وإذ تعرض القصة صراع الحق والباطل وعاقبة الكفر والإيمان من لدن نوح عليه السلام جاء تفريع أمر الله لرسوله بالصبر والثّبات وبيان أن العاقبة بالنّصر والتّمكين هي للمؤمنين المتقين.

فأبشر يا محمد بما تكون عليه عاقبتك أنت ومن معك من المؤمنين، إنها النّصر المؤزّر، والظّفر بأعدائك خزايا أذلاء.

والله أعلم.

قصة هود عليه السلام

أ)- النص:

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا
وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ
آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ
فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ
آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ
إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾
وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ
غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ
عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ
أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾: معطوف على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، والأخ هو الواحد من القبيلة، والعرب تقول للرجل منهم: "يا أخا العرب".

و﴿هُوداً﴾: عطف بيان. ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ﴾: افتتاح دعوته بنداء قومه للاستعطاف ولاسترعاء أسماعهم لما سيلقي. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾: بيان لجملة: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: أي كاذبون في إدّعاء الإلهية لغير الله. ﴿يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾: كرر النّداء للتأكيد على الأهمية في استرعاء الانتباه. والضّمير في: ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على الدّعاء إلى الله، وتقدّم نظيره في قصة نوح. واختيار الموصول في قوله: ﴿عَلَى الَّذِي فَطَرَنِيَ﴾ لزيادة التّحقيق في أنه لا يطلب بدعوته منفعة؛ لأنّ الخالق يكفل رزقه. ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً﴾: تسمية للمطر باسم مصدره من قبيل المجاز المرسل. و﴿مِدْرَاراً﴾: حال من السّماء، صيغة مبالغة من "الدّرور"، أي الصّبّ الغزير. ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾: أي يضاعف قوتكم بالمال والولد، والتّعبير بـ"إلى قوتكم" يفيد معنى الضّمّ إلى قوة كانوا يمتلكونها من قبل. ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾: أي ما نقول في شأنك إلا أنه أصابتك بعض آلهتنا بمسّ من الجنون، والجملة مقول للقول. ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ﴾: أي أجمعوا من الكيد ما تستطيعون للإيقاع بي ولا تمهلوني في ذلك، والأمر للتعجيز والاحتقار لهم ولآلهتهم. ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾: الأخذ بالنّاصية تمثيل للتمكّن من الشّيء والقدرة عليه، بحيث يكون المأخوذ بناصيته ذليلا في يد آخذه. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: "على" للاستعلاء المجازي، و"الصّراط المستقيم" مستعار للفعل الجاري على العدل والحكمة. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾: الجملة تعليل لقوله: ﴿وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً﴾. و﴿حَفِيظٌ﴾: صيغة مبالغة لـ"حافظ"، كناية عن القدرة والقهر. ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: والأمر للتكوين، أي جاء أمرنا بالعذاب أو بوقته. ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾: أعيد فعل التّنجية للفصل بين "منا" و"من"، والغليظ بمعنى شديد أليم. ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾: "تلك" اسم الإشارة على اعتبار القبيلة، فهي حاضرة في الحسّ والمشاهدة وقيل: الإشارة إلى آثارهم، والجحود هو

الإنكار الشّديد، والآيات هي الدّلائل الواضحة الجارية على أيدي الرّسل. ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾:أي هم ملعونون في الدّارين. ﴿أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾: دعاء عليهم بالطّرد من رحمة الله، و"قوم هود" بيان لـــ"عاد" أو عطف.

ج)- بين يديّ القصة:

لقد وردت قصّة هود في سورة الأعراف، ولكن بكيفية مختصرة، وهي هنا في إحدى عشرة آية مفصلة، حتى قيل: إن تسميتها بهود عليه السلام كان من أجل ذلك. وتأخذ في حيّز السّورة من الآية ٥٠ إلى ٦٠، كما وردت قصته مختصرة أيضا في سورة الشّعراء، عدا بعض الإشارات إليها في سور أخرى. وقد تقدم التّعريف به وبقبيلته في أول السّورة. ونقلا عن كتاب "أطلس القرآن" للدّكتور شوقي أبو خليل يقول في الصّفحة ٢٩و٣٠: "قال ابن عبّاس: إنّ هودا أوّل من نطق بالعربية، كانت مساكن عاد في أرض الاحقاف شمال حضر موت، وفي شمال الأحقاف (الرّبع الخالي) وفي شرقها عمان يعبدون الأوثان: ودّا وسواعا ويغوث، ويعوق ونسرا. وقال ابن عباس: إنّهم اتخذوا صنما يقال له "الهتّار"، وقوم عاد الذين هلكوا هم عاد الأولى، أما عاد الثّانية فهم سكان اليمن من قحطان وسبأ وتلك الفروع. وقيل: هم ثمود. ويقول أهل حضر موت: إن هودا عليه السلام سكن بلاد حضر موت بعد هلاك عاد إلى أن مات ودفن في شرقي بلادهم نحو مرحلتين من مدينة "تريم" قرب وادي "برهوت".

د)- البيان والتّفسير:

يبدو أن ترتيب قصة هود على قصة نوح عليه السلام جاء وفق التّرتيب الزّمني لبعثهما، لما قيل: إن هودا عليه السلام هو أول من تكلّم العربية من ذرية نوح. ويؤيّد هذا ذكر أسماء الأصنام التي عبدها قوم نوح، فقد عبدها قوم هود. وتحدّد الرّوايات

الفترة الزّمنية بينهما بثمانمائة سنة. وبين القصّتين شبه كبير في الدّعوة وفي المواقف وفي النّهاية قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ اَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ الَهٍ غَيْرُهُ إِنْ اَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ، يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً انْ اَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ، وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً الَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾.

أغنى العطف عن تكرار فعل: ﴿اَرْسَلْنَا﴾، فقد أرسل الله هودا إلى قومه، كما أرسل من قبل نوحا، فهو أخوهم في آصرة النّسب والقربى، وهو إذ يدعوهم إلى عبادة الله وحده يستجيش عاطفتهم النّسبية بـــ"يا قوم"، يكرّرها كلّما دعاهم إلى تكليف، فمنه أنه:

أ)- دعاهم إلى عبادة الله وحده، كما دعا نوح إلى ذلك، ونتساءل هنا: كيف تردّى القوم إلى عبادة الأوثان، وهم سلالة لأولئك الذين نجّاهم الله على سفينة نوح جزاء إيمانهم بدعوته؟، ونجد الإجابة على ذلك في سورة مريم، فبعد قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰئِكَ الذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ من ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ (مريم:٥٨). قال بعد ذلك: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ اَضَاعُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ (مريم:٥٩). ذلك لأن دعوات الرّسل بعد أن يكتب لها النّصر بإنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين، يطرأ الانحراف في الأجيال اللاحقة، ومع طول الأمد تنطمس معالم الحقّ، وتنتكس النفوس إلى الجاهلية مرة أخرى، وهكذا دواليك. ويفهم من صيغة الدّعوة: ﴿اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنَ الَهٍ غَيْرُهُ﴾ أنّ القوم لا ينكرون وجود الإله بالمرة، ولكنهم تدرّجوا في الجاهلية بتصورّهم الفاسد، فاتخذوا لله شركاء، وهم كاذبون في ادّعائهم أنهم وسطاء بينهم وبين الله، وهذا الموقف من قوم هود فقد أصبحوا في عداد من قال الله فيهم من قبل في قصة نوح: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ (هود:٤٨). وهم

لهم بـــ"يا قوم" لاسترعاء اهتمامهم أكثر. واختار إسناد الأجر إلى الاسم الموصول: ﴿الذِي فَطَرَنِيَ﴾ للإشعار بأنّ الخالق هو الرّازق الذي يجب أن يطلب منه الرّفد والعطاء. ولذلك فرّع ذلك الاستفهام الإنكاري: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾، للتعجيب من تصوّرهم الفاسد في حق رسولهم.

ب)- ثم طلب منهم الاستغفار والتّوبة إلى الله، والاستغفار لا يكون إلاّ من ذنب، وهو كفرهم بالله في ما سبق، ثم إتباع التّوبة بالنّدم على ما سبق، والإقلاع عن الذّنب في المستقبل، وذلك يستلزم منهم الاعتراف بوجود الله، وبالتّالي تقصيرهم في جانبه، وهود يعدهم إن هم استجابوا لدعوته يعدهم بما وعد به رسول الله قومه في أول السّورة، وهي سنّة الله الجارية على خلقه، إذ تستقيم أحوالهم ما استقاموا على الطّريقة، وعدهم هود بأمرين:

أ)- ﴿يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً﴾: والسّماء بمعنى المطر، واختير له وصف المدرار وهي صيغة مبالغة من الدّرّ، أي فيض اللّبن من الضّرع. اختير هذا الوصف للدّلالة على أنّها غزارة مباركة نافعة، وقد أجدب زرعهم ونضب ضرعهم، ممّا يدلّ على غضب الله.

ب)- ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً اِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾: فقد كانوا معجبين بقوّتهم من قبل حتى اشتهروا بالبطش وتطاولوا على غيرهم اغترارا بتلك القوة حتى قالوا: ﴿مَنَ اَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ (فصلت:١٥).

ومما جاء في موعظة رسولهم من سورة الشّعراء: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ايَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (١٢٨-١٣٠).

ج)- ﴿وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾: وأيّ إجرام هو أعظم من الإعراض عن أمر الله والكفر بنعمه؟. وقد اختير وصف "الإجرام" لما هم عليه من البطش والظّلم

لغيرهم، والله أعلم.

﴿قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤمِنِينَ، إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾: لم تكن قصة الطّوفان غائبة عن ذاكرة قوم هود، إذ هم الخلفاء من بعد قوم نوح، كما ذكّرهم بذلك رسولهم: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ (الأعراف:٦٩). غير أن إجابتهم لرسولهم تنمّ عن إصرار وعناد اشتطّ إلى حدّ السّفاهة في الحوار، فوصفوا رسولهم بالتّحريف والهذيان، وأنّه لم يأتهم بحجّة مادية تدلّ على صدق نبوءته، على اعتبار أنّه في نظرهم بشر مثلهم، كما يفهم ذلك من قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾، أي عن قولك الصّادر من تلقاء نفسك لا عن الله كما تدّعيه، وجعلوا ذلك علّة لنفي إيمانهم به ولتمسّكهم بعبادة آلهتهم، وأوغلوا في الشّكّ والعناد حتى ظنوا برسولهم مسّا من الجنون أصابته بعض آلهتهم به انتقاما لإنكاره عبادتها.

وعلى قدر ذلك التّحدّي المهين، جاءت إجابة هود شديدة اللّهجة متعدّدة التّهديدات إذ قال: ﴿قَالَ إِنِّيَ أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ، إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

لقد بلغ القوم من الإصرار والتّحدّي ما جعل هودا عليه السلام يلتجئ إلى الله بإشهاده عليهم أنه بريء مما يشركون، كما حمّلهم الشّهادة له على ذلك، لتتمّ المفاصلة بينهم، وأنه لا يبالي بإصرارهم ولا بتهديدهم له بإيذاء آلهتهم، فهو شديد الثّقة بربّه، وبأنّه على حقّ في ما يدعوهم إليه، ثم فرّع على تلك البراءة هذا التّحدّي بقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ﴾، فأعجب لقوّة هذا الرّسول الكريم، كيف بلغت به قوّة العزيمة إلى ذلك الحدّ من التّحدّي والجراءة على قوم

بلغوا في الاشتهار بقوتهم ذلك المبلغ من الاستعلاء والبطش إلى أن قالوا من أشدّ منا قوة؟.

ولم يقتصر على مواجهتهم بغلظة القول وحيدا، بل تجرّأ على طلب المكايدة منهم صراحة، بأن يجمعوا أمرهم وشركائهم جميعا للكيد به، وأن لا يمهلوه طرفة عين. إنه الإيمان الرّاسخ بربه والثّقة بنصره وتأييده، والاطمئنان إلى قدرته التي لا تنفلت من قبضتها ناصية الدّوابّ كلها وإن كانت في مثل غلظة أولئك القوم وفي مثل قوتهم.

﴿إنّي توكّلتُ على الله ربّي وربّكم مّا من دآبّة الاّ هو ءاخذٌ بناصيتها﴾: وقد تقدم مثل هذا التحدّي من نوح عليه السلام لقومه بقوله لهم: ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثمّ لا يكن أمركم عليكم غمّة ثمّ اقضوا إليّ ولا تنظرون﴾(يونس:٧١) إنهما يستمدّان القوة من ربّ العزة الذي لا يظلم ولا يجور وهو على صراط مستقيم، وهو أهل للتوكّل غيور على حرماته، لا يُسلم أولياءه لأدعياء الباطل.

وعلى هذه الصّورة النّاصعة تتجلّى حقيقة الألوهية والرّبوبية في نفوس الأنبياء والرّسل، فتنبثق منها تلك الإرادة القوية والعزيمة الصّلبة في مواجهة الباطل وأدعيائه.

أمّا وقد بلغ هود مع قومه ذلك الحدّ من الاعتزاز بقوة الله، فقد واجههم بالإنذار والوعيد فقال: **﴿فإن تولّوا فقد ابلغتكم مّآ أرسلتُ به إليكم ويستخلفُ ربّي قوماً غيركم ولا تضرّونه شيئاً انّ ربّي على كلّ شيء حفيظٌ﴾**.

والأصل في: ﴿تولّوا﴾ تتولّوا حذفت إحدى تائيه اختصارا، فهو خطاب من هود لقومه تفرّع على قوله: ﴿إنّي أشهدُ الله﴾ لمزيد من التفصيل ليبلغ بالتحدّي إلى نهايته منذرا ومهدّدا بعد أن أقام عليهم الحجة بالتّبليغ عن ربّه بالجزم والتّأكيد بـ"قد". وللتولّي والإعراض عن أمر الله تبعاته في مصائر الأمم، ولذلك استأنف كلامه لهم بقوله: ﴿ويستخلفُ ربّي قوماً غيركم ولا تضرّونه شيئاً﴾، ينذرهم

بعذاب الاستئصال لأنه لا كرامة لهم عند الله، وهو قادر على استخلاف غيرهم، وليس في ذلك ضرّ لله في شيء، بل لا يضرون إلا أنفسهم لو كانوا يشعرون، لأنّ الكفر بالله ظلم لا يضرّ إلا بصاحبه، والله غني عن العالمين، قال تعالى:

أ)- ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلاَ يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر:٧).

ب)- ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد:٣٨).

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾: والجملة تعليل لما سبقها، والحفيظ مبالغة من الحفظ، فهذه الصّفة العلية، إذ تدلّ على حسن الرّعاية والحفظ، فهي تستلزم حفظ أولياء الله ورسله بجعلهم في كنفه ويعصمهم من النّاس.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ، وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾:

﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾: استعمال الماضي للدّلالة على قرب المجيء، لأن الإنجاء يتمّ قبل نزول العذاب، وأمر الله هو ما يكون من أثره بنزول العذاب أو حلول وقته، وهو الرّيح الصّرصر التي تدمّر كلّ شيء بأمر ربها كما وصفها الله في سورة الحاقة بقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ، فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ (٦-٨).

تكرّر فعل التّنجية مع ذكر متعلقه: ﴿مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ للدّلالة على لطف الله بعبده هود والذين آمنوا معه، وأنها نجاة خاصّة لا تخضع للأسباب العادية

المسخّرة للبشر، وقد دخل إلى حضرموت كما تذكره الرّواية السّابقة، وكون ذلك العذاب غليظا لأنه تولّد عما ظنه القوم سببا للغيث والرّحمة، كما قال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لاَ تُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٤-٢٥).

ثم تأتي خاتمة القصّة بذكر بعض الأسباب التي أدّت إلى إهلاكهم وطردهم من رحمة الله فقال تعالى: **﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾**.

المتحدّث هو الله تعالى، أشار بالمؤنث لإرادة القبيلة أو الآثار الباقية من ديارهم، والجحود هو النّكران مع قيام الدّليل والبرهان، والآيات هي الدلائل الواضحة التي تدلّ على صدق الرّسول والأمور العجيبة التي تظهر على يديه تأييدا من الله. ومع التّكذيب والجحود عصيان الرّسل -أي جنس الرّسل-؛ لأنّ عصيان الواحد عصيان للجميع، والإيمان لا يتمّ إلا بالإيمان بجميع الرّسل. والمقصود باتّباعهم لأمر كلّ جبّار عنيد، أي اتّباعهم لعلية القوم من الكبراء الطّغاة الذين هم ضالّون ومضلّون بالجبروت والقهر لغيرهم.

﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: أي أنه تعالى أخزاهم بالعذاب المادي وبالعذاب المعنوي -وهو أنكى وأشدّ-، وذلك بأن يكونوا ملعونين على ألسنة الخلق في الدّنيا لما يشاهدونه من آثار خرائبهم وفي الآخرة، لأنهم من الظّالمين الذين تلعنهم الأشهاد.

﴿أَلاَ إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾: شهد الله عليهم بالكفر في صيغة التأكيد ثم دعا عليهم بالبعد من رحمة الله.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾: ونسبتهم إلى هود على البدلية، للدلالة على أنهم غير عاد الأولى.

قصّة صالح عليه السلام مع قومه ثمود

أ)- النص:

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ
أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي
قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ
آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ
بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي
غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا
تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ
أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ
أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: الإنشاء هو الخلق والتكوين أي خلقكم الله من مادة الأرض. ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾: السين والتاء للمبالغة، أي

جعلكم تعمرونها بالبناء والغرس. ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾: من الرّجاء، أي كنّا نترقب منك الخير قبل أن يصدر منك الكلام الذي جئت به. ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾: إِنَّنا: اجتمعت مع "إن" نون ضمير الجمع إظهارا لحرف التوكيد، وفي "تدعونا" نون واحدة هي نون المتكلم ومعه غيره. والمريب: اسم فاعل من أراب، إذا أوقعه في الشّكّ. ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾: الاستفهام في: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ للتقرير، والرّؤية بمعنى الاعتقاد. ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾: استعمل "إن" وهي للشّكّ على اعتبار حال المخاطبين على بيّنة، أي على بيان وبصيرة. ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾: التّخسير: مصدر خسر أي الإيقاع في الخسران. والمعنى: ما يحدث لي إن اتبعتكم إلا الخسران. ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾: النّاقة: أنثى البعير، وإضافتها إلى اسم الجلالة تعظيم لشأنها في أنها آية خارقة للعادة. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾: يقال: عقر النّاقة إذا ضرب قوائمها بالسّيف، والمراد هنا القتل، والفاء للترتيب، أنهم قتلوها بعد ذلك الإنذار غير مبالين بالوعيد. ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾: وهو انجاز هلاكهم. ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾: أي ونجيناهم من خزي ذلك اليوم بما وقع فيه من عذاب الاستئصال، أي من الذّلّ والفضيحة يوم القيامة. ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾: وهي المرة الواحدة من الصّوت الشّديد، والمراد بها صوت الصّاعقة التي أصابتهم. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ، كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾: أي ساقطين على وجوههم من الصعق. يقال: جثم الطّائر وبرك البعير. كأن لم يغنوا فيها: أي كأنهم لم يقيموا في ذلك المكان.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾: قرأ الجمهور: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ بجرّ "يوم" بالإضافة، وقرأه نافع والكسائي بالفتح، وهما لغتان. ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودًا﴾: قرأ الجمهور: ﴿ثَمُودًا﴾ بالتّنوين على اعتبار أن ثمود اسم جدّ القبيلة، وقرأه حمزة وحفص عن عاصم

ويعقوب بدون تنوين على اعتباره اسماً للقبيلة.

د)– البيان والتّفسير:

تَرِدُ القصّة الواحدة لأحد الرّسل مع قومه مكرّرة في بعض السّور وبأسلوب وعرض يختلف وفق سياق السّورة. وفي كل نوع ملحظ لا يوجد في الآخر، ولكن حسن الجمع بين ذلك يعطي في النّهاية صورة حقيقية كاملة لتلك الحادثة التّاريخية، ونحن في هذا النّصّ بأزاء قصة صالح عليه السلام وهي تخضع لنفس العرض في كثير من السّور وتأخذ هنا ثماني آيات. وقد ذكرت في السّور: الأعراف، الشّعراء، النّمل، القمر، الحجر، الشّمس، الذّاريات، النّجم. وفي كلّ من هذه السّور من العبرة والموعظة ما لا يغني عن الأخرى.

وصالح هو الرّسول الثّاني من العرب، و"حجر" تقع بين الشّام والحجاز هي مساكن قبيلته ثمود، وما تزال آثارهم باقية إلى اليوم، وقد ذكر اسم صالح عليه السلام تسع مرات في القرآن في كل من السّور: الأعراف، هود، الشّعراء، النّمل. فلما أهلك الله قومه بالصّاعقة، قيل: إن صالحا ومن آمن به ذهبوا بعد هلاك قومهم إلى ناحية الرّملة في فلسطين، وقيل غير ذلك.

قال تعالى: **﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ، هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾**:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾: إنها دعوة واحدة، شبيهة بدعوة هود في نصّها ومدلولها. كما أنّ صالحا ينتمي إلى قبيلة ثمود، وهي –أيضا– قبيلة عربية كانت تسكن مدائن الحجر التي جعل الله اسمها "الحجر" عنوانا لسورة كاملة، إذ قـــال في شأنهـــا: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ، وَءَاتَيْنَاهُمْ

ءَايَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (الحجر: ٨٠-٨١).

وإذ تتركّز كلّ دعوة على الإقناع والحجّة، فقد أقام صالح لدعوته دليلين هما سند لأمر قومه بعبادة الله وحده، إذ كانوا لا ينكرون وجود الله تماما، بل اتّخذوا الأصنام شفعاء ووسطاء:

أ)- ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾: وتقديم الضّمير "هُوَ" والإخبار عنه بفعلي: ﴿أَنشَأَكُم﴾، و﴿اسْتَعْمَرَكُمْ﴾ يفيد الحصر، أي هو وحده الذي خلقكم من مادة الأرض إذ خلق منها أباكم آدم، وخلق منه زوجه أمّكم حوّاء، ثم تسلسل الخلق بوسائط آبائكم وأمهاتكم وهو يتغذّون من نبات الأرض وحيوانها، وكلّ ذلك قد تمّ بتقديره وتدبيره، وفي ذلك عبرة لأولي الألباب.

ب)- ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: أي سخّر لكم من قوة أبدانكم ونور عقولكم ما جعلكم تعمرون تلك الأرض بالبناء والحرث والزّرع، وأقدركم على استغلال خيراتها بأنواع الحرف والصّناعة، كما فصّل ذلك في سورة الشّعراء إذ قال صالح لقومه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَآ ءَامِنِينَ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ، وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ (الشعراء: ١٤٦-١٤٩).

إنّها نعم جديرة بشكر المنعم وهو المستحق للعبادة، فاستغفروه مما اقترفتم في حقه من الشّرك والعصيان، ثم توبوا إليه بعزمكم على الطّاعة مستقبلا.

﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾: والقرب في الصّفة العلية هو بمعنى الرّأفة والحلم، واختير بعده وصف "المجيب" لتنزيل المخاطبين منزلة المستعظمين لجرمهم الشّاكين في قبول توبتهم.

﴿قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾:

جاءتهم إجابتهم على غرار إجابة قوم هود، ولكنّها هنا أوغل في الملامة والعتاب بأن خيّب أملهم في ما كانوا يرجون منه قبل دعوته تلك إذ كانوا واثقين من رجاحة عقله وحسن تدبيره في إسناد أمورهم إليه. وقد عجبوا من تلك الدّعوة فجيء بهذا الاستفهام الإنكاريّ: ﴿أَتَنْهَانَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، وتلك هي الحجة الواهية التي يركن إليها المقلّدون الجاحدون، وهي تنمّ عن المكابرة والعناد، تجعلهم تائهين في ظلمات الشّكّ والرّيب من تلك الدّعوة الصّالحة. ووصف الشّكّ بـ"المريب" لزيادة التوكيد، والشّكّ يورث الرّيبة وهي أقوى منه في أغوار النّفس البشرية، إذ يبدأ الشّكّ بالتّردّد الشّعوري، ثم يستحكم ويتقوّى حتى يصبح ريبا يفسد الإيمان، فكيف كانت إجابة صالح عليه السلام: **﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَّنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾**.

تصدرت إجابة صالح بندائهم: ﴿يَا قَوْمِ﴾ لاستجاشة عاطفة القرابة وإعدادهم للاهتمام بما سيقوله. وإذ كانت المحاورة مع الجاحدين جاء الاستفهام التقريريّ: ﴿أَرَأَيْتُم﴾ بمعنى الاعتقاد. وجيء بعده بأداة الشّكّ: "إن" أيْ أخبروني ماذا أنا فاعل إن كنت على بصيرة من أمري واثقا بما أرسلني به ربّي، وقد أتاني رحمة النّبوءة. فكيف أعصيه في هذه الحالة وكيف يكون مصيري أمام عذاب الله وأنتم لا تستطيعون دفعه عني؟.

وقوله: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ تفريع على الاستفهام الإنكاري: ﴿فَمَنْ يَّنصُرُنِي مِنَ اللهِ﴾، أي ما تزيدونني برجائكم إلا تضليلا وخسارة، بتفويت ما حباني الله به إن أخذت بقولكم. وقيل المعنى: ما تزدادون أنتم إلا خسارا.

﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ، فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ

وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾:

إن القوم كانوا في حيرة وشكّ مما دعاهم إليه صالح -وقد صرّحوا له بذلك- فلا بدّ -إذن- من معجزة تزيل ذلك الشّك، وعادة ما تأخذ المعجزة المادية للرسل غرابتها من محيط القوم المدعوّين. فقوم صالح -كما وصفهم القرآن- هم فلاحون وموّالون، فتمثلت معجزة صالح في هذه النّاقة العجيبة التي ميّزها النّصّ عن الإبل المعهودة بشيئين:

أ)- أنها ﴿نَاقَةُ اللهِ﴾: فهي مشرّفة بإضافتها إلى اسم الجلالة، خلقها بقدرته بصفة خارقة للعادة، إذ انفلقت عنها الصّخرة كما تقول الرّواية.

ب)- ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾: تدلّ على صدق الرّسول في ما يدعو إليه من عبادة الله، وفي ما يتوعدّهم به إن هم خالفوا أمره. ولما كان الإتيان بمعجزة لقوم يستلزم نوعا من التّبعة والالتزام، فقد وصّاهم صالح بحسن رعايتها وعدم التّعرّض لها بسوء: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾، والرّعاية المطلوبة لها لا تتطلب جهدا منهم، إذ هي مكفولة الرّزق ترعى كما تشاء في أرض الله، وحذّرهم من التّعرّض لها بسوء مهما كان نوعه، فإنّ ذلك يعقبه عذاب عاجل يشمل الجميع، ولكن القوم تعجّلوا التّمرّد والعصيان، شأن المتعجرفين المستكبرين.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾: والعطف بفاء التّعقيب يدلّ على تسلسل تلك الأحداث بسرعة وبترتيب. فالقوم لم يصبروا أمام ذلك الاختبار الرّباني بجعل الماء قسمة بينهم وبين النّاقة إذ قال لهم صالح: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الشعراء:١٥٥). وكرهوا ذلك التّناوب على البئر، فتآمروا على عقرها وقتلها. قيل: إنهم كانوا تسعة وعلى رأسهم "قدار بن سالف" عاقر النّاقة، وقد وجدوا من بقية القبيلة التّأييد والتّشجيع.

وللشرّ والفساد رهط من بني البشر يعتون عن أمر الله قال تعالى فيهم: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ (النمل:٤٨).

ومن شدة الكفر والتمادي في العصيان أن استعجلوا وقوع العذاب عليهم عندما قالوا: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف:٧٧). ولكن الرّسول الواثق من ربّه أمهلهم ثلاثة أيام يمتّعون فيها بالعيش كالمعتاد، ولكنها تكون لهم آخر متعة بالحياة فيلفّهم العذاب كما توعّدهم الله ووعده الحق غير مكذوب فيه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ، وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ، كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلاَ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ﴾.

وها هي الأيام الثّلاثة قد انتهت وحمّ القضاء بأمر الله لإنجاز ما وعد على القوم العتاة الظّالمين، وأمّا صالح وأتباعه من المؤمنين فقد أنجاهم الله من ذلك العذاب الاستئصالي ومن خزيه ومهانته، ولم يذكر النّصّ كيفية ذلك الإنجاء، إلاّ أنّه كان بفضل الله ورحمته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾: توجيه الخطاب لرسول الله وبصفة الرّبوبية هو للتعريض بمشركي مكة أنّ الله القادر على إهلاك من سبق من الطّغاة المكذبين هو القادر بعزّته وقوته على فعل مثل ذلك بمن كذّبوا برسوله.

ويصوّر النّصّ مشهد القوم وهم صرعى في جثث هامدة جاثمين في ديارهم كأنهم ما عمروها وما تمتعوا بها من قبل، إذ أصبحوا أحاديث تلاحقهم باللّعنة والخزي، يصوّرهم بذلك المشهد الكئيب في مأساة بشرية. ختمت بنحو ما ختمت به مأساة قوم هود: ﴿أَلاَ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ﴾، فلا يزال الكفر والظّلم وراء كل الفواجع البشرية عبر تاريخها الطّويل، والله أعلم.

قصّة إبراهيم عليه السلام، وبشارته بإسحاق ويعقوب

أ)- النص:

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ
حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ
إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن
وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا
لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ
حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ
لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ
رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: الرّسل هم ملائكة الله لقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ (فاطر:١). ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: الباء للمصاحبة. والبشرى: اسم للتبشير والبشارة. ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾: السّلام لفظ التّحية، والأول منصوب بـ"قالوا" أو على المصدر، والثّاني مرفوع على الخبر لمبتدأ محذوف، أي أمري سلام أو هو سلام، أو هو مبتدأ محذوف الخبر أي: وعليكم سلام. ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾: أي فما أبطأ، و"أن جاء" يجوز أن يكون فاعل لفعل: "لَبِثَ"، ويجوز تقدير جارّ لـ"جاء". والتّقدير: فما لبث بأن جاء.

... حجارة محماة، لأن

الشيّ أسرع من الطّبخ في إحضار الطّعام. ﴿رَءآ أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ﴾: أي لا تمتدّ لتناول ذلك الطّعام وهو أشدّ من فعل "تتناوله" في الامتناع عن الأخذ. ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: أي أحسّ بالخوف منهم في نفسه وأضمر ذلك. ﴿أَنَّا أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾: كاشفوا إبراهيم بأنهم ملائكة أرسلهم الله لإنزال العذاب بقوم لوط. ﴿وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾: الجملة في موضع الحال، وقيامها كان لتقديم الطّعام إليهم، ومبعث ضحكها إما بهلاك أهل الفساد لأنها كانت تتوقع لهم ذلك، وإمّا بتبشير إبراهيم بغلام، لأنّ البشرى حصلت قبل أن يخبروه بعذاب قوم لوط. كما ورد في سورة الذّاريات. ﴿يَا وَيْلَتَى﴾: أي يا ويلي ويا هلاكي، والتّاء للمرة من الويل، والألف عن ياء المتكلمة، والنّداء فيها للاستعارة التّبعية بتنزيل الويلة منزلة من يعقل. ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً﴾: البعل: الزّوج، يجمع على بعولة، وشيخا: منصوب على الحال. قيل: كان ابن مئة أو مئة وعشرين وهي ابنة تسعين. وقيل أكثر من ذلك. ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنَ اَمْرِ اللهِ﴾: إنكار لتعجبها، وأمر الله هو الأمر التّكويني الدّالّ على قدرة الله وحكمته. ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنِ اِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾: الروع: الخوف والرّعب. ﴿اِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ اَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾: أوّاه: كثير التّأوّه من الذّنوب، وهو كناية عن شدّة اهتمامه بهموم النّاس.

ج)- أوجه القراءة:

﴿قَالَ سَلاَمٌ﴾: قرأ الجمهور: ﴿سَلاَمٌ﴾ بفتح السّين وبألف بعد اللاّم، وقرأه حمزة والكسائي وخلف: ﴿قَالَ سِلْمٌ﴾ بكسر السّين وبدون ألف بعد اللاّم، وهو اسم للمسالمة، وسمّيت به التّحية كما سمّيت بمرادفه: ﴿سَلاَمٌ﴾، فهو من باب اتّحاد وزن فعال وفعل في بعض الصّفات مثل: حرام وحرم، وحلال وحلّ. ﴿وَمِنْ وَّرَآءِ اسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾: قرأ الجمهور: ﴿يَعْقُوبُ﴾ بالرّفع مبتدأ خبره: ﴿وَمِنْ وَّرَآءِ اسْحَاقَ﴾. وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص: ﴿يَعْقُوبَ﴾ بفتحة على أنه عطف

على: ﴿إِسْحَاقَ﴾، فصل بين حرف العطف والمعطوف بالظرف. ﴿يَا وَيْلَتَى﴾: اتفق القرّاء على قراءة: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ بفتحة مشبعة في آخره بألف. ويجوز كونها عوضا عن ياء المتكلم في النداء، والأظهر أنها ألف الاستغاثة الواقعة خلفا عن لام الاستغاثة. ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾: قرأ ابن مسعود: ﴿شَيْخٌ﴾ بالرّفع على أن ﴿بَعْلِي﴾ بيان من "هَذَا"، وشيخ خبر المبتدأ، ومعنى القراءتين واحد.

د)- البيان والتّفسير:

إبراهيم عليه السلام هو خليل الرّحمن وإمام الحنفاء ورافع لواء التّوحيد، بدءا بأبيه وقومه، لا يضعف ولا يلين، ولم يتراجع عن موقفه الإيماني أمام عاطفة الأبوّة حين تنكّر لدعوته أبوه، ولا حين أعرض عنه قومه، وقد قال المولى تبارك وتعالى عن موقفه من أبيه الكافر: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة:١١٤). ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ (الممتحنة:٤).

وإبراهيم من مواليد جنوبي العراق، واستقر في مدينة "أور" الكلدانية، وأبوه آزر بن ناصور، ذكر اسمه في القرآن تسعا وستين مرة في خمس وعشرين سورة. وبعد محاولة إحراقه في بلده سار إلى "حران" في شمال أرض الجزيرة، ثم إلى فلسطين، ثم انتقل إلى مصر، وقد تردّد بين فلسطين ومصر.

ثم سار إبراهيم مع زوجته الثّانية "هاجر" إلى مكة، ومعها ولدها إسماعيل. وبعد تفجّر "زمزم" هناك استقرت معها هناك قبيلة "جرهم". ومات إبراهيم عليه السلام ودفن في مدينة "الخليل" من فلسطين. ومن تكريم الله له أن جعل الحكم والنّبوءة في ذريته إلى خاتم النّبيين سيدنا محمد ﷺ.

وتناول القرآن قصّة إبراهيم موزّعة بين سور كثيرة مفصّلة ومجملة وفق طريقة القرآن في العرض والأسلوب، يلخّصها الشيخ رشيد رضا بقوله: "منها ما هو في قصته مع أبيه وقومه في وطنه مجملا ومفصّلا على ما علمناه من سنّة القرآن، ومنها ما هو في بيان إمامته وكون ملّته أساس دين الله تعالى على ألسنة رسله من عهده إلى خاتمهم عليهم الصّلاة والسّلام، ومنها ما هو في بشارته بولديه إسماعيل وإسحاق عليهم السّلام، ومنها ما هو خاصّ بإسماعيل وقومه العرب من بناء البيت الحرام وإسكانه هنالك، ومنها ما هو في بشارة الملائكة إياه بإسحاق وإخباره بإهلاك قوم لوط، ومنه هذه الآيات". (١)

﴿ولقدْ جآءتْ رُسُلُنآ إبْرٰهيم بالْبُشْرىٰ قالُواْ سلاماً قال سلامٌ فما لبث أن جآء بعجْلٍ حنيذ، فلمَّا رءآ أيْديهُمْ لاَ تصلُ إليْه نكرهُمْ وأوْجس منْهُمْ خيفةً قالُوا لا تخفْ انّآ أُرْسلْنآ إلىٰ قوْم لُوط، وامْرأتُهُ قآئمةٌ فضحكتْ فبشّرْناها بإسْحاق ومنْ ورآء اسْحاق يعْقُوب، قالتْ يا ويْلتىٰ ءألدُ وأنا عجُوزٌ وهٰذا بعْلي شيْخاً انّ هذا لشيْءٌ عجيبٌ، قالُواْ أتعْجبين منْ أمْر الله رحْمتُ الله وبركاتُهُ عليْكُمْ أهْل الْبيْت إنّهُ حميدٌ مّجيدٌ﴾:

جاء الإخبار مؤكّدا بالقسم لغرابة هذه القصة عند المخاطبين، ولمزيد من الاهتمام به، وقد تغيّر أسلوب الحكاية، إذ كان الغرض هو محلّ الموعظة بمصير قوم لوط عندما عصوا رسولهم. ولوط هو ابن أخي إبراهيم، كان أوّل من آمن به، وقد عادا معا إلى جنوب فلسطين، غير أنهما افترقا في السّكن والمرعى، ولكنهما لم يبتعدا عن بعضهما البعض حفاظا على المودّة وأواصر القربى. وقد أدمجت قصتهما، وقدمت قصّة إبراهيم، وكلتا القصّتين تعرضان نموذجا للأمم التي باركها الله من بعد قوم نوح، والتي مسّها منه عذاب أليم كما وعد.

---

(١) [illegible]

والمراد بالرّسل هنا ملائكة الله، لم يفصح النّصّ عن نوعهم أو عددهم إلا أنهم مكرّمون بالإضافة التّشريفية: ﴿رُسُلُنَا﴾، جاءوا إلى إبراهيم بالبشرى، والتي أفصحوا عنها بعد التّحية وأداء واجب الضّيافة.

﴿قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾: وفي إلقاء التّحية استئناس للمرور، وقد ردّ إبراهيم التّحية بأحسن منها كما هو الواجب، ويدلّ على ذلك رفع المصدر: ﴿قَالَ سَلاَمٌ﴾؛ إذ قال اللّغويّون: إنّ الرّفع أبلغ من النّصب، لما فيه من تنامي معنى الفعل، وهو أدلّ على الدّوام والثّبات.

وعلى عادة البدو في إكرام الضّيف، لم يلبث أن جاء بعجل سمين مشويّ على الحجارة المحمية، والتّعجيل بإكرام الضّيف تدلّ عليه "فاء" التّعقيب، وهو من خصائص البدو حتى اليوم، حتى ليظن المرء أن الطّعام مهيأ قبل مجيء الضّيف.

﴿فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: توجّس إبراهيم خيفة من ضيوفه لأنهم أمسكوا عن تناول الطّعام، وعادة ما يكون ذلك من ضيف يضمر الشّرّ لمضيّفه؛ لأن إطعام الطّعام للفقراء والغرباء وسيلة كبرى لكسب مودتهم، فيقابلون الإحسان بالإحسان، ولذلك كان كفّ الضّيوف عن تناول الطّعام مبعث خوف وقلق من إبراهيم، إذ شعر أنهم ليسوا بشرا عاديين.

وإذ لم يفصح إبراهيم عن خواطر الخوف الذي ينتابه بادره الضّيوف بقولهم: ﴿لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾، أي لإهلاكهم بالعذاب الماحق. وقد حذف متعلق: ﴿أُرْسِلْنَا﴾ لأنّ المخاطب قد انكشفت له حقيقتهم بأنهم ملائكة العذاب، ولعلّ إبراهيم عليه السلام كان يتوقع ذلك العذاب لقوم لوط، إذ كره النّاس سيرتهم الخبيثة، حتى جعل بعض المفسّرين ذلك مبعث الضّحك من امرأة إبراهيم عندما سمعت ذلك من الضّيوف وهي تقوم على خدمتهم، وعلّلوا ذلك بكراهتها الشّديدة لسيرة قوم لوط.

ويعقب النصّ على ذلك الضّحك بشارتها بالولد وهي عجوز عقيم قال تعالى: ﴿وامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾. وقيل: إن مبعث ضحكها هو بشارة الولد، غير أن التّرتيب هنا يقتضي أن الضّحك كان قبل البشارة، بينما تقول آية سورة الذّاريات: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (٢٨).

وللإمام ابن عاشور تنظير جيّد بين الآيتين إذ قال: "وقد اختصرت القصة هنا اختصارا بديعا لوقوعها في خلال الحوار بين الرّسل وإبراهيم عليه السلام وحكاية ذلك الحوار بتمامه بحكاية قولهم: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾، وأمّا البشرى فقد حصلت قبل أن يخبروه بأنهم أرسلوا إلى قوم لوط كما في آية سورة الذّاريات، فلمّا اقتضى ترتيب المحاورة تقديم جملة: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ حكيت قصة البشرى وما تبعها من المحاورة بطريقة الحال؛ لأنّ الحال تصلح للقبلية، وللمحاورة، وللبعدية، وهي الحال المقدّرة".[1]

قلت: ويؤيّد التّرتيب الوارد في سورة الذّاريات ما ورد في سورة الحجر من قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ، قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (الحجر: ٥٢-٥٣).

والغلام المبشر به هو إسحاق، ومن بعده يعقوب، وهو الحفيد، أي أنها سوف تعيش حتى ترى ولد ابنها، وفي ذلك تمام النّعمة والفضل لها من الله، وزيادة في البشرى، وقد جعل الله ذلك منّة عظمى لخلقه إذ قال في سورة النّحل: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٢).

تعجّبت سارة هذه البشرى فقالت: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي

---

١ - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١١٩/١٢.

شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾. ويجيء النّداء التعجبي: "يا ويْلتي" عند الأمر المهول خيرا أو شرّا. ولشدة ذلك العجب اجتمع في الجملة النّداء والاستفهام ثم وصف ذلك الشّيء بالصّفة المشبهة: "عَجِيبٌ" مع توكيد الجملة الاسمية بمؤكدين: "إنّ" و"اللاّم".

ومناط تعجّبها هو أن تلد في مثل تلك السّنّ وكانت من قبل عقيما. وتذكر نصوص التّوراة أنها بنت تسعين وبعلها ابن مئة أو يزيد عليها في رواية أخرى، وقد فسّر اللّغويّون: "ضحكت" بـــ"حاضت"، وفي الشّعر العربيّ مثل ذلك الاستعمال كقول أحدهم:

وإني لآتي العروس عند طهورها وأهجرها يوما إذا تك ضاحكا

وقد ناقش القطب هذا التّفسير للكلمة فقال: "واعترض تفسير الضّحك بالحيض بأنه لا يلائمه تعجّبها بعد إذ قالت: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ لأنه لو حاضت قبل التّبشير لم تتعجّب من الولادة لأنّ الحيض معيار للولادة".[1]

فأجابتها الملائكة بالاستفهام الإنكاريّ لتعجبّها: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾، أنكر الملائكة تعجّب سارة من أمر الله، إذ لا يكون ذلك لائقا بأمثالها، وهي ركيزة بيت النّبوءة، وقد عاشت فيه وشاهدت كثيرا من خوارق العادات في لطف الله بإبراهيم، فيجب أن تطمئن إلى قدرة الله في تدبير الأمور، سواء ما أجراه منها على السّنن المعتادة، أو جاءت على خلاف العادة، فإن الله لا يعجزه شيء من ذلك، ورحمته وبركاته قد غمرت أهل البيت من آل إبراهيم: ﴿رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.

فالجملة إما دعائية أو إخبارية من طرف الملائكة بأن يخصّ الله تعالى ذلك

---

١ - امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ٦/٤٤٠.

البيت ببركاته الواسعة ورحمته الغامرة فتنحصر النّبوءة والرّسالة في نسل إبراهيم إلى يوم القيامة. فلا عجب -إذن- أن يخرق الله عادة النّسل بعد يأس العجوز وشيخوخة البعل، والله تعالى يمنّ على من يشاء من عباده، وأنتم أهل لتلك المنة وذلك الفضل.

﴿فلمّا ذهب عن ابراهيم الرّوْعُ وجآءتْهُ الْبُشْرىٰ يُجادلُنا في قوْم لُوط، انّ إبْرٰهيم لحليمٌ اوّٰهٌ مُّنيبٌ، يآ إبْرٰهيمُ أعْرِضْ عنْ هذآ إنّهُ قدْ جآء امْرُ ربّك وإنّهُمْ ءاتيهمْ عذابٌ غيْرُ مرْدُود﴾:

لقد سكن الخوف ومُرّي عن قلب إبراهيم عندما كشف أن أولئك الرّسل هم ملائكة العذاب، وقد استأنس بهم إذ جاؤوه ببشرى الولد، فأخذ يجادلهم في عذاب قوم لوط، واختير ضمير العظمة: ﴿يجادلُنا﴾ على اعتبار أنّ الملائكة جاؤوا لتنفيذ أمر الله، كما أن اختيار صيغة المضارع عوضا عن الماضي في جواب: "لمّا" هو لتصوير تلك الحالة العجيبة كأنها حاضرة وكان إبراهيم يسأل الله أن يعفو عن قوم لوط خشية أن يهلك المؤمنون معهم، وقد أفصح بذلك عندما قال لهم: ﴿إنّ فيها لُوطاً﴾ (العنكبوت:٣٢).

وعلّل الله تلك الرّغبة من إبراهيم بقوله تعالى: ﴿إنّ إبْرٰهيم لحليمٌ اوّٰهٌ مُّنيبٌ﴾، فهو واسع الصّدر لا يتعجّل العقوبة لمستحقيها، وهو شديد الأسى لعنت النّاس، كثير الإنابة إلى الله يرجع إليه في كلّ أمر يستنزل رحمته بعباده.

ولكن ملائكة الله أجابته بأن يكفّ عن الجدال في أمر قوم لوط، لأن أمر الله واقع -لا محالة-، فلا شفاعة لأحد عنده في ذلك، ويجوز أن يكون هذا النّداء لإبراهيم من وحي الله له مباشرة، وفي قوله تعالى: ﴿قدْ جآء امْرُ ربّك﴾ إثارة للرهبة والإجلال لله، مع استشعار رعايته لأوليائه، والله أعلم.

قوم لوط وعذاب الخسف

أ)- النص:

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾
وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ
بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾
قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً
أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ
بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ
مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: ساءه مجيئهم لأنهم جاؤوه على شكل غلمان فخاف أن لا يستطيع مدافعة قومه عنهم، وضاق ذرعا بكذا: كناية عن شدة الانقباض؛ لأنّ ذرع الإنسان هو منتهى طاقته فيعجز عن مدافعة المكروه. ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾: أي شديد الأذى لما فيه من الضرّ بأحوال النّاس، مشتق من العصْب، أي الشدّ والضغط. ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾: يقال: هرع وأهرع بالبناء للمفعول، إذا حمل على الإسراع والدّفع في المشي. ﴿يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾: أي فاحشة الشذوذ الجنسي بإتيان الرّجال في الأدبار. ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: أي بالزّواج الشّرعي، وقيل بإضافة مجازية، أي بنات قومي، لإنزال النبي منزلة الأب

في قومه، وذلك أليق بمقام النبوءة. ﴿وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾: الخزي هو الإهانة والمذلة، أو هو من الخزاية بمعنى الخجل، و"في" للظرفية المجازية، أي لا تجعلوني مخزيا عند ضيفي، ولفظ "الضيف" يطلق على الواحد والمثنى والجمع. ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾: أي من إتيان الذكران. ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾: الرّكن: هو الشّق من الجبل المتصل بالأرض، والإيواء بمعنى اللّجوء، أي أعتصم بما يمنعني من شرّكم. ﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾: السّري: السّير ليلا، أي يسير بأهله في بقية من اللّيل تكفي لتجاوز حدود الخطر. ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾: بمعنى قلبناها بالخسف في الأرض. ﴿مَّنضُودٍ، مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾: مَنضُود: أي متراكب بعضه على بعض. ومُسَوَّمَة: أي لها علامة خاصّة بها. وسجّيل أو سجّين: واد في جهنم، شبّهت به تلك الحجارة، ولعلها نوع من الحمم التي تدفعها البراكين، والله أعلم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾: قرأ الجمهور: ﴿وَلاَ تُخْزُونِ﴾ بحذف ياء المتكلم تخفيفا، وأثبتها أبو عمرو. ﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ﴾: قرأه نافع وابن كثير وأبو جعفر همزة وصل على أنه من: سرى يسري، وقرأه الباقون همزة قطع من: أسرى به. ﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ﴾: قرأ الجمهور بالنّصب، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو بالرّفع.

د)- البيان والتّفسير:

غالبا ما تأتي قصّة لوط مع قومه مدمجة في قصة ابراهيم عليهما السّلام، ولوط هو ابن أخي إبراهيم، اصطحبا في سفرهما من مصر إلى فلسطين، ثم افترقا عن تراض عندما ضاقت بأنعامهما بقعة الأرض التي نزلا فيها، فنزل لوط قريبا من عمّه إبراهيم في أقصى جنوب البحر الميّت حيث استقرّ به المقام في "سدوم" و"عامورة" واللّتين دمّرتا بالزّلزال. والتجأ لوط بمن آمن معه إلى قرية "صوغر" إذ لم

تصب بأيّ ضرر.

ذكر اسم لوط في القرآن سبعا وعشرين مرة في أربع عشرة سورة، منها هذه الآيات من سورة هود ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ، وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاَءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ، قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ، قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

في دمج القصّتين وصل مقدّر مفهوم من السّياق، إذ علم إبراهيم أنّ الملائكة ذاهبون إلى قوم لوط، فالتّقدير: أنّهم بعد مفارقتهم إبراهيم ذهبوا إلى قوم لوط. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: "انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط بن أخي إبراهيم، وبين القريتين أربعة فراسخ، ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بني آدم، وكانوا في غاية الحسن، ولم يعرف لوط أنّهم ملائكة الله".

ولذلك ساءه مجيئهم وضاق بهم ذرعا في احتمال ضيافتهم، لا عن بخل وعوز، ولكن لما كان يتوقّعه من تهافت قومه على أولئك الشّباب الصّباح الوجوه، وربما عجزوا عن مقاومتهم إذا أرادوا بهم سوءا.

ولم يجد لوط بُدّا من التّعبير عن مكنون صدره إذ قال: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾، مما يدلّ على أنّ الغمّ قد بلغ به مبلغا في نفسه لم يجد له متنفّسا إلا أن يقول تلك الجملة ترويحا وتنفيسا. وللترويح عن النّفس أساليب عند الإنسان، أشدّها التّأوّه والتّحسّر والبكاء.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾: ومجيء القوم إلى لوط على هيئة الإهراع يصوّر تلك الحمّى الهستيرية التي كانت تأخذهم

عند توفّر دواعي الفاحشة المنكرة من إتيان الذّكران، والّتي أشير إليها إشارة لطيفة بقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾، بحيث كانوا يتسابقون إليها ويتنافسون، فما حيلة لوط أمام ضيوفه، وقد أهاجوا بجمالهم شهوة القوم، فلا تعقّل ولا رشاد. غير أن لوطًا بادرهم بلطف وهو يقول: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

الإشارة إلى صيغة الجمع: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ ترجّح ما ذهب إليه بعض المفسّرين أنّه يريد بنات قومه على اعتبار أنه أبوهنّ الرّوحي، إذ لم يكن له من صلبه إلا ابنتان. وقوله: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ دليل على أنه لا يقصد السّفاح -وحاشا لنبي مرسل أن يصدر عنه ذلك-، وقد بالغ في وصفهن بالطّهر؛ لأنّ صيغة التّفضيل هنا يقصد بها المبالغة، فالطهر لا يكون إلا في الزّواج الشّرعي الذي جعله الله لذّة مشروعة لكبح الشّهوة وضمان استمرارية النّسل البشري دونما تلوّث بقاذورات الفاحشة. ويرجّح هذا الاحتمال أن الذين جاؤوا إليه من قومه كانوا كثيرين، فيلزم أن يكون عرضُه للنساء الطّاهرات بحسب ذلك العدد.

ثم جمع بين أمرهم بتقوى الله ونهيهم عن خزيه وامتهانه أمام ضيوفه: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾، وفي موقف السّفاهة والغواية يتعطّل صوت العقل وتغيب الشّهامة والمروءة، فليس للمخاطب السّفيه إلا أسلوب الإنكار والتوبيخ فقال لوط: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾؟، فهم كلّهم متمالئون على الباطل غارقون في السّفاهة، كما تدلّ على ذلك إجابتهم له بقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

لقد أصرّوا على موقفهم الخبيث، إذ أكّدوا لرسولهم ما يريدونه من إتيان ضيوفه، وأنهم ليس لهم أرب في النّساء اللّواتي عرضهن عليهم وهو يعلم ذلك، فلا فائدة في محاولة صدّهم، لأن البديل الذي عرضه عليهم ليس لهم فيه رغبة، فماذا

كان موقفه أزاء ذلك الإصرار الخبيث؟.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾: إنه جواب اليائس الذي ليس له من تغيير الواقع المنكر إلا الأماني، إذ يفتقد القوة التي يستطيع بها مدافعة ذلك المنكر فالقوم ليسوا من عشيرته.

ولضمير الخطاب: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾: احتمالان:

أ)- أنه يخاطب قومه يستنصرهم ليؤازروه في محنته.

ب)- أنه يخاطب ضيوفه لو أنهم رجال حرب يقاتلون معه أولئك السّفهاء. فما لبث أن تلقّى من ضيوفه ذلك الوعد بالنّصر والتّأييد، إذ كاشفوه بأنهم رسل من الله جاؤوا لتنفيذ قضائه في إهلاك القوم وإنجاء الرّسول ومن معه من المؤمنين: **﴿قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾**.

نلاحظ في محاورة الملائكة للوط عليه السلام ذلك الأسلوب الحكيم في مراعاة الطّبيعة الإنسانية الضّعيفة، فهم عندما كاشفوه بأنهم رسل الله بادروه أوّلا بالتّأمين على خوفه وقد بلغ مداه في نفسه: ﴿لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ﴾، وما أحوج الخائف إلى الأمن والطّمأنينة، حتى إذا قرّت بلابله بيّنوا له مسلك النّجاة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾.

فرّع الله أمره بالسّري على ضمان تأمينه وسلامته في المستقبل، ولم يحدّد النّصّ ذلك الجزء من اللّيل الذي يختاره للسّري بأهله، إلاّ أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ يوحي بأنّ يكون السّري بعد منتصف اللّيل بحيث يكفي لتجاوز حدود الخطر. واللّيل أخفى للويل، كما يقول العرب.

وقيل فيما روي: أنّ الله أعمى أبصار قوم لوط عن متابعة ضيوفه، فظلوا حيارى من أمرهم، قال تعالى في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (٣٧).

ولقد استثنى الله امرأة لوط من ذلك الإنجاء فقال بصيغة التأكيد: ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ وذلك جزاء خيانتها لزوجها. ويقتضي ذلك أن لا يعلمها بخروجه لتكون مع الهالكين. وبئس الخزي والعار لامرأة تخون زوجها، فكيف هذا الزوج إذا كان رسولا من عند الله.

وقد أدرج الله كلاً من امرأة نوح وامرأة لوط في عداد الكفرة المجرمين الذين يجب على المؤمنين أن يتبرّؤوا منهما فقال جلّ من قائل: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (التحريم: ١٠).

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾: هو نهي عن الالتفات إلى مكان العذاب، قطعا لكلّ عاطفة قد تشدّ المؤمنين إلى مراتع صباهم، كما أنّه فرار إلى الله غضبا لدينه من فتنة أعدائه، وهو اللّجوء إلى الرّكن الشّديد المنيع قد حققه الله للوط تنفيذا لما كان يتمناه: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾، أي موعد إهلاكهم بعذاب الاستئصال هو انبثاق الصّبح حيث يكونون كلهم قابعين في مساكنهم.

ولعلّ لوطا لفرط خوفه من ضيوفه قد استبطأ نزول العذاب، فطمأنه الملائكة بهذا السّؤال التقريري بقرب الصّبح: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

وقد قيل: إنّ لوطا قال للملائكة عندما أخبروه بذلك: أريد أعجل من ذلك، بل السّاعة، ولكن الله قد قدّر لكل أمر ميقاته فقال: **﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ، مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.**

استأصلتهم سنة تعالى بعذاب الخسف، إذ تنمحي به معالم العمران كلية بحيث تندك في جوف الأرض فتنقلب وضعيتها فيكون الفرق أسفل والعكس. وذلك ما تحدثه بعض الزلازل القوية، وقيل: إنّ ذلك الفراغ الذي أحدثه الخسف قد غمرته المياه فتكوّن ما يسمّى ببحيرة لوط، وربما ينجو بعض من لم يلحق إليه الخسف، فتناله من السّماء حجارة من طين محماة تنزل متتابعة متراكمة، والله أعلم بنوعية تلك الحجارة المهلكة، ولعلّها حمم بركان تفجّر في عين المكان ليكون الدّمار كاملا لتلك المساكن في قرية "سدوم".

وكونها: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ -والخطاب للرّسول- يعطي لتلك الحجارة ميزة خاصّة في الإصابة والتدمير حتى تصيب أهدافها بدقة، وذلك بتقدير الله القويّ العزيز: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

ومعاد الضمير: "هي" هو إمّا للقرية المنكوبة، بحيث تكون عبرة للظّالمين بمشاهدتهم إياها وهي غير بعيدة عن ديارهم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ، وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (الصّافات١٣٧-١٣٨).

أو يعود الضّمير إلى الحجارة، أي أن الله قادر على أن يرسل مثلها على كلّ ظالم في كلّ زمان ومكان، وفي ذلك تعريض بمشركي مكة علّهم يحذرون من نقمة الله عليهم.

فإن الله تعالى وإن رفع عذاب الاستئصال على أمّة الرّسول، فلا يعني ذلك أنّ الله غافل عما يعمل الظّالمون، فإنّ أشكال نقمه تختلف باختلاف الأقوام في نوعية ظلمهم وتماديهم عليه، فيؤدّبهم بما يستحقون، وغالبا ما لا يعتبرون، ولا هم يذكرون، ولله في خلقه شؤون.

والله أعلم

قصّة شعيب عليه السلام مع قومه

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ
وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ
وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ
أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن
نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ
إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ
مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ
نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ
ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ
وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ
يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

ب)- التحقيق اللغويّ:

﴿إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾: أي في حسن حالة بالعيش الهنيء، ويطلق الخير على المال، أي في سعة رزق تغنيكم عن المال الحرام. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾: أي يحيط عذابه بكم بحيث لا ينفلت أحدكم عنه، ووصف اليوم به مجاز عقلي. ﴿أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾: "الباء" للملابسة، والقسط هو العدل. والإيفاء في الكيل والوزن لا يكفي فيه عدم تعمّد التطفيف، بل لابُد من زيادة قليلة فيه. ﴿وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ﴾: البخس هو النّقص، أي النّهي عن الفساد كلّه بانتقاص حقوق النّاس. ﴿وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ﴾: من العثي بـ"الياء"، ويكون بـ"الواو" العثو، وهو الفساد. وجملتا النّهي جاءتا للتعميم بعد تخصيص نوع من الفساد. ﴿بَقِيَّتُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: بَقِيَّتُ الله: لفظ "بَقِيَّتُ" كلمة جامعة لمعان كثيرة، اختلف فيها المفسّرون فقالوا: بقية المال الحلال خير. وقالوا: بقية الأعمال الصّالحة. وقال ابن عباس: رزق الله...إلخ. ﴿وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾: أي مجبر لكم في ما أدعوكم إليه، أو رقيب على أعمالكم لأجازيكم عليها. ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾: الْحَلِيمُ: العاقل الكامل. والرَّشيدُ: الحكيم في تدبيره. قالوا له ذلك تهكّما واستهزاء. ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾: المقصود به هو ما خصّه الله به من نعمة النّبوءة. وتعبيره عن ذلك بالرّزق لمشاكلة قولهم له: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء﴾. ﴿لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم﴾: لا يَجْرِمَنَّكُمْ: من أجرمته الذّنب أي أكسبته إياه. والشّقاق: شدة الخلاف، ويتعدّى إلى مفعولين: الأول هو الضّمير، والثّاني: ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾، وشقاقي: فاعل. ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾: الفقه: الفهم الدّقيق، تعبير عن قلّة المبالاة وعدم التّصديق. ﴿وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾: الرّهط: من الثّلاثة إلى العشرة، وإذا أضيف إلى الرّجل فيراد به قرابته وعشيرته. وخبر "لَوْلاَ" محذوف، يقدر بمعنى الكرامة، والتّقدير: ولولا رهطك مكرّمون عندنا لرجمناك. ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا﴾: الضّمير يرجع إلى لفظ

الجلالة، والظِّهريّ -بكسر الظّاء- نسبة إلى الظّهر، والمراد بالتّعبير الكناية على النّسيان كالشّيء الملقى وراء الظّهر. ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾: ارتقبوا: من الارتقاب، وهو الانتظار. والرّقيب: فعيل، بمعنى فاعل، فيه تهديد بالعاقبة الوخيمة التي تنتظرهم. والألفاظ اللّغوية التي جاءت في خاتمة القصة هي شبيهة بالتي جاءت في قصة ثمود، فليرجع إليها. ويلاحظ أنّ العطف هنا جاء بـ"الواو" للدّلالة على العطف المطلق، لأن العذاب المرتقب مسوّف فيه، فلا يناسب العطف بـ"الفاء" الدّالة على التّعقيب.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَصَلَوَاتُكَ﴾: قرأ الجمهور بصيغة الجمع للفظ الصّلاة. وقرأه حمزة والكسائي وحفص وخلف بصيغة المفرد. ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: قرأ الجمهور بفتح الياء وكسر الرّاء، من جرم المال أي كسبه. وقرأ ابن كثير بضمّها، من: أجرمته الذّنب إذا جعلته جار ماله.

د)- البيان والتّفسير:

العطف في قوله تعالى: ﴿**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا**﴾ عطف قصة على قصّة. والتّقدير: ولقد أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا. وأهل مدين عرب يسكنون أرض "معان" من أطراف الشّام، أي شرق خليج العقبة، وسميت بلادهم باسم مؤسسها مدين بن إبراهيم عليه السلام. ووصفهم القرآن بأنهم أصحاب الأيكة فقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ، فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ (الحجر: ٧٨-٧٩). والأيكة: غيضة تنبت ناعم الشّجر، كانت بقرب مدين في باديتها، كانوا يعبدونها من دون الله، أرسل الله إليهم شعيبا يدعوهم إلى عبادة الله وحده وينهاهم عن الرّذائل والفساد بصفة عامّة وعن تطفيف الكيل والميزان بصفة خاصّة.

وقد ذكر اسم شعيب في القرآن إحدى عشرة مرة في أربع سور، منها هذه الآيات الاثنتي عشرة من سورة هود ﷺ قال تعالى:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ، وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ، بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

كان شعيب ﷺ من أشرف قومه نسبا وأرجحهم عقلا وأصوهم رأيا، بعثه الله إليهم رسولا مؤيّدا بالبيّنات ومساندا بالمعجزات فدعاهم إلى ثلاثة أمور:

أ)- دعاهم إلى إصلاح معتقدهم بعبادة الله وحده وذلك هو الأصل المشترك في دعوة رسل الله جميعا.

ب)- إصلاح الأعمال كلّها وتقويم السّلوك بأن لا يفسدوا في الأرض.

ج)- ثم ذكر ما هو خاصّ بهم من الأحكام العملية بأن نهاهم عما كان فاشيا فيهم من تطفيف الكيل والميزان وعن هضم حقوق النّاس بصفة عامّة في معاملاتهم. ثم حذّرهم من سوء العواقب إن هم تمادوا على ما هم عليه من الطّغيان والكفر بنعم الله الكثيرة عليهم. منها تكثيرهم بعد قلة، وإغنائهم بعد فقر. وذلك بالتّعبير الصّادق عن انطباعاته نحو وضعيتهم إذ قال: ﴿إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾، فهو يحمد ما عليهم من سعة في الرّزق ورغد في العيش تغنيهم عن الكسب الحرام بتطفيف الكيل والميزان. ثم أسند دعوته تلك بالخوف من نقمة الله عليهم إن هم عصوه: ﴿وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾، وصف العذاب بالإحاطة لنفي توهّم إمكانية الانفلات منه لأحد منهم. فهو إما عذاب الاستئصال في الدّنيا كما حدث لمن قبلهم، وإمّا يراد به عذاب يوم

القيامة.

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: وتكرار النّداء بـ"يا قوم" يراد به -كما تقدم- استعطافهم بإثارة النّخوة القبلية، إذ هو في ذروة القبيلة وسنامها عزّا وشرفا، فبعد النّهي عن تطفيف الكيل والميزان أمرهم هنا بالإيفاء فيهما بالعدل والسّوية، وهو من تأكيد الشّيء لنفي ضدّه زيادة في التّرغيب، إذ لا يكفي الامتناع عن تعمّد النّقص، بل لابدّ في تطبيق الإيفاء بالعدل من تجاوز السّوية ولو بزيادة قليلة. ثم عمّم تحقيق العدل في كلّ شيء مما يتعلق بحقوق النّاس، ثم أعقبه بنهي آخر أعمّ وأشمل مما تقدم، بأن لا يفسدوا شيئا من مصالح البلاد والعباد، وقد كانوا قطاع الطّرق يهدّدون الأمن العامّ ويتعمّدون الإفساد بشتى أنواعه ظلما وبغيا وتأثلا للمال الحرام.

﴿بَقِيَّتُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾: ولفظ: "بَقِيَّتُ" يدلّ على الخير والبركة، مما هو آثار للأعمال الصّالحة والسّلوك النّظيف، وإضافتها إلى لفظ الجلالة تنمّ عن المدد الإلهي في تزكية ذلك الشّيء النّفيس، مما لا حيلة للمرء فيه، ولا يتحقق ذلك للعبد إلا مع الإيمان الصّحيح بأن الله هو الموفق للأسباب والمثمّر للمساعي. وأما الكثرة المشوبة بالحرام فهي أقرب للتلف وأدعى للويل والثّبور على قاعدة قول الرّسول: «**من حاول شيئا بمعصية الله كان أبعد من رجا وأقرب مما اتقى**».[1]

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾: نفي لرقابته على أعمال قومه، وبالتّالي لا يجبرهم على الصّلاح، لأنّ حسابهم على الله. وهذا نظير قول الله لرسوله محمد

١- رواه القضاعي في مسند الشهاب، رقم ٥١٢ مرسلا عن الزهري، وبرقم ٥١٣ موصولا من حديث أنس بلفظ: « من حاول أمرا بمعصية الله تعالى كان أفوت لما رجا وأقرب لمجيء ما [illegible]

تعالى: ﴿فإن اعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الانسان كفور﴾ (الشورى:٤٨). والمقصود من هذا النفي أن يستحث عزائمهم لحسن الطاعة والاعتدال عن رغبة منهم وقناعة:

﴿قالوا يا شعيب أصلواتك تامرك أن نترك ما يعبد ءاباؤنا أو ان نفعل في أموالنا ما نشاؤا انك لأنت الحليم الرشيد﴾:

فياله من ردّ ينمّ عن السّخرية والاستهزاء، وأنّ القوم مصمّمون على البقاء على ما هم عليه، إن في الجانب الاعتقادي أو في الجانب العملي. ولمّا كانت الصّلاة هي عماد الدّين وأصدق مظهر للاعتقاد -وكان شعيب كثير الصّلاة، وكانت أخصّ أعماله لمخالفة معتادهم- فقد جعلوها هي الآمرة له أن يحمل قومه على ترك مألوفهم مما كان عليه آباؤهم وأسلافهم.

وإسناد الأمر إلى الصّلاة إسناد مجازيّ والاستفهام إنكاريّ: ﴿أو ان نفعل في أموالنا ما نشاؤا﴾: عطف على قولهم: ﴿أن نعبد﴾، أي نترك فعل ما نشاء في أموالنا بأن ننميّها بالطّرق التي نراها ناجحة في الرّبح والثّراء، بمعنى أنهم أحرار في تصرفّهم بأموالهم، فهذا الرّدّ اللّئيم يتناول ما جاء في دعوة شعيب من الجانب الاعتقادي والعملي بأسلوب السّخرية والاستهزاء أكّدوه بقولهم: ﴿انك لأنت الحليم الرّشيد﴾، والجملة تشتمل على أربعة مؤكدات: حرف "إن" و"لام" القسم وصيغة الحصر وإسمية الجملة. فهم قالوا ذلك زيادة في التّهكم برسولهم، إذ أرادوا وصفه بضدّ تلك الأوصاف المذكورة.

واستمرّ شعيب يلاطفهم بصبر وأناة فيقول: **﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن اخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن اريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه**

أُنِيبُ﴾.

ويأتي الرّدّ الجميل من شعيب، وهو لا يستفزّه الهزء والتّهكم من قومه، بل هو أسلوب التودّد بأواصر القربى: ﴿يَا قَوْمِ﴾، وأسلوب التّلطّف في الحوار: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، أي أخبروني عن شأني وشأنكم، إذ أنا على يقين وثقة بما يوحى إليّ من ربّي لأبلّغه إليكم، وجواب "إن" مقدّر يدلّ عليه السّياق وتقديره: ماذا يسعكم في تكذيبي، أو كيف تكون عاقبة أمركم؟. ذلك في جانب دعوته لإصلاح الاعتقاد، ثم عطف عليه قوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، ليشاكل به قولهم: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾، إذ كان ذا مال وفير مثلهم، ولكنه جمعها بطرق حلال دونما تطفيف ولا بخس لحقوق النّاس بحيلة أو غشّ. فماذا عساه يقول لهم من غير ذلك النّصح الأمين، وماذا يفعل معهم من غير أن يكون له قدوة صالحة في ما يدعوهم إليه؟.

ولذلك أعقب ذلك الاستفهام بقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾، أي لم أكن لأنهاكم عن شيء وأنا أفعله، لأحقق بذلك لنفسي نفعا؛ لأن فعل "خالف" يتعدّى بـ"إلى" فيفيد التولّي والإعراض عن الشّيء، ويتعدّى بـ"عن" فيفيد الإقبال على ذلك الشّيء. والمقصود هو بيان أن دعوته تلك في الأوامر والنّواهي تأخذ الطّابع العامّ فتعمّ الدّاعي والمدعوّين: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، جيء بصيغة القصر لبيان معنى الجملة السّابقة وذلك بإثبات قصد الإصلاح العام في ما يعود على الحياة الفردية والاجتماعية بالخير والصّلاح، وذلك في حدود الاستطاعة ممّا هو من المجهود البشريّ المطلوب، ثم بعد ذلك يرجى نجاح المسعى من الله تعالى مستمدّا منه العون والتّوفيق.

والتّقييد بالاستطاعة في تحقيق مهمة الإصلاح ثم الالتجاء إلى الله في طلب العون والتّوفيق هما من الأدب العالي في منهج الدّعوة، يجب على الدّعاة أن يأخذوا

به، حتى يتجنّبوا الغرور والعجب. ويكون شعيب عليه السلام قد أبطل بذلك تهكم قومه، إذ أثبت لهم بمثل ذلك الكلام اللّطيف رجاحة عقله وسداد رأيه، فهو لا يرجو منهم جزاء ولا شكورا، إذ يستمدّ العون من الله بتوكّله عليه، وإليه وحده يرجع في ما ينتابه من هموم الدّنيا، وما يرجوه من الجزاء الأخرويّ.

﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ اَوْ قَوْمَ هُودٍ اَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ، وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾:

أي لا يحملكم الشّقاق والعناد معي إلى إصابتكم بمثل ما أصاب من سبقكم من الأمم الخوالي، أي عذاب الاستئصال كما حدث لقوم نوح وقوم هود وقوم صالح. ثم جيء بقوم لوط في جملة حالية لقرب المخاطبين من قراهم زمانا ومكانا.

ثم في لمسة عاطفية، وهو مشفق على ما يحلّ بهم من العذاب إن هم تمادوا في ضلالهم يفتح لهم باب التّوبة والمغفرة من الرّبّ الرّحيم الودود. وقد تقدم نظير ذلك في دعوة هود عليه السلام، وهكذا يمتزج أسلوب الوعيد بالوعد النّدي، ثم هم بعد ذلك مختارون في ما يأخذون وما يدعون من دعوة رسولهم، وقد قامت عليهم الحجة ووضح البيان.

وهاهم يلجّون في عنادهم ويتمادون في الإعراض: **﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ، قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيّاً انَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ، وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَّأتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.**

ينتقل الحوار من أسلوب اللّين والرّفق إلى أسلوب التّحدّي والعنف، فهم من حيث الفهم الدّقيق لما يقوله رسولهم ليسوا بالمستغلقين عن الفهم، إذ كان شعيب

عليه السلام من حيث الفصاحة خطيب الأنبياء -كما وصفه رسول الله-، ولكن القوم كانوا يتبلّهون أمام ما يسمعون، لأنه جاء مخالفا لما يألفون. ومن طبيعة الإنسان أن يزورّ ويأنف مما لا يلائم مزاجه ولا يوافق توجّهه فيكون منه الاشمئزاز مما يسمعه، وهذا كقول المشركين لرسول الله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ (فصلت:٥)، إذ أصبح فيهم رسولهم بتلك المترلة، فهم يرونه ضعيفا لا يملك عزّة ولا منعة، وهم بذلك يدينونه بما يستحق عليه العقاب الذي بيّنوا نوعيته بقولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾، فلا قيمة ولا وزن عندهم للقيم التي يحملها رسولهم، وبالتّالي لا يرون القوة والمنعة إلا في الأسباب المادية، ولا يلتمسون النّصرة والتّأييد إلا من الرّهط والقبيل. وتلك هي المعايير الجاهلية منذ أن ارتطم الإنسان في حمائها، وهي تأخذ أشكالا مختلفة في كل زمان ومكان.

واجه القوم شعيبا بهذا التّهديد وهم يسلبون عنه كلّ تقدير أو تكريم منهم، غير أن الرّسول الكريم تأخذه العزّة والغيرة على جلال الله وحرماته فيجيبهم بكل ثقة واعتزاز: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِيَ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾، يواجه ذلك التّعالي بمثل هذا الاستفهام الإنكاري فهو لا يأبه من عزّة رهطه، لأنّه يعتزّ بقوة الله وحده، فهو ناصره عليهم وهو مجيره من بغيهم، وهم ضالّون في تركهم جانب الله وإعراضهم عن دعوة رسوله. وما أبلغ ذلك التّصوير لمشهد التّرك والإعراض برمي الشّيء وراء الظّهر إهمالا ونسيانا.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: وإحاطة علم الله بأفعال عباده تعني أنه تعالى يجازيهم بما يستحقون من العذاب والسّخط. وفي ذلك تحذير من عواقب تماديهم على الكفر والعناد.

ثم يصعّد شعيب من لهجة التّحدّي فيتحرّش بقومه بإعلان المفاصلة بينهم وبينه، فلكلّ سعيه وعمله ولكلّ مصيره وعاقبته: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ

إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

يأتي هذا التّصريح بالوعيد بعد أن يئس شعيب من استصلاح قومه، وبعد أن جاهوه بالتّحدّي والانتقام، ولا يفلّ الحديد إلا الحديد، فلا مداهنة ولا مساومة، وفي يده نصاعة الحق وقوته، وإلى جانبه قدرة الله ونقمته، فلا مناص من المفاصلة بين الفريقين، فهو يأمرهم مهدّدا أن يعملوا متمكّنين من خطّتهم في ما يرمون إليه من عرقلة دعوة رسولهم، وهو يعمل وفق خطته -أيضا- بما آتاه الله من الحكمة والقدرة في إبلاغ دعوته: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

وهذه الجملة المستأنفة تقع موقع الجواب لسؤال مقدّر بعد ذلك التّهديد عمّا يمكن أن يترتب عنه، وتتمثل العاقبة المشؤومة في نوعين من العذاب:

أ)- عذاب ماديّ بما يحيق بهم من عذاب الاستئصال بالصّيحة التي تفنيهم.

ب)- عذاب معنويّ يخزيهم بلوثة الكذب ووصمة العار.

والكلّ يراقب وينتظر مآله ومآل خصمه، وتنتهي تلك المجادلة السّاخنة بأن يقضي الله أمره في مصير القوم بمحق معالم حضارتهم كلية وبنجاة شعيب ومن معه من المؤمنين: ﴿**وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ، كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ**﴾.

في وجه العطف هنا وفي قصة عاد، وفي وجه العطف بالفاء في قصتيّ ثمود وقوم لوط يقول صاحب المنار: "و من دقيق نكت البلاغة في الآيات قوله تعالى في إهلاك مدين هنا: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً﴾: فعطف "لَمَّا" على ما قبلها بالواو ومثله في قوم هود، ولكنه عطفها بالفاء في قصة ثمود وقصة قوم لوط، وجه

الأخير أن الآيتين جاءتا عقب الإنذار بالعذاب واستحقاقه وحلول موعده فعطفتا بالفاء الدّالة على التّعقيب، وأمّا عطف مثلهما في قوم هود وقوم شعيب فليس كذلك، فعطف بالواو على الأصل في العطف المطلق، أمّا الأول فظاهر لأنه ليس قبل الآية وعيد بالعذاب، وأما الثاني ففيه وعيد مسوّف فيه مقرون بالارتقاب لا الاقتراب، فلا يناسب العطف عليه بالفاء التي تفيد التّعقيب بدون انفصال".[1]

يسدل السّتار في قصة قوم شعيب بمثل الأسلوب الذي تقدم في قصة ثمود، في تحقيق النّجاة للرسول والذين آمنوا معه، بدون بيان الوسيلة أو الكيفية، وإهلاك الذين كفروا بالصّيحة وطمس معالم حضارتهم كلية، ثم الدّعاء عليهم بالبعد من رحمة الله.

قلت: فالصّيحة هي وسيلة إهلاكهم، كما ذكرت الرّجفة في آيات أخرى، والصّاعقة أيضا، كقوله تعالى في سورة الذّاريات: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ (٤٤). فلا تعارض بين الآيات، إذ أنّ الصّيحة يمكن أن تكون بنزول الصّاعقة، كما تتحقّق الرّجفة في أبدانهم من شدّة الخوف، أو في منازلهم من شدة الوقوع، والله أعلم.

موقف فرعون وملإه من دعوة موسى عليه السلام

أ)- النصّ:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا
أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ
وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١٢/ ١٦٠-١٦١.

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾: ﴿بِآيَاتِنَا﴾: الباء للمصاحبة، أي الآيات التسع المذكورة في سورة الإسراء والمفصّلة في سورة الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ (١٣٣)، والسّلطان المبين: أي برهان واضح، وهو ما آتاه الله من الدّلائل والحجج البالغة لإقناع فرعون. ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾: والرّشيد هو المتصف بإصابة الصّواب، أي ليس تصرّفه بذي رشد. ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾: أي يتقدمهم إلى النّار يوم القيامة كما كان يتقدّمهم في الدّنيا. ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾: الورد بالكسر اسم مصدر، يطلق على الماء المورود. استعير الإيراد إلى التّقدّم بالنّاس إلى العذاب ويراد بها التهكم. ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾: الرّفد -بالكسر- العطاء والعون، يقال: رفده وأرفده، أعطاه وأعانه.

ج)- البيان والتفسير:

جاءت قصّة موسى عليه السلام آخر قصص الأنبياء المذكورة في هذه السّورة الكريمة، وذكرت بعد قصّة شعيب لقرب زمنها منها، وعلى ترجيح أنّ شعيبا الرّسول هو والد الفتاتين اللّتين سقى لهما موسى في ماء مدين، وهو الذي زوّج إحدى ابنته له، فتكون بعثة موسى وقعت في حياة شعيب عليه السلام.

وقد ذكر اسم موسى في القرآن مئة وستّا وثلاثين مرة في أربع وثلاثين سورة، كما ذكرت قصته مع فرعون وملئه في سور كثيرة من القرآن في الأعراف والشّعراء وفي سورة طه والقصص وسورة غافر.

ولخصت هنا في أربع آيات مع التّركيز على بيان عاقبة فرعون وسادات قومه في الهلاك واللّعنة قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾**.

أكّد الله الخبر بـ"قد" و"اللاّم" المشعرة بالقسم مع ذكر فعل: ﴿أرسلْنَا﴾ كما جاء في قصّة نوح، ولم يعطف على إرسال هود وصالح وشعيب. وفي بيان ذلك يقول صاحب المنار: "ولمّا كان إرسال موسى إلى فرعون لا يصحّ أن يعطف على إرسال شعيب إلى مدين لأنّه لا يشاركه في نوعه المشترك مع إرسال صالح وهود، عطف على قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ (هود:٦٩)."[١]

قلت: وتوضيح ذلك أنّ الله تعالى قد خصّ موسى بنوع من الرّعاية إذ نشأ وتربّى في حضن فرعون وترعرع في تلك البيئة الغارقة في الظّلم والجبروت، فأحاطه الله بسياج من حفظه ورعايته فقال له تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ (طـه:٣٩).

فقد صاحبته رعاية الله في نشأته وتكوينه كما صاحبته في بعثته ودعوته لفرعون وملاه بظهور الآيات والسّلطان المبين، لتدلّ دلالة قاطعة على صدق نبوءته، فقد أيّده الله بالمعجزات الحسّيّة، وأشهرها عصاه التي قهر بها سحرة فرعون. واستعير لفظ "السّلطان" للحجّة الدّامغة، لأنّ صاحبها يقهر بها من لا حجّة له عند المحاورة كما يقهر السّلطان غيره، وخصّ الملأ بالذّكر مع فرعون لأنّهم علية القوم في الاستشارة والتّنفيذ للأوامر.

﴿فَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾: عقّب الله الإرسال باتّباع الملإ لأمر فرعون، أي في شأنه ومنهجه في الكفر والضّلال، أو الأمر بمعنى تكليفهم بالتّكذيب والإعراض عن دعوة موسى.

وتكرار اسم فرعون لكونه رأس الكفر ولبيان ذلّة الملإ وخضوعهم التّامّ لسلطته في حالة كون تصرّفه غير رشيد، أي ليس فيه رشد ولا هدى. وإسناد نفي الرّشد إلى الأمر نفسه هو إسناد مجازي للمبالغة، فهؤلاء السّادة على ما لهم من

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١٢/١٥١.

مكانة في دولة فرعون ثم سفهاء حمقى لا يملكون أمر أنفسهم في حرية التعبير والعمل. وتلك هي حالة أذناب الطّواغيت قديما وحديثا، فما هي عاقبتهم في الدّنيا والآخرة؟.

إنها الزّيادة والتّقدم على أتباعهم في ورود النّار يوم القيامة، واللّعنة والخزي في الحياة الدّنيا: **﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ، وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾.**

الجملة إما حالية من "فِرْعَوْنَ" أو مستأنفة استئنافا بيانيا، وجاء اختلاف صيغة الفعل في "يَقْدُمُ" وفي "فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ"، فصيغة المضارع في "يَقْدُمُ" على اعتبار ما يقع في المستقبل؛ لأن "يَقْدُمُ" ماضيه "قدم" -بفتح الدّال- بمعنى "تقدّم" المتعدّي، أي يجيء فرعون على رأس قومه لأنّه كان قدوة لهم في الكفر والضّلال بدار الدّنيا، فكذلك يكون قائدهم إلى جهنّم يوم القيامة.

واختيار صيغة الماضي لفعل "أَوْرَدَ" للتنبيه على تحقيق وقوع ذلك الإيراد. وفي هذا التّعبير التّصويري البليغ بتشبيه دخول النّار بالورود إلى الماء، كما تورد الأنعام العطاش فيه، سخرية وتهكّم لأولئك الأتباع، إذ هم كالقطيع الذي يساق بالعصا، وليس له أيّ تفكير ولا تصرّف حرّ، وبئس ما اختاروه لأنفسهم من ذلك الورد المورود الذي يشوي البطون ويقطع الأمعاء كما ذكر الله ذلك في قوله: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ (محمد:١٥).

وفي جزاء الكبراء والسّادة يوم القيامة ترد في القرآن عدّة آيات تغلظ العذاب عليهم، وقد يدعو الأتباع عليهم بمضاعفة الله لعذابهم. قال تعالى:

أ)- ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ، النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُواْ آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر:٤٥-٤٦).

ب)- ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا، رَبَّنَآ آتِهِمْ

ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ (الأحزاب:٦٧-٦٨).

ج)- ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٨).

د)- ونجد نفس التعبير بمضاعفة العذاب يوم القيامة لنساء النبي لمن يأتي منهن بفاحشة. إذ يقول تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾ (الأحزاب:٣٠).

ومن تمام عدل الله في توفية الجزاء أنه في مقابل ذلك التهديد يضاعف الأجر للمحسن التقيّ فيقول:

أ)- ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس:٢٦).

ب)- ﴿إِن تُقْرِضُواْ اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ (التغابن:١٧).

ج)- ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ (البقرة:٢٤٥).

فليقصر المسؤولون في غلوائهم وكبريائهم، فكلّ راعٍ مسؤول عن رعيته، والمسؤولية أمانة، وإنّها يوم القيامة خزي وندامة، كما قال الرّسول ﷺ لأبي ذرّ، وأنكى من عذاب يوم القيامة ذلك الخزي الذي يلاحقهم في الدّنيا على لسان الأجيال بالطّرد من رحمة الله، وعلى لسان الخلائق في موقف الحشر. قال تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ (القصص:٤٢).

﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾: أي بئس ذلك العطاء المقدّم إليهم، بأن تلاحقهم اللّعنة ويكسوهم الخزي في الدّنيا والآخرة.

فاللّهم لا تخزنا يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

والله أعلم.

العبرة العامّة في إهلاك الأمم الظّالمة

أ)- النصّ:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ
أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ
أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ
ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾: اسم الإشارة إلى ما قصّه الله من أنباء الأمم، والأنباء: جمع نبأ، الخبر العظيم. ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾: جملة معترضة في موقع الحال. والقائم: أي الزّرع القائم على سوقه، مشبه به للباقي من آثار تلك القرى. وأما الحصيد فهو للعافي الزّائل منها. ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾: التتبيب: مصدر فعل تتبيه، إذا أوقعه في التّباب أي الهلاك. ويقال في الدّعاء بالهلاك: تبّا له. ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾: تشبيه لعاقبة الظّلم، والأخذ هو إنزال العذاب. ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾: أي وجيع قاس لا هوادة فيه ولا خلاص منه، وهو مجاز مرسل.

ج)- البيان والتّفسير:

في القصص عبرة لأولى الألباب لأنها تبيّن مصائر الأمم، كيف تجني على نفسها إذا تمادت على الظّلم والطّغيان، وأفدح الظّلم هو الشّرك بالله وما ينجرّ عنه من الضّلالات لا يستقيم معها عمران، إذ يؤدي بالأمم الظّالمة إلى الهلاك والدّمار.

فبعد أن قصّ الله على رسوله من المواعظ والعبر ما تستفيد منها الأجيال وتكون على بيّنة مما تختاره لحياتها في الحاضر والمآل، قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنبَآءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ**﴾.

وإن كان الخطاب موجّها لرسول الله فهو في مجال الدّعوة قدوة للمؤمنين، فالقاصّ هو الله العليم بأحوال تلك الأمم، والعادل الحكيم في تدبير شؤونها وتقرير مصائرها، ومهمّة الرّسول أن يبلّغ ذلك للنّاس وينذرهم حتى يتبيّنوا مسؤولية اختيارهم فوزا وفلاحا أو خزيا وهلاكا. وبما أن أهل تلك القرى قد هلكوا فإن ما بنوه من الدّيار وما شيّدوا من عمران قد اختلفت صوره من بعدهم، فمنه ما بقيت له آثار كالزّرع القائم على سوقه، ومنه ما اندرست معالمه كليّة كأن لم تقم من قبل، وفي كلتا الحالتين فإنها عبرة للمعتبرين، وتذكرة للغافلين.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: أي ما كان لهم ذلك المصير المشؤوم بظلم من الله -حاشاه- ولكنّه كان نتيجة لظلمهم أنفسهم بالإشراك بالله والإفساد في الأرض والإصرار على الكفر والضّلال بحيث لا يُرجى منهم هدى ولا رشاد، بل تمادوا على عبادة الأصنام يلتمسون منها دفع الضّرّ عنهم، ظانين أنهم بذلك في أمن مما ينذرهم به رسلهم من سخط الله وعذابه.

﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾: فها هو أمر الله قد قضى بإهلاكهم فما وجدوا من تلك الآلهة عونا ولا نصيرا، بل ما زادتهم تلك الآلهة الباطلة إلاّ هلاكا على هلاك، ووجه ذلك أنهم كانوا يأملون أن تنتقم تلك الآلهة لهم من الرّسل، فلمّا جاء الواقع بعكس ما يظنون زادهم ذلك غيظًا وحسرةً، وتضاعف بذلك خسرانهم وهلاكهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾: الإشارة إلى ذلك الهلاك للقرى الماضية بسبب الظّلم والفساد، يأخذ الله على نحو منه كلّ قرية ظالمة في كلّ زمان ولكلّ قوم. والمقصود بذلك هو التّعريض بمشركي مكة وأشباههم أن يصيبهم مثل ذلك إن هم تمادوا على الظّلم والطّغيان.

﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾: وهذا التذييل هو لبيان التّشبيه السّابق، فإذا كانت هذه هي العبرة العاجلة في العذاب الدّنيوي، فكيف بالعذاب الأخرويّ وهو الأشدّ والأبقى؟، ولا شكّ أن القلوب البشرية تختلف في الإحساس بذلك إيمانًا وتصديقًا، أو كفرًا وتكذيبًا، فاللّهم نوّر قلوبنا بالإيمان، وطهّر نفوسنا من النّفاق، والله أعلم.

العبرة من عذاب الدّنيا لعذاب الآخرة

أ)- النص:

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ
مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ
فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ
عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا
يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾: اليوم: هو يوم القيامة: ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾:

اللاّم للتّعليل، أي يجمع النّاس أجله. واختيرت صيغة اسم المفعول: ﴿مَّجْمُوعٌ﴾ للدّلالة على ثبات معنى الجمع. ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾: عطف على الجملة السّابقة، و لم يذكر الفاعل، والمراد أن يشهده الشّاهدون شهودا خاصًا لما يكون فيه من الهول، أو هو بمعنى يشهده الكثير من الشّاهدين. ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾: أي هو محدّد في علم الله بمدة معدودة هي ما قدّره الله من عمر هذه الدّنيا، ولا يعلم ذلك إلا الله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ (الأعراف:١٨٧). أو هو كناية عن القرب. ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾: يَوْمَ: بمعنى حين، أو ساعة لا تكلّم نفس. ﴿نَفْسٌ﴾: نكرة في سياق النّفي تعمّ جميع النّفوس. ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾: أي من الأنفس. ﴿شَقِيٌّ﴾: صفة مشبّهة من شقي، إذا تلبّس بالشّقاء ضدّه: سعيد، وهو المتلبّس بالسّعادة، وبين اللّفظين طباق. ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾: الزّفير: إخراج الأنفاس بدفع وشدّة، والشّهيق عكسه، وهو اجتلاب الهواء إلى الصّدر بشدة، وذلك يكون عند حرج الصّدور وشدة الكرب والحزن عند البكاء. ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾: أي دائما غير مقطوع، من جذّه يجذّه إذا قطعه أو كسره. قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ (الأنبياء:٥٨). ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾: في: للظّرفية المجازية، والمرية -بكسر الميم- الشّكّ.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾: قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة: ﴿يَأْتِ﴾ بحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة، وذلك يقع كثيرا في لغة هذيل. وقرأ الباقون بإثبات الياء. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾: قرأ حمزة وحفص عن عاصم: ﴿سُعِدُوا﴾ بضمّ السّين والباقون بفتحها. وإنما جاز ضمّ السّين لأنه على حذف الزّيادة من: أسعد، ولأن سعد لا يتعدّى وأسعد يتعدّى، وسعد وأسعد بمعنى، ومنه مسعود من أسماء الرّجال.

د)- البيان والتّفسير:

قفّى الله على ذكر عذاب الأمم الظّالمة في الدّنيا بعذاب الآخرة، لأنّ عذاب الدّنيا هو آية دالّة على عذاب الآخرة يعتبر بها من يخاف عذابها حتى يتقي الظّلم في الدّنيا بجميع أنواعه، فقال تعالى: **﴿إنّ في ذلكَ لآيةً لّمَنْ خافَ عذابَ الآخرةِ ذلكَ يومٌ مّجمُوعٌ لّهُ النّاسُ وذلكَ يومٌ مّشهُودٌ، ومَا نُؤخّرُهُ إلاّ لأجلٍ مّعْدُودٍ﴾**.

الإشارة إلى الأخذ المتقدّم في الآية السّابقة بما قصّه الله من قصص الإهلاك للأمم الظّالمة وأن ذلك -على ما فيه من مصائب وشدائد- إنما هو نموذج لما أعدّ الله للمجرمين من عذاب الآخرة وهو أشدّ وأبقى، فإذا كانت تلك هي سنّة الله في خلقه، وهم في الدّنيا يتقلّبون بين النّعماء والضّراء، ويعيشون تلك الأحوال ولا ينكرونها. غير أنّ الاعتبار بها لما توعّد الله به من العذاب الأخرويّ لا يكون إلا لمن آمن باليوم الآخر بدون شكّ ولا مراء.

﴿إنّ في ذلكَ لآيةً لّمَنْ خافَ عذابَ الآخرةِ﴾: فهو يزداد يقينا وإيمانا بأنّ الله الذي عذّب الأمم الظّالمة في الدّنيا هو قادر على تعذيبها في الآخرة، ولا شكّ أن المسلمين هم من هذا الصّنف الذي ينتفع بالموعظة لأن خشيته لله تجعله يذكّر ويعتبر، كما قال تعالى مخاطبا رسوله:

أ)- ﴿فذكّرْ إن نّفعتِ الذّكرَى، سيذّكّرُ من يخشَى﴾ (الأعلى:٩-١٠).

ب)- ﴿فذكّرْ بالقرْءانِ منْ يّخافُ وعيدِ﴾ (ق:٤٥).

وللتنويه بشأن ذلك اليوم ذكر الله له صفتين تميّزانه في الخيال الكونيّ العظيم:

أ)- **﴿ذلكَ يومٌ مّجمُوعٌ لّهُ النّاسُ﴾**: فهو يوم مهول بزحمة الحشر للخلائق كلّها، وجيء بصيغة اسم مفعول في الإخبار عن ذلك اليوم لإفادة معنى الثّبات لمعنى الجمع حتى سمّاه الله تعالى يوم الجمع في قوله: ﴿يومَ يجمعُكُمْ ليومِ الجمعِ

ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ (التغابن:٩).

ب)- ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾: فهو شهود خاص، تشهده الخلائق كلّها على مختلف أنواعها في عالم الشّهادة أو عالم الغيب، وهو مشهود -أيضا- لما يتمّ فيه من المحاسبة والحكم بالعدل أمام ملك الملوك، فلا ظلم ولا محاباة، ولا خلّة ولا شفاعة.

ج)- ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾: في هذه الجملة ردّ على منكري البعث المغترّين برتابة النّظام الفلكي ودوامه النّسبي لعمر الإنسان القصير، إذ يستعجلون وقوعه تهكّما واستهتارا وإمعانا في الكفر والضّلال، وقد ردّ الله عليهم ذلك الوهم فقال في سورة الشّورى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ (١٨).

بيّن الله في هذه الآية وفي آيات أخرى من القرآن أن للكون العظيم أجلا محدودا في علم الله كبقية الموجودات الأخرى، وما كان محدود النّهاية فهو زائل -لا محالة- مهما امتدّ أجله، وما تأخيره بالنّسبة لحياة الموجودات الأخرى إلاّ مظهر من مظاهر رحمة الله على خلقه إعطاء الفرصة لهم في إصلاح أحوالهم وتعديل أوضاعهم، كما كان من تمام حكمته أن لا يطّلع أحدا من خلقه على ذلك الأجل المحدود.

﴿يَوْمَ يَاتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ، خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالاَرْضُ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ، وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالاَرْضُ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾:

جاءت هذه الآيات ببعض التفصيل لما يقع في ذلك اليوم المشهود، فكلمة:

"يَوْمٌ" في مفتتح الآيات بمعنى حين أو ساعة، أي للوقت المطلق غير المحدود، فهو يوم مهيب تخرس فيه الألسن، فلا يتكلّم أحد إلا بإذن الله، لأنّ النّاس فيه موقوفون أمام ملك الملوك في محكمته لا يملكون حرية التّصرّف والاختيار. وكم في القرآن من آيات تصوّر ذلك المشهد الرّهيب، وليس للإنسان فيه حول ولا قوّة ذاتية ينافح بها عن نفسه، وليس له عون ولا نصير مما كان يتعلق به في الدّنيا من الشّفعاء والنصراء. قال تعالى:

﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً﴾ (طـه:١٠٨).

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ (النبأ:٣٨).

وفي تلك النّفوس الخاشعة: ﴿شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، وهذا التّصنيف يكون بمقتضى ما انتهت إليه حياة الإنسان في رحلة دنياه، فالنّاس يبعثون على ماتوا عليه من شقاء بالكفر والجحود، أو سعادة بالإيمان والتّقى والصّلاح، ولكلّ من الصّنفين جزاؤه الأوفى بعد التّقييم والحساب، كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (الشّورى:٧).

وبما أن المقام هو مقام الإنذار فقد بدأ الله بالفريق الشّقي فقال: **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ، خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾**، فرّع الله على الإجمال السّابق هذا التّفصيل بذكر مآل كل فريق على التّرتيب السّابق فذكر مستقرّ الذين شقوا وأنه نار جهنّم، وخصّ من أحوالهم فيها ذكر الزّفير والشّهيق لوصف الحالة التي يكونون عليها من الألم والضّيق والعناء باضطراب تنفّسهم لشدة الكرب والحزن، وهي حالة تعرض للإنسان في حالة المرض ولا تخفّف عنه إلا بوسائل التّنفس الصّناعي، ولله المثل الأعلى في تشخيص ذلك العذاب كما قال: ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ (فاطر:٣٦).

﴿وَأَمَّا الذينَ سَعدُواْ فَفِي الْجَنَّة خَالدينَ فيهَا مَا دَامَت السَّمَاوَاتُ وَالاَرْضُ إلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذ﴾: اكتفى الله بذكر الجنة مثوى للسعداء، وحسبهم بها نعيما أبديا، فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كما جاء في الحديث.

وفي كلا الجزاءين جاء الاستثناء بعد ذكر الخلود في كلتا الدّارين، جاء بقوله تعالى: ﴿إلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، أي كلّ من جزاءي أهل الجنة وأهل النّار يتمّ بمشيئة الله. وللمفسّرين تأويلات في تفسير ذلك الاستثناء، ولا شكّ أنّ المقصود بدوام السّماوات والأرض هو التّأبيد، لأنّ ذلك جرى مجرى التّمثيل. يقول القطب -رحمه الله-: "والسّماوات والأرض منقطعة، ولكن مثّل بدوامها على طريق العرب في التّمثيل لما لا انقطاع له بما له انقطاع بعيد".[1]

ويلاحظ في التّذييل على الجزاءين فرق له معناه، إذ قال تعالى عقب جزاء الأشقياء: ﴿إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وقال عقب جزاء السّعداء: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذ﴾، أي لا انقطاع فيه. فيعلّق الدّكتور وهبة الزّحيلي على ذلك بقوله: "إنه تعالى أورد فرقا في ختام آية كلّ من الفريقين، فقال عقب بيان حال الأشقياء: ﴿إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، كما قال: ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء:٢٣). وقال عقب بيان حال السّعداء: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذ﴾، لتطييب القلوب والإشارة إلى أن جزاء المؤمنين هبة من الله تعالى وإحسان دائم. قال رسول الله فيما رواه أبو هريرة: «**لن يدخل الجنة أحدا عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله. قال: ولا أنا. إلا أن يتغمّدني الله برحمته**».[2][3]

١- امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ٣٨/٧.

٢- رواه البخاري من حديث أبي هريرة ، كتاب المرضى، باب نهي تمني المريض الموت، رقم ٥٣٤٩.

٣- وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ١٥٣/١٢.

﴿فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاَء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾:

لما كان المقصود من القصص السّابقة هو الاعتبار الذي يحصل للسامع بما يعرفه من عواقب الظّلم والفساد، وبما كان من سنّة الله في تدبير شؤون العباد، فرّع الله على ذلك هنا النّهي على أن يشك السّامع في عاقبة ما يعبده المشركون، وأنها تكون بمقتضى تلك السّنة شرّا ووبالا عليهم.

ويجوز أن يكون الخطاب في الآية للنبيّ تثبيتا له في موقف الدّعوة وهو يواجه معارضة قومه، ووعيدا لقومه، وقد بيّن الله حالهم بقوله: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾.

أي إنّ شأنهم في تلك العبادة إنّما هو التّقليد لآبائهم، والمراد من تشبيههم بآبائهم في تلك العبادة الباطلة أنهم سيلاقون نفس المصير من العذاب الدّنيوي والخزي الأخروي.

وقد تأكّد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾، والنّصيب هو الحظ.

و لم يفصّل الله أنواع ذلك الحظ لتذهب النّفس فيه مذاهب، أهي حظوظ الدّنيا يمتعهم الله بها كغيرهم، ثم يؤولون إلى عذاب جهنّم كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (لقمان:٢٤)؟. أو يكون المراد نصيبهم من عذاب الآخرة فجيء بتوفية نصيبهم من ذلك تهكّما واستهزاء، قطعا لما كان يراود أغنياءهم من الأمل في أن يكونوا على خير في الآخرة كما كانوا على ذلك في الدّنيا، كما قال قائلهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيَ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ (فصلت:٥٠)؟.

والله أعلم

التّذكير بعاقبة اختلاف أهل الكتاب في التّوراة

أ)- النص:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ
بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ
بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾: الضّمير يرجع إلى الكتاب وهو التّوراة، وكان اختلافهم بتقرير بعض أحكامه وإبطال بعضها وفق هواهم. ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾: الكلمة هنا كناية عن قضاء الله وقدره كما سبق في علمه الأزلّي. ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: الضّمير يرجع إلى المختلفين، ومتعلق القضاء محذوف، والتّقدير: فيما اختلفوا فيه. ﴿وَإِن كُلاًّ لَمَا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾: كُلاًّ: التّنوين عوض عن المضاف إليه، والتّقدير: وإنّ كلهم. لَمَا: اللاّم موطئة لقسم محذوف مقدّر و"ما" زائدة، واللاّم الثّانية في: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ للتّأكيد.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَإِن كُلاًّ لَمَا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ﴾: قرأ ابن عامر وحمزة وعاصم وأبو جعفر وخلف بتشديد الميم من "لَمَّا"، فعند من قرأ "إِن" مخففة وشدّد الميم وهو أبو بكر عن عاصم تكون "إِن" مخففة من الثّقيلة. وأمّا من شدّد النّون "إنّ" وشدّد الميم من "لَمَّا" وهم ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم وأبو جعفر وخلف، فتوجيه قراءتهم وقراءة أبي بكر ما قاله الفرّاء: إنها بمعنى "لمن ما" فحذفت إحدى الميمات الثّلاث.

يريد أن "لَمَّا" ليست كلمة واحدة، وإن كانت في صورها كصورة حرف "لَمَّا" في رسم المصحف، لأنه اتّبع فيه صورة النّطق بها، وإنما هي مركبة من "لام" الابتداء والجارّة التي تستعمل في معنى كثرة تكرر الفعل. فأصل هذه الكلمات في الآية على هذه القراءات: ﴿وَإِن كُلاًّ لَّمَن مَا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾، فوقع فيها القلب والإدغام والحذف.

د)- البيان والتّفسير:

بعد التّذكير بمصير الأمم الهالكة بكفرها بصفة عامّة جيء هنا بعاقبة قوم موسى إذ اختلفوا في كتابهم بين مؤمن به وكافر، وإذ كانت تلك سنة الله في الذين خلوا من قبل مع أنبيائهم، وقد عاقبهم الله بسوء أعمالهم، فلا تأس -أيها الرّسول- من اختلاف قومك عليك، فإنهم ليسوا بأحسن من أهل الكتاب. قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾**.

والتّذكير بحال قوم موسى له وقعه في تثبيت رسول الله أزاء عناد قومه، إذ ما يزال الكثير منهم ينظرون إلى أهل الكتاب نظرة مميّزة في تعلقهم بكتابهم واعتزازهم حتى لكأنهم فيه على كلمة واحدة، فبيّن الله أنهم ليسوا على ذلك، بل هم مختلفون فيه ظلما وبغيا وتنافسا على المنافع الدّنيوية، بينما آتاهم الله ذلك الكتاب ليوحّد كلمتهم ويجمع صفّهم، كما هو المقصد من دعوتك أيها الرّسول، فلا تبتئس إذن باختلاف قومك عليك إذ لك في الأنبياء قبلك إسوة.

غير أن الله قد قضى في علمه الأزلي بتأخير العذاب عنهم -وذلك من بركات أمة الرّسول-، ولولا ذلك لقضى الله بينهم بإهلاك العصاة وإنجاء المؤمنين كما فعل بمن قبلهم.

﴿وَإِن كُلاًّ لَّمَا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

بمختلف المؤكّدات لهذه الجملة لتفيد عدل الله في توفية الجزاء بحيث لا ينفلت عن ذلك أيّ فريق من المختلفين، وأنّ الله محيط علمه بما يعملون، وينقل الفخر الرّازي عن بعض أفاضل العلماء أنه قال: "إنّ الله تعالى لما أخبر عن توفية الأجزية على المستحقين في هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التوكيدات: أوّلها كلمة "إنّ" وثانيها "كُلاً"، وهي أيضا للتأكيد. وثالثها "اللاّم" الدّاخلة على خبر "إنّ"، ورابعها حرف "مَا" إذا جعلناه موصولا، وخامسها القسم المضمر، وسادسها "اللاّم" الدّاخلة على جواب القسم، وسابعها النّون المؤكدة في: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾، والله أعلم.

الحضّ على التّمسك بالإسلام على وجه قويم

أ)- النصّ:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾: الاستقامة هي العمل بأحكام الشّريعة كاملة بحيث لا ينحرف عنها قيد أنملة، ضدّها الاعوجاج: ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾: تشبيه مماثل لسائر ما أمر به الرّسول في القرآن. ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾: معطوف على الضّمير المتصل في: "أُمِرْتَ"، ومن تاب مع الرّسول هم المؤمنون التائبون من الشّرك. و"مَعَكَ" حال من "تَابَ"، ولا يتعلق بـ"تاب"، لأنّ النّبي لم يكن من المشركين. ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾: الطّغيان: هو تجاوز الحدّ غلوّا في الدّين أو تفريطا فيه، والمراد هنا الجراءة على مخالفة أوامر الله. ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: الرّكون: الميل والموافقة،

مشتق من الرّكن بضمّ فسكون، وهو الجنب، وهو مستعار للموافقة. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾: الجملة حالية. "منْ أَوْلِيَاءَ": الميم زائدة. ومن مباحث القراءات اللّفظية أن بعضهم قرأ: ﴿تَرْكُنُواْ﴾ بضمّ الكاف، وبعضهم قرأها وقرأ: ﴿تِمَسَّكُمُ﴾ بكسر تاءهما وهي لغة تميم.

ج)- البيان والتّفسير:

من ثمرات الاعتبار بما كان من أحوال الأمم مع الرّسل وما تخلّلها من الوعد والوعيد، أن يكون الرّسول ومن معه من المؤمنين متمسّكا بالإسلام ومطبّقا لتعاليمه على وجه قويم، فجاء أمر الله في هذه الآية بالاستقامة على نهج الله كما أمر، والاستقامة كلمة جامعة وشاملة لكلّ ما يتعلّق بالعقيدة والعمل الصّالح والأخلاق الحميدة. قال تعالى: **﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**.

الخطاب للرسول وهو خطاب لأمته، غير أنّ المقام يقتضي التّنصيص على ذلك لتأكيد الأمر، فجاء العطف بقوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾، ولأنّ الرّسول في مقام القدوة لأمته، فكان توجيه الأمر إليه أوّلا تنويها بشأنه، ولا يعني أمره بذلك أنه لم يكن مستقيما قبل ذلك، وإنما المقصود هو الثّبات والاستمرار على ذلك في كل الأحوال، وهو يتطلب جهدا خاصّا، قد يضعف الإنسان عنه -أحيانا-، ولذلك قال ابن عباس ﷺ: ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشدّ ولا أشق من هذه الآية عليه. ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشّيب؟. قال: «**شيبتني هود وأخواتها**».[1] وسئل عما في هود فقال: قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾.

١- تقدم تخريجه، ص ٣٠٦.

قلت: إن محلّ العسر في تنفيذ هذا الأمر يتجلّى في معرفة وجه المطابقة في تنفيذ حكم شرعي لما أمر الله به، إذ أن لأهواء النّفس ووساوس الشّيطان وضغوط المحيط من الواقع المعيش، لكلّ ذلك تأثير كبير قد يفضي إلى الانحراف، وقد يبرّر بضروب من التّأويل، ولذلك أعقب الله ذلك الأمر بالنّهي عن الطّغيان، والذي جاء بصيغة الجمع ليشمل المؤمنين وهم عرضة لذلك، سيما بعد أن يغيب الرّسول عنهم، ولا يدفع المرء إلى الطّغيان إلا تسيّبه وجراءته على أحكام الله إن بدافع التّقليد الأعمى والتّبعية المقيتة لأعداء الإسلام، كما هو واقع المسلمين اليوم، أو لسوء التّعامل مع مصادر التّشريع الأساسية لغلبة المذهبية والعنصرية.

ونظرا لواقعية هذا المنحى في حياة المسلمين مما سبق في علم الله الأزلّي مما يخشى عليهم من الوقوع في العدوى نبّه الله إلى خطر الممالأة للظالمين فقال: **﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنَ اَوْلِيَآءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾**.

والرّكون هو الميل إلى الشّيء ولو كان يسيرا، والذين ظلموا هم المشركون بصفة عامّة، لأن الشّرك أفدح الظّلم، وهو مصدر الإفساد والإفتان للمؤمنين، ولا يكون الارتكان إلى الظّالمين إلاّ عند ضعف الوازع الدّيني، مما يؤدّي إلى مداهنتهم والرّضى بأعمالهم ثمّ الاستعانة بهم والاعتماد عليهم، وفي كلّ ذلك مفسدة للدّين وتحطيم لهيبة المسلمين مما يستوجب غضب الله، لأن مآل ذلك بعد التّعوّد عليه أن يصبحوا في عداد الظّالمين كما قال تعالى: **﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** (التوبة:٢٣).

والآية عامّة في حكمها تشمل كلّ من ظلم ولو كان من المسلمين أنفسهم، يقول الإمام البيضاوي عنها: "أنها أبلغ آية تصوّر ما في النّهي عن الظّلم والتّهديد عليه"، ويقول عنها الإمام حسن البصري: "جعل الله الدّين بين لائين: **﴿وَلاَ تَطْغَوْاْ﴾**، **﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ﴾**".

قلت: كم في القرآن الكريم من إرشادات إلهية تحذّر المسلمين من موالاة الكفار وأهل الكتاب، وكلّ من يريد بالمسلمين شرًّا ولو في المشورة والرأي، إذ قلّما ينصح هؤلاء فيهما إلاّ خدمة لأغراضهم وتقوية لجانبهم. وليت عقوبة ذلك يؤجلها الله إلى يوم القيامة بعذاب النّار، ولكنّه تعالى في هذه الحالة بنفي ولايته عن الممالئين للظّلمة ويسحب نصره عنهم في الآجل، فليت المسلمين يعتبرون.

ولخلق الاستقامة إشادة كبيرة في القرآن الكريم، وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى في سورة الشّورى: ﴿فاستَقِم كَمَآ أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ (١٥). كما رتب عليها الجزاء الأوفى في الدّنيا والآخرة، فقال في الجزاء العاجل: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقًا، لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ (الجن:١٦-١٧). وقال في الجزاء الآجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت:٣٠)، والله أعلم.

الصّلاة والصّبر هما عدّة الاستقامة

أ)- النصّ:

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾

ب)- التّحقيق اللغويّ:

﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾: طرف الشّيء منتهاه من أوّله أو من آخره، والمقصود في الغداة والعشي، فيجمع الصّبح والظّهر والعصر. ﴿وَزُلَفاً مِّنَ الَّيْلِ﴾: جمع زلفة، وهي السّاعة القريبة من أختها، وذلك يشمل صلاة المغرب وصلاة العشاء. ﴿إِنَّ

الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾: أي الحسنة تكفّر السّيئة، والمقصود بالسّيئات الصّغائر من الذّنوب، وبين اللّفظين طباق. ﴿فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾: ولا يكون المؤمن محسنا إلا بالإخلاص في العمل لله.

ج)- البيان والتّفسير:

الثّبات على نهج الاستقامة يتطلب زادا روحيا كبيرا يجعل المؤمن دائم الاتصال بربّه وهو الرّكن الرّكين الذي يأوي إليه في الضّوائق والملمّات، والوسيلة الكبرى لذلك هي إقامة الصّلاة لأوقاها والصّبر عليها وعلى غيرها من الطّاعات، ولذلك عطف على ما سبق قوله تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾.

الخطاب للنبي ولأمّته بالتّبع، أو هو لكلّ من يصلح له، وقد خصّت الصّلاة بالذّكر في هذه الوصية لأنها عماد الدّين ورأس العبادات المزكّية للإيمان والمساعدة على القيام بالواجبات الدّينية الأخرى، وجاء الأمر بإقامتها للدّلالة على استيفائها حقها من الشّروط والأركان والآداب، ويقتضي ذلك أن يكون المراد بها الصّلوات الخمس المفروضة، إذ تشير الآية إلى أوقاها من اللّيل والنّهار كما حدّدها السّنة.

فقوله تعالى: ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ يشمل ثلاث صلوات هي الظّهر والعصر والصّبح، كما يشمل قوله: ﴿وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ﴾ المغرب والعشاء، وذلك في أرجح الأقوال. وفي القرآن آيات أخرى شبيهة بهذه ذكرت فيها أوقات الصّلاة بكيفية عامّة دونما تحديد للصّلوات المعنية بذلك الوقت كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾(الإسراء:٧٨) ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ (طه:١٣٠). ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ

تُظْهِرُونَ﴾ (الروم: ١٧-١٨).

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾: الجملة مؤكدة بـ"إن" للاهتمام بتحقيق خبرها، وهي مسوقة لتعليل الأمر قبلها. غير أن لفظ: ﴿الْحَسَنَاتِ﴾ جاء عامًا ليتناول جميع الأعمال الصالحة، وأعظمها أجرا عند الله الصلاة، فإذهابها للسيئات يكون:

أ)- يكون بمحو آثارها إذا وقعت، وهذا كقوله ﷺ: **«وأتبع السيئة الحسنة تمحها»**.[1]

ب)- يكون بإذهاب وقوعها بالمرة، وذلك حين تتعوّد النفس مجانبة السيّئات. فيسهل ذلك عليها. ويؤيّد ذلك قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ (النساء: ٣١).

وذهب جمهور العلماء أنّ المقصود بالسّيئات هنا الصّغائر من الذّنوب، وذلك لقوله تعالى في آية النّساء المتقدمة ولقوله في سورة النّجم: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ (٣٢).

ولما روي في سبب النّزول عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النّبي ﷺ فذكر له ذلك، كأنه يسأله عن كفارتها. فأنزلت عليه آية: **﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾**، فقال: يا رسول الله أليَّ هذه؟ قال: **«هي لمن عمل بها من أمتي»**.[2]

١- رواه الترمذي من حديث أبي ذر، كتاب البرّ والصّلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في معاشرة الناس، رقم ١٩٨٧، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

٢- رواه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل﴾، رقم ٤٤١٠؛ ورواه مسلم من حديثه أيضا، كتاب التوبة، باب ﴿إنّ الحسنات يذهبن السّيئات﴾، رقم ٢٧٦٣.

وقد رويت في هذا المعنى أحاديث أخرى يعضد بعضها بعضا منها قوله ﷺ: «**الصّلوات الخمس، والجمع، ورمضان، والوضوء، كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر**».[1]

﴿**ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ**﴾: الإشارة إلى المذكور من الوصاية السّابقة، أي في ذلك تذكير ووعظ لمن يذّكر من المنتفعين بالوعظ والنّصح، لأنّهم شديدو المراقبة لله في تصرّفاتهم يخشون عذابه ويرجون رحمته.

﴿**وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾: جاء الأمر بالصّبر مطلقا ليشمل جميع أنواع الصّبر، وأشقّه ذلك الذي يتطلبه التّكليف من القيام بالأوامر واجتناب النّواهي، سيما عندما يفتن المؤمن في دينه إذا استشرى الفساد وطغى الباطل. فرّع الله على الأمر بالصّبر بأنّ شأن الصّابرين أن يكونوا من المحسنين الذين لا يضيع الله أجرهم في الدّنيا والآخرة، والإحسان مرتبة عليا عند الله لا يبلغها المؤمن إلا بالوفاء والإخلاص في ما يتقرب به إلى الله.

كما أنّ الصّبر لا حدود لأجره عند الله، وهو يحقق معية الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر:١٠). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة:١٥٣).

فاللّهم اجعلنا من المحسنين الصّابرين.

والله أعلم

١- روى نحوه الحاكم في المستدرك من حديث أبي هريرة، رقم ٧٦٦٥، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

إهلاك الأمم باتّباع المترفين وانعدام الناهين عن الفساد

أ)- النصّ:

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي
الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا
مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ
رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ
وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ
أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾: لَوْلا: حرف تحضيض بمعنى هلاّ، ويقصد بها هنا الاعتبار بمن سبق. والْقُرُون: جمع قرن، والمراد بها الجيل من النّاس المقترنون في زمن واحد. ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ﴾: هم أولو الفضل والرّأي السّديد من النّاس. والبقية: في الأصل هي ما يبقى من الشّيء بعد ذهاب أكثره، وتستعمل في الباقي الأصلح، فيقال: فلان من بقية السّلف الصّالح. ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾: أي أعطوا التّرف، وهو السّعة والنّعيم الذي سهله الله لهم. واتّباع ما أُترفوا فيه هو الانقطاع له والإقبال عليه باتّباع الهوى والشّهوات. ﴿لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: أي تكون كلها متفقة على الحق مستمّرة عليه، والأمّة: الطّائفة من النّاس الذين اتحدوا في أمر مما يعتبر من المقوّمات كالوطن واللّغة والدّين...إلخ. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾: كلمة الله: هي تقديره وإرادته، أطلقت على ذلك مجازا، وإتمامها بمعنى الصّدق والتّحقق.

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: منْ: للتبعيض، أي من فريق الجنّ والإنس العصاة. وأجْمعين: تأكيد لشمول تثنية كلا النوعين.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد بيان ما لحق بالأمم الظّالمة من عذاب الاستئصال، وحوصلة ذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾، ثم إنذاره تعالى للمشركين من قوم رسول الله وإرشاده لما يجب عليه وعلى من اتّبعه من الاستقامة والصّلاح واجتناب أهل الظّلم، بعد تلك الجولة بيّن الله في هذه الآيات سننه العامّة في تدبير أمور البشر وحكمته في إقرار أوضاعهم فقال جلّ من قائل: **﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾**.

في الآية تعرّض لسبب ما أصاب تلك الأمم من الهلاك وهو يتمثل في شيئين:

أ)- فقدها لفئة صالحة تنهى عن الفساد في الأرض، والتّعبير بأداة التّحضيض: "لَوْلاَ"، والوصف: بـ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ يشي بامتياز تلك الفئة الصّالحة، لأن لفظ: "بقيّة" يكون مثلا للجودة لأنّ الرّجل إنّما يستبقي مما يخرجه أفضله وأجوده وقد جرى التّعبير عن الأخيار الصّلحاء بـ"البقية".

والمعنى: فهلاّ وجدت في تلك الأقوام الماضية والذين أهلكناهم بظلمهم، هلاّ وجدت فيهم جماعة صالحة ينهونهم عن الفساد في الأرض فيحول ذلك دون هلاكهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ استثناء منقطع، أي أنّ المستثنى

غير داخل في الحكم السّابق، إذ كان يوجد في تلك القرون أولو بقية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ممن أنجاهم الله مع الرّسل، ولكنها قلّة مغمورة، ليس لها أي تأثير في الكثرة الظّالمة.

ب)- اتّباع تلك الكثرة الظّالمة لشهواتهم حتى أبطرتهم النّعمة، فأعرضوا عن رسلهم ووقعوا في الإجرام الذي يؤدّي في نهاية المطاف إلى الهلاك والدّمار، وبذلك جرت سنّة الله في أوضاع الاجتماع البشري، كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ (١٦).

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾: ودفعا لتوهّم أيّ ظلم من الله لأولئك المجرمين، جاء النّفي بـ"لام" الجحود لنفي أيّ ظلم عن الرّبّ الرّحيم يسلّطه على خلقه حالة كونهم مصلحين، وهذه الصّفة على عمومها هي مقابل الإفساد في الأرض الذي جعل سببا للهلاك والدّمار.

والإهلاك يراد به هنا الإهلاك العاجل كما حدث للأمم السّابقة. وقيل: إنّ المراد بالظّلم هنا ما كان من الشّرك في المعتقد مع كون أهل القرى مصلحين في أعمالهم الاجتماعية وفي معاملاتهم لبعضهم بعض، بحيث تحترم الحقوق العامة ويلتزم بآداب السّلوك النّظيف، فإن الله يملي لمثل هؤلاء، على القاعدة التي تقول: "تدوم الأمم على الكفر، ولا تدوم على الظّلم". ويؤيّدها قوله ﷺ عندما سئل عن تفسير هذه الآية فقال: «**وأهلها ينصف بعضهم بعضا**».[1]

لعلنا نأخذ من الواقع المعيش اليوم ما يؤيّد هذا التّفسير، إذ نجد أمما كبرى زائغة في معتقدها كالصّين والهند مثلا، ولكنّها في المجال التّعاوني والاجتماعي

١- رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث جرير موقوفا، رقم ٢٢٨١، وفي سنده عبيد بن القاسم الكوفي وهو متروك، (الهيثمي، مجمع الزوائد، ٧/٣٩).

سديدة النّظم صالحة القوانين، فهي في نموّ مطّرد واستقرار مرموق، وعلى العكس من ذلك أمم مؤمنة قويمة المعتقد، ولكنها جائرة في نظمها الاجتماعية متلاعبة بقوانينها حامية للشرّ والفساد، هي دائما عرضة للاضطرابات الاجتماعية وطعمة للفتن الدّاخلية، لا تنهض لمجد، ولا تتشرف لسؤدد.

وبما أن المتأمّل في هذا الأمر قد يتوهّم أن ذلك خروج عن إرادة الله ومشيئته، نظرا لما يتمتع به البشر من حرية الاختيار، أعقب الله على ما تقدم بما يرفع ذلك التوهّم فقال: **﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾**.

والتوجيه الخطاب للرّسول في مثل هذه الإخبار فائدته القصوى في مجال الدّعوة، وهو الحريص على إيمان قومه والمتألّم لشقاوتهم وإعناتهم، يخبره الله تعالى بأنه اقتضت حكمته أن تتفاوت عقول خلقه في الإدراك وبعد النّظر كما تتفاوت نفوسهم في قابلية الرّشد والصّلاح، أو الغيّ والضّلال.

وليس معنى ذلك أنهم في تمكين الله لهم من الاختيار أنهم منفلتون من إرادة ومشيئته، بل لا يتمّ اختيارهم إلاّ وفق ما قدّره الله لكلّ واحد منهم في علمه الأزلي، إذ لو شاء الله لكانوا في حياتهم الاجتماعية كمملكة النّحل أو النمل، ولكانوا في حياتهم الرّوحية كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، إذ العمران البشري لا يستقيم إلا بتدافع النّاس بعضهم لبعض، سيما بعد أن تطوّر إلى عهد قوته وشبابه فتعددت مطالبه وتشعّبت مناهجه كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَوْلاَ دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥١). ثم أكّد الله هذا المعنى بقوله: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، أي إنّ الواقع في الوجود البشري هو وجود الاختلاف بينهم في كلّ شيء، وذلك مظهر من مظاهر قدرة الله وجلال حكمته

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (الروم:٢٢).

فقضية المساواة -إذن- ادّعاء تعسّفي لا ينهض عليه عمران، ولا يقوم على دليل أو برهان، وبما أن الاختلاف قد تخفف آثاره بالنّزول على حكم الله على أيدي الرّسل رحمة من الله على خلقه، عندما ينير سبيلهم فيقفون ويتعاونون، جاء ذلك الاستثناء بقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، فهو مستثنى من الاختلاف الذي لا رحمة فيه بما ينتج عنه من المظالم والمفاسد، ولذلك أعقب ما تقدم بقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وذلك بالنّسبة لغير المهتدين من خلقه، وأمّا المهتدون فجزاؤهم الجنة، وتخصيص أهل النّار بالذّكر يقتضيه السّياق، ولمزيد من التّحذير للمسلمين من أن يقعوا في الاختلاف غير الرّحيم الذي يؤدّي إلى النّار.

وقد روي عن ابن عبّاس قوله في تفسير هذه الآية خلقهم فريقين: فريقا يرحم فلا يختلف، وفريقا لا يرحم فيختلف، فذلك قوله من قبل: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ (هود:١٠٥)، والله أعلم.

فائدة ذكر قصص الأنبياء، والأمر بعبادة الله والتّوكل عليه

أ)- النصّ:

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا
عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ
يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغويّ:

﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾: وَكُلاًّ: منصوب على المفعولية لفعل "نقصّ"، وتقديمه على فعله للاهتمام به، ولما فيه من الإبهام يأتي بيانه بعده، والقصّ: تتبع أثر الشّيء للإحاطة به. والنّبأ: هو الخبر المهمّ. ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾: بيان لقوله: وَكُلاًّ. والتّثبيت: هو التّسكين في المكان بحيث ينتفي الاضطراب، والفؤاد: القلب، أي نجعل قلبك راسخا كالجبل بزيادة يقينه واطمئنانه. ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: الإشارة إما إلى السّورة، وقيل: للأنباء المقصوصة عليك. والتّعريف في لفظ الْحَقّ للعهد. وهو ما دعا إليه رسل الله جميعهم من توحيد الله وعبادته. ﴿اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾: هو نظير كلام شعيب لقومه، بأن تحدّاهم أن يعملوا ما في وسعهم لمقاومة الدّعوة. والأمر للتهديد. ﴿وَانتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾: أي كل ينتظر عاقبة أمره. ﴿وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: "اللاّم" للملك، وتقديم المجرورين أي مع قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ يفيد الاختصاص، أي الله لا غيره يملك ذلك.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾: قرأ من عدا نافعا: ﴿يُرْجَعُ﴾ ببناء الفعل بصيغة النّائب، وقرأ نافع بصيغة الفاعل، على أن يكون الأمر هو فاعل الرّجوع. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بتاء فوقية. وقرأ من عداهم بالمثناة التّحتية على أن يعود الضّمير إلى الكفّار.

هـ)- البيان والتّفسير:

جاءت خاتمة السّورة في هذه الآيات الأربع لتحوصل ما تقدّم من أنباء

القرى وأنباء الرّسل. وتستخلص فائدة ذلك على رسول الله وعلى المؤمنين، ثم تختتم السّورة بما بدأت به من الأمر بعبادة الله وتوحيده والتوكّل عليه. فقال تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ اَنبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُومِنِينَ﴾.

في هذا الإخبار الإلهي حوصلة لما سبق من الأنباء بذكر ما يستخلص منها من الفوائد، ثم هي تهيئة لاختتام السّورة بما يتلاءم مع افتتاحها في مجال تركيز العقيدة إيمانا بوحدانية الله وإفراده بالعبادة وتصديقا برسالة الرّسل، ومن التنويه بشأن رسول الله أن يأتي هذا القصص من عند الله -وهو أعلم بشؤون خلقه- على مسار تاريخهم الطّويل، وقد رتب الله لتلك القصص فائدتين:

أ)- ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾: والفؤاد هو مستودع الأنوار الرّبانية، وهو المضغة التي يصلح الجسد بصلاحها.

فتثبيت قلب الرّسول بأمثال تلك القصص من شأنه أن تجعله قويّا راسخا في تحمّل أعباء الرّسالة، والصّبر على ما تسبّبه من أذى الإعراض والصّدود، وذلك بما يعلمه الرّسول من سنن الله في خلقه وما عاناه رسل الله مع أقوامهم فكانوا من الصّابرين، وقد أمره الله بالصّبر مثلهم فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ (الاحقاف:٣٥).

ب)- ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُومِنِينَ﴾: أي أننا بيّنّا لك -أيها الرّسول- في هذه السّورة أو بتلك الأنباء المقصوصة عليك، بيّنا لك ما هو الحقّ الذي دعا إليه رسل الله كلّهم من وحدانية الله وما تقتضيه من تكاليف الدّين عملا وسلوكا، ثم ما في تلك الآيات من التّذكير والموعظة للمؤمنين ليعتبروا بمن قبلهم فلا يغترون بمفاتن الدّنيا فتهلكهم كما أهلكت من قبلهم، وفي ذلك غاية الإنذار والتّحذير للمجتمع المسلم.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ، وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾:

أمر الله رسوله أن يخاطب الذين لا يؤمنون بأسلوب التحدّي كما فعل شعيب بقومه، وذلك بعد أن استوفى جهده في نصحهم وإرشادهم، ومن الحزم والجراءة اللاّزمة -أحيانا- في مجال الدّعوة أن يكون من الدّاعي ذلك الموقف الذي يعبّر به عن مدى ثقته بنفسه وإيمانه الرّاسخ بصدق دعوته، بأن يقول لهم ذلك القول الذي يؤدّي إلى المفاصلة التامّة بين الفريقين بأن يعمل كلّ وفق توجّهه واختياره.

ثم تفصل الأحداث في نهاية الأمر بما ينتهي إليه كل فريق، من النّصر والتمكين للمحقّين الصّادقين، ومن الخيبة والخزي للمبطلين الظّالمين.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾:

والإجلال لعظمة الله وقدرته هو التّذييل المناسب لختام هذه السّورة، كما يناسب ذلك التّحدّي المذكور في الآيات السّابقة. فالأمر بالانتظار لما سيحصل للفريقين المحقّ والمبطل، متعلّق بعلم الله وحده، لا يعلمه الرّسول ولا خصومه، فالله وحده عالم الغيب والشّهادة، وعلمه محيط نافذ في جميع الكائنات وإليه وحده يرجع أمر تدبيرها، وما الإنسان في ذلك إلا مسخّر لما يقدّره الله له في حاضره ومستقبله.

وبذلك ثبتت للذّات العلية صفتا العلم والقدرة، وهما صفات الكمال المطلق، فهو الجدير بالعبادة، وهو الحقيق بالتّوكل والاعتماد عليه، فدُمْ على ذلك أيها الرّسول.

وأمّا الذين أغرّهم الأماني الكاذبة بعبادة غير الله والتّوكّل على شفاعة الآلهة

الباطلة، فإنّ الله لا يخفى عليه أعمال كلّ فريق، وسيجزيهم على ذلك أتمّ الجزاء في الدّنيا والآخرة.

وبهذه الحوصلة البليغة يتناسق بدء السّورة وختامها بحسن التّقدير لجلال الله وعبادته.

والله أعلم

تمّت

تم بحمد الله الجزء السادس،

ويليه بإذن الله تعالى الجزء السابع

من بداية سورة يوسف عليه السلام

الفهارس

فهرس الآيات والعناوين الرّئيسيّة 445

فهرس الأحاديث 451

فهرس الآثار 454

فهرس الأبيات الشّعرية 455

فهرس الآيات والعناوين الرّئيسيّة

الآية	العنوان	الصّفحة

تفسير سورة التّوبة

35-34 استغلال الأحبار والرهبان للناس في معاملاتهم 5

37-36 عدّة الشهور عند الله، ومنها الأشهر الحرم، وتحريم النّسيء، ووجوب قتال المشركين 10

41-38 الاستنفار للجهاد، والتحذير من تركه، ومعجزة الغار في هجرة الرسول 15

45-42 تخلّف المنافقين عن تبوك، والاستئذان للجهاد............ 22

48-46 تخلّف المنافقين كان بغير عذر، وفي خروجهم خطر على المسلمين 26

52-49 فتنة المنافقين في انتحالهم للأعذار، واستيائهم لمسرّته ﷺ، وعكسه 29

55-53 إحباط ثواب المنافقين على نفقاتهم، ووصف صلاتهم وزكاتهم 34

59-56 خوف المنافقين من المؤمنين، ولمزهم النّبيّ في قسمة الصدقات، سبب ذلك.. 37

60 امصارف الثمانية الزكاة 41

61 ايذاء المنافقين النّبي، والرّدّ عليهم بأسلوب الحكيم........ 50

66-62	اضطراب أحوال المنافقين، وتخوفهم من فضح القرآن لهم	53
70-67	صفات المنافقين في الأوّلين والآخرين، وحظّهم الدّنيوي، وجزاؤهم الأخروي	58
72/71	أوصاف المؤمنين، وجزاؤهم الأخروي، ومناقضتها لأوصاف المنافقين	64
74-73	جهاد الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم	68
78-75	من صفات المنافقين إخلاف الوعد	73
80-79	سخرية المنافقين من المؤمنين، وعدم المغفرة لهم	76
82-81	الإنذار بعذاب النار للمتخلفين عن الجهاد	79
85-83	حرمان المنافقين من الجهاد،والمنع من الصلاة على موتاهم	82
89-86	تخاذل المنافقين عن الجهاد، وإقدام المؤمنين عليه	87
93-90	أصحاب الأعذار بين مقبول ومرفوض	90
96-94	الرّدّ على المتخلّفين المتعذّرين، وتحذير المسلمين من الرّضى عنهم	95
99-97	أصناف الأعراب في الإيمان والكفر والنّفاق	100
102-100	التّشكيلة البشريّة في المدينة وما حولها	105
105-103	تزكية الصدقات وتطهيرها للأنفس، والقبول بالتوبة، والأمر بالعمل الصالح	111
106	خبر المرجئين لأمر الله في التوبة عليهم	116
110-107	مسجد الضرار والكفر، ومسجد التقوى	118
112-111	صفات المؤمنين الكُمّل البائعين أنفسهم لله	124

116-113	النهي عن الاستغفار للمشركين، ولو كانوا أولي قربى، وإقامة الحجّة عليهم 130
119-117	التوبة على النبي والمؤمنين، والمخلّفين الثلاثة 135
121-120	فرضيّة الجهاد، وجزاء أصغر الأعمال فيه 141
122	على المؤمنين أن يجمعوا بين الجهاد والتفقّه في الدّين 144
127-123	وجوب قتال الأدنون من الأعداء، وموقف المنافقين من آيات القرآن 148
129-128	منّة الله على خلقه ببعثة رسوله، وأخلاقه العالية........ 153

تفسير سورة يونس

-	مقدمة السورة 158
02-01	موقف الكفّار من ظاهرة الوحي إلى الرّسول 160
04-03	آيات الخالق في الكون، وعودة الخلائق إليه للمجازاة ... 164
06-05	في عجائب الكون آيات للقدرة الإلهية 170
10-07	حال المنكرين للبعث، وحال المؤمنين، وجزاء كلّ منهم 173
14-11	طبيعة الإنسان في الاستعجال، وحكمة الله في الإمهال .. 178
17-15	مطالبة المشركين بتصرّف الرسول في القرآن بالتبديل.... 183
20-18	عبادة الأصنام انحراف عن أصل الفطرة 187
23-21	الكفر يدعو إلى المكر والعناد والبغي 193

24	مثل الحياة الدنيا بقرب مناها وسرعة زوالها.............198
27-25	الترغيب في الجنّة، وبيان حال المحسنين والمسيئين.........203
30-28	حشر المشركين وشركائهم، وتبرّؤ هؤلاء منهم..........208
36-31	آيات قدرته تعالى لإثبات ربوبيته......................213
39-37	تحدّي العرب بالقرآن، ودلالة عجزهم على صدقه......220
45-40	موقف المشركين من الوحي بين الإيمان به وعدمه........225
56-46	وعد الله حقّ في تحديد الآجال، وإيقاع العذاب بالمشركين في الدنيا والآخرة 231
60-57	فضل الله على خلقه بالقرآن، واختصاصه بالتحليل والتحريم 238
61	مراقبة الله لعباده، وإحاطته بكلّ شيء علما 244
64-62	من هم أولياء الله؟ وما جزاؤهم عند الله؟ 248
67-65	قول المشركين لا يحزن الرّسول لاعتزازه بقوّة الله.......253
70-68	تعالى الله عن اتّخاذ الولد، سبحانه هو الغني............257
73-71	نبأ نوح مع قومه، في مقام الاحتجاج على المشركين....261
82-74	تكذيب الأمم للأنبياء، وقصّة موسى مع فرعون 266
87-83	إيمان بعض من قوم موسى، وإرشاده لهم.................272
89-88	دعاء موسى على فرعون وملئه، واستجابة الله له 277
93-90	إغراق فرعون، ومبوّأ الصّدق لبني إسرائيل 281
97-94	التّأكيد على صدق القرآن، والتّعريض بالشّاكّين فيه 287
100-98	إيمان قوم يونس وكشف العذاب عنهم قبل وقوعه......291

103-101	الأمر بالنّظر في دلائل وحدانية الله	295
107-104	إخلاص العبادة لله، والإيمان بقدره	298
109-108	الإسلام دين الحقّ، والكلّ يختار لنفسه	302

تفسير سورة هود

	مقدمة السورة	305
05-01	إحكام القرآن، ودعوته إلى أصول العقيدة، وإلى عبادة الله والتوبة إليه	308
07-06	علم الله وقدرته في تدبير شؤون خلقه	315
11-08	موقف الإنسان من النعماء والضّرّاء	320
14-12	ضيق صدر الرّسول بأقوال المشركين، وتحدّيهم بالقرآن	325
16-15	جزاء من كان عمله للدنيا وحدها	329
17	الموازنة بين من يهتدي بالقرآن ومن يكفر به	333
24-18	جزاء المؤمنين والكافرين، ومثل الفريقين	337
31-25	قصّة نوح عليه السلام، ودعوته لقومه	343
35-32	التحدّي بعد الجدل، واستعجال العذاب	354
41-36	إيئاس نوح من قومه، وأمره بصنع السفينة، وإهلاك المكذّبين	357
49-42	انتهاء الطوفان، ونجاة نوح، والعبرة من ذلك	362

60-50	قصّة هود عليه السلام	371
68-61	قصّة صالح عليه السلام مع قومه ثمود	380
76-69	قصّة إبراهيم عليه السلام، وبشارته بإسحاق ويعقوب	387
83-77	قوم لوط، وعذاب الخسف	395
95-84	قصّة شعيب عليه السلام مع قومه	401
99-96	موقف فرعون وملإه من دعوة موسى عليه السلام	411
102-100	العبرة العامة في إهلاك الأمم الظالمة	416
109-103	العبرة من عذاب الدنيا لعذاب الآخرة	418
111-110	التذكير بعاقبة اختلاف أهل الكتاب في التوراة	425
113-112	الحضّ بالتمسّك بالكتاب على وجه قويم	427
115-114	الصّلاة والصّبر هما عدّة الاستقامة	430
119-116	إهلاك الأمم باتّباع المترفين، وانعدام الناهين عن الفساد	434
123-120	فائدة ذكر قصص الأنبياء، والأمر بعبادة الله والتوكل عليه	438

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الصّفحة
أتبع السّيئة الحسنة تمحها	432
أشترط لربّي أن تعبدوه	126
اطلبوا العلم ولو بالصين	147
اقرأ القرآن	241
أمّا هذا فقد صدق	140
أن تعبد الله كأنك تراه	206
إنّ الله لا ينظر إلى صوركم	333
إنّ الله لم يفرض الزكاة إلاّ ليطيب	08
إنّ من عباد الله عبادا	252
انطلقوا إلى هذه القرية	121
إنّما الأعمال بالنّيات	331
إنّي خيّرت فاخترت	85
وأهلها ينصف بعضهم بعضا	436
آية المنافق ثلاث	74
تبّا للذهب والفضّة	08
الدّين النّصيحة	93
والذي نفسي بيده	336
الصّدقة تحلّ للغنيّ الغني	48

سأستغفر لكم 78

شيبتني هود وأخواتها 428-306

الصلوات الخمس والجمع 433

كان الله وما كان معه شيء 318

لعلّ الله اطّلع على أهل بدر 137

لقد خلّفتم بالمدينة أقواما 94

لم أؤمر بأن آخذ من أموالكم 112

لن يدخل أحد الجنة عمله 423

الله الله في النساء 47

اللهم صلّ على آل ابن أبي أوفى 105

اللهم فقهه في الدين 148

لو تعلمون ما أعلم 81

لا أشكّ ولا أسأل 287

لا تجالسوهم ولا تكلموهم 98

لا تحلّ لنا الصدقة 44

لا تكلموا أحدا ممن تخلّف 17

لا يقل أحدكم: أطعم ربك 47

لا تنزع الرحمة إلاّ من شقي 241

ما تقول في مجاهدة بني الأصفر 31

ما من ذنب أحدر أن يعجّل 198

ما من يوم تطلع فيه الشمس 204

المؤمن بخير على كل حال........ 128
من أراد الله به خيرا جعل غناه في نفسه 37
من أراد الله به خيرا يفقهه في الدين........ 147
من حاول شيئا بمعصية الله 405
من سكن البادية جفا........ 102
من عادى لي وليا 252
من قال إذا أصبح 157
هذا أثنيتم عليه خيرا........ 115
هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم 47
هو الذي لا يؤبه به فيعطى 43
هي لمن عمل بها من أمتي........ 432
يا رسول الله، من أولياء الله؟ 252
يا معشر الأنصار، إنّ الله أثنى عليكم 122

فهرس الآثار

طرف الأثر	الصّفحة
الاستواء معلوم والكيف مجهول (مالك بن أنس)................	116
إنّ هودا أول من نطق العربية (ابن عباس)......................	373
انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط (ابن عباس)..................	397
إنهم اتخذوا صنما يقال له " الهتار" (ابن عباس)	373
إنهم ثمانون ما بين الرجال والنساء (ابن عباس)	361
﴿بقيت الله﴾: رزق الله (ابن عباس)...........................	402
جعل الله الدين بين لائين (الحسن البصري)	429
جهاد الكفار بالسيف (ابن عباس).............................	70
فريقا يرحم فلا يختلف (ابن عباس)...........................	438
كانوا اثني عشر رجلا (ابن عباس)	119
لفظ الذرية يعبر به عن القوم (ابن عباس)	273
لما نزلت: ﴿يا أيها النبيّ جاهد الكفار﴾ (ابن مسعود)	70
ما نزل على رسول الله آية هي أشد (ابن عباس)...............	428
المراد بهم قريظة وبنو النظير وبنو قينقاع (ابن عباس)	286
هو المال الذي لا تؤدى منه الزكاة (ابن عمر)	07

فهرس الأبيات الشّعرية

صدر البيت	الصّفحة
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم	45
إذا رمت أن تلقى من النّاس حرمة..............................	72
ألا إنّما الدنيا نضارة أيكة	203
إنّ حزنا في ساعة الموت	230
وإنّي لآتي العروس عند طهورها.................................	393
وتجنّدي للشّاميين أريهم	33
جرى قلم القضاء بما يكون..	318
جنون منك أن تسعى لرزق	318
حسن الحضارة مجلوب بتطريّة....................................	102
خلق الله للحروب رجالاً	24
دع المكارم لا ترحل لبغيتها......................................	84-28
والسعي في الرزق والأرزاق قد قسمت	318
فالعلم إن لم تكتنفه شمائل..	243
وعين الرّضا عن كلّ عيب كليلة..................................	52
كأنّما هو في حلّ ومرتحل...	318
وقيّدت نفسي في ذُراك محبّة	45
وفي كلّ شيء له آية	296
ولله في كل تحركة..	296

لنا قبلة الشمس عند البزوغ........................	102
والمال إن لم تدخره محصنا	243
لا تحسبن العلم ينفع وحده........................	243
لا تسأل المرء عن خلائقه	207
فلا تكتحل عيناك عنها بعبرة........................	203
فالناس هذا حظه مال........................	243
ونحن الرياحين من ء العضاء	102
هي الدار ما الآمال إلاّ ودائع........................	203

تعريف مختصر بالمؤلف

هو محمد بن ابراهيم سعيد المعروف بـ(كعباش)، من مواليد بلدية العطف ولاية غرداية، من الجمهورية الجزائرية، وآل سعيد فرع أصيل من عشيرة أولاد بكّة في بلدة العطف(تاجنينت).

أبصر نور الحياة خلال 1929م في حضن أبوين كريمين:سعيد ابراهيم بن باحمد، وهون شيخة بنت الحاج محمد. تركه والده فقيراً يتيماً لا يزيد عمره عن سنتين، وليس معه إلا أختان، توفّيت إحداهما فأصبح وحيد أمّه وقرّة عين لها، فاعتنت بتربيته على حبّ الله ورسوله وعلى حفظ كتاب الله في سنّ مبكّرة، وقد وهبه الله ذاكرة قويّة وذكاءً لامعاً، ولم يكن كتّاب قريته ليُقْنع طموحه في التّعلم، فارتحل إلى معهد القرارة عند الإمام الشيخ بيّوض الحاج ابراهيم بن عمر، ثم إلى تونس الخضراء حيث درس العلوم العربية والشرعية في الجامع الزيتوني ودرس العلوم التطبيقية في المعهد الخلدوني.

بدأ العمل في مجال التربية والتعليم أستاذاً ومديراً في القطاع الدّيني الحرّ في فترة الإستعمار، ثم في القطاع العمومي بعد الإستقلال الوطني حتى تقاعده عن العمل سنة 1990م.

انتسب إلى الجامعة الجزائرية في أوائل السبعينيات فحصل على شهادة الليسانس في الأدب العربي، وانخرط عضوا رسميّا في حلقة العزابة للمسجد الجامع بالعطف في سنة 1958م، ثم عيّنته الحلقة إماماً ومرشداً في سنة 1970م، وهو ما يزال يقوم بمهمّته النّبيلة في الإصلاح الديني والاجتماعي نصحاً وإرشاداً وتحليةً لمعاني كتاب الله وسنّة رسوله على منبر المسجد، بعد أن حدا بصفوف الأجيال على مقاعد الدّراسة لما يقرب من أربعين سنة في مسيرة

مهنية متواصلة لم تنقطع بفترة مرض أو انحراف عن الخط لوجهة أخرى، وذلك بفضل الله تعالى.

وقد أسهم المؤلف بقسط وافر من التّضحية والجهد في صفوف جبهة التحرير الوطني ويتشرّف بعضوية منظمة المجاهدين دون منّ ولا غرور، وهو متزوّج وأب لتسعة أولاد، وفّقه الله تعالى إلى مواصلة مسيرته في نصرة دينه وخدمة كتابه، وجعل عمله خالصاً مخلصاً لوجهه الكريم، آمين.

- **الجزء الأول**: من بداية سورة الفاتحة إلى الآية **203** من سورة البقرة.
- **الجزء الثاني**: من الآية **204** من سورة البقرة إلى الآية **175** من سورة آل عمران.
- **الجزء الثالث**: من الآية **176** من سورة آل عمران إلى الآية **26** من سورة المائدة.
- **الجزء الرابع**: من الآية **27** من سورة المائدة، إلى آخر سورة الأنعام.
- **الجزء الخامس**: من بداية سورة الأعراف، إلى الآية **33** من سورة التّوبة.
- **الجزء السادس**: من الآية **34** من سورة التوبة، إلى آخر سورة هود ﷺ.

أيها الأخ المسلم :

لاشك أنك تتعرض لنفحات الرحمن وأنت تناجيه في صلاتك، أو تهيم في جلاله وأنت في خلواتك، أو تتلو كتابه في تدبر وإمعان، فتزيد إيمانا على إيمـــان . . .

لقد من الله علي بتلك النفحات، وأنا أرتـع في رياض كتابه، وأستجلي مكنونات أسراره وعجائبه تحقيقا وتسجيلا على صفحات الدفتر ووعظا وإرشادا على خشبات المنبر، فها أنذا أهديكها "أيها الأخ المسلم" خالصة نقية، وأنت الأخ الوفي، فتقبل مني هذه الهدية .

المؤلف

ردمك: I.S.B.N: 978-9961-787-93-9-